التفسير الثمين

للعلامة العثيمين

تفسير سورة البقرة

اعتنى به

أشرف بن كمال








بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَفْسِيرُ
سُورَةِ ٱلْبَقَرَةِ

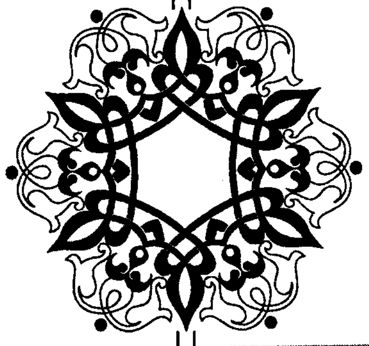
بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ



ALTABARI'S LIBERARY

سنة الطبع :	١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م
رقم الإيداع :	١٥٣٦٥ / ٢٠٠٨
رقم الطبعة :	الأولى





جمهورية مصر العربية - القاهرة - عين شمس

١٤ شارع ١٣٦ من شارع مسجد الوطنية - خلف سنترال النزهة

تليفون محمول: ٠١٦١٦٦٣٣٣٤ - ٠١٠٦٦٨١٠٧٩ - ٠١٦٧٨٨٨٧٦٣

tabari24@gmail.com

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخاتم رسله وخليله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمدٍ ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد؛ فقد مَنَّ الله علينا وشرَّفنا بإنجاز هذا المشروع العلمي المبارك والذي سميناه: التفسير الثمين للعلامة العثيمين وهو تفسير القرآن الكريم؛ وهو خير عمل يتشرف المرء بخدمته ألا وهو تفسير كتاب الله عز وجل، وكان من نعمة الله علينا أن وفَّق لنا تفسير هذا العالم الجليل فضيلة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ؛ والذي وَضَعَ فيه خلاصة علمه رَحِمَهُ اللهُ ؛ فوائد فقهية، أصولية، حديثية، لغوية، عقدية. وقد أوضح كثيرًا من المخالفات العقدية التي يقع فيها كثير من المفسرين السابقين، وخاصة صاحبي تفسير الجلالين، وقد علق عليه رحمه الله واستدرك على مؤلفيه ما قد وقَعَا فيه من أخطاء.

هذا، ونسأل الله تعالى أن يتقبل منا هذا العمل وأن يثيبنا عليه خير الجزاء، وكلَّ مَنْ أسهم فيه.

وصلِّ اللهم على نبينا محمد وعلى آله وسلم.

وكتبه

أشرف بن كمال

أهم مميزات التفسير الثمين للعثيمين

أولًا: إن اسم الكتاب يدل على ما فيه من أفانين العلوم الشرعية والعربية.

ثانيًا: امتاز هذا التفسير بالشمول في عرض المادة العلمية بأسلوب يُخاطب به طالب العلم قبل المثقف المتوسط والعادي.

ثالثًا: يعتبر هذا التفسير جامعًا لكل الأنواع التي فُسر بها كتاب الله المجيد ـ وهي كالآتي:

١- تفسير القرآن بالقرآن:

* **والدليل:** عند تفسير الشيخ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢]

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي لا معبود بحقٍّ إِلَّا هو.

فـ (إله): اسم لا النافية للجنس، وخبرها محذوف، تقديره: حق، وهناك آلهة باطلة ولكنها آلهة وُضِعَت عليها الأسماء بدون حق، كما قال الله تعالى: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [النجم:١٩- ٢٣]. وبهذا التقدير للخبر في ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، يزول الإشكال، وهو أنه كيف يُنفى الإله في مثل هذه الجملة، ويُثْبتُ في مثل قوله: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ [هود:١٠١]؟.

والجمع بينهما: أن تلك الآلهة باطلة، والإله في قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إله حق، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

وقوله: ﴿هُوَ﴾، (هو) ضمير وليس اسمًا لله تعالى، بخلاف قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩]. فلفظ ﴿ٱللَّهُ﴾ هنا عَلَم.

٢- تفسير القرآن بالسنة النبوية:

* **والدليل:** قال الشيخ عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٦].

قال: إذا كان الإنسان يسأل نفسه بما فيه الخير، فإن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أولى به من نفسه.

ويشمل عدة وجوه:

الوجه الأول: أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالنسبة للمؤمنين، أبلغ من أنفسهم في مراعاة مصالحهم وما ينفعهم، وفي دفع الضرر عنهم ولهذا قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ «**أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا فَعَلَيّ**»[1] هذه من جملة قوله الداخلة في قوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

ثانيًا:النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، في تقديمه على أنفسهم، ولهذا لا يتم الإيمان حتى يكون النبيُّ ﷺ أحب إليك من نفسك، كما قال عمر:«**وَالله يَا رَسُولَ الله إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ: وَمِنْ نَفْسِكَ يَا عُمَر، قَالَ: وَمِنْ نَفْسِي، قَالَ الآنَ يَا عُمَر**»[2]، فيجب على كل مؤمن أن يحب النبي ﷺ أكثر من محبته لنفسه.

٣- تفسير القرآن بما ورد عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين.

* **والدليل: أولًا: ما ورد عن الصحابة:** فعند تفسير قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر:١ ـ ٣] يقول العلامة ابن عثيمين بعدما عرض تفسير السورة بما يتفق مع قواعد التفسير:

[لكن السورة لها مغزى عظيم لا يتفطن له إلا الأذكياء، ولهذا لما سمع عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أن الناس انتقدوه في كونه يُدني عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مع صغر سنه ولا يدني أمثاله من شباب المسلمين، وعمر ـ رضي الله عنه ـ من أعدل الخلفاء، أراد أن يبين للناس أنه لم يحابِ ابن عباس في شيء، فجمع كبار المهاجرين والأنصار في يوم من الأيام ومعهم عبدالله بن عباس وقال لهم: ما تقولون في هذه السورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ حتى ختم السورة ففسروها بحسب ما يظهر فقط، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، ولم يقل بعضهم شيئًا. فقال: ما تقول ياابن عباس قال: يا أمير المؤمنين هو أَجَلُ رسول الله ﷺ، أَعْلَمَهُ الله له: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ فتح مكة فذلك علامة أجلك، ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ فقال عمر: «والله ما أعلم منها إلا ما تعلم»].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٣٧١)، و مسلم (١٦١٩).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٦٣٢)، و أحمد في «مسنده» (١٧٥٨٦).

ثانيًا: ما ورد عن التابعين في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ [البقرة: ١]: **قال الشيخ:** [وأصح الأقوال فيها القول الثاني(١)؛ وهو: أنها حروف هجائية ليس لها معنًى على الإطلاق؛ وهذا مروي عن مجاهد].

٤- تفسير القرآن باللغة- أي بمطلق اللغة-:

فالشيخ يأتي بالكلمة ويحللها صرفيًّا ونحويًّا ودلاليًّا، مع ذِكْر الشاهد الشعري، إذا اقتضى السياق ذلك، ويزين ذلك بذِكْر أبيات في القواعد من ألفية ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ أو غيره.

* **الدليل:** قوله ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[النساء:٦٩] .

حيث قال العلامة العثيمين: (من) هذه شرطية، والفعل بعدها مجزوم بها، ودليل الجزم حذف الياء، وأصل «يطع»: يطيع، فإذا قال قائل: لماذا حذفت الياء ؟ قلنا: لأنه لما جزم الفعل صار ساكنًا، والياء ساكنة، والقاعدة: أنه إذا اجتمع ساكنان، فإن كان الأول حرفًا صحيحًا كُسِرَ، وإن كان حرف علة حُذِفَ، وفي هذا يقول ابن مالك:

إنْ سَاكِنَانِ التَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ ... وَإِنْ يَكُنْ لَيِنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقْ

(ليِنًا) يعني:حرف علة، (فحذفه استحق) يعني: فاحذفه، هنا نقول: حذفت الياء؛ لأنها حرف لين، وبعدها ساكن فوجب حذفها، فإن قال قائل: ما بعدها ليس بساكن بل هو مكسور ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾، فالجواب أن هذه الكسرة عارضة لالتقاء الساكنين.

وجواب (مَنْ) جملةُ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾، وهنا نسأل لماذا اقترنت الفاء بالجواب؟

لأن جواب الشرط جملة اسمية، وإذا كان جملة اسمية فإنه يجب اقترانه بالفاء، وفي وجوب اقتران جواب الشرط بالفاء قال الشاعر:

اسميةٌ طلبيَّة وبِجَامِدِ ... وَبِمَا وَقَدْ وَلَنْ وبِالتَّنْفِيسِ

---

(١) **قال الشيخ:** هذه الحروف الهجائية اختلف العلماء فيها، وفي الحكمة منها على أقوال كثيرة يمكن حصرها في أربعة أقوال:

القول الأول: أن لها معنى؛ واختلف أصحاب هذا القول في تعيينه: هل هو اسم لله عزَّ وجلَّ؛ أو اسم للسورة؛ أو أنه إشارة إلى مدة هذه الأمة؛ أو نحو ذلك؟

القول الثاني: هي حروف هجائية ليس لها معنًى إطلاقًا.

القول الثالث: لها معنى الله أعلم به؛ فنجزم بأن لها معنىً؛ ولكن الله أعلم به؛ لأنهم يقولون: إن القرآن لا يمكن أن ينزل إلا بمعنى.

القول الرابع: التوقف، وألا نزيد على تلاوتها؛ ونقول: الله أعلم: أَلَها معنى، أم لا؟ وإذا كان لها معنى فلا ندري ما هو.

فهنا سبعة مواضع إذا وقعت جوابًا للشرط اقترنت بالفاء.

* وهذا الدليل على تفسيره بالقواعد النحوية مع ذكر شاهدها من منظومات القواعد.

أما الدليل على تفسيره اللغوي المعجمي ففي قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ [ص:٩].

* **يقول الشيخ عند تفسيره لهذه الآية: (العزيز:** يقول المؤلف[1]: [إنه الغالب]، وهذا أحد معانيه، ولكن اللفظ يشتمل على معانٍ أكثر، فالعزيز يدل على ثلاثة أنواع من العزة: عزة القدر، وعزة الامتناع، وعزة القهر، فعزة الامتناع: تعني امتناع الله سبحانه وتعالى عن كل نقص وعيب، فهو عزيز يمتنع عليه كل نقص وعيب.

وعزة القدر: تعني عزة الشرف والسيادة، فالسيادة المطلقة لله عزَّ وجلَّ، والعزة المطلقة لله عزَّ وجلَّ، يقول تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]

والثالث عزة القهر: وهي عزة الغلبة، أي: أنه غالب لكل أحد، فعزة القهر تعني عزة الغلبة وأنه غالب لكل أحد، ومن أشعار الجاهلية:

أيـــن المفـــرُ والإلـــه الطالـــبُ والأشرمُ المغلـــوبُ لـــيس الغالـــبَ

فإذًا يكون تفسير المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ للعزيز بالغالب تفسيرٌ للفظ ببعض المعاني، وهو تفسير قاصر).

رابعًا: من مميزات هذا التفسير أن الشيخ يعتني - أحيانًا - بذكر أسباب النزول لما لذلك من فائدة فهم الآية على حسب ما نزلت بسببه.

* **والدليل**: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥].

* **قال الشيخ العثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية: أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله إن الله تعالى إذا تكلم إنما يتكلم عن الرجال ولا يذكر النساء.

فأنزل الله هذه الآية.

خامسًا: تبدو في هذا التفسير غزارة الناحية العلمية للعلامة العثيمين؛ وإحاطته بآراء العلماء في كافة القضايا التي يتعرض لها ويناقشها. ويتعرض لأقوال العلماء ثم

---

(١) صاحب تفسير الجلالين.

يرجح منها ما يراه صوابًا، فهو إن أيد قولًا فبالدليل، وإن ردَّ آخر فبالدليل أيضًا.

* **والدليل:** قوله تعالى في سورة الروم: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الروم:٤٥].

* عند حديثه رَحِمَهُ اللهُ عن الجزاء على العمل الصالح قال: [والإنسان الذي عنده إيمان بالله سبحانه وتعالى، ولكنه لم يعمل عملًا صالحًا يمكن أن يُجزى إلا في حالةٍ واحدة فقط وهي الصلاة، فإنه إذا لم يعملها فإنه لا ينفعه الإيمان؛ لأنه قد دلت الأدلة على أن هذا العمل وإن كان عملًا بدنيًّا لكنه يكفر الإنسان بتركه كفرًا مخرجًا عن الملة، أما غير الصلاة من الأعمال فقد قال عبد الله بن شقيق: كان أصحاب النبي ﷺ لا يرون شيئًا تركه كفر إلا الصلاة، يعني: لو لم يزكِّ فإنه لا يخرج من الإيمان، ولو لم يصم فإنه لا يخرج من الإيمان، ولو لم يحج فإنه لا يخرج من الإيمان، وهذا هو الصحيح، وعن الإمام أحمد رواية أن جميع أركان الإسلام إذا تركها الإنسان متهاونًا فهو كافر، فإذا لم يزكِّ فهو كافر، وإذا لم يصم فهو كافر، وإذا لم يحج فهو كافر، يقول: لأن ركن الشيء عليه اعتماد الشيء، فإذا لم يوجد الركن ما قام الشيء، وهذا لا شك أن له وجهًا، لكن الأدلة تمنع من القول بهذا، فإن حديث أبي هريرة في الصحيح فيمن لا يؤدي زكاته ذكر النبي ﷺ عقوبته ثم قال: «**ثُمَّ يَرَى سَبِيْلَهُ إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ**» فقوله: «**يَرَى سَبِيْلَهُ إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ**»، يدل على أنه لا يكفر بمنع الزكاة؛ لأنه لو كان يكفر بذلك ما صار له سبيل إلى الجنة، فإذا لم يكفر بترك الزكاة فما دونها من باب أولى، ولا شك أن أركان الإسلام التي دون الزكاة أنها دونها، فالصيام دون الزكاة والحج دون الزكاة.

فإن قال قائل: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن ظاهره من كفر فلم يحج، فإن الله غني عن العالمين؟

الجواب: أن يقال: المراد بالكفر هنا: سوى الكفر الأكبر، يعني: كفر دون كفر، ولهذا ما قال: ومن لم يحج فهو الكافر، أو وترك الحج هو الكفر، كما قال في الصلاة، وكفر فعل، والفعل يدل على الإطلاق، ولا يدل على العموم، فهذا الجواب عن هذه الآية، والذين قالوا: إنه يكفر بترك الحج احتجوا بهذه الآية].

سابعًا: ومن مميزاته: الاعتناء بالقراءات القرآنية الصحيحة لا الشاذة ويكون ذلك إما بتتبع الشيخ لما ورد في الجلالين، أو باستقلاله هو رَحِمَهُ اللهُ :

* **والدليل على ما تتبع فيه صاحبي تفسير الجلالين:** قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ

ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب:٣٠].

قال بعد ذكر ما ذكره الجلالين: فقوله: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ﴾ فيها إذن ثلاث قراءات: [يُضَاعَفْ – يُضَعَّفْ – نُضَعِّفْ] فعلى القراءتين الأوليين يكون العذاب بالرفع ﴿يُضَٰعَفۡ﴾ أو ﴿يُضعَّفْ﴾، وعلى القراءة الثالثة ﴿نُضعِّف﴾ يكون العذاب بالنصب على أنه مفعول به.

* **أما الدليل على استقلاله هو رحمة الله عليه بذكر القراءات التي في الآية ففي مثل قوله تعالى:** ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥ﴾ [الأنعام:١٦].

* **قال الشيخ:** [قوله: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ﴾ فيها أيضًا قراءتان: ﴿من يَصْرِف﴾، و﴿من يُصرف﴾.

وقوله: ﴿عَنۡهُ﴾ يعني عنه العذاب، ﴿فَقَدۡ رَحِمَهُۥ﴾ أي: رحمه الله عز وجل، والضمير في قوله: ﴿رَحِمَهُۥ﴾ قد يقول قائل: كيف نعرف أنه عاد إلى الله عز وجل؟ فيقال: لأنه تقدم ذكره ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ ﴿مَنْ يَصْرِفْ عنه﴾. يعني: ربي هذا العذاب ﴿فَقَدۡ رَحِمَهُۥ﴾، أو يُصرف عنه هذا العذاب فقد رحمه أي: ربي].

ثامنًا: يُعطي هذا التفسير صورة صحيحة جدًّا للعقيدة السلفية المعتدلة المتوسطة، ففيه يُبين الشيخ الآيات الخاصة بأسماء الله وصفاته بفهم لا يُخالف فيه ما كان عليه سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان.

* **والدليل:** عند حديثه عن إثبات الوجه الحقيقي لله في قوله تعالى: ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥].

* **قال العلامة العثيمين:** [قوله تعالى: ﴿تُوَلُّواْ﴾ أي: تتجهوا؛ ﴿فَثَمَّ﴾ أي: فهناك؛ والإشارة: إلى الجهة التي تولوا إليها؛ و﴿وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾: اختلف فيه المفسرون من السلف والخلف، فقال بعضهم: المراد به: وجه الله الحقيقي؛ وقال بعضهم: المراد به الجهة: ﴿فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾ يعني: في المكان الذي اتجهتم إليه جهة الله عز وجل؛ وذلك؛ لأن الله محيط بكل شيء؛ ولكن الراجح: أن المراد به الوجه الحقيقي؛ لأن ذلك هو الأصل؛ وليس هناك ما يمنعه؛ وقد أخبر النبي ﷺ «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى قِبَلَ وَجْه المُصَلِي**»[1]؛ والمصلُّون حسب مكانهم يتجهون؛ فأهل اليمن يتجهون إلى الشمال؛ وأهل الشام إلى الجنوب؛ وأهل المشرق إلى المغرب؛ وأهل المغرب إلى الشرق؛ وكل يتجه جهة؛ لكن الاتجاه الذي يجمعهم الكعبة؛ وكل يتجه إلى وجه الله؛ وعلى هذا يكون معنى الآية: أنكم مهما توجهتم في صلاتكم

---

(١) وذلك للحديث الذى رواه البخاري في «صحيحه» (٣٩٧): (عن أنس: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى نُخَامَةً فِي القِبْلَةِ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى رُئِيَ فِي وَجْهِهِ فَقَامَ فَحَكَّهُ بِيَدِهِ فَقَالَ: «إِنَّ أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه أو إن ربه بينه وبين القبلة فلا يبزقن أحدكم قبل قبلته ولكن عن يساره أو تحت قدميه». ثم أخذ طرف ردائه فبصق فيه ثم رد بعضه على بعض فقال (أو يفعل هكذا).

فإنكم تتجهون إلى الله سواء إلى المشرق، أو إلى المغرب، أو إلى الشمال، أو إلى الجنوب].

تاسعًا: يمتاز هذا السفر الجليل بأنه يعطي ردودًا قرآنية علمية على أهل البدع والأهواء من المخالفين لأهل السنة والجماعة كالمعتزلة والأشاعرة والجبرية وغيرهم، وذلك باستنباط جيدٍ وكافٍ من الآيات القرآنية يفحم المخالف ويقوى إيمان صاحب العقيدة الصحيحة.

* **الدليل:** فالجبرية مثلًا ينفون الإرادة عن الإنسان فاستنتج الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩].

أن الإنسان له إرادة لقوله: ﴿يَكۡتُمُونَ﴾.

فقال في الفوائد: [**ومنها:** الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿يَكۡتُمُونَ﴾؛ والكاتم مريد للكتم].

* وأيضًا بيَّن في هذه الآية أن فيها ردًّا على أهل التأويل من الأشاعرة وغيرهم.

فقال أيضًا في الفوائد: [**ومن فوائد الآية:** الرد على أهل التحريف الذين يُسمون أنفسهم بأهل التأويل؛ لأن لازم طريقهم ألا يكون القرآن بيانًا للناس؛ لأن الله أثبت لنفسه في القرآن صفات ذاتية وفعلية؛ فإذا صرفت عن ظاهرها صار القرآن غير بيان؛ ويكون الله سبحانه وتعالى ذكر شيئًا لا يريده؛ وهذا تعمية لا بيان؛ فيستفاد من هذه الآية: الرد على أهل التأويل؛ والحقيقة أنهم - كما قال شيخ الإسلام - أهل التحريف لا أهل التأويل؛ لأن التأويل منه حق ومنه باطل؛ لكن طريقهم باطل لا حق فيه.].

* **وأيضًا من ردوده على أهل التعطيل** أنه عند تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾ [البقرة:١٧٨]، ذكر في الفوائد إثبات صفة الرحمة التي ينكرها هؤلاء المُعطلة فقال: [**ومنها:** إثبات الرحمة لله؛ وهي رحمة حقيقية تستلزم حصول النعم واندفاع النقم؛ وأهل التعطيل يفسرونها بـ «**الإنعام**»: الذي هو مفعول الرب؛ أو بـ «**إرادة الإنعام**»؛ وينكرون حقيقة الرحمة؛ وقد ضلوا في ذلك: فإن الإنعام، أو إرادته من آثار الرحمة، وليسا إياها].

* وبهذه الصورة الطيبة يمضي الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره مُعلنًا لواء الحق – بالقرآن العظيم – وداحضًا أقوال أهل الباطل – بتفسيره الجليل – رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

عاشرًا: يبدو في هذا التفسير شيء واضح جدًّا، وهو التكرار فكلما جاء مُقتضٍ للتكرار أعاد الشيخ الكلام للفائدة والتذكر، فالتكرار كما أنه سمة في القرآن فهو ميزة في هذا التفسير.

* **والدليل:** عند تفسير الشيخ لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾

[آل عمران:١٣٤] قال:

* ولكن يُشترط في الأمرين أن يكون ذلك عن قدرة لا عن عجز، أما عن العجز فإنه مذمة، ولهذا قال الشاعر يذم قبيلته:

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي حَسَبٍ لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانَا

لماذا؟ لضعفهم وعجزهم ولهذا قال:

فَلَيْتَ لِي بِهِمْ قَوْمًا إِذَا رَكِبُوا شَنُّوا الْإِغَارَةَ فُرْسَانًا وَرُكْبَانَا

- وقد كرر الشيخ نفس الكلام عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠]، فقال: [وانتفاء الظلم عما يمكنه الظلم ولكنه عاجز، يعتبر ذمًّا، ومن ذلك قول الشاعر:

قُبَيِّلَةٌ لَا يَغْدِرُون بِذمةٍ وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

هل قوله: «لا يغدرون بذمة» يعني أنهم أوفياء بالذمم؟ وهل قوله: «ولا يظلمون الناس حبة خردل» أنهم ذوو عدل؟ لا، بل هذا تحقير لهم، فهم لا يستطيعون أن يغدروا، ولا يستطيعون أن يظلموا، وقرينة ذلك قوله (قبيلة)، فإنها للتصغير، والتصغير يدل على التحقير، ومنه قول الحماسي يهجو قومه:

وَلَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي حَسَبٍ لَيْسُوا مِنَ الشر فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً وَمِنْ إِسَاءَة أَهْلِ السُّوء إِحْسَانًا

هذا ظاهره المدح، ولكن المراد به: الذم، ولهذا قال:

فَلَيْتَ لي بهمُ قَومًا إِذَا رَكِبُوا شَنُّوا الإِغَارَةَ فُرْسَانًا وَرُكْبَانًا

ليت لي بهم: أي: بدلهم، فصار نفي الظلم عنهم وكونهم يجزون بالسوء مغفرة، وبالإساءة إحسانًا وذلك لعجزهم ليس لكمال أخلاقهم].

إذن الشيخ رَحِمَهُ اللهُ يكرر في المواضع التي تقتضي أن يُعيد الكلام نفسه ثانية، وأيضًا من أمثلة ذلك أنه يذكر التفسير الخاص بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) في العديد من السور فقد فسرها في الفاتحة ثم أعاده في الأنعام ويس وغيرهما.

* ويُعيد أحيانًا الأبيات الخاصة ببعض القواعد النحوية كقول ابن مالك:

إن ساكنان التقيا احذف ما سبق وإن يكن لينًا فحذفه استحق

- فقد ذكره في معظم السور.

* وغير ذلك من الأشياء التي يُكررها الشيخ تنبيهًا لطالب العلم، وحثًا على المراجعة والاستذكار.

حادي عشر: خلو هذا التفسير من الإسرائيليات والموضوعات التي تكثر غالبًا في كتب التفسير بالأثر.

* **والدليل:** أنه أبطل ما ذكره الجلالين عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب:٣٧].

قال المؤلف: [**فزوجها النبي ﷺ، لزيد، ثم وقع بصره عليها بعد حين، فبلغ في نفسه حبها، وفي نفس زيد كراهتها، ثم قال للنبي ﷺ، أريد فراقها، فقال: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ»** [1] **كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾**].

فقال رَحِمَهُ اللهُ : [هذا الذي ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللهُ ، ذُكر عن بعض المفسرين من السلف والخلف، لكنه كما قال ابن كثير: أقوال ينبغي أن يضرب الإنسان عنها صفحًا، لأنها أقوال باطلة، لا تليق بمقام النبي ﷺ، لأن القصة إذا قرأها الإنسان، يتصور أن النبي ﷺ كان عاشقًا من العشّاق، وما أشبه هذه القصة الباطلة بقصة داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ، التي ذكروا أن داودَ طلب من أحد جنوده أن يتزوج امراته، ولكنه أبى، فاحتال عليه بحيلة ـ انظر إلى الكذب ـ فما الحيلة؟ قال: نخرجه مع الجيش، لكي يقتل فأتزوج امرأته، هل هذا يمكن أن يقع من نبي من أنبياء الله؟! أبدًا، هذه لو قال قائل: إنها وقعت من أحد السوقة من الناس، لقيل: ما أظلم هذا الرجل، وما أجهله، فكيف بنبي من أنبياء الله!!

والنبي ﷺ، هل يمكن أن يتصور أحد أنه عشق هذه المرأة، لأن بعض الناس، حتى بعض المفسرين، ـ والعياذ بالله ـ، صار يتلفظ بهذا اللفظ، يقول:عشق المرأة، الرسول عشق زينب، ولكن هذا قول باطل].

ثاني عشر: التعرض للقضايا العصرية ومعالجة الشيخ لها رَحِمَهُ اللهُ في ثنايا تفسيره للآيات الخاصة بها.

* ومن ذلك هذه المستجدات التي ظهرت على الساحة الإسلامية مثل قضية تقديم النساء على

---

(١) متفق عليه : أخرجه البخاري (٧٤٢٠)، و مسلم (٨٦).

الرجال في الافتتاحات الخطابية وغيرها.

* **والدليل**: قال الشيخ عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ......﴾ [الأحزاب:٣٥].

* **ومن فوائد الآية الكريمة**: أنه ينبغي عند ذكر الرجال والنساء أن يقدَّم الرجال، كما في هذه الآية وغيرها من الآيات، وأما من تغرَّبوا، فصاروا يقدمون النساء على الرجال، هؤلاء ولاهم الله ما تولوا من مشابهة الكفار، وقلب الفطرة، وانتكاس الحال، أن يقدموا النساء على الرجال، عندما يقول ـ مثلًا ـ سيداته وساداته، سيداته يقدم النساء على الرجال، بل العجب من ذلك أنهم يسمون النساء سيدات، يقول: السيدة فلانة، والرجل ما يقال السيد فلان، من أين أخذوا ذلك؟ من الغرب الكفار، لأن الرجل في الحقيقة، هو السيد على المرأة، قال الله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥] ، أما المرأة، ما هي سيدة على الرجل أبدًا، لكن هؤلاء كما قلت: قلب الله فطرتهم، بسبب أنهم تابعوا أعداء الله ـ عز وجل ـ وكثير من المسلمين ـ مع الأسف الآن ـ لا يحسون بهذه المسائل، ولا يرونها شيئًا، سائرين مع العالم، حتى الألفاظ التي قد تكون محرمة، يسيرون فيها.

* وأيضًا قضايا الحدود وما أثير حولها من الشغب وأنها ظلم للإنسان إذا طبقت عليه.

مثل قطع يد السارق، وجلد أو رجم الزاني وغيرها من القضايا.

ثالث عشر: من أجلِّ مميزات هذا التفسير استدلال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالأحاديث الصحيحة غالبًا. وذلك مُتضح جليًّا عند ذكرنا لتفسيره القرآن بالسنة النبوية المطهرة.

* **والدليل على ذلك أيضًا**: قوله تعالى في سورة (ص): ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٧].

قال المؤلف – الجلالين – عند تفسيره لهذه الآية: [﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ أي: القوة في العبادة، كان يصوم يومًا ويُفطر يومًا، ويقوم نصف الليل، وينام ثُلثه، ويقوم سُدسه] هذا عكس ما جاء في الحديث: «كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ» (١) فالعبارة فيها انقلاب على المؤلف].

إذن نستنتج من هذا أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان إذا رأى دليلًا ضعيفًا مُفسرًا به الآية رده وذكر الدليل الصحيح في ذلك ، كما في الآية السابقة، والأدلة على هذا كثيرة جدًّا، أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يجنح إلى ما صح دليله ورجح مدلوله. والله أعلم.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩).

رابع عشر: يمتاز هذا التفسير أيضًا بأنه غني بالفوائد العلمية وهي مأخوذة من قواعد الشريعة وأصولها، يعرضها الشيخ مُرتبة حسب فقهه وتفسيره للآية ويوضح فيها الحُكْمَ والمعنى المقصود من هذه اللفظة أو تلك قطعيًّا مع إعطاء الاحتمالات التي قد ترد على هذه الآية أو اللفظة.

والشيخ رَحِمَهُ اللهُ يذكر في الآية الواحدة من الفوائد ما لا يقل عن ثلاث فوائد وقد يصل في بعض الآيات إلى ما يقارب الثلاثين فائدة ويزيد.

وعدد الفوائد التي يشتمل عليها هذا التفسير أكثر من [٢٥ ألف] فائدة.

خامس عشر: يمتاز هذا التفسير بوحدة الأسلوب، فالذي يقرأ التفسير كأنه يستمع إلى الشيخ وهو يتكلم، ويحس فيه بروح واحدة سارية في التفسير تجل عن النظير.

سادس عشر: خلو أسلوب الشيخ رَحِمَهُ اللهُ من الركاكة وكل ما يشين الخطاب العربي الأصيل، فضلًا عن السهولة؛ فالتفسير بحق يحتوي على مُعجم لغوي فريد في بابه لثقافة عالم جليل.

سابع عشر: اعتمد الشيخ عند تفسيره لبعض السور على تفسير الجلالين، وكان المنهج في ذلك أنه يأتي بتعليق المفسِّر على الآية ثم هو رَحِمَهُ اللهُ يُبدي رأيه على ذلك بالموافقة أو برد قوله بما يوافق صريح الكتاب من غير تأويل.

* وهذه السور مثل: النور - العنكبوت - الروم - الأحزاب - يس والصافات، وص وغيرها.

ثامن عشر: تأثره بشيخه المفسر العلامة السعدي ويظهر ذلك جليًا في ذكره للفوائد والاستنباطات.

تاسع عشر: انطباق شروط المفسر على العلامة العثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، وذلك من خلال ما يتضح أثناء التفسير من ذكره للقواعد العربية وأصول الفقه وعلوم الحديث، وأصول التفسير، وإحاطته بكافة علوم الشريعة الإسلامية، وكل ذلك يصبه صبًّا في قالب علمي[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) شروط المفسر انظر «أصول في التفسير» للعلامة العثيمين، وقد صدَّرنا بها هذا التفسير الجليل.

عملنا في الكتاب

تمثل عملنا في هذا المشروع المبارك في الآتي:

١- قمنا بجمع المادة العلمية من الاسطوانات الليزر وأشرطة الكاسيت وقمنا بنسخها ونقلها إلى مادة مكتوبة على الكمبيوتر.

٢- قمنا بمراجعة المادة العلمية مراجعة لغوية دقيقة، وإعادة صياغة بعض الجمل والتعبيرات للاختلاف بين طريقة الإلقاء والتدريس وطريقة الكتاب.

٣- قمنا بالعديد من تجارب الطبع؛ لضمان سلامة النص من التصحيف والتحريف.

٤- وضعنا كلام مؤلفي تفسير الجلالين[١] بين معقوفتين هكذا [....].

٥- قمنا بتخريج وعزو الآيات القرآنية.

٦- قمنا بتخريج وعزو الأحاديث النبوية مع نقل كلام الشيخ العلامة الألباني رحمه الله في الحكم عليها صحة وضعفًا.

٧- قمنا بوضع جملة: (قال الله تعالى) قبل كل مقطع يقوم بتفسيره الشيخ العلامة العثمين رحمه الله.

٨- قمنا بوضع مقطع الآيات الذي يفسره الشيخ رحمه الله في برواز مظلل؛ ليتميز.

٩- وضعنا كلمة التفسير بين شكلين زخرفيين قبل الشروع في ذكر كلام الشيخ رحمه الله تعالى.

١٠- قمنا بِرَقْم الفوائد التي يستخرها الشيخ رحمه الله من الآيات المفسرة.

١١- قمنا بإعادة سماع الاسطوانات والأشرطة مرة أخرى وقابلناها على التجارب التي روجعت.

١٢- قمنا بإعادة وزيادة المراجعات اللغوية ووضعنا علامات الترقيم بعد هذا السماع الثاني للاسطوانات والأشرطة.

١٣- قمنا بنقل كلام الشيخ رحمه الله على بعض الآيات التي لم يتعرض لها الشيخ بالتفسير في مشروعنا ـ فيما تحت أيدينا من مصادر ـ وذلك من خلال كلامه في مؤلفاته الأخرى وهي عدة مواضع؛ في سورة النور، وغيرها...

١٤- قمنا بإعادة ترتيب الفوائد في بعض المواضع؛ وذلك لأنها جاءت في مواضع من تفسير آيات أخرى؛ وليست هذه الفوائد خاصة بالآيات التي سيقت خلالها، وقد يرجع هذا للقائمين

---

(١) حيث قام فضيلة الشيخ رحمه الله بقراءة مواضع عديدة من تفسير الجلالين (جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلِّي) وشرحها والتعقيب عليها، فكأن تفسير الجلالين كان نواة لهذا العمل الضخم المبارك.

على تسجيل المادة العلمية، وقد وضعناها في موضعها الملائم لها والتي تتحدث عن الآيات الخاصة بها.

١٥- قمنا بالتنبيه على المواضع غير المسموعة، والتي لم نتمكن من سماعها من المصادر التي بين أيدينا وذلك في الحاشية.

١٦- قمنا بمقابلة نص تفسير الجلالين الذي علق عليه الشيخ رحمه الله على تفسير الجلالين.

١٧- قمنا بتقسيم الكتاب إلى أربعة عشر جزءًا؛ وذلك كما يلي:

الجزء الأول: يحتوي على المقدمة وكتاب «أصول في التفسير» للعثيمين وسورة الفاتحة وسورة البقرة.

الجزء الثاني: يحتوي على باقي سورة البقرة.

الجزء الثالث: يحتوي على سورة آل عمران.

الجزء الرابع: يحتوي على باقي سورة آل عمران.

الجزء الخامس: يحتوي على سورة النساء.

الجزء السادس: يحتوي على سورة المائدة.

الجزء السابع: يحتوي على سورة الأنعام ، وسورة الكهف، وسورة النور.

الجزء الثامن: يحتوي على سورة النمل، وسورة القصص.

الجزء التاسع: يحتوي على سورة العنكبوت وسورة الروم وسورة لقمان وسورة السجدة.

الجزء العاشر: يحتوي على سورة الأحزاب، وسورة سبأ.

الجزء الحادي عشر: يحتوي على سورة فاطر، وسورة يس والنصف الأول من سورة الصافات.

الجزء الثاني عشر: يحتوي على النصف الثاني من سورة الصافات وسورة ص وسورة الزمر.

الجزء الثالث عشر: يحتوي على سورة غافر وسورة فصلت وسورة الشورى.

الجزء الرابع عشر: ويحتوي على سورة الزخرف وسورة محمد وسورة الحجرات، وسور جزء الذاريات وعلى بعض سور جزء قد سمع وجزء تبارك وجزء عم.

١٨- قمنا بعمل ترجمة موجزة لفضيلة الشيخ العثيمين رحمه الله.

❊ ❊ ❊

المشاكل التي واجهتنا أثناء العمل

١ - تمييز كلام مؤلفي تفسير الجلالين رحمهما الله تعالى، ووضعه بين معقوفتين [....]؛ ليظهر للقارئ وليتميز.

٢ - صعوبة سماع بعض المادة العلمية (مادة الشريط أو الاسطوانة المُدمجة) لعدم وضوحها.

٣ - ذكر بعض فوائد الآيات متأخرة عن موضعها وذكرها في موضع آخر، فما كان منا إلا أن وضعناها في موضعها المناسب.

٤ - عدم وجود المادة العلمية الخاصة بتفسير بعض الآيات كما في سورة النور، وأواخر سورة الأحزاب.

٥- وهذه هي الآيات التي لم نضع لها تفسيرًا في هذا الكتاب إما لعدم وجودها في المادة المسموعة لدينا، أو لصعوبة سماعها؛ بعد إجراء كافة المحاولات لسماعها:

أ- آية رقم [١٢] سورة المائدة.

ب- الآيتان رقم [٢٣، ٢٤] سورة الأنعام.

جـ- الآيتان رقم [١٣، ١٤] سورة النور.

د- الآيات رقم [٢١-٢٤]، [٣٢، ٣٣]، [٥٩- ٦٤] سورة القصص.

هـ- الآيات رقم [١ - ٥] سورة لقمان.

و- الآيات رقم [٧٠- ٧٣] سورة الأحزاب.

أما سورة النمل ففيها إشكال وهو أنه قد توجد الفوائد للآية ولا نستطيع جمع مادة لتفسيرها.

فالآيات [١٥- ١٧] ليس لها تفسير ولكن الفوائد موجودة.

والآية [٢٣، ٢٤] كذلك.

وأيضًا الآيات [٢٨- ٣٧].

وأيضًا الآيات [٧١- ٧٣].

سورة الروم [٥٥-٦٠].

وهذه تعتبر من أهم المشاكل التي لم نستطع التغلب عليها أثناء عرض المادة العلمية.

ونسأل الله أن ييسر لنا الحصول على مصادر جيدة للمادة العلمية؛ لإثبات ما فاتنا.

وأن يتقبل منا هذا العمل المبارك.

❁ ❁ ❁

نبذة عن حياة الشيخ محمد بن صالح العثيمين[1]

*** اسمه ونسبه:**

هو أبو عبد الله، محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين المقبل الوهيبي التميمي.

*** مولده ونشأته:**

ولد الشيخ أبو عبد الله في مدينة عنيزة، إحدى مدن القصيم، عام ١٣٤٧هـ، في السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك، في عائلة معروفة بالدين والاستقامة؛ بل تتلمذ على بعض أفراد عائلته، أمثال جدّه من جهة أمه، الشيخ عبد الرحمن بن سليمان آل دامغ رَحِمَهُ اللَّهُ ؛ فقد قرأ عليه القرآن، فحفظه، ثم اتجه إلى طلب العلم، فتعلم الخط والحساب، وبعض فنون الآداب.

وكان الشيخ قد رُزق ذكاءً وزكاءً، وهمة عالية، وحرصًا على التحصيل العلمي في مزاحمته الركب لمجالس العلماء، وفي مقدمتهم الشيخ العلامة المُفسر الفقيه عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

وكان الشيخ عبد الرحمن السعدي قد أقام اثنين من طلابه لتعليم الصغار، وهما الشيخ علي الصالحي، والشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع، فقرأ الشيخ محمد بن صالح العثيمين عليهما (مختصر العقيدة الواسطية) للشيخ عبد الرحمن السعدي، و(منهاج السالكين في الفقه) للشيخ السعدي أيضًا، و(الآجرومية) و(الألفية) في النحو والصرف، وهكذا كانت نشأة الشيخ بين أحضان العلماء.

ولم يرحل الشيخ لطلب العلم إلَّا إلى الرياض، حين فُتحت المعاهد العلمية عام ١٣٧٢هـ فالتحق بها.

واستغل الشيخ وجوده في الرياض بالدراسة على الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، فقرأ عليه من صحيح البخاري، وبعض رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية، وبعض الكتب الفقهية. ويقول الشيخ أبو عبد الله العثيمين: «لقد تأثرت بالشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله من جهة العناية بالحديث، وتأثرت به من جهة الأخلاق أيضًا، وبسط نفسه للناس».

وقد عرض على الشيخ تولي القضاء من قبل مفتي المملكة العربية السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل شيخ، رَحِمَهُ اللَّهُ ، الذي ألحّ على فضيلته بتولي القضاء، بل وأصدر قراره بتعيينه رئيسًا للمحكمة الشرعية بالأحساء، فطلب منه الإعفاء، وبعد مراجعات واتصالات سمح بإعفائه من منصب القضاء.

*** مشايخه:**

استفاد الشيخ أبو عبد الله في طلبه للعلم من عدة شيوخ، بعضهم في مدينة عنيزة، وبعضهم في

---

(١) نقلًا عن كتاب «مذكرة فقه الشيخ العثيمين» ط. دار البصيرة.

الرياض عندما سكنها للدراسة النظامية، ومن الشيوخ الذين درس عليهم:

١ – **الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي**: المتوفى عام ١٣٨٦هـ، المفسر المشهور، صاحب التفسير المعروف بـ(تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) في ثمان مجلدات، وله مؤلفات كثيرة في الفقه وأصوله، وقواعده، وفي العقيدة، وغيرها من الكتب النافعة.

٢ – **الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز**: المفتي العام للمملكة العربية السعودية، ورئيس هيئة كبار العلماء. درس عليه عندما كان مواصلًا لدراسته النظامية في الرياض، فقرأ عليه من صحيح البخاري، وبعض كتب الفقه، والشيخ عبد العزيز من أبرز علماء هذه الأمة في هذا العصر.

٣ – **الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي**: المتوفى عام ١٣٩٣هـ، المفسِّر، واللغوي، صاحب التفسير المشهور والمعروف بـ(أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن). ويُعد من أبرز آثاره العلمية.

٤ – **الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع**، رَحِمَهُ اللَّهُ : فقد قرأ شيخنا عليه (مختصر العقيدة الواسطية)، للشيخ عبد الرحمن السعدي، و(منهاج السالكين) في الفقه للشيخ السعدي أيضًا، و(الآجرومية) و(الألفية) في النحو والصرف.

٥ – **الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عودان**، رَحِمَهُ اللَّهُ : قرأ شيخنا عليه بعض كتب الفقه، كما درس عليه الفرائض (علم المواريث).

٦ – **الشيخ عبد الرحمن بن سليمان آل دامغ**، رَحِمَهُ اللَّهُ : حيث قرأ شيخنا القرآن عليه حتى أتم حفظه، والشيخ عبد الرحمن الدامغ جد الشيخ من جهة أمه.

*** تلاميذه:**

لا يمكن حصر جميع من تتلمذ على الشيخ؛ لأنهم ازدحموا في مجلسه – لا سيما في السنوات الأخيرة – بما يزيد على الخمسمائة طالب في بعض الدروس، على اختلاف مستوياتهم.

*** زهده وورعه:**

الزهد، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، هو: «الزهد عما لا ينفع، إما لانتفاء نفعه، أو لكونه مرجوحًا؛ لأنه مفوت لما هو أنفع منه، أو محصل لما يربو ضرره على نفعه. وأما المنافع الخالصة أو الراجحة، فالزهد فيها حمق».

أما الورع فقال شيخ الإسلام: «هو الإمساك عما قد يضر، فتدخل فيه المحرمات والشبهات؛ لأنها قد تضر. فإنه من اتقى الشبهات، فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات، وقع في الحرام، كالراعي يحوم حول الحمى يوشك أن يواقعه».

وقد التزم الشيخ الزهد والورع من جميع جوانبه، فقد عرضت عليه المناصب، كتولي القضاء،

حيث أصدر مُفتي المملكة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، رَحِمَهُ اللهُ ، قرارًا يقضي بتعيين الشيخ رئيسًا لمحكمة الأحساء، وبعد مراجعات واتصالات وواسطات أُعفي من القضاء.

*** دقته في الأمور وتثبته فيها:**

إن دقة الشيخ وتثبته في الأمور نابع من الورع وإبراء الذمة في التوصل إلى موافقة الحق.

وربما فهم المقابل أن ذلك تعقيد للأمور وتضييق على المسلمين الذين يترددون إليه؛ لقضاء حوائجهم. ولا شك أن نظرتهم، إما أن تكون نابعة عن قصور في العلم؛ بسبب جهلهم بالحكم الشرعي، والحال الذي يتنزّل عليها ذلك الحكم، وإما أن تكون نظرتهم نابعة عن سوء في الفهم؛ بسبب عجزهم عن تصور تلك المسألة أو القضية المُعيّنة. فإذا كان الواجب على المسلم إحسان الظن بعامة المسلمين فكيف بعُلمائها، لا شك أن ذلك آكد وأوجب.

وهذه طبيعة وسجية عند الشيخ، رَحِمَهُ اللهُ ، ألا وهي الدقة والتثبت في الأمور يتعامل بها مع أخص المقربين إليه، كأن يتقدم إليه أحد طلابه المقربين إليه، أو أي شخص مُقرب إليه من غير طُلابه، ممن يثق بهم حين يطلبون منه قضاء دين عليهم مثلًا، فإنه لا يكتفي بمعرفته الخاصة بهم، فربما طلب منهم الدلائل والبينات من الوثائق الأصلية، التي تثبت حلول ذلك الدين، وعدم مقدرتهم على ديونهم، بل يُساهم بسداد بعض الدين، بل بالنسبة القليلة منه، وربما قضى ربع الدين أو ثلثه إذا اقتضى الأمر ذلك.

*** منهجه العلمي:**

لقد أوضح الشيخ رَحِمَهُ اللهُ منهجه، وصرح به مرات عديدة، أنه يسير على الطريقة التي انتهجها شيخه العلامة الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدي، يقول شيخنا أبو عبد الله: «لقد تأثرت كثيرًا بشيخي عبد الرحمن السعدي، في طريقة التدريس، وعرض العلم، وتقريبه للطلبة بالأمثلة والمعاني».

*** طبيعة الدرس عند الشيخ:**

إن طبيعة الدرس التي التزمها الشيخ، وسار عليها، واتخذها منهجًا له منذ توليه التدريس في الجامع الكبير خلفًا لشيخه منذ أكثر من خمسة وثلاثين سنة تكمن في نمط معين، يختلف عن الأساليب التي ينتهجها عامة العلماء في هذه البلاد.

وطريقة الشيخ أكثر نفعًا. هذا على وجه العموم؛ ذلك أن الشيخ يركز كثيرًا على حفظ المتون، ويُطالب التلميذ ويُتابعه على الحفظ في كل درس، بل إن الشيخ ينكر على من يحضر درسه ولا يلتزم الحفظ. وقد حفظنا على الشيخ كثيرًا من المتون المنثورة والمنظومة. والكتب التي حفظت وتحفظ في درس الشيخ منها:

١ – القرآن الكريم .

٢ – زاد المستقنع في فقه الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ .

٣ – بلوغ المرام من أدلة الأحكام، للحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ .
٤ – كتاب التوحيد، للشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ .
٥ – منظومة محمد السفاريني في العقيدة.
٦ – العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية.
٧ – منظومة البرهانية في علم المواريث.
٨ – ألفية ابن مالك في علم النحو والصرف. وغيرها.

وتقوم طبيعة الدرس عند الشيخ بمراجعة الباب أو الفصل بعد الانتهاء منه، والمراجعة تشمل مراجعة الحفظ، والمناقشة فيه، فلا ينتقل إلى الباب أو الفصل الذي بعده حتى يكون الطالب قد أتقن الباب أو الفصل الذي قبله.

ويحرص الشيخ على رفع الهمم وزرع الحرص في نفوس طلابه، وذلك بتكليفهم في تحرير بعض المسائل، أو ما يشكل عليهم في أثناء الدرس، سواء كان الإشكال من جهة اللغة، أو النحو، أو الفقه، أو الحديث أو غير ذلك، فيقوم الطالب بتحرير تلك المسألة، وقراءتها أمام الشيخ وطلابه، ويُناقش الطالب سواء من قبل الشيخ أو من قبل طلابه فيما يرد من الملاحظات، إن وجدت في بحثه حتى يخرج البحث في أحسن صورة وأبدعها.

*** آثاره العلمية:**

لقد صنف الشيخ، رَحِمَهُ اللهُ ، آثارًا علمية في مجالات شتى، من مسموع، أو مكتوب، في العقيدة، والفقه، والحديث، والأخلاق، والسلوك، والمعاملات، وغيرها، مما كان لها الأثر الكبير في استفادة الناس منها، سواء على مستوى عامة الناس، أو طلبة العلم. وكان الإقبال عليها شديدًا ومنقطع النظير، وما ذاك إلا لثقة الناس به؛ لما يلمسون في ذات الشيخ من الأهلية والكفاءة التامة التي ترشحه إلى إصدار الأحكام الشرعية، والتصدي للفتوى والتأليف.

*** ومن آثاره العلمية:**

١ – فتح رب البرية بتلخيص الحموية، وهو تلخيص لكتاب الحموية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، وهو أول كتاب للشيخ كتبه عام ١٣٨٠هـ.
٢ – مصطلح الحديث.
٣ – الأصول من علم الأصول.
٤ – رسالة في الوضوء والغسل والصلاة.
٥ – تسهيل الفرائض.
٦ – لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشادِ – تأليف موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي(ت ٦٢٠هـ).(قام الشيخ بالتعليق عليه).
٧ – شرح العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية.
٨ – عقيدة أهل السنة والجماعة.
٩ – القواعد المُثلى في صفات الله وأسمائه

الحُسنى.

١٠- رسالة في الصلاة والطهارة لأهل الأعذار.

١١ – سجود السهو في الصلاة.

١٢- تفسير آية الكرسي.

١٣- رسالة في المسح على الخفين.

١٤- أصول التفسير.

١٥- شرح أصول الإيمان.

١٦- شرح زاد المستقنع في فقه الإمام أحمد بن حنبل.

*** متابعة الشيخ لطلابه وحرصه عليهم:**

لقد اهتم الشيخ حفظه الله بطلابه، وحرص على تذليل الصعاب التي تواجههم في مسيرتهم العلمية، وذلك أنه خصص لهم سكنًا مجانيًا متوفرة فيه جميع سُبل الراحة، زيادة على ذلك أنه افتتح لهم مطعمًا داخل السكن، وفرّغ له عاملًا، يُعد لهم الطعام في الوجبات الثلاثة اليومية، كما هيأ لهم مكتبة حافلة بالمراجع، والكتب النادرة، والمخطوطات الأصلية، التي تصل إلى أكثر من سبعين مخطوطة أصلية، ومعها مكتبة سمعية من أشرطة لدروس الشيخ، وصالة للقراءة، وكل ذلك في السكن نفسه.

كما خصص لهم مكافآت مالية، وكتب مجانية يحتاجون إليها في أبحاثهم.

كما كان رجوع الشيخ عن رأيه واجتهاده إلى قول تلميذه لا يُعد عيبًا، بل هي منقبة عظيمة، يُشكر عليها.

كما كان يستعمل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أسلوبًا مثاليًا في تدريب طلابه على إلقاء الكلمات الوعظية والدروس العلمية، فيكلف الطلاب بإعداد كلمة، وإلقائها أمام الطلاب، بحضور الشيخ، ثم تُوجه الملاحظات من قبل الشيخ، أو الطلاب للطالب، ليُجيب الطالب عليها.

❁ ❁ ❁

منح الشيخ جائزة الملك فيصل العالمية

قررت لجنة الاختيار لجائزة الملك فيصل العالمية منح جائزة عام ١٤١٤هـ لخدمة الإسلام إلى فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، وذكرت لجنة الاختيار في حيثيات فوز الشيخ بالجائزة ما يلي:

أولًا: تحليه بأخلاق العلماء الفاضلة التي من أبرزها الورع والزهد ورحابة الصدر وقول الحق والعمل لمصلحة المسلمين، والنصح لخاصتهم وعامتهم.

ثانيًا: انتفاع الكثيرين بعلمه تدريسًا وإفتاءً وتأليفًا.

ثالثًا: إلقاؤه المحاضرات العامة النافعة في مختلف مناطق المملكة.

رابعًا: مشاركته المفيدة في مؤتمرات إسلامية كبيرة، واتباعه أسلوبًا متميزًا في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وتقديمه مثلًا حيًا لمنهج السلف الصالح فكرًا وسلوكًا.

❁ ❁ ❁

وفاته رَحِمَهُ اللهُ تعالى

رُزِئت الأمة الإسلامية جميعها قبيل مغرب يوم الأربعاء الخامس عشر من شهر شوال سنة ١٤٢١هـ بإعلان وفاة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين بمدينة جدة بالمملكة العربية السعودية، وأحس بوقع المصيبة كل بيت في كل مدينة وقرية وصار الناس يتبادلون التعازي في المساجد والأسواق والمجمعات وكل فرد يحس وكأن المصيبة مصيبته وحده.

وأخذ البعض يتأمل ويتساءل عن سر هذه العظمة والمكانة الكبيرة والمحبة العظيمة التي امتلكها ذلك الشيخ الجليل في قلوب الناس رجالًا ونساءً صغارًا وكبارًا امتلأت أعمدة الصحف والمجلات في الداخل والخارج شعرًا ونثرًا تعبر عن الأسى والحزن على فراق ذلك العالم الجليل فقيد البلاد والأمة الإسلامية - رَحِمَهُ اللهُ تعالى -.

وصلت الآلاف المؤلفة عليه في المسجد الحرام بعد صلاة العصر يوم الخميس السادس عشر من شهر شوال سنة ١٤٢١هـ وقامت بتشييع جثمانه إلى المقبرة في مشهدٍ عظيم لا يكاد يوصف ثم صلى عليه الآلاف والجموع الكثيرة التي لا يحصيها إلا باريها من الغد بعد صلاة الجمعة صلاة الغائب في جميع مدن المملكة وفي خارج المملكة، ودفن بمكة المكرمة رَحِمَهُ اللهُ رحمةً واسعة.

❀ ❀ ❀

شكر وتقدير

انطلاقًا من قول رسول الله ﷺ: «مَن لم يَشكرِ الناسَ لم يشكر الله» فإننا نتوجه بالشكر إلى فريق العمل؛ باحثين، لغويين، وكذلك القائمين على التنضيد بمكتبة الطبري والذي قام بإنجاز هذا المشروع العلمي المبارك.

ولا يفوتني أن أتوجه بالشكر الخاص للأخ الفاضل/ محمد إبراهيم إمام الباحث الشرعي الذي لم يدخر جهدًا في هذا العمل المبارك.

والله أسأل أن يتقبل منا عملنا وأن يدخره لنا يوم المعاد، وألا يخزنا أمام العباد، وأن يرفع درجاتنا يوم التناد، إنه خير مسئول وخير مأمول، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أصول في التفسير

المُقَدِّمَة

الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان وسلم تسليمًا، أما بعد:

فإن من المهم في كل فن أن يتعلم المرء من أصوله ما يكون عونًا له على فهمه وتخريجه على تلك الأصول، ليكون علمه مبنيًّا على أسس قوية ودعائمَ راسخةٍ، وقد قيل: مَنْ حُرِمَ الأصول حُرِمَ الوصول.

ومن أَجَلِّ فنون العلم - بل هو أجلها وأشرفها - علم التفسير الذي هو تبيين معاني كلام الله عز وجل، وقد وضع أهل العلم له أصولًا، كما وضعوا لعلم الحديث أصولًا، ولعلم الفقه أصولًا.

وقد كنت كتبت في هذا العلم ما تيسر لطلاب المعاهد العلمية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فطلب مني بعض الناس أن أُفردها في رسالة؛ ليكون ذلك أيسر وأجمع فأجبته إلى ذلك، وأسأل الله تعالى أن ينفع بها.

ويتلخص ذلك فيما يأتي :

* القرآن الكريم :

١ - متى نزل القرآن على النبي ﷺ؟، ومَنْ نزل به عليه من الملائكة؟

٢- أول ما نزل من القرآن.

٣- نزول القرآن على نوعين: سببي وابتدائي.

٤ - القرآن مكي ومدني، وبيان الحِكْمة من نزوله مفرَّقًا، وترتيب القرآن.

٥- كتابة القرآن وحفظه في عهد النبي ﷺ.

٦-جمع القرآن في عهد أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما .

*** التفسير:**

١-معنى التفسير - لغة واصطلاحًا -، وبيان حُكْمِه، والغرض منه.

٢- الواجبُ على المسلم في تفسير القرآن.

٣- المرجع في التفسير إلى ما يأتي :

أ-كلام الله تعالى؛ بحيث يفسر القرآن بالقرآن.

ب- سنة الرسول ﷺ؛ لأنه مُبَلِّغٌ عن الله تعالى، وهو أعلم الناس بمراد الله تعالى في كتاب الله.

ج - كلام الصحابة رضي الله عنهم لاسيما ذوو العلم منهم والعناية بالتفسير؛ لأن القرآن نزل بلغتهم وفي عصرهم.

د- كلام كبار التابعين الذين اعتنوا بأخذ التفسير عن الصحابة رضي الله عنهم .

هـ- ما تقتضيه الكلمات من المعاني الشرعية أو اللُّغوية حسب السياق، فإن اختلف الشرعي واللغوي، أُخذ بالمعنى الشرعي إلا بدليل يرجح اللغوي.

٤- أنواع الاختلاف الوارد في التفسير المأثور.

٥- ترجمة القرآن: تعريفها، وأنواعها، وحكم كل نوع.

* خمس تراجم مختصرة للمشهورين بالتفسير: ثلاث للصحابة، واثنتان للتابعين.

* أقسام القرآن من حيث الإحكام والتشابه:

موقف الراسخين في العلم، والزائغين من المتشابه.

التشابه: حقيقي ونسبي.

الحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومتشابه.

* موهم التعارض من القرآن والجواب عنه وأمثلة من ذلك.

الْقَسَم: تعريفه – وأداته– وفائدته.

* **القصص**: تعريفها – والغرض منها – والحكمة من تكرارها واختلافها في الطول والقِصَر والأسلوب.

* الإسرائيليات التي أقحمت في التفسير وموقف العلماء منها.

* الضمير: تعريفه – ومرجعه – والإظهار في موضع الإضمار وفائدته – الالتفات وفائدته – وضمير الفصل وفائدته.

القرآن الكريم

القرآن في اللغة [(١)]: مصدر قرأ بمعني تلا، أو بمعني جمع، تقول قرأ قرءًا وقرآنًا، كما تقول: غفر غَفْرًا وغُفرانًا، فعلى المعنى الأول (تلا) يكون مصدرًا بمعنى اسم المفعول؛ أي بمعني متلوٍّ، وعلى المعنى الثاني: (جَمَعَ) يكون مصدرًا بمعنى اسم الفاعل أي: بمعنى جامع؛ لجمعه الأخبار والأحكام [(٢)].

والقرآن في الشرع: كلام الله تعالى المُنَزَّل على رسوله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ [الإنسان:٢٣] وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢].

وقد حَمَى الله تعالى هذا القرآن العظيم من التغيير والزيادة والنقص والتبديل؛ حيث تكفل عز وجل بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، ولذلك مضتِ القرون الكثيرة ولم يحاول أحد من أعدائه أن يغيِّر فيه أو يزيد أو ينقص أو يبدل، إلا هتك الله ستره، وفضح أمره.

وقد وصفه الله تعالى بأوصاف كثيرة تدل على عظمته وبركته وتأثيره وشموله، وأنه حاكم على ما قبله من الكتب.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]. ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١]. وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩] ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥] ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٧] ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١] ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥] ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال أيضًا: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨].

والقرآن الكريم مصدر الشريعة الإسلامية التي بُعث بها محمد ﷺ إلى كافة الناس، قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] وقال أيضًا: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي

---

(١) راجع «لسان العرب» (١/ ١٢٨)، و«تاج العروس» (١/ ٣٦٣ و٣٦٤).

(٢) وقد يكون بمعنى اسم المفعول أيضًا، أي: بمعني مجموع؛ لأن القرآن جُمع في المصاحف والصدور، وجمع من الصدور واللخاف والأكتاف وغيرها.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١-٢].

وسنة النبي ﷺ مصدر تشريع أيضًا كما قرَّره القرآن، قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء:٨٠] ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١].

١ - نزول القرآن

نزل القرآن - أولَ ما نزل - على الرسول ﷺ في ليلة القَدْر في رمضان [(١)]، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٣-٤]، وقال أيضًا: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وكان عُمْرُ النبي ﷺ أولَ ما نزل عليه أربعين سنةً على المشهور عند أهل العلم [(٢)]، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعطاء وسعيد بن المسيِّب وغيرهم، وهذه السِّن هي التي يكون بها بلوغ الرشد وكمال العقل وتمام الإدراك.

والذي نزل بالقرآن من عند الله تعالى إلى النبي ﷺ: جبريل أحد الملائكة المقربين الكرام، قال الله تعالى عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢- ١٩٥].

وقد كان لجبريل عليه السلام من الصفات الحميدة العظيمة من الكرم والقوة والقرب من الله تعالى والمكانة والاحترام بين الملائكة والأمانة والحسن والطهارة ما جعله أهلًا لِأن يكون رسول الله تعالى بوحيه إلى رسله قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩- ٢١]. وقال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النجم:٥-٧].

وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠٢]، وقد بيَّن الله تعالى لنا أوصاف جبريلَ الذي نزل بالقرآن من عنده وتدل على عِظَم القرآن وعنايته تعالى، فإنه لا يُرسل من كان عظيمًا إلا بالأمور العظيمة.

---

(١) راجع «تفسير القرطبي» (٢/ ٢٩٧ وما بعدها).

(٢) كما روى البخاري في «صحيحه» (٣٣٥٤) من حديث أنس رضي الله عنه في وصف النبي ﷺ قال: «كان ربعة من القوم ليس بالطويل ولا بالقصير أزهر اللون ليس بأبيض أمهق ولا آدم ليس بجعد قطط ولا سبط رجل أنزل عليه وهو ابن أربعين فلبث بمكة عشر سنين ينزل عليه وبالمدينة عشر سنين وقبض وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء»، وكذا رواه مسلم (٢٣٤٧)، والترمذي (٣٦٢٣)، وأحمد في «مسنده» (١٣١٠٧).

٢ - أول ما نزل من القرآن [(١)]

أول ما نزل من القرآن - على وجه الإطلاق قطعًا - الآياتُ الخمس الأولى من سورة العلق، وهي قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١- ٥]. ثم فتَرَ الوحي مدة، ثم نزلت الآيات الخمس الأولى من سورة المدثر، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر:١-٥]. ففي «الصحيحين»: صحيح البخاري ومسلم - عن عائشة رضي الله عنها [(٢)] في «بدء الوحي» قالت: حتى جاءه الحقُّ، وهو في غار حِراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، فقال النبي ﷺ: «ما أَنَا بِقَارِئٍ» (يعني لست أعرف القراءة) فذكر الحديث وفيه: ثم قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥].

وفيهما عن جابر رضي الله عنه [(٣)]: أن النبي ﷺ قال وهو يُحدِّث عن فترة الوحي: (بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ....) فذكر الحديث وفيه: فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إلى ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر:١-٥].

وثمة آيات يُقال فيها: أول ما نزل، والمراد أول ما نزل باعتبار شيء معين، فتكون أولية مقيَّدة مثل: حديث جابر رضي الله عنه في الصحيحين [(٤)]: أن أبا سلمة بن عبد الرحمن سأله: أي القرآن أُنزل أولًا؟ قال جابر: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر:١] قال أبو سلمة: أنبئت أنه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:١] فقال جابر: لا أخبرك إلا بما قال رسول الله ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «جَاوَرْتُ فِي حِرَاءَ فَلَمَّا قَضَيْتُ جُوارِي هَبَطْتُ...» فذكر الحديث وفيه: «فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي، وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، وَأُنْزِلَ عَلَيَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر:١] إلى قوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر:١-٥]».

فهذه الأولية التي ذكرها جابر رضي الله عنه باعتبار أول ما نزل بعد الوحي، أو أول ما نزل في شأن الرسالة؛ لأن ما نزل من سورة اقرأ ثبتت به نبوة النبي ﷺ، وما نزل من سورة المدثر ثبتت به الرسالة في قوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:٢].

ولهذا قال أهل العلم: إن النبي ﷺ نُبِّئَ بـ ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق:١]، وأُرسل بـ ﴿الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر:١] [(٥)].

---

(١) راجع «البرهان في علوم القرآن» للزركشي (١/ ٢٠٦ - ٢١٠).

(٢) رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٣) رواه البخاري (٤)، ومسلم (١٦١).

(٤) رواه البخاري (٤٩٢٢)، ومسلم (١٦١/ ٢٥٧).

(٥) «الاستقامة» لابن تيمية (٢/ ٢٣٢).

٣ - نُزُولُ القُرآنِ ابتِدائِيٌ وَسَبَبِيٌّ

ينقسم نزول القرآن إلى قسمين:

القسم الأول: ابتدائي: وهو ما لم يتقدم نزوله سببٌ يقتضيه، وهو غالب آيات القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [التوبة:٧٥].

فإنها نزلت ابتداء في بيان حال بعض المنافقين، وأما ما اشتُهر من أنها نزلت في ثعلبة بن حاطب في قصة طويلة [١]، ذكرها كثير من المفسرين [٢]، وروَّجها كثير من الوُعَّاظ، فضعيف لا صحة له [٣].

---

(١) وعلى شهرة هذه القصة آثرت نقلها هنا للتحذير منها: فكما روى البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٣٥٧): (عن أبي أمامة قال: جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالًا، فقال النبي ﷺ: «يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه»، قال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالًا فوالله لئن أعطاني الله لأتصدقن ولأفعلن، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزقه مالًا»، قال: فصارت له غنيمة فكان يشهد مع رسول الله ﷺ فلما كثرت غنمُه وَنَمَتْ خرج من المدينة فكان لا يشهد مع رسول الله ﷺ إلا المغرب والعشاء فَنَمَتْ غنمه فتقدم فكان لا يشهد مع رسول الله ﷺ إلا الجمعة فنمت غنمه وكثرت فتقدم فكان لا يشهد مع رسول الله ﷺ في جمعة ولا غيرها، قال: فبعث النبي ﷺ رجالًا يأخذون الصدقة فذهبوا إليه، فقال لهم: إذا فرغتم وانصرفتم اجعلوا طريقكم علي أو نحوها قال: فلما فرغوا وانصرفوا أتوه فقال: والله ما هذه إلا جزية فانصرفوا عنه ولم يأخذوا منه الصدقة، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ إلى قوله: ﴿يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٧]، قال: فلما نزل فيه القرآن جاء بِصَدَقَتِهِ إلى رسول الله ﷺ فأبى رسول الله ﷺ أن يأخذها فلما قُبض رسول الله ﷺ جاء بصدقته إلى أبي بكر فأبى أن يأخذها، وقال شيئًا لم يأخذها رسول الله ﷺ لا أخذها وأبى أن يأخذها، فلما قبض أبو بكر جاء بصدقته إلى عمر فأبى أن يأخذها وقال شيئًا لم يأخذها رسول الله ﷺ ولا أخذها أبو بكر وأبى ذلك).

(٢) انظر مثلًا: تفسير القرطبي (٨/ ٢٠٩)، والدر المنثور (٤/ ٢٤٦)، والكشاف (٢/ ٢٧٨)، والكشف والبيان (٥/ ٧١)، واللباب في علوم الكتاب (١٠/ ١٤٩)، والمحرر الوجيز (٣/ ٦٩)، وبحر العلوم (٢/ ٧٥)، وتفسير أبي السعود (٤/ ٨٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٤٧)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٢٠٣) وغيرها.

(٣) من فتاوى الشبكة الإسلامية برقم (١٥٨١٧): عند السؤال عن قصة ثعلبة رضي الله عنه كانت الإجابة:

هذه القصة لا تصح أبدًا وقد ضَعَّفها الأئمة رغم اشتهارها عند المفسرين، قال القرطبي في «تفسيره»: «قلت وثعلبة بدري - أي: شهد بدرًا - أنصاري وممن شهد الله له ورسوله بالإيمان حسب ما يأتي بيانه في أول سورة الممتحنة، فما روي عنه غير صحيح. قال أبو عمر: ولعل قول من قال في ثعلبة أنه مانع الزكاة الذي نزلت فيه الآية غير صحيح» انتهى.

وقال ابن حزم في «المحلى»: «وقد روينا أثرًا لا يصح، وفيه أنها نزلت في ثعلبة بن حاطب وهذا باطل؛ لأن ثعلبة بدري معروف» انتهى.

وقال المناوي في «فيض القدير»: «قال البيهقي: في إسناد هذا الحديث نظر وهو مشهور بين أهل التفسير»، وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: «أخرجه الطبراني بسندٍ ضعيف».

القسم الثاني: سببي: وهو ما تقدم نزوُله سبب يقتضيه،

والسبب:

أ - إما سؤال[1] يجيب الله عنه مثل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

ب - أو حادثة وقعت تحتاج إلى بيان وتحذير مثل قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥] الآيتان نزلتا في رجل من المنافقين قال في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء - يعني رسول الله ﷺ وأصحابه - فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن فجاء الرجل يعتذر إلى النبي ﷺ فيجيبه بقوله تعالى: ﴿أَبِٱللَّهِ

وقال محمد بن طاهر في «تذكرة الموضوعات»: «ضعيف».

وقال الألباني في «السلسلة الضعيفة»: «ضعيف جدًّا».

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: وهذا إسناده ضعيف جدًّا، وضعف القصة أيضًا الذهبي في «ميزان الاعتدال»، والسيوطي في «أسباب النزول» وغيرهم.

والراجح في تفسير الآية ما ذكره ابن حجر: أن ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ الآية، قال: هؤلاء صنف من المنافقين فلما آتاهم ذلك بخلوا فأعقبهم بذلك نفاقًا إلى يوم يلقونه ليس لهم منه توبة ولا مغفرة ولا عفو، كما أصاب إبليس حين منعه التوبة انتهى. والله أعلم.

وقد سئل أحد الأفاضل عن هذه القصة فلخص أسباب ضعف هذه القصة في قوله:

وصفوة الكلام أن تلك القصة باطلة عند العلماء الأعلام؛ لخمسة أمور اختصارًا لما سُقناه من تفصيل ما سبق من كلام وهي:

١- سند الخبر منكر لا يثبت بحال .

٢- ثعلبة بن حاطب بدري من الأبرار المغفور لهم عند العزيز الغفار.

٣- القصة مخالفة لنصوص الشرع الثابتة الواضحة الدالة على قبول التوبة ما لم يغرغر أو تطلع الشمس من مغربها.

٤- القصة متناقضة؛ حيث لم تعطِ ثعلبة حكم المؤمنين الأبرار ولا حكم الكافرين الفجار ولا نظير لذلك في الشريعة.

٥- مخالفة تلك القصة للتاريخ، ففرضية الزكاة كانت في السنة الثانية، وسورة التوبة من أواخر ما نزل من القرآن الكريم، والحمد لله رب العالمين .

وختامًا أحب أن أشير إلى أن للأستاذ (عداب الحمش) رسالة في الدفاع عن ثعلبة رضي الله عنه بعنوان: (ثعلبة بن حاطب الصحابي المفترى عليه) جمع فيها أقوال أهل العلم في بيان نكارة هذه القصة .

(١) هذا مما سأل عنه اليهود واعترضوا به على النبي ﷺ، فقال معاذ: يا رسول الله، إن اليهود تغشانا ويكثرون مسألتنا عن الأَهِلَّة فما بال الهلال يبدو دقيقًا ثم يزيد حتى يستوي ويستدير، ثم ينتقص حتى يعود كما كان ؟ فأنزل الله هذه الآية. وقيل: إن سبب نزولها سؤال قوم من المسلمين النبيَّ ﷺ عن الهلال وما سبب محاقه وكماله ومخالفته لحال الشمس؟ قاله ابن عباس وقتادة والربيع وغيرهم . «تفسير القرطبي» (٢/ ٣٤١) .

﴿وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥][(١)].

ج- أو فعل واقع يحتاج إلى معرفة حُكْمِهِ مثل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١][(٢)].

فوائدُ معرفة أسبابِ النُّزول:

معرفة أسباب النزول مهمة جدًّا؛ لأنها تؤدي إلى فوائدَ كثيرة منها:

١- بيان أن القرآن نزل من الله تعالى؛ وذلك لأن النبي ﷺ يُسأل عن الشيء، فيتوقف عن الجواب أحيانًا، حتى ينزل عليه الوحي، أو يخفى الأمر الواقع، فينزل الوحي مبينًا له.

مثال الأول: قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. ففي «**صحيح البخاري**» عن عبد الله بن مسعود[(٣)] ﷺ: أن رجلًا من اليهود قال: يا أبا القاسم، ما الروح؟ فسكت _ وفي لفظ: فأمسك _النبي ﷺ، فلم يرد عليهم شيئًا، فعلمت أنه يُوحى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥].

ومثال الثاني: قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] وفي «صحيح البخاري»[(٤)] أن زيد بن أرقمَ ﷺ سمع عبد الله بن أُبَيٍّ رأسَ المنافقين يقول ذلك، يريد أنه الأعز ورسول الله ﷺ وأصحابه الأذل، فأخبر زيدٌ عمه بذلك، فأخبر به النبي ﷺ، فدعا النبي ﷺ زيدًا فأخبره بما

---

(١) راجع «الدر المنثور» (٤/ ٢٣٠) أخرجه الطبري (١٠/ ١٧٢) من طريق زيد بن أسلم عن ابن عمر، وفيه انقطاع، وأخرجه (١٠/ ١٧٢) عن زيد بن أسلم مرسلًا و(١٠/ ١٧٣) عن محمد بن كعب وغيره وهو مرسل كذلك.

(٢) التي اشتكت إلى الله هي خولة بنت ثعلبة، وقيل بنت حكيم، وقيل اسمها جميلة، وخولة أصح، وزوجها أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت، وقد مر بها عمر بن الخطاب ﷺ في خلافته والناس معه على حمار فاستوقفته طويلًا ووعظته وقالت: يا عمر قد كنت تُدعى عُميرًا، ثم قيل لك عمر، ثم قيل لك أمير المؤمنين، فاتق الله يا عمر، فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب، وهو واقف يسمع كلامها، فقيل له: يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف! فقال: والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره لا زلت إلا للصلاة المكتوبة، أتدرون من هذه العجوز؟ هي خولة بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سموات، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر! وقالت عائشة ﷺ: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليَّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله! أكل شبابي ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهَر مني، اللهم إني أشكو إليك! فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ خرجه ابن ماجة في السنن والذي في البخاري من هذا عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادِلة تشكو إلى رسول الله ﷺ، وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾. «تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٧٠ و٢٧١).

(٣) رواه البخاري (٤٧٢١) ومسلم (٢٧٩٤).

(٤) رواه البخاري (٤٦١٧).

سمع ثم أرسل إلى عبد الله ابن أُبَيٍّ وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فصدقهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله تصديق زيدٍ في هذه الآية؛ فاستبان الأمر لرسول الله ﷺ.

٢- بيان عناية الله تعالى برسوله ﷺ في الدفاع عنه، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ(١) كَذَٰلِكَ (٢) لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ(٣) وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:٣٢] وكذلك آيات الإفك؛ فإنها دفاع عن فِراش النبي ﷺ وتطهير له عمَّا دنسه به الأفَّاكون (٤).

٣- بيان عناية الله تعالى بعباده في تفريج كرباتهم وإزالة غمومهم.

مثال ذلك آية التيمم، ففي «**صحيح البخاري**» أنه ضاع عقد لعائشة رضي الله عنها ، وهي مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، فأقام النبي ﷺ لطلبه، وأقام الناس على غير ماء، فَشَكَوْا ذلك إلى أبي بكر، فذكر الحديث وفيه: فأنزل الله آية التيمم فتيمموا فقال أُسيد بن حضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر. والحديث في البخاري مطولًا (٥).

٤- فهم الآية على الوجه الصحيح. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] أي: يسعى بينهما: فإن ظاهر قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] أن غاية أمر السعي بينهما، أن يكون من قسم المباح، وفي «**صحيح البخاري**» عن عاصم بن سليمان (٦) قال: سألتُ أنس بن مالك رضي الله عنه عن الصفا والمروة، قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] إلى قوله: ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] وبهذا عُرِفَ أن نفي الجناح ليس المراد به بيان أصل حكم السعي، وإنما المراد نفي تحرُّجِهم بإمساكهم عنه، حيث كانوا يَرَوْن أنهما من أمر الجاهلية، أما أصل حكم السعي فقد تبين بقوله: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨].

عُمومُ اللَّفْظِ وَخُصوصُ السَّبَبِ:

إذا نزلت الآية لسببٍ خاص، ولفظُها عام كان حكمها شاملًا لسببها، ولكل ما يتناوله لفظها؛ لأن

---

(١) اختلف في قائل ذلك على قولين: أحدهما: أنهم كفار قريش؛ قاله ابن عباس. والثاني: أنهم اليهود حين رأوا نزول القرآن مفرقًا قالوا: هلَّا أنزل عليه جُملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود . «تفسير القرطبي» (١٣/ ٢٨) .

(٢) أي فعلنا. «تفسير القرطبي» (١٣/ ٢٨) .

(٣) نقوي به قلبك فَتَعِيَهُ وتحمله؛ لأن الكتب المتقدمة أُنزلت على أنبياء يكتبون ويقرأون، والقرآن أنزل على نبي أمي؛ ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور، ففرقناه ليكون أوعى للنبي ﷺ وأيسر على العامل به؛ فكان كلما نزل وحي جديد زاده قوة قلب. «تفسير القرطبي» (١٣/ ٢٨).

(٤) راجع القصة كاملة في صحيح البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٢٧٧٠) .

(٥) رواه البخاري (٣٢٧) .

(٦) رواه البخاري (٤٢٢٦) .

القرآن نزل تشريعًا عامًّا لجميع الأمة، فكانت العبرة بعموم لفظه لا بخصوص سببه.

مثال ذلك: آيات اللِّعان، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٦- ٩] ففي «**صحيح البخاري**» من حديث ابن عباس[1] رضي الله عنهما: أن هلال بن أمية قَذَفَ امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سَحْماء، فقال النبي ﷺ: البينة أو حَدٌّ في ظهرك، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق فلينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحدِّ، فنزل جبريل، وأنزل عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ [النور: ٦] فقرأ حتى بلغ: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٩].

فهذه الآيات نزلت بسبب قذف هلال بن أمية لامرأته، لكن حكمها شامل له ولغيره، بدليل ما رواه البخاري من حديث سهل بن سعد[2] رضي الله عنه: أن عويمر العجلاني جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، رجل وجد مع امرأته رجلًا أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فقال النبي ﷺ: «قَدْ أَنْزَلَ اللهُ القُرْآنَ فِيكَ وَفِي صَاحِبَتِكَ». فأمرهما رسول الله ﷺ بالملاعنة بما سمى الله في كتابه، فلاعنها. الحديث .

فجعل النبي ﷺ حكم هذه الآيات شاملًا لهلال بن أمية وغيره.

٤ - المَكيُّ والمَدنِيُّ[3]

نزل القران على النبي ﷺ مفرقًا في خلال ثلاث وعشرين سنة، قضى رسول الله ﷺ أكثرها بمكة، قال الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء : ١٠٦]؛ ولذلك قسم العلماء رحمهم الله تعالى القرآن إلى قسمين: مكيٌّ ومدنيٌّ[4]:

---

(١) رواه البخاري (٢٥٢٦) .

(٢) رواه البخاري (٤٩٥٩)، ومسلم (١٤٩٢) .

(٣) وأهم الأنواع التي يتدارسها العلماء في هذا المبحث:
١- ما نزل بمكة.٢ - ما نزل بالمدينة. ٣- ما اختُلِفَ به. ٤- الآيات المكية في السور المدنية. ٥- الآيات المدنية في السور المكية. ٦- ما نزل بمكة وحكمه مدني. ٧- ما نزل بالمدينة وحكمه مكي.٨- ما يشبه نزول المكي في المدني. ٩- ما يشبه نزول المدني في المكي. ١٠- ما حُمل من مكة إلى المدينة. ١١- ما حُمل من المدينة إلى مكة. ١٢- ما نزل ليلًا وما نزل نهارًا. ١٣- ما نزل صيفًا وما نزل شتاءً. ١٤- ما نزل في الحَضَر وما نزل في السَّفَر.
فهذه أنواع أساسية، يرتكز محورها على المكي والمدني، ولذا سُمِّي هذا بـ «علم المكي والمدني». «مباحث في علوم القرآن» لمناع القطان (ص٥٢ و٥٣) . ولمعرفة أمثلة على الأنواع السابقة، راجع المصدر نفسه (ص ٥٣ –٥٧) .

(٤) للعلماء في الفرق بين المكي والمدني ثلاثة آراء اصطلاحية، كل رأي منها بُنِيَ على اعتبار خاص:
الأول: اعتبار زمن النزول، فالمكي: ما نزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة، فما نزل بعد الهجرة ولو بمكة، أو عَرَفَةَ: مدني، كالذي نزل عام الفتح، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨]، فإنها نزلت بمكة في جوف الكعبة عام الفتح الأعظم، أو نزل بحجة الوداع كقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وهذا الرأي أولى من الرأيين بعده لحصره واطراده.

الثاني: اعتبار مكان النزول، فالمكي: ما نزل بمكة وما جاورها كمِنى وعرفات والحديبية. والمدني: ما نزل

فالمكي: ما نزل على النبي ﷺ قبل هجرته إلى المدينة.

والمدني: ما نزل على النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة.

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] من القسم المدني، وإن كانت قد نزلت على النبي ﷺ في حجة الوداع بعرفة. ففي «صحيح البخاري» عن عمر رضي الله عنه أنه قال: قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ، نزلت وهو قائم بعرفة يوم جمعة[1].

ويتميز القسم المكي[2] عن المدني[3] من حيث الأسلوب والموضوع:

بالمدينة وما جاورها كأُحد وقُباء وسلع.ويترتب على هذا الرأي عدم ثنائية القسمة وحصرها، فما نزل بالأسفار أو بتبوك أو ببيت المقدس لا يدخل تحت القسمة، فلا يسمى مكيًا ولا مدنيًا، كما يترتب عليه كذلك أن ما نزل بمكة بعد الهجرة يكون مكيًا.

الثالث: اعتبار المخاطَب، فالمكي: ما كان خطابًا لأهل مكة، والمدني: ما كان خطابًا لأهل المدينة.

وينبني على هذا الرأي عند أصحابه أن ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ مكي، وما فيه من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ مدني.

وبالملاحظة يتبين أن أكثر سور القرآن لم تُفتتَح بأحد الخطابين، وأن هذا الضابط لا يطرد، فسورة البقرة مدنية،وفيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، وسورة النساء مدنية وأولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وسورة الحج مكية، وفيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، والقرآن الكريم هو خطاب الله للخلق أجمعين، ويجوز أن يخاطب المؤمنون بصفتهم وباسمهم وجنسهم، كما يجوز أن يؤمر غير المؤمنين بالعبادة كما يؤمر المؤمنون بالاستمرار والازدياد منها. «مباحث في علوم القرآن» لمناع قطان (ص ٦٠ - ٦٢).

(١) رواه البخاري (٤٥)، ومسلم (٣٠١٧).

(٢) ضوابط المكي ومميزاته الموضوعية: ١- كل سورة فيها سجدة فهي مكية. ٢- كل سورة فيها لفظ «كلا» فهي مكية، ولم ترد إلا في النصف الأخير من القرآن. وذُكرت ثلاثًا وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة. ٣- كل سورة فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وليس فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فهي مكية، إلا سورة الحج ففي أواخراها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ ومع هذا فإن كثيرًا من العلماء يرى أن هذه الآية مكية كذلك. ٤- كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة فهي مكية سوى البقرة. ٥- كل سورة فيها آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة كذلك. «مباحث في علوم القرآن» (ص٦٢).

(٣) ضوابط المدني ومميزاته الموضوعية: ١- كل سورة فيها فريضة أو حدٌّ فهي مدنية. ٢- كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية سوى العنكبوت فإنها مكية. ٣- كل سورة فيها مجادلة أهل الكتاب فهي مدنية.

هذا من ناحية الضوابط، أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب فيمكن إجمالها فيما يأتي:

١- بيان العبادات، والمعاملات، والحدود، ونظام الأسرة، والمواريث، وفضيلة الجهاد، والصلات الاجتماعية، والعلاقات الدولية في السلم والحرب، وقواعد الحكم، ومسائل التشريع.٢- مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ودعوتهم إلى الإسلام، وبيان تحريفهم لكتب الله، وتجنيهم على الحق،

أ- أما من حيث الأسلوب فهو :

١- الغالب في المكي قوة الأسلوب، وشدة الخطاب؛ لأن غالب المخاطَبين معرِضُون مستكبرون، ولا يليق بهم إلا ذلك، اقرأ سورتي (المدثر، والقمر).

أما المدني: فالغالب في أسلوبه اللِّين، وسهولةُ الخطاب؛ لأن غالب المخاطبين مُقْبِلُونَ منقادون، اقرأ سورة المائدة.

٢- الغالب في المكي قِصَر الآيات، وقوة المحاجَّة؛ لأن غالب المخاطبين معاندون مُشَاقُّون، فخُوطبوا بما تقتضيه حالهم، اقرأ سورة (الطور).

أما المدني: فالغالب فيه طول الآيات، وذكر الأحكام مرسلة بدون مُحاجَّة؛ لأن حالهم تقتضي ذلك، اقرأ مثلًا (آية الدَّين في سورة البقرة).

ب- وأما من حيث الموضوع فهو:

١- الغالب في المكي تقرير التوحيد والعقيدة السليمة، خصوصًا ما يتعلق بتوحيد الألوهية والإيمان بالبعث؛ لأن غالب المخاطَبين ينكرون ذلك.

أما المدني: فالغالب فيه تفصيل العبادات والمعاملات؛ لأن المخاطَبين قد تقرر في نفوسهم التوحيد والعقيدة السليمة، فهم في حاجة لتفصيل العبادات والمعاملات.

٢- الإفاضة في ذكر الجهاد وأحكامه والمنافقين وأحوالهم في القسم المدني؛ لاقتضاء الحال لذلك، حيث شُرِع الجهاد، وظهر النفاق بخلاف القسم المكي.

فَوائِدُ مَعْرِفَةِ المدنيِّ والمكيِّ [1] :

واختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم. ٣- الكشف عن سلوك المنافقين، وتحليل نفسيتهم، وإزاحة الستار عن خباياهم، وبيان خطرهم على الدين. ٤- طول المقاطع والآيات في أسلوب يقرر الشريعة ويوضح أهدافها ومراميها. المصدر السابق (ص٦٣ و٦٤).

(١) ومن تلك الفوائد ما ذكره الدكتور مناع القطان في كتابه «مباحث في علوم القرآن» (ص ٥٨ – ٥٩):

أ- الاستعانة به في تفسير القرآن: فإن معرفة مواقع النزول تساعد على فهم الآية وتفسيرها تفسيرًا صحيحًا، وإن كانت العبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السبب، ويستطيع المفسر في ضوء ذلك عند تعارض المعنى في آيتين أن يُميز بين الناسخ والمنسوخ، فإن المتأخر يكون ناسخًا للمتقدم.

ب- تذوق أساليب القرآن والاستفادة منها في أسلوب الدعوة إلى الله، فإن لكل مقام مقالًا، ومراعاة مقتضى الحال من أخص معاني البلاغة، وخصائص أسلوب المكي في القرآن والمدني منه تعطي الدارس منهجًا لطرائق الخطاب في الدعوة إلى الله بما يلائم نفسية المخاطب، ويمتلك عليه لُبَّه ومشاعره، ويعالج فيه دخيلته بالحكمة البالغة، ولكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليب الخطاب فيها، كما يختلف الخطاب باختلاف أنماط الناس ومعتقداتهم وأحوال بيئاتهم، ويبدو هذا واضحًا جليًّا بأساليب القرآن المختلفة في مخاطبة المؤمنين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب.

جـ- الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية: فإن تتابع الوحي على رسول الله ﷺ ساير تاريخ الدعوة

معرفة المكي والمدني نوع من أنواع علوم القرآن المهمة؛ وذلك لأن فيها فوائد منها :

١- ظهور بلاغة القرآن في أعلى مراتبها، حيث يخاطب كل قوم بما تقتضيه حالهم من قوة وشدة، أو لين وسهولة.

٢- ظهور حكمة التشريع في أسمى غاياته؛ حيث يتدرج شيئًا فشيئًا بحسب الأهم على ما تقتضيه حال المخاطبين واستعدادهم للقبول والتنفيذ.

٣- تربية الدُّعاة إلى الله تعالى، وتوجيههم إلى أن يتبعوا ما سلكه القرآن في الأسلوب والموضوع، من حيث المخاطبين، بحيث يبدأ بالأهم فالأهم، وتستعمل الشدة في موضعها والسهولة في موضعها.

٤- تمييز الناسخ من المنسوخ فيما لو وردت آيتان مكية ومدنية، يتحقق فيهما شروط النسخ، فإن المدنية ناسخة للمكية، لتأخر المدنية عنها.

الحِكْمَةُ مِن نُزُولِ القُرْآنِ الكَرِيم :

من تقسيم القرآن إلى مكي ومدني، يتبين أنه نزل على النبي ﷺ مفرقًا، ولنزوله على هذا الوجه حكم كثيرة منها :

١- تثبيت قلب النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ (يعني كذلك نزلناه مفرقًا): ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ (ليصدوا الناس عن سبيل الله) ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٢-٣٣].

٢- أن يسهل على الناس حفظه وفهمه والعمل به؛ حيث يقرأ عليهم شيئًا فشيئًا، لقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦].

٣- تنشيط الهِمَم لقبول ما نزل من القرآن وتنفيذه؛ حيث يتشوق الناس بلهف وشَوْق إلى نزول الآية، لاسيما عند اشتداد الحاجة إليها كما في آيات الإفك واللِّعان.

٤- التدرُّجُ في التشريع حتى يصل إلى درجة الكمال، كما في آيات الخمر الذي نشأ الناس عليه وأَلِفوه، وكان من الصعب عليهم أن يُجابَهوا بالمنع منه منعًا باتًّا، فنزل في شأنه أولًا قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] فكان في هذه الآية تهيئة للنفوس لقبول تحريمه؛ حيث إن العقل يقتضي ألَّا يمارس شيئًا إثمُه أكبر من نفعه.

ثم نزل ثانيًا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] فكان في هذه الآية تمرين على تركه في بعض الأوقات وهي أوقات الصلوات، ثم نزل ثالثًا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ

بأحداثها في العهد المكي والعهد المدني منذ بدأ الوحي حتى آخر آية نزلت، والقرآن الكريم هو المرجع الأصيل لهذه السيرة، الذي لا يدع مجالًا للشك فيما رُوِيَ عن أهل السير موافقًا له، ويقطع دابر الخلاف عند اختلاف الروايات.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة:٩٠- ٩٢] فكان في هذه الآيات المنع من الخمر منعًا باتًّا في جميع الأوقات، بعد أن هُيئت النفوس، ثم مُرنت على المنع منه في بعض الأوقات.

تَرْتيبُ القُرآن:

ترتيب القرآن: تلاوته تاليًا بعضُه بعضًا حسبما هو مكتوب في المصاحف ومحفوظ في الصدور.

وهو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ترتيب الكلمات بحيث تكون كل كلمة في موضعها من الآية، وهذا ثابت بالنص والإجماع، ولا نعلم مخالفًا في وجوبه وتحريم مخالفته، فلا يجوز أن يقرأ: لله الحمد رب العالمين بدلا من ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢].

النوع الثاني: ترتيب الآيات بحيث تكون كل آية في موضعها من السورة، وهذا ثابت بالنص والإجماع، وهو واجب على القول الراجح، وتحرم مخالفته فلا يجوز أن يقرأ: مالك يوم الدين الرحمن الرحيم بدلًا من: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٣، ٤] ففي «**صحيح البخاري**»: أن عبد الله بن الزبير[1] قال لعثمان بن عفان رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]: قد نسختها الآية الأخرى يعني: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] وهذه قبلها في التلاوة قال: فلم تكتبها ؟ فقال عثمان رضي الله عنه : يا ابن أخي لا أُغيِّر شيئًا في القرآن من مكانه.

وروى الإمام أحمد[2] وأبو داود[3] والنسائي [4]والترمذي [5]من حديث عثمان رضي الله عنه : أن النبي ﷺ كان ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء، دعا بعضَ مَن كان يكتب، فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا.

النوع الثالث: ترتيب السور بحيث تكون كل سورة في موضعها من المصحف، وهذا ثابت بالاجتهاد فلا يكون واجبًا، وفي « **صحيح مسلم**» عن حُذيفة بن اليَمان [6] رضي الله عنه : أنه صلَّى مع النبي ﷺ ذات ليلة، فقرأ النبي ﷺ البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران.

---

(١) رواه البخاري (٤٢٥٦) .

(٢) في مسنده (٣٩٩) .

(٣) في سنن أبى داود (٧٨٦) .

(٤) في سننه الكبرى (٨٠٠٧) .

(٥) في سننه (٣٠٦٨) .

(٦) رواه مسلم (٧٧٢) .

وروى البخاري تعليقًا عن الأحنف[1]: أنه قرأ في الأولى بالكهف، وفي الثانية بيوسف أو يونس، وذكر أن صلى مع عمر بن الخطاب الصبح بهما.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه[2]: (تجوز قراءة هذه قبل هذه، وكذا في الكتابة؛ ولهذا تنوعت مصاحف الصحابة رضي الله عنهم في كتابتها، لكن لما اتفقوا على المصحف في زمن عثمان رضي الله عنه، صار هذا مما سنَّه الخلفاء الراشدون، وقد دل الحديث [3]على أن لهم سُنَّة يجب اتباعها) اهـ.

٥ - كِتَابَةُ القُرآنِ وَجَمْعُهُ

لِكتابةِ القرآن وجمعه ثَلاثُ مراحل :

المرحلة الأولى: في عهد النبي ﷺ، وكان الاعتماد في هذه المرحلة على الحفظ أكثر من الاعتماد على الكتابة، لقوة الذاكرة وسرعة الحفظ وقلة الكاتبين ووسائل الكتابة، ولذلك لم يُجمع في مصحف بل كان من سمع آية حفظها، أو كتبها فيما تيسر له من عَسَبِ النخل[4]، ورقاع الجلود[5]، ولخاف الحجارة[6]، وكسر الأكتاف[7] وكان القُرَّاء عددًا كبيرًا.

ففي «**صحيح البخاري**» عن أنس بن مالك [8]رضي الله عنه: أن النبي ﷺ بعث سبعين رجلًا يقال لهم: القراء، فعرض لهم حيان من بني سُليم رعْل وذكوان عند بئر معونة فقتلوهم، وفي الصحابة غيرهم كثير كالخلفاء الأربعة، وعبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حُذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبي الدرداء رضي الله عنهم.

المرحلة الثانية: في عهد أبي بكر رضي الله عنه في السنة الثانية عشرة من الهجرة، وسببه أنه قُتِل في وقعة اليمامة عدد كبير من القراء منهم: سالم مولى أبي حذيفة، أحد من أمر النبي ﷺ بأخذ القرآن منهم.

فأمر أبو بكر رضي الله عنه بجمعه؛ لئلا يضيع، ففي «**صحيح البخاري**» أن عمر بن الخطاب أشار على أبي بكر رضي الله عنهما بجمع القرآن بعد وقعة اليمامة، فتوقف تورعًا، فلم يزل عمر يراجعه حتى شرح الله صدر أبي

---

(١) صحيح البخاري (١/ ٢٦٨).

(٢) المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣/ ٨٢).

(٣) إشارة إلى ما رواه أبوداود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد في «مسنده» (١٧١٨٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٤٩) وفيه: أن رسول الله ﷺ قال: «**أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدًا حبشيًّا فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة**».

(٤) العسيب من النَّخل: جريدة مستقيمة دقيقة يكشط خوصها. العين (١/ ٣٤٢).

(٥) قطع من الجلد.

(٦) اللخاف: مفردها لخفة، وهي حَجَرٌ أبيض عريض رقيق.

(٧) الكتف: عظم عريض يكتب عليه.

(٨) رواه البخاري (٣٨٦٠).

بكر لذلك، فأرسل إلى زيد بن ثابت فأتاه، وعنده عمر فقال له أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعْه، قال: فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر طيلة حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهما. رواه البخاري مطولًا[1].

وقد وافق المسلمون أبا بكر على ذلك وعدُّوه من حسناته، حتى قال علي رضي الله عنه: (أعظم الناس في المصاحف أجرًا أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله)[2].

المرحلة الثالثة: في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في السنة الخامسة والعشرين، وسببه اختلاف الناس في القراءة بحسب اختلاف الصُّحف التي في أيدي الصحابة رضي الله عنهم فخيفت الفتنة، فأمر عثمان رضي الله عنه أن تُجمع هذه الصحف في مصحف واحد؛ لئلا يختلف الناس، فيتنازعوا في كتاب الله تعالى ويتفرقوا.

ففي «صحيح البخاري»[3] أن حذيفة بن اليمان قَدِمَ على عثمان من فتح أرمينية وأَذْربيجان، وقد أفزعه اختلافهم في القراءة، فقال: يا أمير المؤمنين أَدْرِك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، ففعلت، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. وكان زيد بن ثابت أنصاريًّا والثلاثة قرشيين – وقال عثمان للرهط الثلاثة القرشيين: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش؛ فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

وقد فعل عثمان رضي الله عنه هذا بعد أن استشار الصحابة رضي الله عنهم، لما روى ابن أبي داود[4] عن علي رضي الله عنه أنه قال: والله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأٍ منَّا، قال: أرى أن نجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة ولا اختلاف، قلنا: فنعم ما رأيت.

وقال مصعب بن سعد[5]: أدركت الناس متوافرين حين حرَّق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك، أو قال: لم يَنكر ذلك منهم أحد، وهو من حسنات أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه التي وافقه المسلمون عليها، وكانت مُكَمِّلة لجمع خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر رضي الله عنه.

---

(١) رواه البخاري (٤٤٠٢).

(٢) «المصاحف» لابن أبي داود (ص ٥).

(٣) رواه البخاري (٤٧٠٢).

(٤) «المصاحف» (ص٢٢).

(٥) «المصاحف» (ص١٢).

والفرق بين جمعه وجمع أبي بكر رضي الله عنهما أن الغرض من جمعه في عهد أبي بكر رضي الله عنه تقييد القرآن كله مجموعًا في مصحف، حتى لا يضيع منه شيء دون أن يحمل الناس على الاجتماع على مصحف واحد؛ وذلك أنه لم يظهر أثر لاختلاف قراءاتهم يدعو إلى حملهم على الاجتماع على مصحف واحد.

وأما الغرض من جمعه في عهد عثمان رضي الله عنه فهو تقييد القرآن كله مجموعًا في مصحف واحد، يحمل الناس على الاجتماع عليه؛ لظهور الأثر المخيف باختلاف القراءات.

وقد ظهرت نتائج هذا الجمع حيث حصلت به المصلحة العظمى للمسلمين من اجتماع الأمة، واتفاق الكلمة، وحلول الألفة، واندفعت به مفسدة كبرى من تفرق الأمة، واختلاف الكلمة، وفُشُوِّ البغضاء، والعداوة.

وقد بقي على ما كان عليه حتى الآن متفقًا عليه بين المسلمين متواترًا بينهم، يتلقاه الصغير عن الكبير، لم تعبث به أيدي المفسدين، ولم تطمسه أهواء الزائغين. فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين.



التَّفْسِيرُ

التفسير لغة: من الفَسْر، وهو: الكشف عن المغُطَّى [١].

وفي الاصطلاح: بيان معاني القرآن الكريم.

وتعلّم التفسير واجب؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، ولقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤].

وجه الدلالة من الآية الأولى: أن الله تعالى بيَّن أن الحكمة من إنزال هذا القرآن المبارك: أن يتدبر الناس آياته، ويتعظوا بما فيها.

والتدبر هو التأمل في الألفاظ للوصول إلى معانيها، فإذا لم يكن ذلك، فاتت الحكمة من إنزال القرآن، وصار مجرد ألفاظ لا تأثير لها.

ولأنه لا يمكن الاتعاظ بما في القرآن بدون فهم معانيه.

ووجه الدلالة من الآية الثانية: أن الله تعالى وَبَّخ أولئك الذين لا يتدبرون القرآن، وأشار إلى أن ذلك من الإقفال على قلوبهم، وعدم وصول الخير إليها.

وكان سلف الأمة على تلك الطريقة الواجبة، يتعلمون القرآن ألفاظه ومعانيه؛ لأنهم بذلك يتمكنون من العمل بالقرآن على مراد الله به فإن العمل بما لا يُعرف معناه غير ممكن.

وقال أبو عبد الرحمن السُّلمي: حدثنا الذين كانوا يُقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات، لم يجاوزوها، حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابًا في فن من العلم كالطب والحساب، ولا يستشرحوه فكيف بكلام الله تعالى الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم، ويجب على أهل العلم أن يبينوه للناس عن طريق الكتابة أو المُشافهة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وتبيين الكتاب للناس شامل لتبيين ألفاظه ومعانيه، فيكون تفسير القرآن، مما أَخذ الله العهد على أهل العلم ببيانه [٢].

والغرض من تعلُّم التفسير هو: الوصول إلى الغايات الحميدة والثمرات الجليلة، وهي التصديق بأخباره والانتفاع بها وتطبيق أحكامه على الوجه الذي أراده الله؛ ليُعْبَدَ الله بها على بصيرة.

الوَاجِبُ عَلَى المُسْلِمِ فِي تَفْسِيرِ القُرآنِ

الواجب على المسلم في تفسير القرآن أن يُشْعِرَ نفسه حين يفسر القرآن بأنه مترجم عن الله تعالى، شاهد عليه بما أراد من كلامه فيكون مُعَظِّمًا لهذه الشهادة خائفًا من أن يقول على الله بلا علم، فيقع فيما حرم الله،

---

(١) انظر «لسان العرب» (٥/ ٥٥).

(٢) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (١٣/ ٣٣٢).

فيُخزى بذلك يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣] وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر:٦٠].

المَرْجِعُ فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ

يرجع في تفسير القرآن إلى ما يأتي:

أولًا: كلام الله تعالى: فيفسَّر القرآن بالقرآن؛ لأن الله تعالى هو الذي أنزله، وهو أعلم بما أراد به، ولذلك أمثلة منها:

١-قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢].

فقد فسر أولياء الله بقوله في الآية التي تليها: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٦٣].

٢- وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ [الطارق:٢]، فقد فسر ﴿ٱلطَّارِقُ﴾ بقوله في الآية الثانية: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق:٣].

٣- وقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات:٣٠] فقد فسر ﴿دَحَىٰهَآ﴾ بقوله في الآيتين بعدها: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا (٣١) وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:٣١، ٣٢].

ثانيًا: كلام رسول الله ﷺ، فيفسر القرآن بالسنة؛ لأن رسول الله ﷺ مبلغ عن الله تعالى، فهو أعلم الناس بمراد الله تعالى بكلامه.

ولذلك أمثلة منها:

١- قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] ففسر النبي ﷺ الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى، فيما رواه ابن جرير[١] وابن أبي حاتم[٢] صريحًا من حديث أبي موسى وأُبيٍّ بن كعب، ورواه جرير من حديث كعب بن عُجْرة في «صحيح مسلم»[٣] عن صهيب بن سنان عن النبي ﷺ في حديث قال فيه: «**فَيَكْشِفُ الحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِم مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِم عَزَّ وَجَلَّ**»، ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَة: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

٢- وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [لأنفال: ٦٠] فقد فسر النبي ﷺ القوة بالرمي. رواه مسلم[٤]، وغيره[٥] من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

ثالثًا: كلام الصحابة رضي الله عنهم لاسيما ذوو العلم منهم والعناية بالتفسير؛ لأن القرآن نزل بلغتهم وفي عصرهم؛ ولأنهم بعد الأنبياء أصدق الناس في طلب الحق، وأسلمهم من الأهواء، وأطهرهم من المخالفة

---

(١) «تفسير الطبري» (١٥/ ٦٢).

(٢) «تفسير ابن أبى حاتم» (٦/ ١٩٤٥).

(٣) رواه مسلم (١٨١).

(٤) رواه مسلم (١٩١٧).

(٥) صحيح: رواه أبو داود (٢٥١٤)، والترمذي (٣٠٨٣)، وابن ماجه (٢٨١٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٣٣).

التي تحول بين المرء وبين التوفيق للصواب. ولذلك أمثلة كثيرة جدًّا منها :

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣] فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه فسر الملامسة بالجماع[١].

د- كلام التابعين الذين اعتنوا بأخذ التفسير عن الصحابة رضي الله عنهم، لأن التابعين خير الناس بعد الصحابة، وأسلم من الأهواء ممن بعدهم. ولم تكن اللغة العربية تغيرت كثيرًا في عصرهم، فكانوا أقرب إلى الصواب في فهم القرآن ممن بعدهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إذا أجمعوا - يعني التابعين - على الشيء فلا يُرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السُّنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك[٢].

وقال أيضًا: من عَدَلَ عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك، كان مخطئًا في ذلك، بل مبتدعًا، وإن كان مجتهدًا مغفورًا له خطؤه، ثم قال: فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم، فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعًا[٣].

خامسًا: ما تقتضيه الكلمات من المعاني الشرعية أو اللُّغوية حسب السياق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَ ٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣] وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

فإن اختلف المعنى الشرعي واللغوي، أُخذ بما يقتضيه الشرعي؛ لأن القرآن نزل لبيان الشرع، لا لبيان اللغة إلا أن يكون هناك دليل يترجح به المعنى اللُّغوي فيؤخذ به.

مثال ما اختلف فيه المعنيان، وقُدِّم الشرعي: قوله تعالى في المنافقين: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٤] فالصلاة في اللغة الدعاء، وفي الشرع هنا الوقوف على الميت للدعاء له بصفة مخصوصة فيقدم المعنى الشرعي؛ لأنه المقصود للمتكلم المعهود للمخاطب، وأما منع الدعاء لهم على وجه الإطلاق فمن دليل آخر.

ومثال ما اختلف فيه المعنيان، وقدم فيه اللغوي بالدليل: قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَ ٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] فالمراد بالصلاة هنا الدعاء، وبدليل ما رواه مسلم[٤] عن عبد الله بن أبي أَوْفَى، قال: كان النبي ﷺ إذا أُتى بصدقة قوم، صلَّى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى**».

وأمثلة ما اتفق فيه المعنيان الشرعي واللغوي كثيرة: كالسماء والأرض والصدق والكذب والحجر والإنسان.

---

(١) «تفسير الطبري» (٨/ ٣٨٩).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٣٧٠).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٣٦١).

(٤) رواه مسلم (١٠٧٨).

الاختلاف الوارد في التفسير المأثور

الاختلاف الوارد في التفسير المأثور على ثلاثة أقسام:

الأول: اختلاف في اللفظ دون المعنى، فهذا لا تأثير له في معنى الآية، مثاله قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣] قال ابن عباس: (قضى): أمر، وقال مجاهد: وصَّى، وقال الربيع بن أنس: أوجب، وهذه التفسيرات معناها واحد، أو متقارب فلا تأثير لهذا الاختلاف في معنى الآية.

الثاني: اختلاف في اللفظ والمعنى، والآية تحتمل المعنيين لعدم التضاد بينهما، فتحمل الآية عليهما، وتفسر بهما، ويكون الجمع بين هذا الاختلاف أن كل واحد من القولين ذُكر على وجه التمثيل، لما تعنيه الآية أو التنويع، مثاله قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف:١٧٥، ١٧٦] قال ابن مسعود: هو رجل من بني إسرائيل، وعن ابن عباس أنه: رجل من أهل اليمن، وقيل: رجل من أهل البلقاء.

والجمع بين هذه الأقوال: أن تحمل الآية عليها كلها؛ لأنها تحتملها من غير تضاد، ويكون كل قول ذكر على وجه التمثيل.

ومثال آخر قوله تعالى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ:٣٤] قال ابن عباس: دهاقًا مملوءة، وقال مجاهد: متتابعة، وقال عكرمة: صافية. ولا منافاة بين هذه الأقوال، والآية تحتملها فتحمل عليها جميعًا ويكون كل قول لنوع من المعنى.

الثالث: اختلاف اللفظ والمعنى، والآية لا تحتمل المعنيين معًا للتضاد بينهما، فتحمل الآية على الأرجح منهما بدلالة السياق أو غيره.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٥] قال ابن عباس: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ في الميتة ﴿وَلَا عَادٍ﴾ من أكله، وقيل: غير خارجٍ على الإمام ولا عاصٍ بسفره والأرجح الأول؛ لأنه لا دليل في الآية على الثاني، ولأن المقصود بحِلِّ ما ذُكِر دفع الضرورة، وهي واقعة في حال الخروج على الإمام، وفي حال السفر المحرَّم وغير ذلك.

ومثال آخر قوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧] قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الذي بيده عقدة النكاح: هو الزوج، وقال ابن عباس: هو الولي، والراجح الأول لدلالة المعنى عليه، ولأنه قد رُوِيَ فيه حديث[1] عن النبي ﷺ.



(١) «مصنف عبد الرزاق» (١٠٨٥١)، و«مسند الشافعي» (١٢١٦)، «المعجم الأوسط للطبراني» (٦٣٥٩).

ترجمة القرآن

الترجمة لغة: تطلق على معانٍ ترجع إلى البيان والإيضاح، **وفي الاصطلاح:** التعبير عن الكلام بلغة أخرى. وترجمة القرآن: التعبير عن معناه بلغة أخرى، والترجمة نوعان:

أحدهما: ترجمة حرفية، وذلك بأن يوضع ترجمة كل كلمة بإزائها.

الثاني: ترجمة معنوية، أو تفسيرية، وذلك بأن يعبر عن معنى الكلام بلغة أخرى من غير مراعاة المفردات والترتيب.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣] فالترجمة الحرفية: أن يترجم كلمات هذه الآية كلمةً كلمة فيترجم ﴿إِنَّا﴾ ثم ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ ثم ﴿قُرْآنًا﴾ ثم ﴿عَرَبِيًّا﴾ وهكذا.

والترجمة المعنوية: أن يترجم معنى الآية كلها بقطع النظر عن معنى كل كلمة وترتيبها، وهي قريبة من معنى التفسير الإجمالي.

حكم ترجمة القرآن:

الترجمة الحرفية بالنسبة للقرآن الكريم مستحيلة عند كثير من أهل العلم، وذلك لأنه يشترط في هذا النوع من الترجمة شروط لا يمكن تحققها معها وهي:

أ- وجود مفردات في اللغة المترجم إليها بإزاء حروف اللغة المترجم منها.

ب- وجود أدوات للمعاني في اللغة المترجَم إليها مساوية أو مشابهة للأدوات في اللغة المترجم منها.

ج- تماثل اللغتين المترجم منها وإليها في ترتيب الكلمات حين تركيبها في الجمل والصفات والإضافات، وقال بعض العلماء: إن الترجمة الحرفية يمكن تحققها في بعض آية، أو نحوها، ولكنها وإن أمكن تحققها في نحو ذلك محرمة؛ لأنها لا يمكن أن تؤدي المعنى بكماله، ولا أن تؤثر في النفوس تأثير القرآن العربي المبين، ولا ضرورة تدعو إليها؛ للاستغناء عنها بالترجمة المعنوية.

وعلى هذا فالترجمة الحرفية إن أمكنت حِسًّا في بعض الكلمات فهي ممنوعة شرعًا، اللهم إلا أن يترجم كلمة خاصة بلغة من يخاطبه ليفهمها، من غير أن يترجم التركيب كله فلا بأس.

وأما الترجمة المعنوية للقرآن فهي جائزة في الأصل؛ لأنه لا محظور فيها، وقد تجب حين تكون وسيلة إلى إبلاغ القرآن والإسلام لغير الناطقين باللغة العربية؛ لأن إبلاغ ذلك واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

لكن يشترط لجواز ذلك شروط:

الأول: أن لا تُجعل بديلًا عن القرآن بحيث يستغني بها عنه، وعلى هذا فلابد أن يكتب القرآن باللغة العربية وإلى جانبه هذه الترجمة، لتكون كالتفسير له.

الثاني: أن يكون المترجم عالمًا بمدلولات الألفاظ في اللغتين المترجم منها وإليها، وما تقتضيه حسب السياق.

الثالث: أن يكون عالمًا بمعاني الألفاظ الشرعية في القرآن، ولا تقبل الترجمة للقرآن الكريم إلا من مأمون عليها؛ بحيث يكون مسلمًا مستقيمًا في دينه.

❁ ❁ ❁

المُشتهرون بالتَّفسير مِنَ الصَّحابة

اشتهر بالتفسير جماعة من الصحابة، ذكر السيوطي منهم: الخلفاء الأربعة أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا ﭭ، إلا أن الرواية عن الثلاثة الأولين لم تكن كثيرة، لانشغالهم بالخلافة، وقلة الحاجة إلى النقل في ذلك لكثرة العالمين بالتفسير.

ومن المشتهرين بالتفسير من الصحابة أيضًا: عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس، فلنترجم لحياة علي بن أبي طالب مع هذين ﭭ.

١ - عَلِيُّ بنُ أبي طَالب[1]

هو ابن عم الرسول ﷺ، وزوج ابنته فاطمة ﭬ وعنها، وأول من آمن به من قرابته، اشتهر بهذا الاسم، وكنيته أبو الحسن، وأبو تراب.

وُلِدَ قبل بعثة النبي ﷺ بعشر سنين، وتربى في حجر النبي ﷺ، وشهد معه المشاهد كلها، وكان صاحب اللواء في معظمها، ولم يتخلف إلا في غزوة تبوك، خلَّفه النبي ﷺ في أهله، وقال له: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي**»[2]، نُقِلَ له من المناقب والفضائل ما لم ينقل لغيره، وهلك به طائفتان: النواصب الذين نصبوا له العداوة، وحاولوا إخفاء مناقبه، والروافض الذي بالغوا فيما زعموه من حبه، وأحدثوا له من المناقب التي وضعوها ما هو في غنًى عنه، بل هو عند التأمل من المثالب.

اشتهر ﭬ بالشجاعة والذكاء مع العلم والذكاء حتى كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﭬ ليتعوذ من معضلة ليس لها أبو حسن[3]، ومن أمثلة النحويين: قضية ولا أبا حسن لها، وروى عن علي أنه كان يقول: سلوني سلوني وسلوني عن كتاب الله تعالى، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أنزلت بليل أو

---

(١) راجع ترجمته في «حلية الأولياء» (١/ ٦١ – ٨٧).

(٢) رواه البخاري (٣٥٠٣)، ومسلم (٢٤٠٤) من حديث سعد ابن أبي وقاص ﭬ.

(٣) «فضائل الصحابة» لأحمد بن حنبل (١١٠٠).

نهار[١]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا جاءنا الثبت عن علي لم نَعْدِل به[٢]، وروي عنه أنه قال: ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب[٣]. كان أحد أهل الشورى الذي رشَّحهم عمر رضي الله عنه لتعيين الخليفة، فعرضها عليه عبد الرحمن بن عوف فأبى إلا بشروط لم يقبل بعضها، ثم بايع عثمان فبايعه علي والناس، ثم بُويع بالخلافة بعد عثمان حتى قتل شهيدًا في الكوفة ليلة السابع عشر من رمضان، سنة أربعين من الهجرة رضي الله عنه.

٢ - عَبْدُ اللهِ بنُ مَسعُودٍ[٤]

هو عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، وأمه أم عبد وكان يُنسب إليها أحيانًا، وكان من السابقين الأولين في الإسلام، وهاجر الهجرتين، وشهد بدرًا، وما بعدها من المشاهد.

تلقى من النبي ﷺ بضعًا وسبعين سورة من القرآن، وقال له النبي ﷺ في أول الإسلام: «**إِنَّكَ لَغُلَامٌ مُعَلَّمٌ**»[٥]، وقال: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ**»[٦]، وفي «**صحيح البخاري**»[٧] أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أني من أعلمهم بكتاب الله، وقال: والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه.

وكان ممن خدم النبي ﷺ فكان صاحب نعليه وطهوره ووساده حتى قال أبو موسى الأشعري: قدمت أنا وأخي من اليمن فمكثنا حينًا ما نرى عبدالله بن مسعود رجل من أهل بيت النبي ﷺ لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبي ﷺ[٨].

ومن أجل ملازمته النبي ﷺ تأثر به وبهديه، حتى قال فيه حذيفة: ما أعرف أحدًا أقرب هديًا وسمتًا ودلًّا بالنبي ﷺ من ابن أم عَبْد[٩].

بعثه عمر بن الخطاب إلى الكوفة، ليعلمهم أمور دينهم، وبعث عمارًا أميرًا وقال: إنهما من النجباء من

---

(١) «الإصابة في تمييز الصحابة» (٤/ ٥٦٨).
(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١٢٥).
(٣) «تفسير القرطبي» (١/ ٣٥).
(٤) راج ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١/ ٤٦١ - ٥٠٠).
(٥) رواه أحمد في «مسنده» (٤٤١٢)، وقال الشيخ شعيب رحمه الله تعالى: إسناده حسن.
(٦) صحيح: رواه ابن ماجه (١٣٨)، والطيالسي في «مسنده» (٣٣٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠١٣٦)، وأحمد في «مسنده» (٣٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٥٩٦١).
(٧) «صحيح البخاري» (٤٧١٦).
(٨) رواه البخاري (٣٥٥٢)، ومسلم (٢٤٦٠) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
(٩) رواه الطيالسي في «مسنده» (٤٢٦)، وأحمد في «مسنده» (٢٣٣٥٦)، وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

أصحاب محمد ﷺ، فاقتدوا بهما، ثم أمَّرَهُ عثمان على الكوفة، ثم عزله، وأمَرَهُ بالرجوع إلى المدينة [١]، فتوفي فيها سنة اثنتين وثلاثين، ودُفِنَ بالبقيع وهو ابن بضع وسبعين سنة.

٣ - عَبْدُ اللهِ بنُ عَبَّاسٍ [٢]

هو ابن عم رسول الله ﷺ وُلِدَ قبل الهجرة بثلاث سنين لازم النبي ﷺ؛ لأنه ابن عمه، وخالته ميمونة تحت النبي ﷺ، وضمَّه النبي ﷺ إلى صدره وقال: «اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الحِكْمَةَ»، وفي رواية: «الكِتَابَ» [٣]، وقال له حين وضع له وضوءه: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» [٤]، فكان بهذا الدعاء المبارك حَبْرَ الأمة في نشر التفسير والفقه؛ حيث وفقه الله تعالى للحرص على العلم والجد في طلبه والصبر على تلقيه وبذله، فنال بذلك مكانا عاليًا حتى كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يدعوه إلى مجالسه ويأخذ بقوله، فقال المهاجرون: ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عباس؟! فقال لهم: ذاكم فتى الكهول له لسان سؤول وقلب عقول، ثم دعاهم ذات يوم فأدخله معهم ليريهم منه ما رآه، فقال عمر: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر:١] حتى ختم السورة، فقال بعضهم: أُمِرْنَا أن نحمد الله ونستغفره إذا فتح علينا، وسكت بعضهم، فقال عمر لابن عباس: أكذلك تقول؟ قال: لا، قال: فما تقول؟ قال: هو أَجَلُ رسول الله ﷺ، أعلمه الله له إذا جاء نصر الله، والفتح فتح مكة، فذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾، قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم [٥].

وقال ابن مسعود ﷺ: لَنِعْمَ ترجمان القرآن ابن عباس [٦]، لو أدرك أسناننا ما عاشره منا أحد، أي: ما كان نظيرًا له، هذا مع أن ابن عباس عاش بعده ستًّا وثلاثين سنة، فما ظنك بما اكتسب بعده من العلم.

وقال ابن عمر لسائل سأله عن آية: انطلق إلى ابن عباس فاسأله فإنه أعلم من بقي بما أُنزل على محمد ﷺ [٧].

وقال عطاء: ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس فقهًا وأعظم خشية، إن أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشِّعر عنده، يصدرهم كلهم من واد واسع [٨].

وقال أبو وائل: خطبنا ابن عباس وهو على الموسم (أي: والٍ على موسم الحج من عثمان ﷺ) فافتتح سورة النور وجعل يقرأ ويفسر، فجعلت أقول ما رأيت، ولا سمعت كلام رجل مثله، ولو سمعته

---

(١) «الإصابة في تمييز الصحابة» (٤/ ٢٣٥).

(٢) راجع ترجمته في سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٣١ - ٣٥٩).

(٣) رواه البخاري (٣٥٤٦)، والترمذي (٣٨٢٤)، وابن ماجه (١٦٦) من حديث ابن عباس ﷺ.

(٤) رواه البخاري (١٤٣)، ومسلم (٢٤٧٧) من حديث ابن عباس ﷺ.

(٥) رواه البخاري (٤٠٤٣) من حديث ابن عباس ﷺ.

(٦) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٢٢٢٠).

(٧) «الإصابة في تمييز الصحابة» (٤/ ١٤٧).

(٨) «الإصابة في تمييز الصحابة» (٤/ ١٤٨).

فارس والروم والترك لأسلمت [١].

ولَّاه عثمان على موسم الحج سنة خمس وثلاثين، وولَّاه عليٌّ على البصرة فلما قُتل مضى إلى الحجاز، فأقام في مكة، ثم خرج منها إلى الطائف فمات فيها سنة ثمان وستين عن إحدى وسبعين سنة.

المُشْتَهِرُونَ بالتَّفْسِيرِ مِنَ التَّابعينَ

اشتهر بالتفسير من التابعين كثيرون فمنهم:

أ- أهل مكة وهم أتباع ابن عباس كمُجَاهد وعكرمة وعَطَاء بن أبي رَبَاح.

ب- أهل المدينة وهم اتباع أُبيٍّ بن كعب، كزَيْد بن أسْلَم وأبي العالية ومحمد بن كَعْب القُرَظِي.

ج- أهل الكوفة وهم أتباع ابن مسعود، كقَتَادة وعلقمة، والشَّعبي. فلنترجم لحياة اثنين من هؤلاء: مُجاهد وقَتَادة.

١ - مُجَاهِدٌ [٢]

هو مجاهد بن جَبْر المكي مولى السائب بن أبى السائب المخزومي ولد سنة إحدى وعشرين من الهجرة، وأخذ تفسير القرآن عن ابن عباس رضي الله عنهما، روى ابن إسحاق عنه أنه قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عَرَضَات من فاتحته إلى خاتمته أُوقفه عند كل آية وأسأله عنها [٣]، وكان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به [٤]، واعتمد تفسيرَه الشافعيُّ والبخاري وكان كثيرًا ما ينقل عنه في «صحيحه» وقال الذهبي في آخر ترجمته: أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به [٥]، توفي في مكة وهو ساجد سنة أربع ومائة، عن ثلاث وثمانين سنة.

٢ - قَتَادَةُ [٦]

هو قتادة بن دعامة السَّدُوسي البصري ولد أَكْمه ـ أي أعمي ـ سنة إحدى وستين، وجدَّ في طلب العلم، وكان له حافظة قوية حتى قال في نفسه: ما قلت لمحدِّث قط أعد لي، وما سمعت أذناي شيئًا قط إلا وعاه قلبي، وذكره الإمام أحمد فأطنب في ذكره فجعل ينشر من علمه وفقهه ومعرفته بالاختلاف والتفسير ووصفه بالحفظ والفقه، وقال: قلما تجد من يتقدمه أما المْثل فلعل، وقال: هو أحفظ أهل البصرة، لم يسمع شيئًا إلا حفظه [٧]، وتوفي في واسط سنة سبع عشرة ومائة، عن ستة وخمسين سنة.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٣٥١).

(٢) راجع ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٤٤٩ – ٤٥٧).

(٣) «تفسير الطبري» (١/ ٩٠)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٥٩١).

(٤) «تفسير الطبري» (١/ ٩١)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٠).

(٥) «تهذيب التهذيب» (١٠/ ٤٠).

(٦) راج ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٦٩ – ٢٨٣).

(٧) «البداية والنهاية» (٩/ ٣٤٣).

القرآن محكم ومتشابه

يتنوع القرآن الكريم باعتبار الإحكام والتشابه إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الإحكام العام الذي وُصف به القرآن كله، مثل قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] وقوله: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس:١] وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤].

ومعنى هذا الإحكام: الإتقان والجودة في ألفاظه ومعانيه فهو في غاية الفصاحة والبلاغة، أخباره كلها صدق نافعة، ليس فيها كذب، ولا تناقض، ولا لغو لا خير فيه، وأحكامه كلها عدل، وحكمه ليس فيها جور ولا تعارض ولا حكم سفيه.

النوع الثاني: التشابه العام الذي وصف به القرآن كله، مثل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣] ومعنى هذا التشابه، أن القرآن كله يشبه بعضه بعضًا في الكمال والجودة والغايات الحميدة، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢].

النوع الثالث: الإحكام الخاص ببعضه، والتشابه الخاص ببعضه، مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران:٧].

ومعنى هذا الإحكام: أن يكون معنى الآية واضحًا جليًّا، لا خفاء فيه، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات:١٣]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١] وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥] وقوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣] وأمثال ذلك كثيرة.

ومعنى هذا التشابه: أن يكون معنى الآية مشتبهًا خفيًّا، بحيث يتوهم منه الواهم ما لا يليق بالله تعالى، أو كتابه أو رسوله، ويفهم منه العالم الراسخ في العلم خلاف ذلك.

مثاله: فيما يتعلق بالله تعالى، أن يتوهم واهم من قوله تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] أن لله يدين مماثلتين لأيدي المخلوقين.

ومثاله فيما يتعلق بكتاب الله تعالى: أن يتوهم واهم تناقض القرآن وتكذيب بعضه بعضًا حين يقول: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] ويقول في موضع آخر: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

ومثاله فيما يتعلق برسول الله: أن يتوهم واهم من قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ

﴿ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [يونس:٩٤] فهذا ظاهره أن النبي ﷺ كان شاكًا فيما أُنزل إليه.

مَوقِفُ الرَّاسِخِينَ فِي العِلمِ وَالزَّائِغِينَ مِنَ المُتَشَابِهِ

إن موقف الراسخين في العلم من المتشابه وموقف الزائغين منه بينه الله تعالى فقال في الزائغين: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧] وقال في الراسخين في العلم: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] فالزائغون يتخذون من هذه الآيات المشتبهات وسيلة للطعن في كتاب الله، وفتنة الناس عنه، وتأويله لغير ما أراد الله تعالى به، فيَضِلُّون، ويُضِلُّون وأما الراسخون في العلم يؤمنون بأن ما جاء في كتاب الله تعالى فهو حق وليس فيه اختلاف ولا تناقض؛ لأنه من عند الله ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢] وما جاء مشتبهًا ردوه إلى المحْكَم ليكون الجميع محكمًا.

ويقولون في المثال الأول: إن لله تعالى يدين حقيقيتين على ما يليق بجلاله وعظمته، لا تماثلان أيدي المخلوقين، كما أن له ذاتًا لا تماثل ذوات المخلوقين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ويقولون في المثال الثاني: إن الحسنة والسيئة كلتاهما بتقدير الله عز وجل، لكن الحسنة سببها التفضل من الله تعالى على عباده، أما السيئة فسببها فِعْل العبد كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى:٣٠] فإضافة السيئة إلى العبد من إضافة الشيء إلى سببه، لا من إضافته إلى مُقدِّرِه، أما إضافة الحسنة والسيئة إلى الله تعالى فمن باب إضافة الشيء إلى مُقدِّرِه، وبهذا يزول ما يوهم الاختلاف بين الآيتين لانفكاك الجهة.

ويقولون في المثال الثالث: أن النبي ﷺ لم يقع منه شك فيما أُنزل إليه، بل هو أعلم الناس به، وأقواهم يقينًا كما قال الله تعالى في نفس السورة: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٤] المعنى: إن كنتم في شك منه فأنا على يقين منه، ولهذا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، بل أكفر بهم وأعبد الله.

ولا يلزم من قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [يونس: ٩٤] أن يكون الشك جائزًا على الرسول ﷺ، أو واقعًا منه ألا ترى قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١] هل يلزم منه أن يكون الولد جائزًا على الله تعالى أو حاصلًا؟ كلا، فهذا لم يكن حاصلًا، ولا جائزًا على الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٢، ٩٣].

ولا يلزم من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧] أن يكون الامتراء واقعًا من الرسول ﷺ؛ لأن النهي عن الشيء قد يوجه إلى من لم يقع منه، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ

إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [القصص:٨٧]، ومن المعلوم أنهم لم يصدوا النبي ﷺ عن آيات الله، وأن النبي ﷺ لم يقع منه شرك. والغرض من توجيه النهي إلى من لا يقع منه: التنديد بمن وقع منهم والتحذير من منهاجهم، وبهذا يزول الاشتباه، والظن بما لا يليق بالرسول ﷺ.

❁ ❁ ❁

أنواع التشابه في القرآن

التشابه الواقع في القرآن نوعان:

أحدهما: حقيقي وهو ما لا يمكن أن يعلمه البشر كحقائق صفات الله عز وجل، فإننا وإن كنا نعلم معاني هذه الصفات، لكننا لا ندرك حقائقها وكيفيتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] وقوله تعالى: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:١٠٣]؛ ولهذا لما سئل الإمام مالك رحمه الله تعالى عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه:٥] كيف استوى؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة[1]، وهذا النوع لا يسأل عن استكشافه لتعذر الوصول إليه.

النوع الثاني: نسبي وهو ما يكون مشتبهًا على بعض الناس دون بعض، فيكون معلومًا للراسخين في العلم دون غيرهم، وهذا النوع يُسأل عن استكشافه وبيانه؛ لإمكان الوصول إليه، إذْ لا يوجد في القرآن شيء لا يتبين معناه لأحد من الناس، قال الله تعالى: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٨] وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩] وقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٨] وقال: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة:١٩] وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ [النساء:١٧٤].

وأمثلة هذا النوع كثيرة منها قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]؛ حيث اشتبه على أهل التعطيل[2]، ففهموا منه انتفاء الصفات عن الله تعالى، وادَّعَوْا أن ثبوتها يستلزم المماثلة، وأعرضوا عن الآيات الكثيرة الدالة على ثبوت الصفات له، وأن إثبات أصل المعنى لا يستلزم المماثلة.

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٩٣] حيث اشتُبه على الوعيدية[3]، ففهموا منه أن قاتل

---

(١) «أقاويل الثقات» للكرمى (١/ ١٢١)، و«إيضاح الدليل» (١/ ٤١)، و«اعتقاد أهل السنة» للالكائي (٣/ ٣٩٨)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (٢/ ٣٠٦).

(٢) قال الشيخ العثيمين رحمه الله في «شرح العقيدة السفارينية»: (والتعطيل: هو تخلية الله تعالى عما يجب له من الأسماء والصفات، فيعطلون النصوص عن مدلولها ويخلون الله عز وجل عما يتصف به مما تقتضيه هذه النصوص).

(٣) وهم الذين يقولون بخلود كل من مات مُصرًّا على الكبائر دون الشرك في النار، ويقولون بأن شفاعة النبي ﷺ إنما هي للمؤمنين خاصة في رفع الدرجات، ومنهم من أنكر الشفاعة مطلقًا.

المؤمن عمدًا مخلدٌ في النار، وطردوا ذلك في جميع أصحاب الكبائر، واعرضوا عن الآيات الدالة على أن كل ذنب دون الشرك فهو تحت مشيئة الله تعالى.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠] حيث اشتبه على الجبرية[1]، ففهموا منه أن العبد مجبور على عمله، وادعوا أنه ليس له إرادة ولا قدرة عليه، وأعرضوا عن الآيات الدالة على أن للعبد إرادة وقدرة، وأن فعل العبد نوعان: اختياري، وغير اختياري.

والراسخون في العلم أصحاب العقول، يعرفون كيف يُخرجون هذه الآيات المتشابهة إلى معنى يتلاءم مع الآيات الأخرى، فيبقى القرآن كله محكمًا لا اشتباه فيه.

الحِكْمَةُ فِي تَنَوُّعِ القُرْآنِ إِلَى مُحْكَمٍ وَمُتَشَابِهٍ

لو كان القرآن كله مُحكمًا لفاتت الحكمة من الاختبار به تصديقًا وعملًا لظهور معناه، وعدم المجال لتحريفه، والتمسك بالمتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، ولو كان كله متشابهًا لفات كونه بيانًا، وهدى للناس، ولما أمكن العمل به، وبناء العقيدة السليمة عليه، ولكن الله تعالى بحكمته جعل منه آيات محكمات، يرجع إليهن عند التشابه، وأُخر متشابهات امتحانًا للعباد، ليتبين صادق الإيمان ممن في قلبه زيغ، فإن صادق الإيمان يعلم أن القرآن كله من عند الله تعالى، وما كان من عند الله فهو حق، ولا يمكن أن يكون فيه باطل، أو تناقض لقوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقوله تعالى ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وأما مَنْ في قلبه زيغ، فيتخذ من المتشابه سبيلًا إلى تحريف المحْكَم واتباع الهوى في التشكيك في الأخبار والاستكبار عن الأحكام، ولهذا تجد كثيرًا من المنحرفين في العقائد والأعمال يحتجون على انحرافهم بهذه الآيات المتشابهة.

مُوهِمُ التَّعَارُضِ فِي القُرْآنِ

التعارض في القرآن أن تتقابل آيتان، بحيث يمنع مدلول إحداهما مدلول الأخرى، مثل أن تكون إحداهما مثبتة لشيء والأخرى نافية فيه.

ولا يمكن أن يقع التعارض بين آيتين مدلولهما خبري؛ لأنه يلزم كون إحداهما كذبًا، وهو مستحيل في أخبار الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] ولا يمكن أن يقع التعارض بين آيتين مدلولهما حُكْمي؛ لأن الأخيرة منهما ناسخة للأولى قال الله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦] وإذا ثبت النسخ كان

---

(١) الجبرية هي مذهب الجهم بن صفوان، الذي قال بأن الأفعال مقدورة للرب وليس للعبد، والمؤثر فيه قدرة الرب وليس العبد. «معجم ألفاظ العقيدة» (ص ١٢١).

حكم الأولى غير قائم ولا معارض للأخيرة.

وإذا رأيت ما يوهم التعارض من ذلك، فحاولِ الجمع بينهما، فإن لم يتبين لك وَجَبَ عليك التوقف، وَكِلِ الأمر إلى عالمه.

وقد ذكر العلماء رحمهم الله أمثلة كثيرة لما يوهم التعارض، وبينوا الجمع في ذلك. ومن أجمع ما رأيتُ في هذا الموضوع كتاب «**دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب**» للشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى.

فمن أمثلة ذلك قوله تعالى في القرآن: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥] فجعل هداية القرآن في الآية الأولى خاصة بالمتقين، وفي الثانية عامة للناس، والجمع بينهما أن الهداية في الأولى هداية التوفيق والانتفاع، والهداية في الثانية هداية التبيان والإرشاد.

ونظير هاتين الآيتين قوله تعالى في الرسول ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦] وقوله فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فالأولى هداية التوفيق والثانية هداية التبيين.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨] وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٦٢] وقوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٣] وقوله: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١] ففي الآيتين الأوليين نفي الألوهية عما سوى الله تعالى وفي الأخريين إثبات الألوهية لغيره.

والجمع بين ذلك: أن الألوهية الخاصة بالله عز وجل هي الألوهية الحق، وأن المثبتة لغيره هي الألوهية الباطلة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢].

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨] وقوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء :١٦] ففي الآية الأولى نفى أن يأمر الله تعالى بالفحشاء، وظاهر الثانية أن الله تعالى يأمر بما هو فسق. والجمع بينهما أن الأمر في الآية الأولى هو الأمر الشرعي، والله تعالى لا يأمر شرعًا بالفحشاء، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠] والأمر في الآية الثانية هو الأمر الكوني، والله تعالى يأمر كونًا بما شاء حسب ما تقتضيه حكمته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، ومن رام زيادة أمثلة فليرجع إلى كتاب الشيخ الشنقيطي المشار إليه آنفًا.

القَسَمُ

القَسَم (بفتح القاف والسين): اليمين، وهو: تأكيد الشيء بذكر مُعَظَّم بالواو، أو إحدى أخواتها، وأدواته ثلاث:

الواو – مثل قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣] ويحذف معها العامل وجوبًا، ولا يليها إلا اسم ظاهر.

والباء – مثل قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة:١]، ويجوز معها ذكر العامل كما في هذا المثال، ويجوز حذفه كقوله تعالى عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢] ويجوز أن يليها اسم ظاهر كما مثلنا، وأن يليها ضمير كما في قولك: الله ربي وبه أحلف لينصرنَّ المؤمنين.

والتاء – مثل قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦]، ويحذف معها العامل وجوبًا، ولا يليها إلا اسم الله، أو رب مثل: ورَبِّ الكعبة لأحجنَّ إن شاء الله.

والأصل ذكر المقْسَم به، وهو كثير كما في الأمثلة السابقة، وقد يحذف وحده مثل قولك: أحلف عليك لتجتهدن.

وقد يُحذف مع العامل وهو كثير مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨].

والأصل ذكر المقْسَم عليه، وهو كثير مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧] وقد يُحذف جوازًا مثل قوله تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:١] وتقديره ليُهْلَكُنَّ.

وقد يُحذف وجوبًا إذا تقدمه، أو اكتنفه ما يغني عنه، قاله ابن هشام في «المغني»[1] ومثل له بنحو: زيد قائم والله، وزيد والله قائم.

وللقسم فائدتان:

إحداهما: بيان عظمة المقْسَم به.

والثانية: بيان أهمية الـمُقسَمِ عليه، وإرادة توكيده؛ ولذا لا يحسن القسم إلا في الأحوال التالية:

الأولى: أن يكون الـمُقسَمِ عليه ذا أهمية.

الثانية: أن يكون المخاطب مترددًا في شأنه.

الثالثة: أن يكون المخاطب منكرًا له.

---

(١) وهو كتاب «مُغني اللبيب عن كتب الأعاريب».

القَصَصُ

القصص والقص لغة: تتبع الأثر [(١)].

وفي الاصطلاح: الإخبار عن قضية ذات مراحل، يتبع بعضها بعضًا.

وقصص القرآن أصدق القصص؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وذلك لتمام مطابقتها على الواقع وأحسن القصص لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣] وذلك لاشتمالها على أعلى درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنى.

وأنفع القصص؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]. وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق.

وهي ثلاثة أقسام:

الأول: قسم عن الأنبياء والرسل، وما جرى لهم مع المؤمنين بهم والكافرين.

الثاني: وقسم عن أفراد وطوائف، جرى لهم ما فيه عبرة، فنقلة الله تعالى عنهم، كقصة مريم، ولقمان، والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وذي القرنين، وقارون، وأصحاب الكهف، وأصحاب الفيل، وأصحاب الأخدود وغير ذلك.

الثالث: وقسم عن حوادث وأقوام في عهد النبي ﷺ، كقصة غزوة بدر، وأُحدٍ، والأحزاب، وبني قريظة، وبني النضير، وزيد بن حارثة، وأبي لهب، وغير ذلك.

وللقصص في القرآن حكم كثيرة عظيمة منها:

١- بيان حكمة الله تعالى فيما تضمنته هذه القصص؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٤-٥].

٢- بيان عدله تعالى بعقوبة المُكذِّبين؛ لقوله تعالى عن المكذبين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٠١].

٣- بيان فضله تعالى بمثوبة المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ۝٣٤ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٤-٣٥].

٤- تسلية النبي ﷺ عما أصابه من المكذِّبين له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ۝٢٥ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥، ٢٦].

٥- ترغيب المؤمنين في الإيمان بالثبات عليه والازدياد منه، إذ علموا نجاة المؤمنين السابقين، وانتصار من أُمروا بالجهاد؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

---

(١) راجع «لسان العرب» (٧/ ٧٣).

[الأنبياء:٨٨] وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧].

٦- تحذير الكافرين من الاستمرار في كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ [محمد:١٠].

٧- إثبات رسالة النبي ﷺ فإن أخبار الأمم السابقة لا يعلمها إلا الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود:٤٩] وقوله: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [إبراهيم: ٩].

تكرار القصص

من القصص القرآنية ما لا يأتي إلا مرة واحدة، مثل قصة لقمان، وأصحاب الكهف، ومنها ما يأتي متكررًا حسب ما تدعو إليه الحاجة، وتقتضيه المصلحة، ولا يكون هذا الـمُتكرِّر على وجه واحد، بل يختلف في الطول والقصر واللين والشدة وذكر بعض جوانب القصة في موضع دون آخر.

ومن الحكمة في هذا التكرار:

١- بيان أهمية تلك القصة؛ لأن تكرارها يدل على العناية بها.

٢- توكيد تلك القصة لتثبت في قلوب الناس.

٣- مراعاة الزمن وحال الـمُخاطَبين بها، ولهذا تجد الإيجاز والشدة غالبًا فيما أتى من القصص في السور المكية والعكس فيما أتى في السور المدنية.

٤- بيان بلاغة القرآن في ظهور هذه القصص على هذا الوجه وذاك الوجه على ما تقتضيه الحال.

٥- ظهور صدق القرآن، وأنه من عند الله تعالى؛ حيث تأتي هذه القصص متنوعة بدون تناقص.

الإسرائيليات

الإسرائيليات: الأخبار المنقولة عن بني إسرائيل من اليهود وهو الأكثر، أو من النصارى. وتنقسم هذه الأخبار إلى ثلاثة أنواع:

الأول: ما أقره الإسلام، وشهد بصدقه فهو حق.

مثاله: ما رواه البخاري [(١)] وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حَبْرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع وسائر الخلائق على إصبع فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت

(١) رواه البخاري (٤٥٣٣)، ومسلم (٢٧٨٦).

نواجذه تصديقًا لقول الحَبْرُ، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧].

الثاني: ما أنكره الإسلام وشهد بكذبه فهو باطل، مثاله ما رواه البخاري[(١)] عن جابر رضي الله عنه قال: كانت اليهود تقول: إذا جامع الرجل زوجته من ورائها جاء الولد أحول؛ فنزلت: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

الثالث: ما لم يقره الإسلام، ولم ينكره، فيجب التوقف فيه، لما رواه البخاري[(٢)] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعِبْذرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُم، وَقُولُوا**: ﴿آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾» [العنكبوت: ٤٦]، ولكن التحدث بهذا النوع جائز، إذا لم يُخْشَ محظور؛ لقول النبي ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ من النَّار**» رواه البخاري[(٣)].

وغالب ما يُروى عنهم من ذلك ليس بذي فائدة في الدين كتعيين لوْن كلب أصحاب الكهف ونحوه.

وأما سؤال أهل الكتاب عن شيء من أمور الدين، فإنه حرام لما رواه الإمام أحمد[(٤)] عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الكِتَابِ عَنْ شيء؛ فَإِنَّهُم لَنْ يَهْدُوكُم، وَقَدْ ضَلُّوا، فَإِنَّكُم إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ، أَوْ تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ، وَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتبعَنِي**». وروى البخاري[(٥)] عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم ﷺ أحدث الأخبار بالله محضًا، لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتاب الله، وغيَّروا، وكتبوا بأيديهم، قالوا: هو من عند الله؛ ليشتروا بذلك ثمنًا قليلًا، أو لا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ فلا والله رأينا رجلًا منهم يسألكم عن الذي أنزل إليكم.

---

(١) رواه البخاري (٤٢٥٤)، ومسلم (١٤٣٥).

(٢) رواه البخاري (٤٢١٥).

(٣) صحيح البخاري (٣٢٧٤).

(٤) رواه أحمد في «مسنده» (١٤٦٧٢)، وقال الشيخ شعيب رحمه الله تعالى: إسناده ضعيف لضعف مجالد: وهو ابن سعيد.

(٥) رواه البخاري (٢٥٣٩).

موقف العلماء من الإسرائيليات

اختلفت مواقف العلماء - ولاسيما المفسرون - من هذه الإسرائيليات على ثلاثة أنحاء:

أ- فمنهم من أكثر منها مقرونة بأسانيدها، ورأي أنه بذكر أسانيدها خرج من عهدتها، مثل ابن جرير الطبري.

ب- ومنهم من أكثر منها، وجردها من الأسانيد غالبًا، فكان حاطب ليل مثل البَغَويُّ الذي قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن تفسيره: إنه مختصر من الثَّعلبي، لكنه صانه عن الأحاديث الموضوعية والآراء المبتدعة، وقال عن الثعلبي: إنه حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع [١].

ج- ومنهم من ذكر كثيرًا منها، وتعقَّب البعض مما ذكره بالتضعيف أو الإنكار مثل ابن كثير.

د- ومنهم من بالغ في ردها ولم يذكر منها شيئًا يجعله تفسيرًا للقرآن كمحمد رشيد رضا. [٢]

❁ ❁ ❁

الضَّمِيرُ

الضمير لغةً: من الضُّمور وهو الهُزال؛ لقلة حروفه أو من الإضمار وهو الإخفاء لكثرة استتاره [٣].

وفي الاصطلاح: ما كُني به عن الظاهر اختصارًا وقيل: ما دل على حضور، أو غيبة لا من مادتها.

فالدال على الحضور نوعان:

أحدهما: ما وضع للمتكلم مثل: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٤٤]

الثاني: ما وُضِعَ للمخاطَب مثل: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧].

وهذان لا يحتاجان إلى مرجع اكتفاء بدلالة الحضور عنه.

والدال على الغائب: ما وضع للغائب. ولابد له من مرجع يعود عليه.

والأصل في المرجع: أن يكون سابقًا على الضمير لفظًا ورتبة، مطابقًا له لفظًا ومعنىً مثل: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ [هود: ٤٥].

وقد يكون مفهومًا من مادة الفعل السابق مثل: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وقد يسبق لفظًا لا رتبة مثل: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ﴾ [البقرة: ١٢٤] وقد يسبق رتبة لا لفظًا مثل: (حمل كتابه الطالبُ).

وقد يكون مفهومًا من السياق مثل قوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٣٥٤)، و«منهاج السنة النبوية» (٧/ ٩٠).

(٢) صاحب «تفسير المنار» ومؤسس «مجلة المنار».

(٣) راجع «لسان العرب» (٤/ ٤٩١).

وَلَدٌ﴾ [النساء: ١١] فالضمير يعود على الميت المفهوم من قوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾.

وقد لا يطابق الضمير معنى مثل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣] فالضمير يعود على الإنسان باعتبار اللفظ؛ لأن المجعول نطفة ليس الإنسان الأول.

وإذا كان المرجع صالحًا للمفرد والجمع جاز عود الضمير عليه بأحدهما مثل: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١].

والأصل اتحاد مرجع الضمائر إذا تعددت مثل قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم:٥-١٠] فضمائر الرفع في هذه الآيات تعود إلى شديد القوى وهو جبريل، والأصل عود الضمير على أقرب مذكور إلا في المتضايفين فيعود على المضاف؛ لأنه المتحدث عنه مثال الأول: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الإسراء: ٢].

ومثال الثاني: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقد يأتي على خلاف الأصل فيما سبق بدليل يدل عليه.

الإظهار في موضع الإضمار

الأصل أن يُؤتى في مكان الضمير بالضمير؛ لأنه أبين للمعنى وأخصر للفظ، ولهذا ناب الضمير بقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥] عن العشرين كلمة المذكورة قبله، وربما يؤتى مكان الضمير بالاسم الظاهر وهو ما يسمى (الإظهار في موضع الإضمار). وله فوائد كثيرة تظهر بحسب السياق منها:

١- الحكم على مرجعه بما يقتضيه الاسم الظاهر.

٢- بيان علة الحكم.

٣- عموم الحكم لكل متصف بما يقتضيه الاسم الظاهر.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨] ولم يقل فإن الله عدو له، فأفاد هذا الإظهار:

١- الحكم بالكفر على من كان عدوًّا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال.

٢- إن الله عدو لهم بكفرهم.

٣- أن كل كافر فالله عدو له.

مثال آخر: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٧٠] ولم يقل إنا لا نضيع أجرهم، فأفاد ثلاثة أمور:

١- الحكم بالإصلاح للذين يمسكون الكتاب، ويقيمون الصلاة.

٢- أن الله آجرهم لإصلاحهم.

٣- أن كل مصلح له أجر غير مضاع عند الله تعالى.

وقد يتعين الإظهار، كما لو تقدم الضمير مرجعان، يصلح عَوْدُه إلى كل منهما والمراد أحدهما مثل: اللهم أصلح للمسلمين ولاة أمورهم وبطانة ولاة أمورهم، إذ لو قيل: وبطانتهم؛ لأَوْهَم أن يكون المراد

بطانة المسلمين.

ضمير الفصل

ضمير الفصل: حرف بصيغة ضمير الرفع المنفصل يقع بين المبتدأ والخبر إذا كانا معرفتين، ويكون بضمير المتكلم كقوله تعالى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤] وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٥] وبضمير المخاطب كقوله تعالى: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] وبضمير الغائب كقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:٥] وله ثلاثة فوائد:

الأولى: التوكيد، فإن قولك: زيد هو أخوك أوكد من قولك: زيد أخوك.

الثانية: الحصر، وهو اختصاص ما قبله بها بعده، فإن قولك: المجتهد هو الناجح يفيد اختصاص المجتهد بالنجاح.

الثالثة: الفصل أي: التمييز بين كونه ما بعده خبرًا، أو تابعًا، فإن قولك: زيد الفاضل يحتمل أن تكون الفاضل صفة لزيد، والخبر منتظر، ويحتمل أن تكون الفاضل خبرًا، وإذا قلت: زيد هو الفاضل، تعين أن تكون الفاضل خبرًا، لوجود ضمير الفصل.



الالتفات

الالتفات: تحويل أسلوب الكلام من وجه إلى آخر، وله صور منها:

١- الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٢-٥] فحوَّل الكلام من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾.

٢- الالتفات من الخطاب إلى الغيبة كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢]، فحوَّل الكلام من الخطاب إلى الغيبة بقوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾.

٣- الالتفات من الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢] فحول الكلام من الغيبة إلى التكلم في قوله وبعثنا.

٤- الالتفات من التكلم إلى الغيبة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾، فحول الكلام من التكلم إلى الغيبة بقوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾.

وللالتفات فوائد منها:

١- حمل المخاطب على الانتباه لتغير وجه الأسلوب عليه.

٢- حمله على التفكير في المعنى، لأن تغيُّر وجه الأسلوب، يؤدي إلى التفكير في السبب.

٣- دفع السآمة والملل عنه، لأن بقاء الأسلوب على وجه واحد، يؤدي إلى الملل غالبًا، وهذه الفوائد عامة للالتفات في جميع صوره.

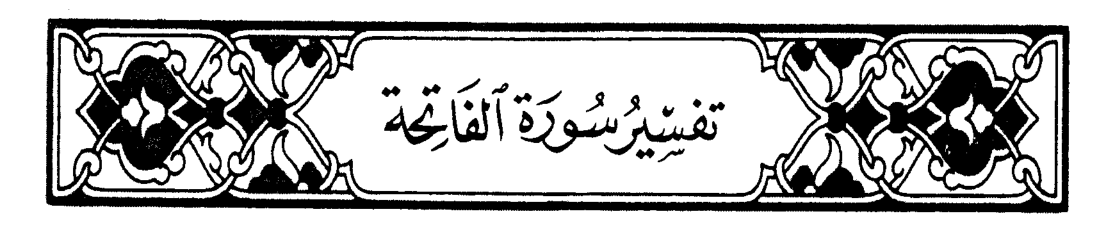
أما الفوائد الخاصة فتتعين في كل صورة، حسب ما يقتضيه المقام.

والله أعلم. وصلى اللهُ وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

ولله الحمد رب العالمين.

تفسير سورة الفاتحة





تفسير سورة الفاتحة

سورة الفاتحة سمِّيت بذلك؛ لأنه افتتح بها القرآن الكريم؛ وقد قيل: إنها أول سورة نزلت كاملة.

هذه السورة قال العلماء: إنها تشتمل على مجمل معاني القرآن في التوحيد، والأحكام، والجزاء، وطرق بني آدم، وغير ذلك؛ ولذلك سمِّيت «أم القرآن»[1]؛ والمرجع للشيء يسمى «**أمًّا**».

وهذه السورة لها مميزات تتميّز بها عن غيرها؛ منها: أنها ركن في الصلوات التي هي أفضل أركان الإسلام بعد الشهادتين: فلا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب [2]؛ ومنها أنها رقية: إذا قرئ بها على المريض شُفي بإذن الله؛ لأن النبي ﷺ قال للذي قرأ على اللديغ فبرئ: «**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ**»؟![3].

وقد ابتدع بعض الناس اليوم في هذه السورة بدعة، فصاروا يختمون بها الدعاء، ويبتدئون بها الخُطب ويقرؤونها عند بعض المناسبات، وهذا غلط: تجده مثلًا إذا دعا، ثم دعا قال لمن حوله: «**الفاتحة**»، يعني: اقرأوا الفاتحة؛ وبعض الناس يبتدئ بها في خطبه، أو في أحواله؟ وهذا أيضًا غلط؛ لأن العبادات مبناها على التوقيف والاتِّباع.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾: الجار والمجرور متعلق بمحذوف؛ وهذا المحذوف يقدَّر فعلًا متأخرًا مناسبًا؛ فإذا قلت: «**باسم الله**» وأنت تريد أن تأكل؛ تقدر الفعل: «**باسم الله آكل**».

قلنا: إنه يجب أن يكون متعلقًا بمحذوف؛ لأن الجار والمجرور معمولان؛ ولا بد لكل معمول من عامل.

---

(١) انظر «صحيح البخاري» (٤٤٢٧)، ومسلم (٢٩٥).

(٢) رواه البخاري (٧٢٣)، ومسلم (٣٩٤).

(٣) رواه البخاري (٢١٥٦)، ومسلم (٢٢٠١).

وقدرناه متأخرًا لفائدتين:

الفائدة الأولى: التبرك بتقديم اسم الله عزَّ وجلَّ.

والفائدة الثانية: الحصر؛ لأن تأخير العامل يفيد الحصر، كأنك تقول: لا آكل باسم أحد متبركًا به، ومستعينًا به، إلا باسم الله عزَّ وجلَّ.

وقدرناه فعلًا؛ لأن الأصل في العمل الأفعال، وهذه يعرفها أهل النحو؛ ولهذا لا تعمل الأسماء إلا بشروط.

وقدرناه مناسبًا؛ لأنه أدلّ على المقصود؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: «مَنْ لَمْ يَذْبَحْ فَلْيَذْبَح بِاسْمِ الله»[1]. أو قال ﷺ: «عَلَى اسْمِ الله»[2]. فخص الفعل.

و﴿ٱللَّهِ﴾: اسم الله رب العالمين لا يسمى به غيره؛ وهو أصل الأسماء؛ ولهذا تأتي الأسماء تابعةً له.

و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: ذو الرحمة الواسعة؛ ولهذا جاء على وزن «فَعْلان» الذي يدل على السعة.

و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: الموصل للرحمة من يشاء من عباده؛ ولهذا جاءت على وزن «فعيل» الدال على وقوع الفعل.

فهنا رحمة هي صفته. هذه دل عليها ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ ورحمة هي فعله. أي: إيصال الرحمة إلى المرحوم. دلّ عليها ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾.

و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: اسمان من أسماء الله، يدلان على الذات، وعلى صفة الرحمة، وعلى الأثر: أي: الحكم الذي تقتضيه هذه الصفة.

والرحمة التي أثبتها الله لنفسه رحمة حقيقية دلّ عليها السمع، والعقل؛ أما السمع: فهو ما جاء في الكتاب والسنّة من إثبات الرحمة لله. وهو كثير جدًّا؛ وأما العقل: فكل ما حصل من نعمة، أو اندفع من نقمة فهو من آثار رحمة الله.

هذا وقد أنكر قوم وصف الله تعالى بالرحمة الحقيقية، وحرّفوها إلى الإنعام، أو إرادة الإنعام، زعمًا منهم أن العقل يحيل وصف الله بذلك؛ قالوا: «**لأن الرحمة انعطاف، ولين، وخضوع، ورقة؛ وهذا لا يليق بالله عزَّ وجلَّ**»؛ والرد عليهم من وجهين:

الوجه الأول: منع أن يكون في الرحمة خضوع، وانكسار، ورقة؛ لأننا نجد من الملوك الأقوياء رحمة دون أن يكون منهم خضوع، ورقة، وانكسار.

الوجه الثاني: أنه لو كان هذا من لوازم الرحمة ومقتضياتها فإنما هي رحمة المخلوق؛ أما رحمة الخالق سبحانه وتعالى فهي تليق بعظمته، وجلاله، وسلطانه؛ ولا تقتضي نقصًا بوجه من الوجوه.

---

(١) رواه البخاري (٩٤٢)، ومسلم (١٩٦٠).

(٢) رواه البخاري (٥١٨١)، ومسلم (١٩٦٠).

ثم نقول: إن العقل يدل على ثبوت الرحمة الحقيقية لله عزَّ وجلَّ، فإن ما نشاهده في المخلوقات من الرحمة بَيْنها يدل على رحمة الله عزَّ وجلَّ؛ ولأن الرحمة كمال؛ والله أحق بالكمال؛ ثم إن ما نشاهده من الرحمة التي يختص الله بها كإنزال المطر، وإزالة الجدب، وما أشبه ذلك يدل على رحمة الله.

والعجب أن منكري وصف الله بالرحمة الحقيقية بحجة أن العقل لا يدل عليها، أو أنه يحيلها، قد أثبتوا لله إرادة حقيقية بحجة عقلية أخفى من الحجة العقلية على رحمة الله، حيث قالوا: إن تخصيص بعض المخلوقات بما تتميز به يدل عقلًا على الإرادة؛ ولا شك أن هذا صحيح؛ ولكنه بالنسبة لدلالة آثار الرحمة عليها أخفى بكثير؛ لأنه لا يتفطن له إلا أهل النباهة؛ وأما آثار الرحمة فيعرفها حتى العوام، فإنك لو سألت عاميًا صباح ليلة المطر: «بِمَ مطرنا؟» لقال: «**بفضل الله ورحمته**»[1].

مسألة: هل البسملة آية من الفاتحة؛ أو لا؟

في هذا خلاف بين العلماء؛ فمنهم من يقول: إنها آية من الفاتحة، ويقرأ بها جهرًا في الصلاة الجهرية، ويرى أنها لا تصح إلا بقراءة البسملة؛ لأنها من الفاتحة؛ ومنهم من يقول: إنها ليست من الفاتحة؛ ولكنها آية مستقلة من كتاب الله؛ وهذا القول هو الحق؛ ودليل هذا: النص، وسياق السورة:

أما النص: فقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْن: إذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي؛ وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال الله تعالى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي؛ وإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال الله تعالى: مجّدني عبدي؛ وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال الله تعالى: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْن؛ وإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.. إلخ، قال الله تعالى: هذا لعبدي؛ ولعبدي ما سأل**»[2]؛ وهذا كالنص على أن البسملة ليست من الفاتحة؛ وفي «**الصحيح**» عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «**صلّيت خلف النبي ﷺ، وأبي بكر، وعمر؛ فكانوا لا يذكرون ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في أول قراءة، ولا في آخرها**»[3]: والمراد: لا يجهرون؛ والتمييز بينها وبين الفاتحة في الجهر وعدمه، يدل على أنها ليست منها.

أما من جهة السياق من حيث المعنى: فالفاتحة سبع آيات بالاتفاق؛ وإذا أردت أن توزع سبع الآيات على موضوع السورة، وجدت أن نصفها هو قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

---

(١) رواه البخاري (٨١٠)، ومسلم (٧١).

(٢) رواه مسلم (٣٩٥)، والترمذي (٢٩٥٣)، والنسائي (٩٠٩)، وأبوداود (٨٢١)، وابن ماجه (٣٧٨٤)، وأحمد في «مسنده» (٧٢٨٩)، والنسائي في «الكبرى» (٩٨١).

(٣) رواه مسلم (٣٩٩)، وأحمد في «مسنده» (١٢١٠٥)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٤٩٥)، وابن الجعد في «مسنده» (٩٢٢).

وهي الآية التي قال الله فيها: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ»[١]؛ لأن ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: واحدة؛ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: الثانية؛ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: الثالثة؛ وكلها حق لله عزَّ وجلَّ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: الرابعة. يعني: الوسَط؛ وهي قسمان: قسم منها حق لله؛ وقسم حق للعبد؛ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ للعبد؛ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ للعبد؛ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ للعبد.

فتكون ثلاث آيات لله عزَّ وجلَّ وهي الثلاث الأولى؛ وثلاث آيات للعبد؛ وهي الثلاث الأخيرة؛ وواحدة بين العبد وربِّه وهي الرابعة الوسطى.

ثم من جهة السياق من حيث اللفظ، فإذا قلنا: إن البسملة آية من الفاتحة لزم أن تكون الآية السابعة طويلة على قدر آيتين؛ ومن المعلوم أن تقارب الآيات في الطول والقصر هو الأصل.

فالصواب الذي لا شك فيه أن البسملة ليست من الفاتحة، كما أن البسملة ليست من بقية السور.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم؛ الكمال الذاتي، والوصفي، والفعلي؛ فهو كامل في ذاته، وصفاته، وأفعاله؛ ولا بد من قيد وهو «المحبة، والتعظيم»؛ قال أهل العلم: «**لأن مجرد وصفه بالكمال بدون محبة ولا تعظيم: لا يسمى حمدًا؛ وإنما يسمى مدحًا**»؛ ولهذا يقع من إنسان لا يحب الممدوح؛ لكنه يريد أن ينال منه شيئًا؛ تجد بعض الشعراء يقف أمام الأمراء، ثم يأتي لهم بأوصاف عظيمة لا محبة فيهم؛ ولكن محبة في المال الذي يعطونه، أو خوفًا منهم؛ ولكن حمدنا لربنا عزَّ وجلَّ حمدَ محبةٍ وتعظيمٍ؛ فلذلك صار لا بد من القيد في الحمد؟ أنه وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم؛ و«أل» في ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ للاستغراق: أي: استغراق جميع المحامد.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾: اللام للاختصاص والاستحقاق؛ و «الله» اسم ربنا عزَّ وجلَّ؛ لا يسمى به غيره؛ ومعناه: المألوه. أي: المعبود حبًا، وتعظيمًا.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ «الرب»: هو من اجتمع فيه ثلاثة أوصاف: الخلق، والملك، والتدبير؛ فهو الخالق المالك لكل شيء المدبر لجميع الأمور؛ و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: قال

(١) سبق تخريجه.

العلماء: كل ما سوى الله فهو من العالَم؛ وُصفوا بذلك؛ لأنهم عَلَم على خالقهم سبحانه وتعالى؛ ففي كل شيء من المخلوقات آية تدل على الخالق: على قدرته، وحكمته، ورحمته، وعزته، وغير ذلك من معاني ربوبيته.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** إثبات الحمد الكامل لله عزَّ وجلَّ، وذلك من «أل» في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾؛ لأنها دالة على الاستغراق.

٢ ـ **ومنها:** أن الله تعالى مستحق مختص بالحمد الكامل من جميع الوجوه؛ ولهذا كان النبي ﷺ إذا أصابه ما يسره قال: «**الحَمْدُ للهِ الذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ**»؛ وإذا أصابه خلاف ذلك قال: «**الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ**».

٣ ـ **ومنها:** تقديم وصف الله بالألوهية على وصفه بالربوبية؛ وهذا إما لأن «الله» هو الاسم العَلَم الخاص به، والذي تتبعه جميع الأسماء؛ وإما لأن الذين جاءتهم الرسل ينكرون الألوهية فقط.

٤ ـ **ومنها:** عموم ربوبية الله تعالى لجميع العالم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: صفة للفظ الجلالة؛ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: صفة أخرى؛ و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ هو ذو الرحمة الواسعة؛ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ هو ذو الرحمة الواصلة؛ فـ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وصفه؛ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ فعله؛ ولو أنه جيء بـ «الرحمن» وحده، أو بـ «الرحيم» وحده لشمل الوصف والفعل؛ لكن إذا اقترنا فُسِّر ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالوصف؛ و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالفعل.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** إثبات هذين الاسمين الكريمين ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ لله عزَّ وجلَّ؛ وإثبات ما تضمناه من الرحمة التي هي الوصف، ومن الرحمة التي هي الفعل.

٢ ـ **ومنها:** أن ربوبية الله عزَّ وجلَّ مبنية على الرحمة الواسعة للخلق الواصلة؛ لأنه تعالى لما قال: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كأن سائلًا يسأل: «**ما نوع هذه الربوبية؟ هل هي ربوبية أخذ وانتقام؛ أو ربوبية رحمة، وإنعام؟**» قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ صفة لله؛ و﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ هو يوم القيامة؛ و﴿ٱلدِّينِ﴾ هنا بمعنى: الجزاء؛ يعني: أنه سبحانه وتعالى مالك لذلك اليوم الذي يجازي فيه الخلائق؛ فلا مالك غيره في ذلك اليوم؛ و«الدين» تارةً يراد به الجزاء، كما في هذه الآية؛ وتارة يراد به العمل، كما في قوله تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، ويقال: «**كما تدين تدان**»، أي: كما تعمل تُجازى.

وفي قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ﴾ قراءة سبعية: ﴿مَلِكِ﴾، و«**الملك**» أخص من «**المالك**».

وفي الجمع بين القراءتين فائدة عظيمة؛ وهي: أن ملكه جلّ وعلا ملك حقيقي؛ لأن مِن الخلق مَن يكون ملكًا ولكن ليس بمالك: يسمى ملكًا اسمًا وليس له من التدبير شيء؛ ومِن الناس مَن يكون مالكًا، ولا يكون ملكًا كعامة الناس؛ ولكن الرب عزَّ وجلَّ مالكٌ ملِك.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** إثبات ملك الله عزَّ وجلَّ، وملكوته يوم الدين؛ لأن في ذلك اليوم تتلاشى جميع الملكيات، والملوك.

فإن قال قائل: أليس مالك يوم الدين، والدنيا؟

فالجواب: بلى؛ لكن ظهور ملكوته، وملكه، وسلطانه، إنما يكون في ذلك اليوم؛ لأن الله تعالى ينادي: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [غافر: ١٦] فلا يجيب أحد؛ فيقول تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]؛ في الدنيا يظهر ملوك؛ بل يظهر ملوك يعتقد شعوبهم أنه لا مالك إلا هم؛ فالشيوعيون مثلًا لا يرون أن هناك ربًا للسموات والأرض؛ يرون أن الحياة: أرحام تدفع، وأرض تبلع؛ وأن ربهم هو رئيسهم.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** إثبات البعث، والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

٣ ـ **ومنها:** حث الإنسان على أن يعمل لذلك اليوم الذي يُدان فيه العاملون.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾؛ ﴿إِيَّاكَ﴾: مفعول به مقدم؛ وعامله: ﴿نَعۡبُدُ﴾؛ وقُدِّم على عامله

لإفادة الحصر؛ فمعناه: لا نعبد إلا إياك؛ وكان منفصلًا لتعذر الوصل حينئذ؛ و﴿نَعۡبُدُ﴾ أي: نتذلل لك أكمل ذلّ؛ ولهذا تجد المؤمنين يضعون أشرف ما في أجسامهم في موطئ الأقدام ذلًا لله عزَّ وجلَّ: يسجد على التراب؛ تمتلئ جبهته من التراب كل هذا ـ ذلًا لله؛ ولو أن إنسانًا قال: «**أنا أعطيك الدنيا كلها واسجد لي**» ما وافق المؤمن أبدًا؛ لأن هذا الذلَّ لله عزَّ وجلَّ وحده.

و «**العبادة**» تتضمن فعل كل ما أمر الله به، وترك كل ما نهى الله عنه؛ لأن من لم يكن كذلك فليس بعابد: لو لم يفعل المأمور به لم يكن عابدًا حقًا؛ ولو لم يترك المنهي عنه لم يكن عابدًا حقًا؛ العبد: هو الذي يوافق المعبود في مراده الشرعي؛ فـ «**العبادة**» تستلزم أن يقوم الإنسان بكل ما أُمر به، وأن يترك كل ما نُهي عنه؛ ولا يمكن أن يكون قيامه هذا بغير معونة الله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ أي: لا نستعين إلا إياك على العبادة، وغيرها؛ و «**الاستعانة**» طلب العون؛ والله سبحانه وتعالى يجمع بين العبادة، والاستعانة، أو التوكل في مواطن عدة في القرآن الكريم؛ لأنه لا قيام بالعبادة على الوجه الأكمل إلا بمعونة الله، والتفويض إليه، والتوكل عليه.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: إخلاص العبادة لله؛ لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾؛ وجه الإخلاص: تقديم المعمول.

٢ ـ ومنها: إخلاص الاستعانة بالله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، حيث قدم المفعول.

فإن قال قائل: كيف يقال: إخلاص الاستعانة لله، وقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] إثبات المعونة من غير الله عزَّ وجلَّ، وقال النبي ﷺ: «**تُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعَ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ**»؟[1].

فالجواب: أن الاستعانة نوعان:

استعانة تفويض؛ بمعنى أنك تعتمد على الله عزَّ وجلَّ، وتتبرأ من حولك، وقوتك؛ وهذا خاص بالله عزَّ وجلَّ؛ واستعانة .

معنى المشاركة فيما تريد أن تقوم به: فهذه جائزة إذا كان المستعان به حيًا قادرًا على الإعانة؛ لأنه ليس عبادة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

فإن قال قائل: وهل الاستعانة بالمخلوق جائزة في جميع الأحوال؟

فالجواب: لا؛ الاستعانة بالمخلوق إنما تجوز حيث كان المستعان به قادرًا عليها؛ وأما إذا لم يكن قادرًا فإنه لا يجوز أن تستعين به: كما لو استعان بصاحب قبر فهذا حرام؛ بل شرك أكبر؛ لأن

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣٤)، ومسلم (١٠٠٩).

صاحب القبر لا يغني عن نفسه شيئًا؛ فكيف يعينه!!! وكما لو استعان بغائب في أمر لا يقدر عليه، مثل: أن يعتقد أن الوليَّ الذي في شرق الدنيا يعينه على مهمته في بلده: فهذا أيضًا شرك أكبر؛ لأنه لا يقدر أن يعينه وهو هناك.

فإن قال قائل: هل يجوز أن يستعين المخلوقَ فيما تجوز استعانته به؟

فالجواب: الأولى أن لا يستعين بأحد إلا عند الحاجة، أو إذا علم أن صاحبه يُسَر بذلك، فيستعين به من أجل إدخال السرور عليه؛ وينبغي لمن طلبت منه الإعانة على غير الإثم والعدوان أن يستجيب لذلك.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ فيه قراءتان: بالسين: (السراط)، وبالصاد الخالصة: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾؛ والمراد بـ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾: الطريق؛ والمراد بـ «الهداية»: هداية الإرشاد، وهداية التوفيق؛ فأنت بقولك: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ تسأل الله تعالى علمًا نافعًا، وعملًا صالحًا؛ و﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي الذي لا اعوجاج فيه.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية**: لجوء الإنسان إلى الله عزَّ وجلَّ بعد استعانته به على العبادة أن يهديه الصراط المستقيم؛ لأنه لا بد في العبادة من إخلاص؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ ومن استعانة يتقوى بها على العبادة؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ ومن اتباع للشريعة؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾؛ لأن ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ هو الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ.

٢ - **ومن فوائد الآية**: بلاغة القرآن، حيث حذف حرف الجر من ﴿ ٱهْدِنَا ﴾؛ والفائدة من ذلك: لأجل أن تتضمن طلب الهداية: التي هي هداية العلم، وهداية التوفيق؛ لأن الهداية تنقسم إلى قسمين:

هداية علم وإرشاد وهداية توفيق وعمل، فالأولى: ليس فيها إلا مجرد الدلالة؛ والله عزَّ وجلَّ قد هدى بهذا المعنى جميع الناس، كما في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]؛ والثانية: فيها التوفيق للهدى واتباع الشريعة، كما في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢] وهذه قد يحرمها بعض الناس، كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا

ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]: ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي بيّنّا لهم الحق، ودَلَلْناهم عليه؛ ولكنهم لم يوفقوا.

٣ - ومن فوائد الآية: أن الصراط ينقسم إلى قسمين: مستقيم، ومعوج؛ فما كان موافقًا للحق فهو مستقيم، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]؛ وما كان مخالفًا له فهو معوج.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ عطف بيان لقوله تعالى: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾؛ والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]

قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: هم اليهود، وكل من علم بالحق ولم يعمل به.

قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾: هم النصارى قبل بعثة النبي ﷺ، وكل من عمل بغير الحق جاهلًا به.

وفي قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ قراءتان سبعيتان: إحداهما: ضم الهاء؛ والثانية: كسرها؛ واعلم أن القراءة التي ليست في المصحف الذي بين أيدي الناس لا تنبغي القراءة بها عند العامة لوجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أن العامة إذا رأوا هذا القرآن العظيم الذي قد ملأ قلوبهم تعظيمه واحترامه إذا رأوه مرةً كذا، ومرة كذا تنزل منزلته عندهم؛ لأنهم عوام لا يُفرقون.

الوجه الثاني: أن القارئ يتهم بأنه لا يعرف؛ لأنه قرأ عند العامة بما لا يعرفونه؛ فيبقى هذا القارئ حديث العوام في مجالسهم.

الوجه الثالث: أنه إذا أحسن العامي الظن بهذا القارئ، وأن عنده علمًا بما قرأ، فذهب يقلده، فربما يخطئ، ثم يقرأ القرآن لا على قراءة المصحف، ولا على قراءة التالي الذي قرأها وهذه مفسدة.

ولهذا قال عليّ: «**حدِّثوا الناس بما يعرفون؛ أتحبون أن يُكذب الله ورسوله؟!**»[(١)]، وقال ابن مسعود: «**إنك لا تحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة**»[(٢)]؛ وعمر بن الخطاب لما سمع هشام بن الحكم يقرأ آية لم يسمعها عمر على الوجه الذي قرأها به هشام خاصمه إلى النبي ﷺ فقال النبي ﷺ

---

(١) رواه البخاري (١٢٧)، والخطيب في «الجامع لأخلاق الراوى» (٢/ ١٠٨).

(٢) صحيح مسلم (٥).

لهشام: «اقْرَأْ»، فلما قرأ قال النبي ﷺ: «هَكَذَا أُنزِلَتْ»، ثم قال النبي ﷺ لعمر: «اقْرَأْ»، فلما قرأ قال النبي ﷺ «هَكَذَا أُنزِلَتْ»[1]؛ لأن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فكان الناس يقرأون بها حتى جمعها عثمان رضي الله عنه على حرف واحد حين تنازع الناس في هذه الأحرف، فخاف رضي الله عنه أن يشتد الخلاف، فجمعها في حرف واحد. وهو حرف قريش؛ لأن النبي ﷺ الذي نزل عليه القرآن بُعث منهم؛ ونُسيَت الأحرف الأخرى؛ فإذا كان عمر رضي الله عنه فعل ما فعل بصحابي، فما بالك بعامي يسمعك تقرأ غير قراءة المصحف المعروف عنده! والحمد لله: ما دام العلماء متفقين على أنه لا يجب أن يقرأ الإنسان بكل قراءة، وأنه لو اقتصر على واحدة من القراءات فلا بأس؛ فدع الفتنة، وأسبابها.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآيتين:** ذكر التفصيل بعد الإجمال؛ لقوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: وهذا مجمل؛ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: وهذا مفصل؛ لأن الإجمال ثم التفصيل فيه فائدة: فإن النفس إذا جاء المجمل تترقب، وتتشوف للتفصيل، والبيان؛ فإذا جاء التفصيل ورد على نفس مستعدة لقبوله متشوقة إليه.

ثم فيه فائدة ثانية هنا: وهو بيان أن الذين أنعم الله عليهم على الصراط المستقيم.

٢ - **ومنها:** إسناد النعمة إلى الله تعالى وحده في هداية الذين أنعم عليهم؛ لأنها فضل محض من الله.

٣ - **ومنها:** انقسام الناس إلى ثلاثة أقسام: قسم أنعم الله عليهم؛ وقسم مغضوب عليهم؛ وقسم ضالون؛ وقد سبق بيان هذه الأقسام.

وأسباب الخروج عن الصراط المستقيم: إما الجهل، أو العناد؛ والذين سببُ خروجهم العناد هم المغضوب عليهم - وعلى رأسهم اليهود -؛ والآخرون الذين سبب خروجهم الجهل كل من لا يعلم الحق - وعلى رأسهم النصارى -؛ وهذا بالنسبة لحالهم قبل البعثة. - أعني النصارى -؛ أما بعد البعثة فقد علموا الحق، وخالفوه؛ فصاروا هم واليهود سواءً، كلهم مغضوب عليهم.

٤ - **ومن فوائد الآيتين:** بلاغة القرآن، حيث جاء التعبير عن المغضوب عليهم باسم المفعول الدال على أن الغضب عليهم حاصل من الله تعالى، ومن أوليائه.

٥ - **ومنها:** أنه يقدم الأشد فالأشد؛ لأنه تعالى قدم المغضوب عليهم على الضالين؛ لأنهم أشد مخالفةً للحق من الضالين؛ فإن المخالف عن علم يصعب رجوعه بخلاف المخالف عن جهل.

وعلى كل حال السورة هذه عظيمة؛ ولا يمكن لا لي، ولا لغيري أن يحيط بمعانيها العظيمة؛ لكن هذا قطرة من بحر؛ ومن أراد التوسع في ذلك فعليه بكتاب «مدارج السالكين» لابن القيم رحمه الله.

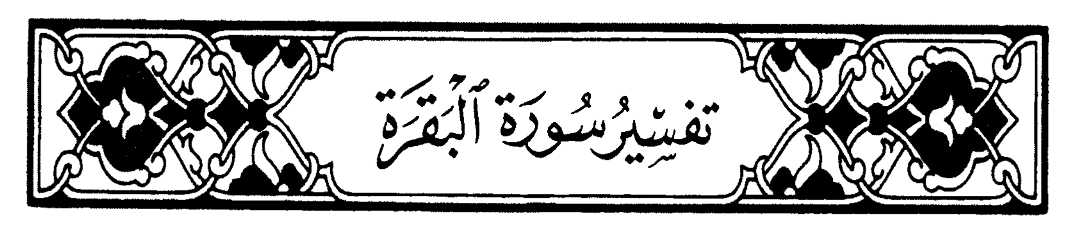
❁ ❁ ❁

---

(١) رواه البخاري (٢٢٨٧)، ومسلم (٨١٨).

تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلْبَقَرَةِ





تفسير سورة البقرة

نزلت سورة البقرة بعد الهجرة؛ ولذلك فهي مدنية؛ فإن كل ما نزل بعد الهجرة فهو مدني؛ وما نزل قبلها فهو مكي؛ هذا هو الصحيح؛ لأن العبرة بالزمن لا بالمكان.

وغالب السور المدنية يكون فيها تفصيل أكثر من السور المكية؛ ويكون التفصيل فيها في فروع الإسلام دون أصوله؛ وتكون غالبًا أقل شدة في الزجر، والوعظ، والوعيد؛ لأنها تخاطب قومًا كانوا مؤمنين موحدين قائمين بأصول الدين، ولم يبق إلا أن تُبَيَّن لهم فروع الدين ليعملوا بها؛ وتكون غالبًا أطول آيات من السور المكية.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾: قد تقدم الكلام عليها في سورة الفاتحة.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ حروف هجائية: ثلاثة أحرف: أَلِف، ولام، وميم؛ تقرأ لا على حسب الكتابة: «أَلَمْ»؛ ولكن على حسب اسم الحرف: «أَلِفْ لامْ ميمْ».

هذه الحروف الهجائية اختلف العلماء فيها، وفي الحكمة منها على أقوال كثيرة يمكن حصرها في أربعة أقوال:

القول الأول: أن لها معنى؛ واختلف أصحاب هذا القول في تعيينه: هل هو اسم لله عزَّ وجلَّ؛ أو اسم للسورة؛ أو أنه إشارة إلى مدة هذه الأمة؛ أو نحو ذلك؟

القول الثاني: هي حروف هجائية ليس لها معنًى إطلاقًا.

القول الثالث: لها معنى الله أعلم به؛ فنجزم بأن لها معنًى؛ ولكن الله أعلم به؛ لأنهم يقولون: إن القرآن لا يمكن أن ينزل إلا بمعنى.

القول الرابع: التوقف، وألا نزيد على تلاوتها؛ ونقول: الله أعلم: أَلَها معنى، أم لا؟ وإذا كان لها

معنى فلا ندري ما هو.

وأصح الأقوال فيها القول الثاني؛ وهو: أنها حروف هجائية ليس لها معنًى على الإطلاق؛ وهذا مروي عن مجاهد؛ وحجة هذا القول: أن القرآن نزل بلغة العرب؛ وهذه الحروف ليس لها معنًى في اللغة العربية، مثل ما تقول: أَلِف، باء، تاء، ثاء، جيم؛ حاء...، فهي كذلك حروف هجائية.

أما كونه تعالى اختار هذا الحرف دون غيره، ورتبها هذا الترتيب فهذا ما لا علم لنا به.

هذا بالنسبة لذات هذه الحروف؛ أما بالنسبة للحكمة منها، فعلى قول من يعين لها معنًى؛ فإن الحكمة منها: الدلالة على ذلك المعنى. مثل غيرها مما في القرآن.

وأما على قول من يقول: «**ليس لها معنى**»؛ أو: «**لها معنى الله أعلم به**»؛ أو: «**يجب علينا أن نتوقف**» فإن الحكمة عند هؤلاء على أرجح الأقوال. وهو الذي اختاره ابن القيم، وشيخ الإسلام ابن تيمية، واختاره تلميذه الحافظ الذهبي، وجمع كثير من أهل العلم. هو: الإشارة إلى بيان إعجاز القرآن العظيم، وأن هذا القرآن لم يأتِ بكلمات، أو بحروف خارجة عن نطاق البشر؛ وإنما هو من الحروف التي لا تعدو ما يتكلم به البشر؛ ومع ذلك فقد أعجزهم.

فهذا أبين في الإعجاز؛ لأنه لو كان في القرآن حروف أخرى لا يتكلم الناس بها لم يكن الإعجاز في ذلك واقعًا؛ لكنه بنفس الحروف التي يتكلم بها الناس ومع هذا فقد أعجزهم؛ فالحكمة منها ظهور إعجاز القرآن الكريم في أبلغ ما يكون من العبارة؛ قالوا: ويدل على ذلك أنه ما من سورة افتتحت بهذه الحروف إلا وللقرآن فيها ذكر؛ إلا بعض السور القليلة لم يذكر فيها القرآن؛ لكن ذُكر ما كان من خصائص القرآن:.

فمثلًا: قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١] ليس بعدها ذكر للقرآن؛ ولكن جاء في السورة خاصية من خصائص القرآن؛ وهي ذِكر قصص من كان قبلنا: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم:٢].

كذلك في سورة الروم، قال تعالى في أولها: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ١، ٢]؛ فهذا الموضع أيضًا ليس فيه ذكر للقرآن؛ ولكن في السورة ذكر شيء من خصائص القرآن وهو: الإخبار عن المستقبل.: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٢، ٤]

وكذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١، ٢] ليس فيها ذكر القرآن؛ ولكن فيها شيء من القصص الذي هو أحد خصائص القرآن: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ [العنكبوت: ٣].

فهذا القول الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية، واختاره جمع من أهل العلم هو الراجح:

أن الحكمة من هذا ظهور إعجاز القرآن في أبلغ صوره؛ حيث إن القرآن لم يأتِ بجديد من الحروف؛ ومع ذلك فإن أهل اللغة العربية عجزوا عن معارضته وهم البلغاء الفصحاء.

وقال بعضهم: إن الحكمة منها: تنشيط السامعين؛ فإذا تلي القرآن، وقرئ قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ كأنه تعالى يقول: أنصتوا؛ وذلك لأجل المشركين. حتى ينصتوا له.

ولكن هذا القول فيه نظر؛ لأنه لو كان كذلك لكان هذا في كل السور؛ مع أن أكثر السور غير مُبْتَدأةٍ بمثل هذه الحروف؛ وأيضًا لو كان كذلك ما صارت في السور المدنية. مثل سورة البقرة؛ لأن السور المدنية ليس فيها أحد يلغو في القرآن؛ فالصواب أن الحكمة من ذلك هو: ظهور إعجاز القرآن.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾: «ذا» اسم إشارة؛ واللام للبعد؛ فإذا كان المشار إليه بعيدًا تأتي بهذه اللام التي نسميها «**لام البعد**»؛ أما الكاف فهي للخطاب؛ وهذه الكاف فيها ثلاث لغات:

الأولى: مراعاة المخاطب؛ فإن كان مفردًا مذكرًا فُتِحت؛ وإن كان مفردًا مؤنثًا كُسِرت، وإن كان مثنى قرنت بالميم، والألف: «**ذلكما**»؛ وإن كان جمعًا مذكرًا قرنت بالميم: «**ذلكم**»؛ وإن كان جمعًا مؤنثًا قرنت بالنون المشددة: «**ذلكنَّ**»؛ وهذه هي اللغة الفصحى.

اللغة الثانية: لزوم الفتح والإفراد مطلقًا، سواء خاطبت مذكرًا، أو مؤنثًا، أو مثنىً، أو جمعًا؛ فتقول للرجل: «**ذلكَ**»؛ وللمرأة: «**ذلكَ**»؛ وللاثنين: «**ذلكَ**»؛ وللجماعة: «**ذلكَ**».

اللغة الثالثة: أن تكون بالإفراد سواء كان المخاطب واحدًا، أم أكثر. مفتوحة في المذكر مكسورة في المؤنث.؛ فتقول: «**ذلكَ**» إذا كان المخاطب مذكرًا؛ وتقول: «**ذلكِ**» إذا كان مؤنثًا.

والخطاب في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ لكل مخاطب يصح أن يوجه إليه الخطاب؛ والمعنى: ذلك أيها الإنسان المخاطَب.

والمراد بـ﴿الكتاب﴾ القرآن؛ و﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ بمعنى المكتوب؛ لأن «**فِعال**» كما تأتي مصدرًا. مثل: قتال، ونضال. تأتي كذلك بمعنى اسم مفعول، مثل: بناء بمعنى مبني؛ وغراس بمعنى مغروس؛ فكذلك «**كتاب**» بمعنى مكتوب؛ فهو مكتوب عند الله؛ وهو أيضًا مكتوب بالصحف المكرمة، كما قال تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣، ١٥]؛ وهو مكتوب في الصحف التي بين أيدي الناس؛ وأشار إليه بأداة البعيد لعلوّ منزلته؛ لأنه أشرف كتاب، وأعظم كتاب.

قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾: أهل النحو يقولون: إنّ ﴿لَا﴾ هنا نافية للجنس؛ و﴿رَيْبَ﴾ اسمها مبني على الفتح؛ لأنه مركب معها؛ فهي في محل نصب؛ ويقولون: إنّ ﴿لَا﴾ النافية للجنس تفيد العموم في أقصى غايته. يعني تدل على العموم المطلق، فتشمل القليل والكثير؛ فإذنْ القرآن ليس فيه ريب لا قليل، ولا كثير.

و«**الريب**» هو الشك؛ ولكن ليس مطلق الشك؛ بل الشك المصحوب بقلق لقوة الداعي

الموجب للشك؛ أو لأن النفس لا تطمئن لهذا الشك؛ فهي قلقة منه. بخلاف مطلق الشك؛ ولهذا من فسّر الريب بالشك فهذا تفسير تقريبي؛ لأن بينهما فرقًا.

والنفي هنا على بابه؛ فالجملة خبرية؛ هذا هو الراجح؛ وقيل: إنه بمعنى النهي. أي لا ترتابوا فيه؛ والأول أبلغ.

فإن قال قائل: ما وجه رجحانه؟

فالجواب: أن هذا ينبني على قاعدة هامة في فهم وتفسير القرآن: وهي أنه يجب علينا إجراء القرآن على ظاهره، وأن لا نصرفه عن الظاهر إلا بدليل، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فهذه الآية ظاهرها خبر؛ لكن المراد بها الأمر؛ لأنه قد لا تتربص المطلقة؛ فما دمت تريد تفسير القرآن الكريم فيجب عليك أن تجريه على ظاهره إلا ما دلّ الدليل على خلافه؛ وذلك؛ لأن المفسر للقرآن شاهد على الله بأنه أراد به كذا، وكذا؛ وأنت لو فسّرت كلام بشر على خلاف ظاهره لَلامَكَ هذا المتكلم، وقال: «**لماذا تحمل كلامي على خلاف ظاهره! ليس لك إلا الظاهر**»؛ مع أنك لو فسرت كلام هذا الرجل على خلاف ظاهره لكان أهون لومًا مما لو فسرت كلام الله؛ لأن المتكلم. غير الله. ربما يخفى عليه المعنى، أو يعييه التعبير، أو يعبر بشيء ظاهره خلاف ما يريده، فتفسره أنت على ما تظن أنه يريده؛ أما كلام الله عزَّ وجلَّ فهو صادر عن علم، وبأبلغ كلام وأفصحه؛ ولا يمكن أن يخفى على الله عزَّ وجلَّ ما يتضمنه كلامه؛ فيجب عليك أن تفسره بظاهره.

فقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: ظاهرها أنها جملة خبرية تفيد النفي؛ والمعنى: ليس فيه ريب أبدًا؛ وقيل: إن الخبر هنا بمعنى النهي؛ فمعنى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: لا ترتابوا فيه؛ والذي أوجب أن يفسروا النفي بمعنى النهي قالوا: لأنه قد حصل فيه ريب من الكفار والمنافقين؛ قال تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]؛ فلا يستقيم النفي حينئذٍ؛ وتكون هذه القرينة الواقعية من ارتياب بعض الناس في القرآن قرينةً موجبة لصرف الخبر إلى النهي؛ ولكننا نقول: إن الله تعالى يتحدث عن القرآن من حيث هو قرآن. لا باعتبار من يتلى عليهم القرآن.؛ والقرآن من حيث هو قرآن لا ريب فيه؛ عندما أقول لك: «**هذا الماء عذب**» فهذا بحسب وصف الماء بقطع النظر عن كون هذا الماء في مذاق إنسان من الناس ليس عذبًا؛ كون مذاق الماء العذب مرًّا عند بعض الناس فهذا لا يؤثر على طبيعة الماء العذب؛ وقد قال المتنبي:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيْضٍ ... يَجِدْ مُرًّا بِهِ المَاءَ الزُّلالا

فما علينا من هؤلاء إذا كان القرآن عندهم محل ريبة؛ فإن القرآن في حد ذاته ليس محل ريبة؛ والله سبحانه وتعالى يصف القرآن من حيث هو قرآن؛ على أن كثيرًا من الذين ادّعوا الارتياب كاذبون يقولون ذلك جحودًا، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]؛ فكثير منهم ربما لا يكون عنده ارتياب حقيقي في القرآن؛ ويكون في

داخل نفسه يعرف أن هذا ليس بقول الرسول ﷺ وأن محمدًا ﷺ لا يستطيع أن يأتي بمثله؛ ولكن مع ذلك يجحدون، وينكرون.

وعلى هذا؛ فالوجه الأول هو الوجه القوي الذي لا انفصام عنه. وهو: أن الله تعالى وصف القرآن من حيث هو قرآن بقطع النظر عمن يُتلى عليهم هذا القرآن: أيرتابون، أم لا يرتابون فيه.

وقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾: وقف بعض القراء على قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ﴾؛ وعليه فيكون خبر ﴿لَا﴾ محذوفًا؛ والتقدير: لا ريب في ذلك؛ ويكون الجار والمجرور خبرًا مقدمًا، و﴿هُدًى﴾ مبتدأ مؤخرًا؛ ووقف بعضهم على قوله تعالى: ﴿فِيهِ﴾؛ وعليه فيكون الجار والمجرور خبر ﴿لَا﴾، ويكون قوله تعالى: ﴿هُدًى﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ والتقدير: هو هدًى للمتقين.

و«التقوى»: اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** بيان علوّ القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾؛ فالإشارة بالبعد تفيد علوّ مرتبته؛ وإذا كان القرآن عالي المكانة والمنزلة، فلا بد أن يعود ذلك على المتمسك به بالعلوّ والرفعة؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣]؛ وكذلك ما وُصِف به القرآن من الكرم والمدح والعظمة، فهو وصف أيضًا لمن تمسك به.

٢ - **ومنها:** رفعة القرآن من جهة أنه قرآن مكتوب معتنًا به؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾؛ وقد بيّنّا أنه مكتوب في ثلاثة مواضع: اللوح المحفوظ، والصحف التي بأيدي الملائكة، والمصاحف التي بأيدي الناس.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أن هذا القرآن نزل من عند الله يقينًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

٤ - **ومنها:** أن المهتدي بهذا القرآن هم المتقون؛ فكل من كان أتقى لله كان أقوى اهتداءً بالقرآن الكريم؛ لأنه عُلِّق الهدى بوصف؛ والحكم إذا عُلق بوصف كانت قوة الحكم بحسب ذلك الوصف المعلَّق عليه؛ لأن الوصف عبارة عن علة؛ وكلما قويت العلة قوي المعلول.

٥ - **ومن فوائد الآية:** فضيلة التقوى، وأنها من أسباب الاهتداء بالقرآن، والاهتداء بالقرآن يشمل الهداية العلمية، والهداية العملية؛ أي هداية الإرشاد والتوفيق.

فإن قيل: ما الجمع بين قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فالجواب: أن الهدى نوعان: عام، وخاص؛ أما العام: فهو الشامل لجميع الناس وهو هداية العلم

والإرشاد؛ ومثاله: قوله تعالى عن القرآن: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله تعالى عن ثمود: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]؛ وأما الخاص فهو هداية التوفيق: أي أن يوفق الله المرء للعمل بما علم؛ مثاله: قوله تعالى ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٣ ـ ٥]

❁ التفسير ❁

بعد أن ذكر الله عزَّ وجلَّ أن المتقين هم الذين ينتفعون ويهتدون بهذا الكتاب، بيَّن لنا صفات هؤلاء المتقين؛ فذكر في هذه الآية ست صفات:.

الأولى: الإيمان بالغيب في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾، أي: يقرون بما غاب عنهم مما أخبر الله به عن نفسه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وغير ذلك مما أخبر الله به من أمور الغيب؛ وعلى هذا فـ﴿الغيب﴾ مصدر بمعنى اسم الفاعل: أي بمعنى: غائب.

الصفة الثانية: إقامة الصلاة في قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: يقومون بها على وجه مستقيم، كما جاء عن رسول الله ﷺ[1]؛ والمراد بـ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هنا الجنس؛ فتعم الفريضة، والنافلة.

الصفة الثالثة: الإنفاق مما رزقهم الله في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، أي: مما أعطيناهم من المال يخرجون؛ و«مِن» هنا يحتمل أن تكون للتبعيض، وأن تكون للبيان؛ ويتفرع على ذلك ما سيُبيَّن في الفوائد. إن شاء الله تعالى..

الصفة الرابعة قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، أي: يؤمنون بجميع الكتب المنزلة؛ وبدأ بالقرآن مع أنه آخرها زمنًا؛ لأنه مهيمن على الكتب السابقة ناسخ لها؛ والمراد بـ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، وموسى، وغيرها.

الصفة الخامسة: الإيقان بالآخرة في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾؛ والمراد بذلك: البعث

---

(١) لحديث رسول الله ﷺ «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمونى أُصَلِّ»، رواه البخاري (٦٠٥)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٣٩٧)، وابن حبان في «صحيحه» (١٦٥٨)، والبيهقي في «الكبرى» (٣٦٧٢).

بعد الموت، وما يتبعه مما يكون يوم القيامة من الثواب، والعقاب، وغيرهما؛ وإنما نص على الإيقان بالآخرة مع دخوله في الإيمان بالغيب لأهميته؛ لأن الإيمان بها يحمل على فعل المأمور، وترك المحظور؛ و«**الإيقان**» هو: الإيمان الذي لا يتطرق إليه شك.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: المشار إليه ما تقدم ممن اتصفوا بالصفات الخمس؛ وأشار إليهم بصيغة البعد لعلوِّ مرتبتهم؛ ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ أي: على علم، وتوفيق؛ و﴿عَلَىٰ﴾ للاستعلاء؛ وتفيد علوهم على هذا الهدى، وسيرهم عليه، كأنهم يسيرون على طريق واضح بيّن؛ فليس عندهم شك؛ تجدهم يُقبلون على الأعمال الصالحة وكأن سراجًا أمامهم يهتدون به: تجدهم مثلًا ينظرون في أسرار شريعة الله، وحِكَمها، فيعلمون منها ما يخفى على كثير من الناس؛ وتجدهم أيضًا عندما ينظرون إلى القضاء والقدر كأنما يشاهدون الأمر في مصلحتهم حتى وإن أصيبوا بما يضرهم أو يسوءهم، يرون أن ذلك من مصلحتهم؛ لأن الله قد أنار لهم الطريق؛ فهم على هدًى من ربهم وكأن الهدى مركب ينجون به من الهلاك، أو سفينة ينجون بها من الغرق؛ فهم متمكنون غاية التمكن من الهدى؛ لأنهم عليه؛ و﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي خالقهم المدبر لأمورهم؛ والربوبية هنا خاصة متضمنة للتربية الخاصة التي فيها سعادة الدنيا، والآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: الجملة مبتدأ وخبر، بينهما ضمير الفصل الدالّ على التوكيد والحصر؛ وأعيد اسم الإشارة تأكيدًا لما يفيده اسم الإشارة الأول من علوّ المرتبة، والعناية التامة بهم كأنهم حضروا بين يدي المتكلم؛ وفيه الفصل بين الغاية والوسيلة؛ فالغاية: الفلاح؛ ووسيلته: ما سبق؛ و«**الفلاح**» هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب؛ فهي كلمة جامعة لانتفاء جميع الشرور، وحصول جميع الخير.

تنبيه: من المعروف عند أهل العلم أن العطف يقتضي المغايرة أي: أن المعطوف غير المعطوف عليه؛ وقد ذكرنا أن هذه المعطوفات أوصاف للمتقين؛ وهو موصوف واحد؛ فكيف تكون المغايرة؟

والجواب: أن التغاير يكون في الذوات كما لو قلت: «قدم زيد، وعمرو»؛ ويكون في الصفات كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى (١) ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى: ١، ٤]؛ قالوا: والفائدة من ذلك أن هذا يقتضي تقرير الوصف الأول. كأنه قال: أتصف بهذا، وزيادة.

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: أن من أوصاف المتقين الإيمان بالغيب؛ لأن الإيمان بالمُشاهَد المحسوس ليس بإيمان؛ لأن المحسوس لا يمكن إنكاره.

٢ - ومنها: أن من أوصاف المتقين إقامة الصلاة؛ وهو عام لفرضها ونفلها.

ويتفرع على ذلك: الترغيب في إقامة الصلاة؛ لأنها من صفات المتقين؛ وإقامتها أن يأتي بها

مستقيمة على الوجه المطلوب في خشوعها، وقيامها، وقعودها، وركوعها، وسجودها، وغير ذلك.

٣ - ومن فوائد الآيات: أن من أوصاف المتقين الإنفاق مما رزقهم الله؛ وهذا يشمل الإنفاق الواجب كالزكاة، وإنفاقَ التطوع كالصدقات والإنفاقِ في سبل الخير.

٤ - ومنها: أن صدقة الغاصب باطلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ﴾؛ لأن الغاصب لا يملك المال الذي تصدق به، فلا تقبل صدقته.

٥ - ومنها: أن الإنفاق غير الزكاة لا يتقدر بشيء معين؛ لإطلاق الآية، سواء قلنا: إن «مِن» للتبعيض؛ أو للبيان.

ويتفرع على هذا: جواز إنفاق جميع المال في طرق الخير، كما فعل أبو بكر رضي الله عنه حين تصدق بجميع ماله؛ لكن هذا مشروط بما إذا لم يترتب عليه ترك واجب من الإنفاق على الأهل، ونحوهم؛ فإن ترتب عليه ذلك فالواجب مقدم على التطوع.

٦ - ومن فوائد الآية: ذم البخل؛ ووجهه أن الله مدح المنفقين؛ فإذا لم يكن إنفاق فلا مدح؛ والبخل خلق ذميم حذر الله سبحانه وتعالى منه في عدة آيات.

تنبيه: لم يذكر الله مصرف الإنفاق أين يكون؛ لكنه تعالى ذكر في آيات أخرى أن الإنفاق الممدوح ما كان في سبيل الله من غير إسراف ولا تقتير، كما قال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

٧ - ومن فوائد الآيات: أن من أوصاف المتقين، الإيمان بما أنزل على الرسول ﷺ وما أنزل من قبله.

٨ - ومنها: أن من أوصاف المتقين الإيقان بالآخرة على ما سبق بيانه في التفسير.

٩ - ومنها: أهمية الإيمان بالآخرة؛ لأن الإيمان بها هو الذي يبعث على العمل؛ ولهذا يقرن الله تعالى دائمًا الإيمان به عزَّ وجلَّ، وباليوم الآخر؛ أما من لم يؤمن بالآخرة فليس لديه باعث على العمل؛ إنما يعمل لدنياه فقط: يعتدي ما دام يرى أن ذلك مصلحة في دنياه: يسرق مثلًا؛ يتمتع بشهوته؛ يكذب؛ يغش..؛ لأنه لا يؤمن بالآخرة؛ فالإيمان بالآخرة حقيقة هو الباعث على العمل.

١٠ - ومنها: سلامة هؤلاء في منهجهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [لقمان: ٥].

١١ - ومنها: أن ربوبية الله عزَّ وجلَّ تكون خاصة وعامة؛ وقد اجتمعا في قوله تعالى عن سحرة فرعون: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَلَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢].

١٢ - ومنها: أن مآل هؤلاء هو الفلاح؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان: ٥].

١٣ - ومنها: أن الفلاح مرتب على الاتصاف بما ذُكر؛ فإن اختلَّت صفة منها نقص من الفلاح بقدر ما اختل من تلك الصفات؛ لأن الصحيح من قول أهل السنة والجماعة، والذي دلَّ عليه العقل والنقل، أن الإيمان يزيد وينقص، ويتجزأ؛ ولولا ذلك ما كان في الجنات درجات: هناك

رتب كما جاء في الحديث: «إِنْ أَهْلَ اَلجَنَةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَصْحَابَ اَلْغُرَفِ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ اَلْكَوْكَبَ اَلْدُرِيَ اَلْغَابَرَ فِي اَلْأُفُقِ»؛ قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال ﷺ« لَاْ؛ وَاَلَذِيْ نَفْسِيْ بِيَدِهْ، رِجَاْلٌ آمَنُوْاْ بِاْللهِ، وَصَدَّقُوْاَ اَلْمُرْسَلِيْنْ»[1]، أي ليست خاصة بالأنبياء.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة:٦:٧]

❁ التفسير ❁

ثم ذكر الله قسمًا آخر. وهم الكافرون الخلَّص.؛ ففي هذه السورة العظيمة ابتدأ الله تعالى فيها بتقسيم الناس إلى ثلاثة أقسام: المؤمنون الخلَّص؛ ثم الكافرون الخلَّص؛ ثم المؤمنون بألسنتهم دون قلوبهم؛ فبدأ بالطيب ثم الخبيث، ثم الأخبث؛ إذن الطيب: هم المتقون المتصفون بهذه الصفات؛ والخبيث: الكفار؛ والأخبث: المنافقون.

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ﴾ أي مستوٍ؛ وهي إما أن تكون خبر ﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ ويكون قوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ فاعلًا بـ﴿سَوَآءٌ﴾ مسبوقًا بمصدر؛ والتقدير: سواء عليهم إنذارُك وعدمُه؛ وإما أن تكون ﴿سَوَآءٌ﴾ خبرًا مقدمًا، و﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ مبتدأً مؤخرًا؛ والجملة خبر ﴿إِنَّ﴾؛ والأول أولى؛ لأنه يجعل الجملة جملة واحدة؛ وهنا انسبك قوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ بمصدر مع أنه ليس فيه حرف مصدري؛ لكنهم يقولون: إن همزة الاستفهام التي للتسوية يجوز أن تسبك، ومدخولها بمصدر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: بما يجب الإيمان به.

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾: هذا تسلية من الله لرسوله ﷺ. لا اعتذارًا للكفار، ولا تيئيسًا له ﷺ و«الإنذار» هو الإعلام المقرون بالتخويف؛ والرسول ﷺ بشير ونذير؛ بشير معلم بما يسر بالنسبة للمؤمنين؛ نذير معلم بما يسوء بالنسبة للكافرين؛ فإنذار النبي ﷺ وعدمه بالنسبة لهؤلاء الكفار المعاندين والمخاصمين. الذين تبين لهم الحق، ولكن جحدوه. مستوٍ عليهم.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٨٣)، ومسلم (٢٨٣١).

وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: هذا محط الفائدة في نفي التساوي. أي: إنهم أنذرتهم أم لم تنذرهم. لا يؤمنون؛ وتعليل ذلك قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

و«الختم»: الطبع؛ و«الطبع» هو أن الإنسان إذا أغلق شيئًا ختم عليه من أجل ألا يخرج منه شيء، ولا يدخل إليه شيء؛ وهكذا فهؤلاء - والعياذ بالله - قلوبهم مختوم عليها لا يصدر منها خير، ولا يصل إليها خير.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ أي: وختم على سمعهم، فهي معطوفة على قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ والختم على الأذن: أن لا تسمع خيرًا تنتفع به.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾: الواو للاستئناف؛ فالجملة مستقلة عما قبلها؛ فهي مبتدأ، وخبر مقدم؛ ويحتمل أن تكون الواو عاطفة، لكن عطف جملة على جملة؛ و﴿غِشَاوَةٌ﴾ أي: غطاء يحول بينها وبين النظر إلى الحق؛ ولو نظرت لم تنتفع.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء الكفار الذين بقوا على كفرهم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: وهو عذاب النار؛ وعظمه الله تعالى؛ لأنه لا يوجد أشد من عذاب النار.

انتهى الكلام على الصنف الثاني من أصناف الخلق، وهم الكفار الخُلَّص الصرحاء.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآيتين:** تسلية الرسول ﷺ حين يردُّه الكفار، ولا يَقبلون دعوته.

٢ - **ومنها:** أن من حقت عليه كلمة العذاب فإنه لا يؤمن مهما كان المنذِر والداعي؛ لأنه لا يستفيد. قد ختم الله على قلبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [الزمر: ١٩]. يعني هؤلاء لهم النار؛ انتهى أمرهم، ولا يمكن أن تنقذهم.

٣ - **ومنها:** أن الإنسان إذا كان لا يشعر بالخوف عند الموعظة، ولا بالإقبال على الله تعالى فإن فيه شبهًا من الكفار الذين لا يتعظون بالمواعظ، ولا يؤمنون عند الدعوة إلى الله.

٤ - **ومنها:** أن محل الوعي القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني لا يصل إليها الخير.

٥ - **ومنها:** أن طرق الهدى إما بالسمع؛ وإما بالبصر؛ لأن الهدى قد يكون بالسمع، وقد يكون بالبصر؛ بالسمع فيما يقال؛ وبالبصر فيما يشاهد؛ وهكذا آيات الله عزَّ وجلَّ تكون مقروءة مسموعة؛ وتكون بيِّنة مشهودة.

٦ - **ومنها:** وعيد هؤلاء الكفار بالعذاب العظيم.

مسألة: إذا قال قائل: هل هذا الختم له سبب من عند أنفسهم، أو مجرد ابتلاء

وامتحان من الله عزَّ وجلَّ؟

فالجواب: أن له سببًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: ﴿مَن﴾ للتبعيض؛ أي: وبعض الناس؛ ولم يصفهم الله تعالى بوصف. لا بإيمان، ولا بكفر.؛ لأنهم كما وصفهم الله تعالى في سورة النساء: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣]؛ و﴿ٱلنَّاسِ﴾ أصلها الأناس؛ لكن لكثرة الاستعمال حذفت الهمزة تخفيفًا، كما قالوا في «خير»، و«شر»: إن أصلهما: «أخير»، و«أشرّ»؛ لكن حذفت الهمزة تخفيفًا لكثرة الاستعمال؛ وسُموا أناسًا: من الأُنس؛ لأن بعضهم يأنس بعضًا، ويركن إليه؛ ولهذا يقولون: «الإنسان مدني بالطبع»؛ بمعنى: أنه يحب المدنية. يعني الاجتماع، وعدم التفرق.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: يقول بلسانه. بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بقلوبهم، وسبق معنى الإيمان بالله، وباليوم الآخر.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: بلاغة القرآن؛ بل فصاحة القرآن في التقسيم؛ لأن الله سبحانه وتعالى ابتدأ هذه السورة بالمؤمنين الخلَّص، ثم الكفار الخلَّص، ثم بالمنافقين؛ وذلك؛ لأن التقسيم مما يزيد الإنسان معرفة، وفهمًا.

٢ ـ ومنها: أن القول باللسان لا ينفع الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

٣ ـ ومنها: أن المنافقين ليسوا بمؤمنين. وإن قالوا: إنهم مؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿وما هم بمؤمنين﴾؛ ولكن هل هم مسلمون؟ إن أريد بالإسلام الاستسلام الظاهر فهم مسلمون؛ وإن أريد بالإسلام إسلام القلب والبدن فليسوا بمسلمين.

٤ ـ ومنها: أن الإيمان لا بد أن يتطابق عليه القلب، واللسان.

ووجه الدلالة: أن هؤلاء قالوا: «آمنا» بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم؛ فصح نفي الإيمان عنهم؛

لأن الإيمان باللسان ليس بشيء.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: بإظهار إسلامهم الذي يعصمون به دماءهم، وأموالهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ معطوف على لفظ الجلالة؛ والمعنى: ويخدعون الذين آمنوا بإظهار الإسلام، وإبطان الكفر، فيظن المؤمنون أنهم صادقون.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: ما يخدع هؤلاء المنافقون إلا أنفسهم، حيث منَّوها الأماني الكاذبة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: ما يشعر هؤلاء أن خداعهم على أنفسهم مع أنهم يباشرونه؛ ولكن لا يُحِسُّون به، كما تقول: «**مَرَّ بي فلان ولم أشعر به**».

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: مكر المنافقين، وأنهم أهل مكر وخديعة؛ لقوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾؛ ولهذا قال الله تعالى في سورة المنافقين: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]؛ فحصر العداوة فيهم؛ لأنهم مخادعون.

٢ - ومنها: التحفظ من المنافقين؛ لأنه إذا قيل لك: «**فلان يخدع**» فإنك تزداد تحفظًا منه؛ وأنه ينبغي للمؤمن أن يكون يقظًا حذرًا، فلا ينخدع بمثل هؤلاء.

فإن قال قائل: كيف نعرف المنافق حتى نكون حذرين منه؟

فالجواب: نعرفه بأن نتتبع أقواله وأفعاله: هل هي متطابقة، أو متناقضة؟ فإذا علمنا أن هذا الرجل يتملق لنا، ويظهر أنه يحب الإسلام، ويحب الدين، لكن إذا غاب عنا نسمع عنه بتأكد أنه يحارب الدين عرفنا أنه منافق؛ فيجب علينا أن نحذر منه.

٣ - ومن فوائد الآية: أن المكر السيئ لا يحيق إلَّا بأهله؛ فهم يخادعون الله، ويظنون أنهم قد نجحوا، أو غلبوا؛ ولكن في الحقيقة أن الخداع عائد عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾: فالحصر هنا يدل على أن خداعهم هذا لا يضر الله تعالى شيئًا، ولا رسوله ﷺ ولا المؤمنين.

٤ ـ **ومنها:** أن العمل السيئ قد يُعمي البصيرة؛ فلا يشعر الإنسان بالأمور الظاهرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: ما يشعرون أنهم يخدعون أنفسهم؛ و«الشعور» أخص من العلم؛ فهو العلم بأمور دقيقة خفية؛ ولهذا قيل: إنه مأخوذ من الشَّعر؛ والشعر دقيق؛ فهؤلاء الذين يخادعون الله، والرسولﷺ، والمؤمنين لو أنهم تأملوا حق التأمل لعرفوا أنهم يخدعون أنفسهم، لكن لا شعور عندهم في ذلك؛ لأن الله تعالى قد أعمى بصائرهم. والعياذ بالله، فلا يشعرون بهذا الأمر.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة:١٠]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: هذه الجملة جملة اسمية تدل على مكث وتمكنٍ هذا المرض في قلوبهم؛ ولكنه مرض على وجه قليل أثَّر بهم حتى بلغوا النفاق؛ ومن أجل هذا المرض قال سبحانه وتعالى: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾: الفاء هنا عاطفة؛ ولكنها تفيد معنى السببية: زادهم الله مرضًا على مرضهم؛ لأنهم. والعياذ بالله. يريدون الكفر؛ وهذه الإرادة مرض أدى بهم إلى زيادة المرض؛ لأن الإرادات التي في القلوب عبارة عن صلاح القلوب أو فسادها؛ فإذا كان القلب يريد خيرًا فهو دليل على سلامته، وصحته؛ وإذا كان يريد الشر فهو دليل على مرضه، وعلته.

وهؤلاء قلوبهم تريد الكفر؛ لأنهم يقولون لشياطينهم إذا خلوا إليهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾، أي: بهؤلاء المؤمنين السذج. على زعمهم. ويرون أن المؤمنين ليسوا بشيء، وأن العِلْية من القوم هم الكفار؛ ولهذا جاء التعبير بـ ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ الذي يفيد المصاحبة والملازمة.

فهذا مرض زادهم الله به مرضًا إلى مرضهم حتى بلغوا إلى موت القلوب، وعدم إحساسها وشعورها.

قوله تعالى في مجازاتهم: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ أي: عقوبة؛ ﴿أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم؛ فهو شديد، وعظيم، وكثير؛ لأن الأليم قد يكون مؤلمًا لقوته وشدته: فضربة واحدة بقوة تؤلم الإنسان؛ وقد يكون مؤلمًا لكثرته: فقد يكون ضربًا خفيفًا؛ ولكن إذا كثر وتوالى آلَمَ؛ وقد اجتمع في هؤلاء المنافقين الأمران؛ لأنهم في الدرك الأسفل من النار. وهذا ألم حسي؛ وقال تعالى في أهل النار: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]، وهذا ألم قلبي يحصل بتوبيخهم.

قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾: الباء للسببية. أي: بسبب كذبهم.، أو تكذيبهم؛ و«ما» مصدرية تؤول وما بعدها بمصدر؛ فيكون التقدير: بكونهم كاذبين أو: بكونهم مكذبين؛ لأن في الآية قراءتين؛ الأولى: بفتح الياء، وسكون الكاف، وكسر الذال مخففة؛ ومعناها: يَكْذِبون بقولهم: آمنا بالله، وباليوم الآخر. وما هم بمؤمنين.؛ والقراءة الثانية: بضم الياء، وفتح الكاف، وكسر الذّال مشددة؛ ومعناها: يُكَذِّبون الله، ورسوله؛ وقد اجتمع الوصفان في المنافقين؛ فهم كاذبون مكذِّبون.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن الإنسان إذا لم يكن له إقبال على الحق، وكان قلبه مريضًا؛ فإنه يعاقب بزيادة المرض؛ لقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾؛ وهذا المرض الذي في قلوب المنافقين: شبهات وشهوات؛ فمنهم من علم الحق، لكن لم يُرِده؛ ومنهم من اشتبه عليه؛ وقد قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٣٧]، وقال تعالى في سورة المنافقين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

٢ - **ومن فوائد الآية:** أن أسباب إضلال الله العبدَ هو من العبد؛ لقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾؛ ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

٣ - **ومنها:** أن المعاصي والفسوق، تزيد وتنقص، كما أن الإيمان يزيد وينقص؛ لقوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾؛ والزيادة لا تُعقل إلا في مقابلة النقص؛ فكما أن الإيمان يزيد وينقص، كذلك الفسق يزيد وينقص؛ والمرض يزيد وينقص.

٤ - **ومنها:** الوعيد الشديد للمنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٥ - **ومنها:** أن العقوبات لا تكون إلا بأسباب. أي أن الله لا يعذب أحدًا إلا بذنب؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

٦ - **ومنها:** أن هؤلاء المنافقين جمعوا بين الكذب والتكذيب؛ وهذا شر الأحوال.

٧ - **ومنها:** ذمُّ الكذب، وأنه سبب للعقوبة؛ فإن الكذب من أقبح الخصال؛ وقد بين رسول الله ﷺ أن الكذب من خصال المنافقين، فقال ﷺ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ..»[1] الحديث؛ والكذب مذموم شرعًا، ومذموم عادة، ومذموم فطرة أيضًا.

---

(١) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

مسألة: إن قيل: كيف يكون خداعهم لله وهو يعلم ما في قلوبهم؟

فالجواب: أنهم إذا أظهروا إسلامهم فكأنما خادعوا الله؛ لأنهم حينئذٍ تُجرى عليهم أحكام الإسلام، فيلوذون بحكم الله. تبارك وتعالى. حيث عصموا دماءهم وأموالهم بذلك.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة:١١:١٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾: القائل هنا مبهم للعموم. أي: ليعم أيَّ قائل كان؛ و «الإفساد في الأرض» هو أن يسعى الإنسان فيها بالمعاصي. كما فسره بذلك السلف؛ لقوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: المراد الأرض نفسها؛ أو أهلها؛ أو كلاهما. وهو الأولى؛ أما إفساد الأرض نفسها: فإن المعاصي سبب للقحط، ونزع البركات، وحلول الآفات في الثمار، وغيرها، كما قال تعالى عن آل فرعون لما عصوا رسوله موسى عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، فهذا فساد في الأرض.

وأما الفساد في أهلها: فإن هؤلاء المنافقين يأتون إلى اليهود، ويقولون لهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: ١١]: فيزدادوا استعداءً للرسول ﷺ ومحاربة له؛ كذلك أيضًا من فسادهم في أهل الأرض: أنهم يعيشون بين المسلمين، ويأخذون أسرارهم، ويفشونها إلى أعدائهم؛ ومن فسادهم في أهل الأرض: أنهم يفتحون للناس باب الخيانة والتَّقِيَّة، بحيث لا يكون الإنسان صريحًا واضحًا، وهذا من أخطر ما يكون في المجتمع.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾؛ ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر؛ و﴿نَحْنُ﴾: مبتدأ؛ و﴿مُصْلِحُونَ﴾: خبر؛ والجملة اسمية؛ والجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار؛ فكأنهم يقولون: ما حالنا إلا الإصلاح؛ يعني: أنه ليس فيهم إفساد مطلقًا.

ومن توفيق الله أنه لم يلهمهم فيقولوا: إنما نحن المصلحون؛ فلو أنهم قالوا: «نحن المصلحون»

كان مقتضاه أن لا مصلح غيرهم؛ لكنهم قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي: ما حالنا إلا إصلاح؛ ولم يدَّعوا أنهم المصلحون وحدهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾؛ ﴿أَلَآ﴾: أداة تفيد التنبيه والتأكيد؛ و﴿إِنَّهُمْ﴾: توكيد أيضًا؛ و﴿هُمُ﴾: ضمير فصل يفيد التوكيد أيضًا؛ فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: ﴿أَلَآ﴾، «إن»، و﴿هُمُ﴾ وهذا من أبلغ صيغ التوكيد؛ وأتى بـ «أل» الدالة على حقيقة الإفساد، وأنهم هم المفسدون حقًا؛ ووجه حصر الإفساد فيهم أن ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل يفيد الحصر. أي: هم لا غيرهم المفسدون؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤] أي: هم لا غيرهم؛ فلا عداء أبلغ من عداء المنافقين للمؤمنين؛ ولا فساد أعظم من فساد المنافقين في الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يشعرون أنهم مفسدون؛ لأن الفساد أمر حسي يدرك بالشعور والإحساس؛ فلبلادتهم وعدم فهمهم للأمور، لا يشعرون بأنهم هم المفسدون دون غيرهم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآيتين:** أن النفاق الذي هو إظهار الإسلام، وإبطان الكفر من الفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ والنفاق من أعظم الفساد في الأرض.

٢ - **ومنها:** أن من أعظم البلوى أن يُزَيَّن للإنسان الفساد حتى يَرى أنه مصلح؛ لقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾.

٣ - **ومنها:** أن غير المؤمن نظره قاصر، حيث يرى الإصلاح في الأمر المعيشي فقط؛ بل الإصلاح حقيقة أن يسير على شريعة الله واضحًا صريحًا.

٤ - **ومنها:** أنه ليس كل من ادعى شيئًا يصدق في دعواه؛ لأنهم قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾؛ فقال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾؛ وليس كل ما زينته النفس يكون حسنًا، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨].

٥ - **ومنها:** أن الإنسان قد يبتلى بالإفساد في الأرض ويخفى عليه فساده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

٦ - **ومنها:** قوة الرد على هؤلاء الذين ادعوا أنهم مصلحون، حيث قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾؛ فأكد إفسادهم بثلاثة مؤكدات؛ وهي: ﴿أَلَآ﴾ و«إن» و﴿هُمُ﴾؛ بل حصر الإفساد فيهم عن طريق ضمير الفصل.

❁ ❁ ❁

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾: القائل هنا مبهم للعموم. أي ليعم أيَّ قائل كان؛ والكاف للتشبيه، و«ما» مصدرية. أي: كإيمان الناس؛ والمراد بـ﴿ٱلنَّاسُ﴾ هنا: الصحابة الذين كانوا في المدينة، وإمامهم النبي ﷺ

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾؛ الاستفهام هنا للنفي والتحقير؛ والمعنى: لا نؤمن كما آمن السفهاء؛ وربما يكون أيضًا مضمنًا معنى الإنكار. أي: إنهم ينكرون على من قال: ﴿ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾؛ وهذا أبلغ من النفي المحض؛ و﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾: الذين ليس لهم رشد وعقل؛ والمراد بهم هنا: أصحاب النبي ﷺ. على حدِّ زعم هؤلاء المنافقين؛ فقال الله تعالى. وهو العليم بما في القلوب. ردًّا على هؤلاء: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾: وهذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: ﴿أَلَآ﴾، و «إن»، وضمير الفصل: ﴿هُمُ﴾، وهو أيضًا مفيد للحصر؛ وهذه الجملة كالتي قبلها في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون سفههم؛ فإن قيل: ما الفرق بين قوله تعالى هنا: ﴿وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾، وقوله تعالى فيما سبق: ﴿وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾؟

فالجواب: أن الإفساد في الأرض أمر حسي يدركه الإنسان بإحساسه وشعوره؛ وأما السفه فأمر معنوي يدرك بآثاره، ولا يُحَسُّ به نفسه.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** أن المنافق لا تنفعه الدعوة إلى الخير؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾؛ فهم لا ينتفعون إذا دعوا إلى الحق؛ بل يقولون: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾

٢ ـ **ومنها:** إعجاب المنافقين بأنفسهم؛ لقولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾.

٣ ـ **ومنها:** شدة طغيان المنافقين؛ لأنهم أنكروا على الذين عرضوا عليهم الإيمان: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ﴾؛ وهذا غاية ما يكون من الطغيان؛ ولهذا قال الله تعالى في آخر الآية: ﴿فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

٤ ـ **ومنها:** أن أعداء الله يصفون أولياءه بما يوجب التنفير عنهم لقولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ

﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾؛ فأعداء الله في كل زمان وفي كل مكان يصفون أولياء الله بما يوجب التنفير عنهم؛ فالرسل وصفهم قومهم بالجنون، والسحر، والكهانة، والشعر تنفيرًا عنهم، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١] وورثة الأنبياء مثلهم يجعل الله لهم أعداء من المجرمين، ولكن ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]؛ فمهما بلغوا من الأساليب فإن الله تعالى إذا أراد هداية أحد فلا يمنعه إضلال هؤلاء؛ لأن أعداء الأنبياء يسلكون في إبطال دعوة الأنبياء مَسْلكين: مسلك الإضلال والدعاية الباطلة في كل زمان ومكان؛ ثم مسلك السلاح. أي: المجابهة المسلحة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هَادِيًا﴾ [الفرقان: ٣١] في مقابل المسلك الأول الذي هو الإضلال. وهو الذي نسميه الآن بالأفكار المنحرفة، وتضليل الأمة، والتلبيس على عقول أبنائها؛ وقال تعالى: ﴿وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١] في مقابل المسلك الثاني. وهو المجابهة المسلحة.

٥ - ومن فوائد الآية: أن كل من لم يؤمن فهو سفيه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠].

٦ - ومنها: أن الحكمة كل الحكمة إنما هي الإيمان بالله، واتباع شريعته؛ لأن الكافر المخالف للشريعة سفيه؛ فيقتضي أن ضده يكون حكيمًا رشيدًا.

٧ - ومنها: تحقيق ما وعد الله به من الدفاع عن المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]؛ فإذا ذموا بالقول دافع الله عنهم بالقول؛ فهؤلاء قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾، والله عزَّ وجلَّ هو الذي جادل عن المؤمنين، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ يعني: هم السفهاء لا أنتم؛ فهذا من تحقيق دفاع الله تعالى عن المؤمنين؛ أما دفاعه عن المؤمنين إذا اعتُدي عليهم بالفعل: فاستمع إلى قول الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢] هذه مدافعة فعلية، حيث تنْزل جنود الله تعالى من السماء لتقتل أعداء المؤمنين؛ فهذا تحقيق لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]؛ ولكن الحقيقة أن هذا الوعد العظيم من القادر جلَّ وعلاَ الصادق في وعده يحتاج إلى إيمان حتى نؤمن بالله عزَّ وجلَّ، ولا نخشى أحدًا سواه، فإذا ضعف الإيمان أصبحنا نخشى الناس كخشية الله، أو أشد خشية؛ لأننا إذا كنا نراعيهم دون أوامر الله فسنخشاهم أشد من خشية الله عزَّ وجلَّ؛ وإلا لكنا ننفذ أمر الله عزَّ وجلَّ ولا نخشى إلا الله سبحانه وتعالى.

فنحن لو آمنا حقيقة الإيمان بهذا الوعد الصادق الذي لا يُخلَف لكنا منصورين في كل حال؛ لكن الإيمان ضعيف؛ ولهذا صرنا نخشى الناس أكثر مما نخشى الله عزَّ وجلَّ؛ وهذه هي المصيبة والطامة العظيمة التي أصابت المسلمين اليوم؛ ولذلك تجد كثيرًا من ولاة المسلمين. مع الأسف.

لا يهتمون بأمر الله، ولا بشريعة الله؛ لكن يهتمون بمراعاة فلان وفلان؛ أو الدولة الفلانية والفلانية. ولو على حساب الشريعة الإسلامية التي من تمسك بها فهو المنصور، ومن خالفها فهو المخذول؛ وهم لا يعرفون أن هذا هو الذي يبعدهم من نصر الله؛ فبدلًا من أن يكونوا عبيدًا لله أعزة صاروا عبيدًا للمخلوقين أذلة؛ لأن الأمم الكافرة الكبرى لا ترحم أحدًا في سبيل مصلحتها؛ لكن لو أننا ضربنا بذلك عُرض الحائط، وقلنا: لا نريد إلا رضى الله، ونريد أن نطبق شريعة الله سبحانه وتعالى على أنفسنا، وعلى أمتنا؛ لكانت تلك الأمم العظمى تهابنا؛ ولهذا يقال: من خاف الله خافه كل شيء، ومن خاف غير الله خاف من كل شيء.

٨ـ ومن فوائد الآية: الدلالة على جهل المنافقين؛ لأن الله عزَّ وجلَّ نفى العلم عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾؛ فالحقيقة أنهم من أجهل الناس. إن لم يكونوا أجهل الناس ـ؛ لأن طريقهم إنما هو خداع، وانخداع، وتضليل؛ وهؤلاء المنافقون من أجهل الناس؛ لأنهم لم يعلموا حقيقة أنفسهم، وأنهم هم السفهاء.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة:١٤:١٥]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: قابلوهم، أو جلسوا إليهم؛ ﴿قَالُوا﴾ أي للمؤمنين الذين لقوهم ﴿آمَنَّا﴾ أي: كإيمانكم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾؛ ضُمِّن الفعل هنا معنى «رجعوا»؛ ولذلك عُدِّي بـ﴿إِلَىٰ﴾، لكن عُدِّي بالفعل ﴿خَلَوْا﴾ ليكون المعنى: رجعوا خالين بهم؛ والمراد بـ﴿شَيَاطِينِهِمْ﴾ كبراؤهم؛ وسمي كبراؤهم بـ«الشياطين» لظهور تمردهم؛ وقد قيل: إن «الشيطان» كل مارد؛ أي: كل عاتٍ من الجن، أو الإنس، أو غيرهما: شيطان؛ وقد وصف النبي ﷺ الكلب الأسود بأنه شيطان؛ وليس معناه شيطان الجن؛ بل معناه: الشيطان في جنسه؛ لأن أعتى الكلاب وأشدها قبحًا هي الكلاب السود؛ فلذلك قال ﷺ: «الكلب الأسود شيطان»[1]؛ ويقال للرجل العاتي: هذا شيطان بني فلان. أي: مَريدهم، وعاتيهم.

---

(١) رواه مسلم (٥١٠)، والترمذي (٣٣٨)، والنسائي (٧٥٠)، وأبوداود (٧٠٢)، وابن ماجه (٩٥٢)، وأحمد في «مسنده» (٢١٣٦١)، والنسائي في «الكبرى» (٨٢٦).

وكلمة: «**شيطان**»: النون فيها أصلية من «شطن» بمعنى: بعُد؛ ولكونها أصلية صُرف الاسم بتنوين، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣]؛ ولو كانت النون والألف زائدتين منعت من الصرف؛ لأن الألف والنون إذا كانتا زائدتين في عَلَم أو وصف فإنه يُمنع من الصرف؛ وأما إذا كانتا زائدتين في غير علم ولا وصف فإنه لا يمنع من الصرف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي صحب مقارنون لكم تابعون لكم؛ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أي ما نحن إلا ساخرون بالمؤمنين: نظهر لهم أنا مسلمون لنخادعهم.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي: يسخر تبارك وتعالى بهم بما أملى لهم، وكفَّ أيدي رسول الله ﷺ وأصحابه عن قتلهم، مع أنهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار.

قوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ الطغيان: مجاوزة الحد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]؛ و«العمه» الضلال؛ والمعنى: أن الله يبقيهم ضالين في طغيانهم؛ واعلم أن بين «يَمد» الثلاثي و«يُمد» الرباعي فرقًا؛ فالغالب أن الرباعي يستعمل في الخير، والثلاثي في الشر؛ قال الله تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩]: وهذا في الشر؛ وقال تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢]: وهذا في الخير؛ وهنا قال تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾: فهو في الشر.

الفوائد:

١ - من فوائد الآيتين: ذلّ المنافق؛ فالمنافق ذليل؛ لأنه خائن؛ فهم ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ خوفًا من المؤمنين؛ و﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ خوفًا منهم؛ فهم أذلاء عند هؤلاء، وهؤلاء؛ لأن كون الإنسان يتخذ من دينه تَقيَّة فهذا دليل على ذله؛ وهذا نوع من النفاق؛ لأنه تستر بما يُظَن أنه خير وهو شر.

٢ - ومنها: أن الله يستهزئ بمن يستهزئ به، أو برسله، أو بشرعه جزاءً وفاقًا؛ واعلم أن ها هنا أربعة أقسام:

قسم هو صفة كمال لكن قد ينتج عنه نقص: هذا لا يسمى الله تعالى به؛ ولكن يوصف الله به، مثل «المتكلم»، و«المريد»؛ فـ«المتكلم» و«المريد» ليسا من أسماء الله؛ لكن يصح أن يوصف الله بأنه متكلم ومريد على سبيل الإطلاق؛ ولم تكن من أسمائه؛ لأن الكلام قد يكون بخير، وقد يكون بشر؛ وقد يكون بصدق، وقد يكون بكذب؛ وقد يكون بعدل، وقد يكون بظلم؛ وكذلك الإرادة.

القسم الثاني: ما هو كمال على الإطلاق، ولا ينقسم: فهذا يسمى الله به، مثل: الرحمن، الرحيم، الغفور، السميع، البصير.. وما أشبه ذلك؛ وهو متضمن للصفة؛ وليس معنى قولنا: «**يسمى الله به**» أن نُحْدِث له اسمًا بذلك؛ لأن الأسماء توقيفية؛ لكن معناه أن الله سبحانه وتعالى تَسَمَّى به.

القسم الثالث: ما لا يكون كمالًا عند الإطلاق؛ ولكن هو كمال عند التقييد؛ فهذا لا يجوز أن

يوصف به إلا مقيدًا، مثل: الخداع، والمكر، والاستهزاء، والكيد. فلا يصح أن تقول: إن الله ماكر على سبيل الإطلاق، ولكن قل: إن الله ماكر بمن يمكر به، وبرسله، ونحو ذلك.

مسألة: هل «المنتقم» من جنس الماكر، والمستهزئ؟

الجواب: مسألة «المنتقم» اختلف فيها العلماء؛ منهم من يقول: إن الله لا يوصف به على سبيل الإفراد، وإنما يوصف به إذا اقترن بـ«**العفوّ**»؛ فيقال: «**العفوُّ المنتقم**»؛ لأن «**المنتقم**» على سبيل الإطلاق ليس صفة مدح إلا إذا قُرن بـ«**العفوّ**»؛ ومثله أيضًا المُذِل: قالوا: لا يوصف الله سبحانه وتعالى به على سبيل الإفراد إلا إذا قُرِن بـ«**المُعِز**»؛ فيقال: «**المعزُّ المُذل**»؛ ومثله أيضًا «**الضار**»: قالوا: لا يوصف الله سبحانه وتعالى به على سبيل الإفراد إلا إذا قُرِن بـ«**النافع**»؛ فيقال: «**النافع الضار**»؛ ويسمون هذه: الأسماء المزدوجة.

ويرى بعض العلماء أنه لا يوصف به على وجه الإطلاق. ولو مقرونًا بما يقابله. أي: إنك لا تقول: العفوّ المنتقم؛ لأنه لم يرد من أوصاف الله سبحانه وتعالى «المنتقم»؛ وليست صفة كمال بذاتها إلا إذا كانت مقيدة بمن يستحق الانتقام؛ ولهذا يقول عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤]؛ وهذا هو الذي يرجحه شيخ الإسلام ابن تيمية؛ والحديث الذي ورد في سرد أسماء الله الحسنى، وذُكر فيه المنتقم غير صحيح؛ بل هو مدرج؛ لأن هذا الحديث فيه أشياء لم تصح من أسماء الله؛ وحذف منها أشياء هي من أسماء الله. مما يدل على أنه ليس من كلام الرسول ﷺ.

القسم الرابع: ما يتضمن النقص على سبيل الإطلاق: فهذا لا يوصف الله سبحانه وتعالى به أبدًا، ولا يسمى به، مثل: العاجز؛ الضعيف؛ الأعور.. وما أشبه ذلك؛ فلا يجوز أن يوصف الله سبحانه وتعالى بصفة عيب مطلقًا.

والاستهزاء هنا في الآية على حقيقته؛ لأن استهزاء الله بهؤلاء المستهزئين دال على كماله، وقوته، وعدم عجزه عن مقابلتهم؛ فهو صفة كمال هنا في مقابل المستهزئين مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦] أي: أعظمَ منه كيدًا؛ فالاستهزاء من الله تعالى حق على حقيقته، ولا يجوز أن يفسر بغير ظاهره؛ فتفسيره بغير ظاهره محرم؛ وكل من فسر شيئًا من القرآن على غير ظاهره بلا دليل صحيح فقد قال على الله ما لم يعلم؛ والقول على الله بلا علم حرام، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]؛ فكل قول على الله بلا علم في شرعه، أو في فعله، أو في وصفه غير جائز؛ بل نحن نؤمن بأن الله جلَّ وعلاً يستهزئ بالمنافقين استهزاءً حقيقيًا؛ لكن ليس كاستهزائنا؛ بل أعظم من استهزائنا، وأكبر، وليس كمثله شيء.

وهذه القاعدة يجب أن يسار عليها في كل ما وصف الله به نفسه؛ فكما أنك لا تتجاوز حكم الله

فلا تقول لما حرم: «إنه حلال»، فكذلك لا تقول لما وصف به نفسه أن هذا ليس المراد؛ فكل ما وصف الله به نفسه يجب عليك أن تبقيه على ظاهره، لكن تعلم أن ظاهره ليس كالذي ينسب لك؛ فاستهزاء الله ليس كاستهزائنا؛ وقرب الله ليس كقربنا؛ واستواء الله على عرشه ليس كاستوائنا على السرير؛ وهكذا بقية الصفات نجريها على ظاهرها، ولا نقول على الله ما لا نعلم؛ ولكن ننزه ربنا عما نزَّه نفسه عنه من مماثلة المخلوقين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

أما الخيانة فلا يوصف بها الله مطلقًا؛ لأن الخيانة صفة نقص مطلق؛ و«الخيانة» معناها: الخديعة في موضع الائتمان. وهذا نقص؛ ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: ٧١]، ولم يقل: فخانهم؛ لكن لما قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٤٢] قال: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]؛ لأن الخديعة صفة مدح مقيدة؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: «الحَرْبُ خُدْعَةٌ»[1]، وقال ﷺ: «لَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»[2]؛ لأن الخيانة تكون في موضع الائتمان؛ أما الخداع فيكون في موضع ليس فيه ائتمان؛ والخيانة صفة نقص مطلق.

٣- ومن فوائد الآيتين: أن الله سبحانه وتعالى قد يُملي للظالم حتى يستمر في طغيانه.

فيستفاد من هذه الفائدة فائدة أخرى: وهي تحذير الإنسان الطاغي أن يغتر بنعم الله عزَّ وجلَّ؛ فهذه النعم قد تكون استدراجًا من الله؛ فالله سبحانه وتعالى يملي، كما قال تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ ولو شاء لأخذهم، ولكنه سبحانه وتعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته. كما جاء في الحديث[3].

فإن قال قائل: كيف يعرف الفرق بين النعم التي يجازى بها العبد، والنعم التي يستدرج بها العبد؟

فالجواب: أن الإنسان إذا كان مستقيمًا على شرع الله فالنعم من باب الجزاء؛ وإذا كان مقيمًا على معصية الله مع توالي النعم فهي استدراج.

٤- ومن فوائد الآيتين: أن صاحب الطغيان يعميه هواه، وطغيانه عن معرفة الحق وقبوله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ ومن الطغيان أن يُقدِّم المرء قوله على

---

(١) رواه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٤٠).

(٢) صحيح: رواه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٥٢٥٢)، والحاكم في «مستدركه» (٢٢٩٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٢٤٠).

(٣) وذلك ما رواه مسلم في «صحيحه» (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز و جل يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾» [هود: ١٠٢].

قول الله ورسوله ﷺ؛ والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾؛ «أولاء» اسم إشارة؛ والمشار إليهم المنافقون؛ وجاءت الإشارة بصيغة البُعد لبُعد منزلة المنافق سفولًا؛ و﴿اشْتَرَوُا﴾ أي: اختاروا؛ و﴿الضَّلَالَةَ﴾: العماية؛ وهي: ما ساروا عليه من النفاق؛ و﴿بِالْهُدَى﴾: الباء هنا للعوض؛ أخذوا الضلالة، وأعطوا الهدى. مثلما تقول: اشتريت الثوب بدرهم؛ فالهدى المدفوع عوض عن الضلالة المأخوذة، كما أن الدرهم المدفوع عوض عن الثوب المأخوذ.

قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ أي: ما زادت تجارتهم. وهي اشتراؤهم الضلالة بالهدى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أي: ما كانوا متصفين بالاهتداء حينما اشتروا الضلالة بالهدى؛ بل هم خاسرون في تجارتهم ضالون في منهجهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** بيان سفه هؤلاء المنافقين، حيث اشتروا الضلالة بالهدى.

٢ ـ **ومنها:** شغف المنافقين بالضلال؛ لأنه تبارك وتعالى عبر عن سلوكهم الضلال بأنهم اشتروه؛ والمشتري مشغوف بالسلعة محب لها.

٣ ـ **ومنها:** أن الإنسان قد يظن أنه أحسنَ عملًا وهو قد أساء؛ لأن هؤلاء اشتروا الضلالة بالهدى ظنًّا منهم أنهم على صواب، وأنهم رابحون، فقال الله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾.

٤ ـ **ومنها:** خسران المنافقين فيما يطمعون فيه بالربح؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾.

٥ ـ **ومنها:** أن المدار في الربح، والخسران على اتباع الهدى؛ فمن اتبعه فهو الرابح؛ ومن خالفه فهو الخاسر؛ ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠، ١١]: تقف على ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾؛ لأن ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إذا وصلناها بما

قبلها صار الخير معلقًا بكوننا نعلم. وهو خير؛ علمنا أم لم نعلم.

٦ - **ومن فوائد الآية**: أن هؤلاء لن يهتدوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا؛ ولذلك لا يرجعون؛ وهكذا كل فاسق أو مبتدع يظن أنه على حق فإنه لن يرجع؛ فالجاهل البسيط خير من هذا؛ لأن هذا جاهل مركب يظن أنه على صواب. وليس على صواب.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٧:١٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي: وصْفهم، وحالهم ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ أي: طلب من غيره أن يوقد له نارًا، أو طلب من غيره ما يوقد به النار بنفسه؛ ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ أي: أنارت ما حول المستوقد، ولم تذهب بعيدًا لضعفها؛ ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ يعني: وأبقى حرارة النار؛ و«لما» حرف شرط، و﴿أَضَاءَتْ﴾ فعل الشرط؛ و﴿ذَهَبَ اللَّهُ﴾ جواب الشرط؛ والمعنى: أنه بمجرد﴾ الإضاءة ذهب النور؛ لأن القاعدة أن جواب الشرط يلي المشروط مباشرة.

وفي هذه الآية نجد اختلافًا في الضمائر: ﴿اسْتَوْقَدَ﴾: مفرد؛ ﴿حَوْلَهُ﴾: مفرد؛ ﴿بِنُورِهِمْ﴾: جمع؛ ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾: جمع؛ ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾: جمع؛ قد يقول قائل: كيف يجوز في أفصح الكلام أن تكون الضمائر مختلفة والمرجع فيها واحد؟ الجواب من وجهين:

الأول: أن اسم الموصول يفيد العموم؛ وإذا كان يفيد العموم فهو صالح للمفرد والجمع؛ فتكون الضمائر في ﴿اسْتَوْقَدَ﴾، و﴿حَوْلَهُ﴾ عادت إلى اسم الموصول باعتبار اللفظ؛ وأما ﴿بِنُورِهِمْ﴾، و﴿وَتَرَكَهُمْ﴾، و﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ فعادت إلى الموصول باعتبار المعنى.

الوجه الثاني: أن الذي استوقد النار كان مع رفقة، فاستوقد النار له، ولرفقته؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ..﴾ إلخ.

وعلى الوجه الثاني تكون الآية ممثلة لرؤساء المنافقين مع أتباعهم؛ لأن رأس المنافقين هو الذي استوقد النار، وأراد أن ينفع بها أقرانه، ثم ذهبت الإضاءة، وبقيت الحرارة والظلمة، وتركهم جميعًا في ظلمات لا يبصرون.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾: جمعها لتضمنها ظلمات عديدة؛ أولها: ظلمة الليل؛ لأن

استيقاد النار للإضاءة لا يكون إلا في الليل؛ لأنك إذا استوقدت نارًا بالنهار فإنها لا تضيء؛ والثانية: ظلمة الجو إذا كان غائمًا؛ والثالثة: الظلمة التي تحدث بعد فقد النور؛ فإنها تكون أشد من الظلمة الدائمة؛ و﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ تأكيد من حيث المعنى لقوله تعالى: ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ﴾ دال على شدة الظلمة.

قوله تعالى في وصفهم: ﴿صُمٌّ﴾ خبر لمبتدأ محذوف. أي: هم صم؛ و﴿صُمٌّ﴾ جمع أصم؛ و«**الأصم**» الذي لا يسمع، لكنه هنا ليس على سبيل الإطلاق؛ بل أريد به شيء معين: أي: هم صم عن الحق، فلا يسمعون؛ والمراد نفي السمع المعنوي. وهو السمع النافع؛ لا الحسي. وهو الإدراك؛ لأن كلهم يسمعون القرآن، ويفهمون معناه، لكن لما كانوا لا ينتفعون به صاروا كالصم الذين لا يسمعون؛ وذلك مثل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]

قوله تعالى: ﴿بُكْمٌ﴾ جمع أبكم؛ وهو الذي لا ينطق؛ والمراد أنهم لا ينطقون بالحق؛ وإنما ينطقون بالباطل؛ و﴿عُمْىٌ﴾ جمع أعمى؛ والمراد: أنهم لا ينتفعون بما يشاهدونه من الآيات التي تظهر على أيدي الرسل. عليهم الصلاة والسلام.

فبهذا سُدت طرق الحق أمامهم؛ لأن الحق إما مسموع؛ وإما مشهود؛ وإما معقول؛ فهم لا يسمعون، ولا يشهدون؛ كذلك أيضًا لا يؤخذ منهم حق؛ لأنهم لا ينطقون بالحق؛ لأنهم بُكم؛ فهم لا ينتفعون بالحق من غيرهم، ولا ينفعون غيرهم بحق.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: الفاء هذه عاطفة، لكنها تفيد السببية. أي: بسبب هذه الأوصاف الثلاثة لا يرجعون عن غيِّهم ـ؛ فلا ينتفعون بسماع الحق، ولا بمشاهدته، ولا ينطقون به.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآيتين: بلاغة القرآن، حيث يضرب للمعقولات أمثالًا محسوسات؛ لأن الشيء المحسوس أقرب إلى الفهم من الشيء المعقول؛ لكن من بلاغة القرآن أن الله تعالى يضرب الأمثال المحسوسة للمعاني المعقولة حتى يدركها الإنسان جيدًا، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

٢ ـ ومنها: ثبوت القياس، وأنه دليل يؤخذ به؛ لأن الله أراد منا أن نقيس حالهم على حال من يستوقد؛ وكل مثل في القرآن فهو دليل على ثبوت القياس.

٣ ـ ومنها: أن هؤلاء المنافقين ليس في قلوبهم نور؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾؛ فهؤلاء المنافقون يستطعمون الهدى، والعلم، والنور؛ فإذا وصل إلى قلوبهم. بمجرد ما يصل

إليها. يتضاءل ويزول؛ لأن هؤلاء المنافقين إخوان للمؤمنين من حيث النسب، وأعمام، وأخوال، وأقارب؛ فربما يجلس إلى المؤمن حقًّا، فيتكلم له بإيمان حقيقي، ويدعوه، فينقدح في قلبه هذا الإيمان، ولكن سرعان ما يزول.

٤ـ ومن فوائد الآيتين: أن الإيمان نور له تأثير حتى في قلب المنافق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾: الإيمان أضاء بعض الشيء في قلوبهم؛ ولكن لما لم يكن على أسس لم يستقر؛ ولهذا قال تعالى في سورة المنافقين. وهي أوسع ما تحدَّث الله به عن المنافقين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣].

٥ ـ ومنها: أنه بعد أن ذهب هذا الضياء حلَّت الظلمة الشديدة؛ بل الظلمات.

٦ ـ ومنها: أن الله تعالى جازاهم على حسب ما في قلوبهم: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، كأنه أخذه قهرًا.

فإن قال قائل: أليس في هذا دليل على مذهب الجبرية؟

فالجواب: لا؛ لأن هذا الذي حصل من رب العباد عزَّ وجلَّ بسببهم؛ وتذكَّر دائمًا قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. حتى يتبين لك أن كل من وصفه الله بأنه أضله فإنما ذلك بسبب منه .

٧ـ ومن فوائد الآيتين: تخلي الله عن المنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾.

ويتفرع على ذلك: أن من تخلى الله عنه فهو هالك. ليس عنده نور، ولا هدًى، ولا صلاح؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾.

٨ـ ومن فوائد الآيتين: أن هؤلاء المنافقين أصم الله تعالى آذانهم، فلا يسمعون الحق؛ ولو سمعوا ما انتفعوا؛ ويجوز أن يُنفى الشيء لانتفاء الانتفاع به، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[الأنفال: ٢١].

٩ ـ ومنها: أن هؤلاء المنافقين لا ينطقون بالحق. كالأبكم.

١٠ ـ ومنها: أنهم لا يبصرون الحق. كالأعمى.

١١ ـ ومنها: أنهم لا يرجعون عن غيِّهم؛ لأنهم يعتقدون أنهم محسنون، وأنهم صاروا أصحابًا للمؤمنين، وأصحابًا للكافرين: هم أصحاب للمؤمنين في الظاهر، وأصحاب للكافرين في الباطن؛ ومن استحسن شيئًا فإنه لا يكاد أن يرجع عنه.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٩: ٢٠]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾؛ ﴿ أَوْ ﴾ هنا للتنويع؛ لأن المثل الثاني نوع آخر؛ والكاف اسم بمعنى «مِثل»؛ فالمعنى: أو مِثل صيب؛ ويجوز أن نقول: إن الكاف حرف تشبيه، والتقدير: أو مَثلهم كصيب؛ و«**الصيِّب**»: المطر النازل من السماء؛ والمراد بـ﴿ٱلسَّمَآءِ ﴾ هنا:العلو.

قوله تعالى: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ ﴾ أي: معه ظلمات؛ لأن الظلمات تكون مصاحبة له؛ وهذه الظلمات ثلاث: ظلمة الليل؛ وظلمة السحاب؛ وظلمة المطر؛ والدليل على أنها ظلمة الليل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ ﴾: وهذا لا يكون إلا في الليل؛ والثاني: ظلمة السحاب؛ لأن السحاب الكثير يتراكم بعضه على بعض، فيَحدُث من ذلك ظلمةٌ فوق ظلمة؛ والثالث: ظلمة المطر النازل؛ لأن المطر النازل له كثافة تُحدِث ظلمةً؛ هذه ثلاث ظلمات؛ وربما تكون أكثر، كما لو كان في الجو غبار.

قوله تعالى: ﴿وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾؛ «**الرعد**» هو الصوت الذي نسمعه من السحاب؛ أما «**البرق**» فهو النور الذي يلمع في السحاب.

فهؤلاء عندهم ظلمات في قلوبهم. فهي مملوءة ظلمة من الأصل؛ أصابها صيب. وهو القرآن. فيه رعد؛ والرعد هو وعيد القرآن؛ إلا أنه بالنسبة لهؤلاء المنافقين وخوفهم منه كأنه رعد شديد؛ وفيه برق. وهو وعد القرآن؛ إلا أنه بالنسبة لما فيه من نور وهدى يكون كالبرق؛ لأن البرق ينير الأرض.

قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم ﴾؛ الضمير في ﴿يَجْعَلُونَ ﴾ يعود على أصحاب الصيب؛ ففيها حذف المضاف؛ والتقدير: أصحاب الصيب؛ وإنما قلنا ذلك؛ لأنه ليس المشبه به هنا هو الصيب؛ وإنما المشبه به الذين أصابهم الصيب؛ و«**أصابع**» جمع أصبع، وفيه عشر لغات أشار إليها في قوله:

وهمزَ أنملةٍ ثلِّث وثالثَة … التسعُ في إصبعٍ واختم بأصبوع

هذا وقد قيل: إن في الآية مجازًا من وجهين؛ الأول: أن الأصابع ليست كلها تجعل في

الأذن؛ والثاني: أنه ليس كل الأصبع يدخل في الأذن؛ والتحقيق: أنه ليس في الآية مجاز؛ أما الأول: فلأن «أصابع» جمع عائد على قوله تعالى: ﴿يجعلون﴾، فيكون من باب توزيع الجمع على الجمع. أي: يجعل كل واحد منهم أصبعه في أذنه؛ وأما الثاني: فلأن المخاطَب لا يمكن أن يفهم من جعْل الأصبع في الأذن أن جميع الأصبع تدخل في الأذن؛ وإذا كان لا يمكن ذلك امتنع أن تحمل الحقيقة على إدخال جميع الأصبع؛ بل الحقيقة أن ذلك إدخال بعض الأصبع؛ وحينئذ لا مجاز في الآية؛ على أن القول الراجح:أنه لا مجاز في القرآن أصلًا؛ لأن معاني الآية تدرك بالسياق؛ وحقيقة الكلام: ما دلّ عليه السياق. وإن استعملت الكلمات في غير أصلها ـ وبحث ذلك مذكور في كتب البلاغة، وأصول الفقه، وأكبر دليل على امتناع المجاز في القرآن: أن من علامات المجاز صحة نفيه، وتبادر غيره لولا القرينة؛ وليس في القرآن ما يصح نفيه؛ وإذا وجدت القرينة صار الكلام بها حقيقة في المراد به.

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾؛ ﴿مِّنَ﴾ سببية. أي: يجعلونها بسبب الصواعق ـ؛ و﴿ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ جمع صاعقة؛ وهي ما تَصعَق. أي: تُهلك. مَنْ أصابته؛ هذه الصواعق معروفة بآثارها؛ فهي نار تنطلق من البرق؛ فإذا أصابت أحدًا أو شيئًا أحرقته؛ وغالبًا تسقط على النخيل وتحرقها؛ وترى فيها النار والدخان؛ وأحيانًا تسقط على المنازل وتهدمها؛ لأنها كتلة نارية تنطلق بشدة لها هواء تدفعه أمامها.

فيجعلون أصابعهم في آذانهم من هذه الصواعق لئلا يموتوا؛ ولكنهم لا ينجون منها بهذا الفعل؛ إلا أنهم كالنعامة إذا رأت الصياد أدخلت رأسها في الرمل لئلا تراه؛ وتظن أنها إذا لم تره تنجو منه! وكذلك الذين يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق لا يسلمون بهذا؛ إذا أراد الله تعالى أن يصيبهم أصابهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فلن ينفعهم الحذر.

ولما بَيّن الله شدة الصوت، وأنهم لفرارهم منه وعدم تحملهم إياه يجعلون أصابعهم في آذانهم بَيّن شدة الضوء عليهم، فقال تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي: يقرب أن يخطف أبصارهم. أي: يأخذها بسرعة فتعمى؛ وذلك لقوته وضعف أبصارهم.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾؛ فكأنهم ينتهزون فرصة الإضاءة، ولا يتأخرون عن الإضاءة طرفة عين؛ كلما أضاء لهم. ولو شيئًا يسيرًا. مشوا فيه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أصابهم بظلمة؛ وذلك أن الضوء إذا انطفأ بسرعة اشتدت الظلمة بعده؛ ﴿قاموا﴾ أي: وقفوا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ دون أن تحدث الصواعق، ودون أن يحدث البرق؛ لأن الله على كل شيء قدير؛ فهو قادر على أن يُذهب السمع والبصر بدون أسباب: فيذهب السمع بدون صواعق، والبصر بدون برق؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

هذا المثل ينطبق على منافقين لم يؤمنوا أصلًا؛ بل كانوا كافرين من قبل، كاليهود؛ لأن المنافقين منهم عرب من الخزرج والأوس، ومنهم يهود من بني إسرائيل؛ فاليهود لم يذوقوا طعم الإيمان أبدًا؛ لأنهم كفار من الأصل؛ لكن أظهروا الإسلام خوفًا من النبي ﷺ بعد أن أعزه الله في بدر؛ فهؤلاء ليسوا على هدًى كالأولين؛ الأولون استوقدوا النار، وصار عندهم شيء من النور بهذه النار، ثم. والعياذ بالله. انتكسوا؛ لكن هؤلاء من الأصل في ظلمات؛ فيكون هذا المثل غير المثل الأول؛ بل هو لقوم آخرين؛ والمنافقون أصناف بلا شك.

و«**الصواعق**» عبارة عما في القرآن من الإنذار والخوف؛ ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى عنهم في آية أخرى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]؛ و«**البرق**» نور الإسلام، لكنه ليس نورًا يستمر؛ نور البرق ينقطع في لحظة وميض؛ فهؤلاء لم يدخل الإيمان في قلوبهم أصلًا، ولا فكروا في ذلك؛ وإنما يرون هذا النور العظيم الذي شع، فينتفعون به لمجرد خطوة يخطونها فقط؛ وبعد ذلك يقفون؛ كذلك أيضًا يكاد البرق يخطف أبصارهم؛ لأنهم لا يتمكنون من رؤية النور الذي جاء به النبي ﷺ؛ بل لكبريائهم وحسدهم للعرب، يكاد هذا البرق يعمي أبصارهم؛ لأنه قوي عليهم لا يستطيعون مدافعته ومقابلته.

فالظاهر أن القول الراجح أن هذين مثلان يتنزلان على صنفين من المنافقين.

فإن قال قائل: الصنف الأول كيف نقول: إنه دخل الإيمان في قلوبهم؟

فالجواب: نقول: نعم؛ قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]؛ وهذا يدل على أنهم آمنوا أولًا، ثم كفروا ثانيًا؛ لأن الإيمان لم يستقر في قلوبهم، ولم تستنر به؛ وإنما هو وميض ضوء ما لبث أن طفئ؛ وإلا فإن الإيمان إذا دخل القلب دخولًا حقيقيًّا فإنه لن يخرج منه بإذن الله؛ ولهذا سأل هرقل أبا سفيان عن أصحاب الرسول ﷺ الذين يدخلون في الإسلام: «**فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فيه؟ فقال: لا؛ فقال: وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ**»[1]؛ لكن الإيمان الهش ـ الذي لم يتمكن من القلب ـ هو الذي يُخشى على صاحبه.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين**: تهديد الكفار بأن الله محيط بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٢ ـ **ومنها**: أن البرق الشديد يخطف البصر؛ ولهذا يُنهى الإنسان أن ينظر إلى البرق حال كون السماء تبرق؛ لئلا يُخطف بصره.

٣ ـ **ومنها**: أن من طبيعة الإنسان اجتناب ما يهلكه؛ لقوله تعالى: ﴿أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾

---

(١) رواه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

٤ـ **ومنها:** إثبات مشيئة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾

٥ـ **ومنها:** أنه ينبغي للإنسان أن يلجأ إلى الله عزَّ وجلَّ أن يمتعه بسمعه وبصره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾؛ وفي الدعاء المأثور: «مَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا، وَأَبْصَارِنَا، وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا»[1].

٦ـ **ومنها:** أن من أسماء الله أنه قدير على كل شيء.

٧ـ **ومنها:** عموم قدرة الله تعالى على كل شيء؛ فهو جلَّ وعلَّا قادر على إيجاد المعدوم، وإعدام الموجود، وعلى تغيير الصالح إلى فاسد، والفاسد إلى صالح، وغير ذلك.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]

❁ التفسير ❁

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: النداء هنا وجِّه لعموم الناس مع أن السورة مدنية؛ والغالب في السور المدنية أن النداء فيها يكون موجهًا للمؤمنين. والله أعلم بما أراد في كتابه ـ؛

ولو قال قائل: لعل هذه آية مكية جعلت في السورة المدنية؟

فالجواب: أن الأصل عدم ذلك – أي: عدم إدخال الآية المكية في السور المدنية، أو العكس ـ؛ ولا يجوز العدول عن هذا الأصل إلا بدليل صحيح صريح؛ وعلى هذا فما نراه في عناوين بعض السور أنها مدنية إلا آية كذا، أو مكية إلا آية كذا غير مسلَّم حتى يثبت ذلك بدليل صحيح صريح؛ وإلا فالأصل أن السورة المدنية جميع آياتها مدنية، وأن السور المكية جميع آياتها مكية إلا بدليل ثابت.

قوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ أي: تذللوا له بالطاعة؛ وذلك بفعل الأوامر، واجتناب النواهي ذلًّا تامًّا ناشئًا عن المحبة والتعظيم و«الرب» هو: الخالق المالك المدبر لشئون خلقه؛ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ أي: أوجدكم من العدم؛ ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ معطوف على الكاف في قوله تعالى: ﴿خلقكم﴾. يعني وخلق الذين من قبلكم؛ والمراد بـ«من قبلنا»: سائر الأمم الماضية.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ صفة كاشفة تبين بعض معنى الربوبية؛ وليست صفة احترازية؛

(١) حسن: رواه الترمذي (٣٥٠٢)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٢٣٤)، والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ١٧٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٢٦٨).

لأنه ليس لنا ربان أحدهما خالق والثاني غير خالق؛ بل ربنا هو الخالق.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ «لعل» هنا للتعليل. أي: لتصلوا إلى التقوى؛ ومعلوم أن التقوى مرتبة عالية، حتى قال الله عزَّ وجلَّ في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** العناية بالعبادة؛ يستفاد هذا من وجهين؛ الوجه الأول: تصدير الأمر بها بالنداء؛ و الوجه الثاني: تعميم النداء لجميع الناس مما يدل على أن العبادة أهم شيء؛ بل إنَّ الناس ما خُلقوا إلا للعبادة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

٢ - **ومنها:** أن الإقرار بتوحيد الربوبية مستلزم للإقرار بتوحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾.

٣ - **ومنها:** وجوب عبادة الله عزَّ وجلَّ وحده. وهي التي خُلق لها الجن والإنس؛ و«**العبادة**» تطلق على معنيين؛ أحدهما: التعبد. وهو فعل العابد؛ والثاني: المتعبَّد به. وهي كل قول أو فعل ظاهر أو باطن يقرب إلى الله عزَّ وجلَّ.

٤ - **ومنها:** أن وجوب العبادة علينا مما يقتضيه العقل بالإضافة إلى الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾؛ فإن الرب عزَّ وجلَّ يستحق أن يُعبد وحده، ولا يعبد غيره؛ والعجب أن هؤلاء المشركين الذين لم يمتثلوا هذا الأمر إذا أصابتهم ضرَّاء، وتقطعت بهم الأسباب يتوجهون إلى الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]؛ لأن فطرتهم تحملهم على ذلك ولابد.

٥ - **ومن فوائد الآية:** إثبات أن الله عزَّ وجلَّ هو الخالق وحده، وأنه خالق الأولين والآخرين؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

٦ - **ومنها:** أن من طريق القرآن أنه إذا ذَكر الحكم غالبًا ذَكر العلة؛ الحكم: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾؛ والعلة: كونه ربًّا خالقًا لنا، ولمن قبلنا.

٧ - **ومنها:** أن التقوى مرتبة عالية لا ينالها كل أحد إلا من أخلص العبادة لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

٨ - وربما يستفاد التحذير من البدع؛ وذلك؛ لأن عبادة الله لا تتحقق إلا بسلوك الطريق الذي شرعه للعباد؛ لأنه لا يمكن أن نعرف كيف نعبد الله إلا عن طريق الوحي والشرع: كيف نتوضأ؟كيف نصلي؟. يعني: ما الذي أدرانا أن الإنسان إذا قام للصلاة يقرأ، ثم يركع، ثم يسجد.. إلخ، إلا بعدلوحي.

٩ - **ومنها:** الحث على طلب العلم؛ إذ لا تمكن العبادة إلا بالعلم؛ ولهذا ترجم البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ على هذه المسألة بقوله: (باب: العلم قبل القول والعمل) [(١)].

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا..﴾ هذا من باب تعديد أنواع من مخلوقاته عزَّ وجلَّ؛ جعل الله لنا الأرض فراشًا مُوَطَّأة يستقر الإنسان عليها استقرارًا كاملًا مهيأة له يستريح فيها. ليست نشَزًا؛ وليست مؤلمة عند النوم عليها، أو عند السكون عليها، أو ما أشبه ذلك؛ والله تعالى قد وصف الأرض بأوصاف متعددة: وصفها بأنها فراش، وبأنها ذلول، وبأنها مهاد.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾. كما قال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢]: السماء جعلها الله بمنزلة البناء، وبمنزلة السقف، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: ليست هي السماء الأولى؛ بل المراد بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ هنا العلو؛ لأن الماء. الذي هو المطر. ينزل من السحاب، والسحاب بين السماء والأرض، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ..﴾ [البقرة: ١٦٤] إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]؛ وبهذا نعرف أن السماء يطلق على معنيين؛ المعنى الأول: البناء الذي فوقنا؛ والمعنى الثاني: العلو.

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ أي بسببه؛ ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ جمع ثمرة؛ وجمعت باعتبار أنواعها.

قوله تعالى: ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أي عطاء لكم؛ وهو مفعول لأجله.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟﴾ أي لا تُصَيِّروا ﴿لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي نظراء، ومشابهين في العبادة ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه لا نِد له في الخلق، والرزق، وإنزال المطر، وما أشبه ذلك من معاني الربوبية ومقتضياتها؛ لأن المشركين يقرُّون بأن الخالق هو الله، والرازق هو الله، والمدبر للأمر هو

---

(١) صحيح البخاري (١/ ٣٧).

الله إقرارًا تامًا، ويعلمون أنه لا إله مع الله في هذا؛ لكن في العبادة ينكرون التوحيد: يشركون؛ يجعلون مع الله إلهًا آخر؛ وينكرون على من وحَّد الله حتى قالوا في الرسول ﷺ: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥]؛ وإقرارهم بالخلق والرزق أن الله منفرد به يستلزم أن يجعلوا العبادة لله وحده؛ فإن لم يفعلوا فهم متناقضون؛ ولهذا قال العلماء ـ رحمهم الله ـ: توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية؛ وتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية؛ يعني: من أقر بتوحيد الربوبية لزمه أن يقر بتوحيد الألوهية؛ ومن أقر بتوحيد الألوهية فإنه لم يقرَّ بها حتى كان قد أقر بتوحيد الربوبية.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** بيان رحمة الله تعالى، وحكمته في جعل الأرض فراشًا؛ إذ لو جعلها خشنة صلبة لا يمكن أن يستقر الإنسان عليها ما هدأ لأحد بال؛ لكن من رحمته، ولطفه، وإحسانه جعلها فراشًا.

٢ ـ **ومنها:** جعْل السماء بناءً؛ وفائدتنا من جعل السماء بناءً أن نعلم بذلك قدرة الله عزَّ وجلَّ؛ لأن هذه السماء المحيطة بالأرض من كل الجوانب نعلم أنها كبيرة جدًّا وواسعة، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧].

٣ ـ **ومنها:** بيان قدرة الله عزَّ وجلَّ بإنزال المطر من السماء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ لو اجتمعت الخلائق على أن يخلقوا نقطة من الماء ما استطاعوا؛ والله تعالى ينزل هذا المطر العظيم بلحظة؛ وقصة الرجل الذي دخل والنبي ﷺ يخطب يوم الجمعة قال: ادع الله يغيثنا، فرفع ﷺ يديه، وقال: «اَللَّهُمَّ أَغِثْنَا»[1]، وما نزل من المنبر إلا والمطر يتحادر من لحيته.

٤ ـ **ومنها:** حكمة الله سبحانه وتعالى، ورحمته بإنزال المطر من السماء؛ وجه ذلك: لو كان الماء الذي تحيى به الأرض يجري على الأرض لأضر الناس؛ ولو كان يجري على الأرض لحُرِمت منه أراضٍ كثيرة. ـ الأراضي المرتفعة لا يأتيها شيء ـ؛ ولكن من نعمة الله أن ينزل من السماء؛ ثم هناك شيء آخر أيضًا: أنه ينزل رذاذًا. يعني قطرةً قطرةً؛ ولو نزل كأفواه القرب لأضر بالناس.

٥ ـ **ومنها:** إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾.

٦ ـ **ومنها:** أن الأسباب لا تكون مؤثرة إلا بإرادة الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾.

٧ ـ ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يضيف الشيء إلى سببه أن يضيفه إلى الله مقرونًا بالسبب، مثل: لو أن أحدًا من الناس غرق، وجاء رجل فأخرجه ـ أنقذه من الغرق ـ؛ فليقل: أنقذني الله بفلان؛ وله أن يقول: أنقذني فلان؛ لأنه فعلًا أنقذه؛ وله أن يقول: أنقذني الله ثم فلان؛ وليس

---

(١) رواه البخاري (٩٦٨)، ومسلم (٨٩٧).

له أن يقول: أنقذني الله وفلان؛ لأن هذا تشريك مع الله؛ ويدل لهذا. أي: الاختيار أن يضيف الشيء إلى الله مقرونًا بالسبب. :أن النبي ﷺ لما دعا الغلام اليهودي للإسلام وكان هذا الغلام في سياق الموت، فعرض عليه النبي ﷺ أن يسلم، فأسلم؛ لكنه أسلم بعد أن استشار أباه: التفت إليه ينظر إليه يستشيره؛ قال: «**أطع أبا القاسم**». أمر ولده أن يسلم، وهو لم يسلم في تلك الحال، أما بعد فلا ندري، والله أعلم؛ فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «اَلْحَمْدُ للهِ اَلَّذِيْ أَنْقَذَهُ بِيْ مِنَ النَّارِ»[1]، وهكذا ينبغي لنا إذا حصل شيء بسبب أن نضيفه إلى الله تعالى مقرونًا ببيان السبب؛ وذلك؛ لأن السبب موصل فقط.

٨ ـ **ومن فوائد الآية:** بيان قدرة الله، وفضله بإخراج هذه الثمرات من الماء؛ أما القدرة فظاهرة: تجد الأرض شهباء جدباء ليس فيها ورقة خضراء فينزل المطر، وفي مدة وجيزة يخرج هذا النبات من كل زوج بهيج بإذن الله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣]؛ وأما الفضل فبما يمن الله به من الثمرات؛ ولذلك قال تعالى: ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾.

٩ ـ **ومنها:** أن الله عزَّ وجلَّ منعم على الإنسان كافرًا كان أو مؤمنًا؛ لقوله تعالى: ﴿لكم﴾، وهو يخاطب في الأول الناس عمومًا؛ لكن فضل الله على المؤمن دائم متصل بفضل الآخرة؛ وفضل الله على الكافر منقطع بانقطاعه من الدنيا.

١٠ ـ **ومنها:** تحريم اتخاذ الأنداد لله؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾؛ وهل الأنداد شرك أكبر، أو شرك أصغر؟ وهل هي شرك جليٌّ، أو شرك خفي؟ هذا له تفصيل في علم التوحيد؛ خلاصته: إن اتخاذ الأنداد في العبادة، أو جَعْلِها شريكة لله في الخلق، والملك، والتدبير شرك أكبر؛ وإن كان دون ذلك فهو شرك أصغر، كقول الرجل لصاحبه: «**ما شاء الله وشئت**»[2].

١١ ـ **ومن فوائد الآية:** أنه ينبغي لمن خاطب أحدًا أن يبين له ما تقوم به عليه الحجة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ولقوله تعالى في صدر الآية الأولى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]؛ فإن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] فيه إقامة الحجة على وجوب عبادته وحده؛ لأنه الخالق وحده.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه البخاري (١٢٩٠)، وأبوداود (٣٠٩٥)، وأحمد في «مسنده» (١٣٣٩٩)، وأبويعلى في «مسنده» (٣٣٥٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٨٨٤).

(٢) والصواب أن يقول (ماشاء الله ثم شئت)، كما علمهم النبي ﷺ، والحديث رواه ابن ماجه (٣٧٧٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٣٦).

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:٢٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ..﴾: الخطاب لمن جعل لله أندادًا؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾

وفي ذكر هذه الآية المتعلقة برسالة محمد ﷺ إشارة إلى كلمتي التوحيد؛ وهما: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله؛ لكن شهادة أن لا إله إلا الله: توحيد القصد؛ والثاني: توحيد المتابعة؛ فكلاهما توحيد؛ لكن: الأول توحيد القصد بأن يكون العمل خالصًا لله؛ والثاني: توحيد المتابعة بأن لا يتابع في عبادته سوى رسول الله ﷺ، وإذا تأملت القرآن وجدته هكذا: يأتي بما يدل على التوحيد، ثم بما يدل على الرسالة؛ ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩]؛ وهذا مطَّرد في القرآن الكريم.

قوله تعالى: ﴿فِي رَيْبٍ﴾: «**الريب**» يفسره كثير من الناس بالشك؛ ولا شك أنه قريب من معنى الشك، لكنه يختلف عنه بأن «**الريب**» يُشعر بقلق مع الشك، وأن الإنسان في قلق عظيم مما وقع فيه الشك؛ وذلك؛ لأن ما جاء به الرسول ﷺ حق؛ والشاك فيه لا بد أن يعتريه قلق من أجل أنه شك في أمر لا بد من التصديق به؛ بخلاف الشك في الأمور الهينة، فلا يقال: «ريب»؛ وإنما يقال في الأمور العظيمة التي إذا شك فيها الإنسان وجد في داخل نفسه قلقًا واضطرابًا.

قوله تعالى: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾: المراد به القرآن؛ لأن الله أنزله على محمد ﷺ ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾: هو محمد رسول الله ﷺ، والله - تبارك وتعالى - وصف رسوله ﷺ بالعبودية في المقامات العالية: في الدفاع عنه؛ وفي بيان تكريمه بالمعراج والإسراء؛ وفي بيان تكريمه بإنزال القرآن، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾: هذا في مقام التحدي والمدافعة؛ وأفضل أوصاف الرسول ﷺ هي العبودية والرسالة؛ ولهذا قال ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ، وَرَسُولُهُ»[1]؛ و«**العبودية**»: هي

---

(١) رواه البخاري (٣٢٦١)، وأحمد في «مسنده» (٣٩١)، والبغوي في شرح السنة (١٣/ ٢٤٦)، وابن حبان في صحيحه (٤١٤)، والطيالسي في «مسنده» (٢٤).

التذلل للمحبوب والمعظم؛ ولهذا قال الشاعر في محبوبته:

لَا تَـدْعنِي إِلَّا بِيَـا عَبْـدِهَا ... فَإِنَّـهُ أَشْـرَفُ أَسْـمَائِي

يعني: لا تقل: فلان وفلان؛ بل قل: يا عبد فلانة؛ لأن هذا عنده أشرف أوصافه، حيث انتمى إليها. نعوذ بالله من الخذلان.

قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾: أمر يقصد به التحدي، يعني: إذا كنتم في شك من هذا القرآن فإننا نتحداكم أن تأتوا بسورة واحدة؛ ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾: يحتمل أن يكون الضمير عائدًا إلى الرسول ﷺ؛ والمعنى: من مثل محمد ﷺ، ويحتمل أن يكون عائدًا إلى القرآن المنزل؛ والمعنى: من مثل ما نزلنا على عبدنا. أي من جنسه ـ؛ وكلاهما صحيح.

قوله تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم﴾ أي: الذين تشهدون لهم بالألوهية، وتعبدونهم كما تعبدون الله، ادعوهم ليساعدوكم في الإتيان بمثله؛ وهذا غاية ما يكون من التحدي: أن يتحدى العابدَ والمعبودَ أن يأتوا بسورة مثله.

قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: مما سوى الله؛ ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: في أن هذا القرآن مفترًى على الله؛ والجواب على هذا: أنه لا يمكن أن يأتوا بسورة مثله مهما أتوا من المعاونين والمساعدين.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: دفاع الله سبحانه وتعالى عن رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾؛ لأن الأمر هنا للتحدي؛ فالله عزَّ وجلَّ يتحدى هؤلاء بأن يأتوا بمعارضٍ لما جاء به الرسول ﷺ.

٢ ـ ومنها: فضيلة النبي ﷺ؛ لوصفه بالعبودية؛ والعبودية لله عزَّ وجلَّ هي غاية الحرية؛ لأن من لم يعبد الله فلا بد أن يعبد غيره؛ فإذا لم يعبد الله عزَّ وجلَّ. الذي هو مستحق للعبادة. عَبَدَ الشيطان، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في النونية.هربوا من الرق الذي خلقوا له وبلوا برق النفس والشيطان

٣ ـ ومنها: أن القرآن كلام الله؛ لقوله تعالى: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾؛ ووجه كونه كلام الله أن القرآن كلام؛ والكلام صفة للمتكلم، وليس شيئًا بائنًا منه؛ وبهذا نعرف بطلان قول من زعم أن القرآن مخلوق.

٤ ـ ومنها: إثبات علوِّ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنه إذا تقرر أن القرآن كلامه، وأنه منزل من عنده لزم من ذلك علوِّ المتكلم به؛ وعلو الله عزَّ وجلَّ ثابت بالكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة؛ وتفاصيل هذه الأدلة في كتب العقائد؛ ولولا خوض أهل البدعة في ذلك ما احتيج إلى كبير عناء في إثباته؛ لأنه أمر فطري؛ ولكن علماء أهل السنة يضطرون إلى مثل هذا لدحض حجج أهل البدع.

٥ ـ ومن فوائد الآية: أن القرآن معجز حتى بسورة ـ ولو كانت قصيرة ـ؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾.

٦ ـ ومنها: تحدي هؤلاء العابدين للآلهة مع معبوديهم؛ وهذا أشد ذلًّا مما لو تحدُّوا وحدهم.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾ يعني: فإن لم تأتوا بسورة من مثله.

ولما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾ ـ وهي شرطية ـ قطع أطماعهم بقوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ يعني: ولا يمكنكم أن تفعلوا؛ و﴿لن﴾ هنا للتأبيد؛ لأن المقام مقام تحدٍّ.

قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾: الفاء هنا واقعة في جواب الشرط. وهو ﴿إن لم تفعلوا﴾ يعني: إن لم تفعلوا، وتعارضوا القرآن بمثله فالنار مثواكم؛ فاتقوا النار. ولن يجدوا ما يتقون به النار إلا أن يؤمنوا بما أنزل على محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾؛ ﴿ٱلَّتِى﴾ اسم موصول صفة لـ﴿ٱلنَّارَ﴾؛ و﴿وَقُودُهَا﴾ مبتدأ؛ و﴿ٱلنَّاسُ﴾ خبر المبتدأ؛ والجملة: صلة الموصول؛ و«الوقود» ما يوقد به الشيء، كالحطب ـ مثلًا ـ في نار الدنيا؛ في الآخرة وقود النار هم الناس والحجارة؛ فالنار تحرقهم، وتلتهب بهم؛ و﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾: قال بعض العلماء: إن المراد بها الحجارة المعبودة. يعني الأصنام؛ لأنهم يعبدون الأصنام؛ فأصنامهم هذه تكون معهم في النار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]؛ وقيل: هذا، وهذا. الحجارة المعبودة، والحجارة الموقودة التي خلقها عزَّ وجلَّ لتوقد بها النار.

قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ﴾: الضمير المستتر يعود على النار؛ والمعِدُّ لها هو الله عزَّ وجلَّ؛ ومعنى «الإعداد» التهيئة للشيء؛ ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لكل كافر سواء كفر بالرسالة، أو كفر بالألوهية، أو بغير ذلك.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: أن من عارض القرآن فإن مأواه النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾.

٢ ـ ومنها: أن الناس وقود للنار كما توقد النار بالحطب؛ فهي في نفس الوقت تحرقهم، وهي

أيضًا توقد بهم؛ فيجتمع العذاب عليهم من وجهين.

٣ ـ ومنها: إهانة هؤلاء الكفار بإذلال آلهتهم، وطرحها في النار. على أحد الاحتمالين في قوله تعالى: ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾؛ لأن من المعلوم أن الإنسان يغار على من كان يعبده، ولا يريد أن يصيبه أذًى؛ فإذا أحرق هؤلاء المعبودون أمام العابدين، فإن ذلك من تمام إذلالهم، وخزيهم.

٤ ـ ومنها: أن النار موجودة الآن؛ لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ﴾؛ ومعلوم أن الفعل هنا فعل ماض؛ والماضي يدل على وجود الشيء؛ وهذا أمر دلت عليه السنة أيضًا؛ فإن النبي ﷺ عُرضت عليه الجنة والنار، ورأى أهلها يعذبون فيها: رأى عمرو بن لحيٍّ الخزاعي يجر قصبه. أي: أمعاءه. في النار[1]؛ ورأى المرأة التي حبست الهرَّة حتى ماتت جوعًا: فلم تكن أطعمتها، ولا أرسلتها تأكل من خشاش الأرض[2]؛ ورأى فيها صاحب المحجن. الذي كان يسرق الحُجَّاج بمحجنه[3]. يعذب: وهو رجل معه محجن. أي: عصا محنية الرأس. كان يسرق الحُجاج بهذا المحجن؛ إذا مر به الحجاج جذب متاعهم؛ فإن تفطن صاحب الرحل لذلك ادعى أن الذي جذبه المحجن؛ وإن لم يتفطن أخذه؛ فكان يعذب ـ والعياذ بالله ـ بمحجنه في نار جهنم.

مسألة: هل النار باقية؛ أو تفنى؟

ذكر بعض العلماء إجماع السلف على أنها تبقى، ولا تفنى؛ وذكر بعضهم خلافًا عن بعض السلف أنها تفنى؛ والصواب: أنها تبقى أبد الآبدين؛ والدليل على هذا من كتاب الله عزَّ وجلَّ في ثلاث آيات من القرآن: في سورة النساء، وسورة الأحزاب، وسورة الجن؛ فأما الآية التي في النساء فهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]؛ والتي في سورة الأحزاب قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]؛ والتي في سورة الجن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]؛ وليس بعد كلام الله كلام؛ حتى إني أذكر تعليقًا لشيخنا عبد الرحمن بن سعدي على كتاب **«شفاء العليل»** لابن القيم؛ ذكر أن هذا من باب: **«لكل جواد كبوة؛ ولكل صارم نبوة»**[4]. وهو صحيح؛ كيف إن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يستدل بهذه الأدلة على القول بفناء النار مع أن الأمر فيها واضح؟! غريب على ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أنه يسوق الأدلة بهذه القوة للقول بأن النار تفنى! وعلى كل حال، كما قال شيخنا في هذه المسألة: **«لكل جواد كبوة؛ ولكل صارم نبوة»**؛ والصواب الذي لا شك فيه. وهو عندي

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣٣)، ومسلم (٢٨٥٦).

(٢) رواه البخاري (٢٢٣٦)، ومسلم (٢٢٤٢).

(٣) رواه مسلم (٩٠٤)، والنسائي (١٤٨٢)، وأحمد في «مسنده» (٦٤٨٣)، وابن خزيمة في «صحيحه» (١٣٩٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٦٢٢).

(٤) «الوافي بالوفيات» (١٠/ ٢٧)، و«المجالسة وجواهر العلم» (١/ ٣٦٣)، «ومجمع الأمثال» (٢/ ١٨٧).

مقطوع به.: أن النار باقية أبد الآبدين؛ لأنه إذا كان يخلد فيها تخليدًا أبديًا لزم أن تكون هي مؤبدة؛ لأن ساكن الدار إذا كان سكونه أبديًا لابد أن تكون الدار أيضًا أبدية.

وأما قوله تعالى في أصحاب النار: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧] فهي كقوله تعالى في أصحاب الجنة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٨] لكن لما كان أهل الجنة نعيمهم، وثوابهم فضلًا ومنَّة، بيَّن أن هذا الفضل غير منقطع، فقال تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]؛ ولما كان عذاب أهل النار من باب العدل، والسلطان المطلق للرب عزَّ وجلَّ قال تعالى في آخر الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]؛ وليس المعنى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] أنه سوف يخرجه من النار، أو سوف يُفني النار.

٥ ـ ومن فوائد الآية: أن النار دار للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾؛ وأما من دخلها من عصاة المؤمنين، فإنهم لا يخلدون فيها؛ فهم فيها كالزوار؛ لا بد أن يخرجوا منها؛ فلا تسمى النار دارًا لهم؛ بل هي دار للكافر فقط؛ أما المؤمن العاصي ـ إذا لم يعف الله عنه ـ فإنه يعذب فيها ما شاء الله، ثم يخرج منها إما بشفاعة؛ أو بمنة من الله وفضل؛ أو بانتهاء العقوبة.

مسألة: إذا قال قائل: ما وجه الإعجاز في القرآن؟ وكيف أعجز البشر؟.

الجواب: أنه معجز بجميع وجوه الإعجاز؛ لأنه كلام الله، وفيه من وجوه الإعجاز ما لا يدرك؛ فمن ذلك:

أولًا: قوة الأسلوب، وجماله؛ والبلاغة، والفصاحة؛ وعدم الملل في قراءته؛ فالإنسان يقرأ القرآن صباحًا، ومساءً. وربما يختمه في اليومين، والثلاثة. ولا يمله إطلاقًا؛ لكن لو كرر متنًا من المتون كما يكرر القرآن ملَّ.

ثانيًا: أنه معجز بحيث إن الإنسان كلما قرأه بتدبر ظهر له بالقراءة الثانية ما لم يظهر له بالقراءة الأولى.

ثالثًا: صدق أخباره بحيث يشهد لها الواقع؛ وكمال أحكامه التي تتضمن مصالح الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

رابعاً: تأثيره على القلوب والمناهج؛ وآثاره، حيث ملك به السلف الصالح مشارق الأرض ومغاربها.

وأما كيفية الإعجاز فهي تحدي الجن والإنس على أن يأتوا بمثله، ولم يستطيعوا.

مسألة ثانية:

حكى الله عزَّ وجلَّ عن الأنبياء، والرسل، ومن عاندهم أقوالًا؛ وهذه الحكاية تحكي قول من حُكيت عنه؛ فهل يكون قول هؤلاء معجزًا؟ يعني مثلًا: فرعون قال لموسى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا

غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]: هذا يحكيه الله عزَّ وجلَّ عن فرعون؛ فيكون القول قول فرعون؛ فكيف كان قول فرعون معجزًا والإعجاز إنما هو قول الله عزَّ وجلَّ؟

فالجواب: أن الله تعالى لم يحك كلامهم بلفظه؛ بل معناه؛ فصار المقروء في القرآن كلام الله عزَّ وجلَّ. وهو معجز.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

مناسبة الآية لما قبلها أن الله لما ذكر وعيد الكافرين المكذبين للرسول ﷺ ذكر وعد المؤمنين به، فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ..﴾ الآية؛ و«البشارة» هي الإخبار بما يسر؛ وسميت بذلك لتغير بَشَرة المخاطَب بالسرور؛ لأن الإنسان إذا أُخبر بما يُسِرُّه استنار وجهه، وطابت نفسه، وانشرح صدره؛ وقد تستعمل «البشارة» في الإخبار بما يسوء، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]: إمَّا تهكمًا بهم؛ وإما لأنهم يحصل لهم من الإخبار بهذا ما تتغير به بشرتهم، وتَسودُّ به وجوههم، وتُظلِم، كقوله تعالى في عذابهم يوم القيامة: ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٨، ٤٩].

والخطاب في قوله تعالى: ﴿بشِّر﴾ إما للرسول ﷺ؛ أو لكل من يتوجه إليه الخطاب. يعني بشِّر أيها النبي؛ أو بشِّر أيها المخاطَب من اتصفوا بهذه الصفات بأن لهم جنات.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي بما يجب الإيمان به مما أخبر الله به، ورسوله ﷺ؛ وقد بيَّن الرسول ﷺ أصول الإيمان بأنها الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره؛ لكن ليس الإيمان بهذه الأشياء مجرد التصديق بها؛ بل لا بد من قبول، وإذعان؛ وإلا لما صح الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: عملوا الأعمال الصالحات. وهي الصادرة عن محبة وتعظيم لله عزَّ وجلَّ المتضمنة للإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ؛ فما لا إخلاص فيه فهو فاسد؛ لقول الله تعالى في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ

مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَه»[1]؛ وما لم يكن على الاتّباع فهو مردود لا يقبل؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَد»[2].

قوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾: هذا المبشر به: أن لهم عند الله عزَّ وجلَّ ﴿جَنَّٰتٍ..﴾: جمع «جنَّة»؛ وهي في اللغة: البستان كثير الأشجار بحيث تغطي الأشجار أرضه، فتجتن بها؛ والمراد بها شرعًا: الدار التي أعدها الله للمتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر[3].

قوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: تَسِيْحُ من تحتها الأنهار؛ و﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فاعل ﴿تَجْرِي﴾؛ و﴿مِن تَحْتِهَا﴾ قال العلماء: من تحت أشجارها وقصورها؛ وليس من تحت سطحها؛ لأن جريانها من تحت سطحها لا فائدة منه؛ وما أحسن جري هذه الأنهار إذا كانت من تحت الأشجار والقصور! يجد الإنسان فيها لذة في المنظر قبل أن يتناولها.

وقد بيَّن الله تعالى أنها أربعة أنواع، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟﴾ أي: أعطوا؛ ﴿مِنْهَا﴾ أي: من الجنات؛ ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾ أي: من أيِّ ثمرة؛ ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ لأنه يشبه ما سبقه في حجمه، ولونه، وملمسه، وغير ذلك من صفاته؛ فيظنون أنه هو الأول؛ ولكنه يختلف عنه في الطعم والمذاق اختلافًا عظيمًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾؛ وما أجمل وألذَّ للإنسان إذا رأى هذه الفاكهة يراها وكأنها شيء واحد؛ فإذا ذاقها وإذا الطعم يختلف اختلافًا عظيمًا! تجده يجد في نفسه حركةً لهذه الفاكهة، ولذةً، وتعجبًا؛ كيف يكون هذا الاختلاف المتباين العظيم والشكل واحد! ولهذا لو قُدم لك فاكهة ألوانها سواء، وأحجامها سواء، وملمسها سواء، ثم إذا ذقتها وإذا هذه حلو خالص، وهذه مُز. أي: حلو مقرون بالحموضة، وهذه حامضة؛ تجد لذة أكثر مما لو كانت على حد سواء، أو كانت مختلفة.

قوله تعالى: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾؛ ﴿وَأُتُوا۟﴾ من «أتى» التي بمعنى: جاء؛ فالمعنى: جيء إليهم به متشابهًا يشبه بعضه بعضًا. كما سبق.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ﴾؛ لما ذكر الله الفاكهة ذكر الأزواج؛ لأن في كل منهما تفكهًا، لكن كل واحد من نوع غير الآخر: هذا تفكه في المذاق والمطعم؛ وهذا تفكه آخر من نوع ثان؛ لأن

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجه (٤٢٠٢)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٩٣٨).

(٢) رواه البخاري (٢٥٥٠)، ومسلم (١٧١٨).

(٣) كما روى البخاري (٣٠٧٢)، ومسلم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». فاقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

بذلك يتم النعيم؛ و﴿أَزْوَٰجٌ﴾ جمع زوج؛ وهو شامل للأزواج من الحور، ومن نساء الدنيا؛ ويطلق «الزوج» على الذكروالأنثى؛ ولهذا يقال للرجل: «زوج»، وللمرأة: «زوج»؛ لكن في اصطلاح الفرضيين صاروا يلحقون التاء للأنثى فرقًا بينها وبين الرجل عند قسمة الميراث.

قوله تعالى: ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ يشمل طهارة الظاهر، والباطن؛ فهي مطهرة من الأذى القذر: لا بول، ولا غائط، ولا حيض، ولا نفاس، ولا استحاضة، ولا عرق، ولا بخر، مطهرة من كل شيء ظاهر حسي؛ مطهرة أيضًا من الأقذار الباطنة، كالغل، والحقد، والكراهية، والبغضاء، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: ماكثون لا يخرجون منها.

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: مشروعية تبشير الإنسان بما يسر؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ ولقول الله تبارك وتعالى: ﴿بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]؛ فالبشارة بما يسر الإنسان من سنن المرسلين. عليهم الصلاة والسلام؛ وهل من ذلك أن تبشره بمواسم العبادة، كما لو أدرك رمضان، فقلت: هنّأك الله بهذا الشهر؟ الجواب: نعم؛ وكذلك أيضًا لو أتم الصوم، فقلت: هنّأك الله بهذا العيد، وتقبل منك عبادتك وما أشبه ذلك؛ فإنه لا بأس به، وقد كان من عادة السلف.

٢ - ومن فوائد الآية: أن الجنات لا تكون إلا لمن جمع هذين: الإيمان، والعمل الصالح.

فإن قال قائل: في القرآن الكريم ما يدل على أن الأوصاف أربعة: الإيمان؛ والعمل الصالح؛ والتواصي بالحق؛ والتواصي بالصبر؟

فالجواب: أن التواصي بالحق، والتواصي بالصبر من العمل الصالح، لكن أحيانًا يُذكر بعض أفراد العام لعلة من العلل، وسبب من الأسباب.

٣ - ومنها: أن جزاء المؤمنين العاملين للصالحات أكبر بكثير مما عملوا، وأعظم؛ لأنهم مهما آمنوا وعملوا فالعمر محدود، وينتهي؛ لكن الجزاء لا ينتهي أبدًا؛ هم مخلدون فيه أبد الآباد؛ كذلك أيضًا الأعمال التي يقدمونها قد يشوبها كسل؛ قد يشوبها تعب؛ قد يشوبها أشياء تنقصها، لكن إذا منَّ الله عليه، فدخل الجنة فالنعيم كامل.

٤ - ومنها: أن الجنات أنواع؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ وقد دل على ذلك القرآن والسنة؛ فقال الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ثم قال تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]؛ وقال النبي ﷺ: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا؛ وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا»[1].

---

(١) رواه البخاري (٤٥٩٧)، ومسلم (١٨٠).

٥ ـ ومنها: تمام قدرة الله عزَّ وجلَّ بخلق هذه الأنهار بغير سبب معلوم، بخلاف أنهار الدنيا؛ لأن أنهار الماء في الدنيا معروفة أسبابها؛ وليس في الدنيا أنهار من لبن، ولا من عسل، ولا من خمر؛ وقد جاء في الأثر أنها أنهار تجري من غير أخدود. يعني: لم يحفر لها حفر، ولا يقام لها أعضاد تمنعها؛ بل النهر يجري، ويتصرف فيه الإنسان بما شاء. يوجهه حيث شاء؛ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في النونية:

أَنْهَارُهَا فِي غَيْرِ أُخْدُوْدٍ جَرَتْ ... سُبْحَانَ مُمْسِكُهَا عَنِ الفَيَضَانِ

٦ ـ ومن فوائد الآية: أن من تمام نعيم أهل الجنة أنهم يؤتون بالرزق متشابهًا؛ وكلما رزقوا منها من ثمرة رزقًا قالوا: هذا الذي رُزقنا من قبل؛ وهذا من تمام النعيم، والتلذذ بما يأكلون.

٧ ـ ومنها: إثبات الأزواج في الآخرة، وأنه من كمال النعيم؛ وعلى هذا يكون جماع، ولكن بدون الأذى الذي يحصل بجماع نساء الدنيا؛ ولهذا ليس في الجنة مَنِيّ، ولا مَنِيَّة؛ والمنيُّ الذي خلق في الدنيا إنما خُلق لبقاء النسل؛ لأن هذا المنيّ مشتمل على المادة التي يتكون منها الجنين، فيخرج بإذن الله تعالى ولدًا؛ لكن في الآخرة لا يحتاجون إلى ذلك؛ لأنه لا حاجة لبقاء النسل؛ إذ إن الموجودين سوف يبقون أبد الآبدين لا يفنى منهم أحد؛ ثم هم ليسوا بحاجة إلى أحد يعينهم، ويخدمهم؛ الوِلدان تطوف عليهم بأكواب وأباريق، وكأس من معين؛ ثم هم لا يحتاجون إلى أحد يصعد الشجرة ليجني ثمارها؛ بل الأمر فيها كما قال الله تعالى: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣]؛ حتى ذكر العلماء أن الرجل ينظر إلى الثمرة في الشجرة، فيحسُّ أنه يشتهيها، فيدنو منه الغصن حتى يأخذها؛ ولا تستغرب هذا؛ فنحن في الدنيا نشاهد أن الشيء يدنو من الشيء بغير سلطة محسوسة؛ وما في الآخرة أبلغ وأبلغ.

٨ ـ ومن فوائد الآية: أن أهل الجنة خالدون فيها أبد الآباد؛ لا يمكن أن تفنى، ولا يمكن أن يفنى من فيها؛ وقد أجمع على ذلك أهل السنة والجماعة.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ أي: لا يمنعه الحياء من أن يضرب مثلًا

ولو كان مثلًا حقيرًا ما دام يثبت به الحق؛ فالعبرة بالغاية؛ و﴿مَّا﴾ يقولون: إنها نكرة واصفة. أي: مثلًا أيَّ مثل.

قوله تعالى: ﴿بَعُوضَةً﴾: عطف بيان لـ﴿مَّا﴾ أي: مثلًا بعوضة؛ والبعوضة معروفة؛ ويضرب بها المثل في الحقارة؛ وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية أن المشركين اعترضوا: كيف يضرب الله المثل بالذباب في قوله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣]: قالوا: الذباب يذكره الله في مقام المحاجة! فبيَّن الله عزَّ وجلَّ أنه لا يستحيي من الحق حتى وإن ضرب المثل بالبعوضة فما فوقها.

قوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾: هل المراد بها فوق. أي: فما فوقها في الحقارة، فيكون المعنى أدنى من البعوضة؛ أو فما فوقها في الارتفاع، فيكون المراد ما هو أعلى من البعوضة؟ فأيهما أعلى خلقة: الذباب، أو البعوضة؟ الجواب: الذباب أكبر، وأقوى. لا شك؛ لكن مع ذلك يمكن أن يكون معنى الآية: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي: فما دونها؛ لأن الفوقية تكون للأدنى وللأعلى، كما أن الوراء تكون للأمام، وللخلف، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩] أي كان أمامهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي: المثل الذي ضربه الله ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، ويؤمنون به، ويرون أن فيه آيات بينات.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ لأنه لم يتبين لهم الحق لإعراضهم عنه، وقد قال الله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٣، ١٤].

وقوله تعالى: ﴿ماذا﴾: «ما» هنا اسم استفهام مبتدأ؛ و«ذا» اسم موصول بمعنى «الذي» خبر المبتدأ. أي: ما الذي أراد الله بهذا مثلًا، كما قال ابن مالك:.

وَمِثْـلُ مَـا ذَا بَعْـدَ مَـا اسْـتِفْهَامْ ... أَوْ مَـن إِذَا لَـمْ تُلْـغَ فِـيْ الكَـلَامِ

قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾: الجملة استئنافية؛ لبيان الحكمة من ضرب المثل بالشيء الحقير؛ ولهذا ينبغي الوقوف على قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؛ و﴿يُضِلُّ بِهِۦ﴾ أي: بالمثل؛ ﴿كَثِيرًا﴾ أي: من الناس؛ ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله؛ والمراد هنا الخروج المطلق الذي هو الكفر؛ لأن الفسق قد يراد به الكفر؛ وقد يراد به ما دونه؛ ففي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠]: المراد به في هذه الآية الكفر؛ وكذلك هنا.

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: إثبات الحياء لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ

مَثَلًا مَّا﴾. ووجه الدلالة: أن نفي الاستحياء عن الله في هذه الحال دليل على ثبوته فيما يقابلها؛ وقد جاء ذلك صريحًا في السنة، كما في قول النبي ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ حيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا»[1]؛ والحياء الثابت لله ليس كحياء المخلوق؛ لأن حياء المخلوق انكسار لما يَدْهَمُ الإنسان ويعجز عن مقاومته؛ فتجده ينكسر، ولا يتكلم، أو لا يفعل الشيء الذي يُستحيا منه؛ وهو صفة ضعف ونقص إذا حصل في غير محله.

٢ ـ ومن فوائد الآية: أن الله تعالى يضرب الأمثال؛ لأن الأمثال أمور محسوسة يستدل بها على الأمور المعقولة؛ انظر إلى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١]؛ وهذا البيت لا يقيها من حرٍّ، ولا برد، ولا مطر، ولا رياح ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١]؛ وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ [الرعد: ١٤]: إنسان بسط كفيه إلى غدير مثلًا، أو نهر يريد أن يصل الماء إلى فمه! هذا لا يمكن؛ هؤلاء الذين يمدون أيديهم إلى الأصنام كالذي يمد يديه إلى النهر ليبلغ فاه؛ فالأمثال لا شك أنها تقرب المعاني إلى الإنسان إما لفهم المعنى؛ وإما لحكمتها، وبيان وجه هذا المثل.

٣ ـ ومن فوائد الآية: أن البعوضة من أحقر المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾؛ ومع كونها من أحقر المخلوقات فإنها تقض مضاجع الجبابرة؛ وربما تهلك: لو سُلطت على الإنسان لأهلكته وهي هذه الحشرة الصغيرة المهينة.

٤ ـ ومنها: رحمة الله تعالى بعباده حيث يقرر لهم المعاني المعقولة بضرب الأمثال المحسوسة لتتقرر المعاني في عقولهم.

٥ ـ ومنها: أن القياس حجة؛ لأن كل مثل ضربه الله في القرآن، فهو دليل على ثبوت القياس.

٦ ـ ومنها: فضيلة الإيمان، وأن المؤمن لا يمكن أن يعارض ما أنزل الله عزَّ وجلَّ بعقله؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، ولا يعترضون، ولا يقولون: لِمَ؟، ولا: كيف؟؛ يقولون: سمعنا، وأطعنا، وصدقنا؛ لأنهم يؤمنون بأن الله عزَّ وجلَّ له الحكمة البالغة فيما شرع، وفيما قدر.

٧ ـ ومنها: إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ واعلم أن ربوبية الله تعالى تنقسم إلى قسمين: عامة؛ وخاصة؛ فالعامة هي الشاملة لجميع الخلق، وتقتضي التصرف المطلق في العباد؛ والخاصة هي التي تختص بمن أضيفت له، وتقتضي عناية خاصة؛ وقد اجتمعتا في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢]: فالأولى ربوبية

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٣٥٥٦)، وأبوداود (١٤٨٨)، والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ١٨٥)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١١١١)، وابن حبان في «صحيحه» (٨٧٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٥٧).

عامة؛ والثانية خاصة بموسى وهارون؛ كما أن مقابل ذلك «العبودية» تنقسم إلى عبودية عامة، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]؛ وخاصة كما في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]؛ والفرق بينهما أن العامة هي الخضوع للأمر الكوني؛ والخاصة هي الخضوع للأمر الشرعي؛ وعلى هذا فالكافر عبد لله بالعبودية العامة؛ والمؤمن عبد لله بالعبودية العامة، والخاصة.

٨ ـ ومن فوائد الآية: أن ديدن الكافرين الاعتراض على حكم الله، وعلى حكمة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؛ وكل من اعترض ولو على جزء من الشريعة ففيه شبه بالكفار؛ فمثلًا لو قال قائل: لماذا ينتقض الوضوء بأكل لحم الإبل، ولا ينتقض بأكل لحم الخنزير إذا جاز أكله للضرورة مع أن الخنزير خبيث نجس؟

فالجواب: أن هذا اعتراض على حكم الله عزَّ وجلَّ؛ وهو دليل على نقص الإيمان؛ لأن لازم الإيمان التام التسليم التام لحكم الله عزَّ وجلَّ. إلا أن يقول ذلك على سبيل الاسترشاد، والاطلاع على الحكمة؛ فهذا لا بأس به.

٩ ـ ومن فوائد الآية: أن لفظ الكثير لا يدل على الأكثر؛ لقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا﴾؛ فلو أخذنا بظاهر الآية لكان الضالون والمهتدون سواءً؛ وليس كذلك؛ لأن بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعون من الألف ضالون؛ وواحد من الألف مهتدٍ؛ فكلمة: ﴿كَثِيرًا﴾ لا تعني الأكثر؛ وعلى هذا لو قال إنسان: عندي لك دراهم كثيرة، وأعطاه ثلاثة لم يلزمه غيرها؛ لأن «كثير» يطلق على القليل، وعلى الأكثر.

١٠ ـ ومن فوائد الآية: أن إضلال من ضل ليس لمجرد المشيئة؛ بل لوجود العلة التي كانت سببًا في إضلال الله العبد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

١١- ومنها: الرد على القدرية الذين قالوا: إن العبد مستقل بعمله. لا علاقة لإرادة الله تعالى به؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة:٢٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي: العهد الذي بينهم وبين الله عزَّ وجلَّ؛ وهو الإيمان به، وبرسله؛ فإن هذا مأخوذ على كل إنسان؛ إذا جاء رسول بالآية فإن الواجب على كل إنسان أن يؤمن به؛ فهؤلاء نقضوا عهد الله، ولم يؤمنوا به، وبرسله؛ والنقض حَلّ الشيء بعد إبرامه؛ وقد بين الله عزَّ وجلَّ هذا العهد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

قوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ أي: يقطعون كل ما أمر الله به أن يوصل، كالأرحام، ونصرة الرسل، ونصرة الحق، والدفاع عن الحق.

قوله تعالى: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يسعون لما به فساد الأرض فسادًا معنويًا كالمعاصي؛ وفسادًا حسيًا كتخريب الديار، وقتل الأنفس.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: جملة اسمية مؤكَّدة بضمير الفصل: ﴿هُمُ﴾؛ لأن ضمير الفصل له ثلاث فوائد؛ الفائدة الأولى: التوكيد؛ والفائدة الثانية: الحصر؛ والفائدة الثالثة: إزالة اللبس بين الصفة والخبر؛ مثال ذلك: تقول: «زيد الفاضل»: كلمة «الفاضل» يحتمل أن تكون خبرًا؛ ويحتمل أن تكون وصفًا، فتقول: «زيد الفاضل محبوب»؛ إذا قلت: «زيد الفاضل محبوب» تعين أن تكون صفة؛ وإذا قلت: «زيد الفاضل» يحتمل أن تكون صفة، والخبر لم يأت بعد؛ ويحتمل أن تكون خبرًا؛ فإذا قلت: «زيد هو الفاضل» تعين أن تكون خبرًا لوجود ضمير الفصل؛ ولهذا سُمي ضمير فصل. لفصله بين الوصف والخبر؛ الفائدة الثانية: التوكيد؛ إذا قلت: «زيد هو الفاضل» كان أبلغ من قولك: «زيد الفاضل»؛ و الفائدة الثالثة: الحصر؛ فإنك إذا قلت: «زيد هو الفاضل» فقد حصرت هذا الوصف فيه دون غيره؛ وضمير الفصل ليس له محل من الإعراب، كما في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠]؛ ولو كان له محل من الإعراب لكانت: «هم الغالبون»؛ وربما يضاف إليه اللام، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢]؛ فيكون في إضافة اللام إليه زيادة توكيد.

وقوله تعالى: ﴿الْخَاسِرُونَ﴾؛ «الخاسر» هو الذي فاته الربح؛ وذلك؛ لأن هؤلاء فاتهم الربح الذي ربحه من لم ينقض عهد الله من بعد ميثاقه، ولم يقطع ما أمر الله به أن يوصل.

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: أن نقض عهد الله من الفسق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾، فكلما رأيت شخصًا قد فرط في واجب، أو فعل محرمًا فإن هذا نقض للعهد من بعد الميثاق.

٢ - ومنها: التحذير من نقض عهد الله من بعد ميثاقه؛ لأن ذلك يكون سببًا للفسق.

٣ - ومنها: التحذير من قطع ما أمر الله به أن يوصل من الأرحام - أي الأقارب - وغيرهم؛ لأن الله ذكر ذلك في مقام الذم؛ وقطع الأرحام من كبائر الذنوب؛ لقول النبي ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ**»[1]، يعني قاطع رحم.

٤ - ومنها: أن المعاصي والفسوق سبب للفساد في الأرض، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]؛ ولهذا إذا قحط المطر، وأجدبت الأرض، ورجع الناس إلى ربهم، وأقاموا صلاة الاستسقاء، وتضرعوا إليه سبحانه وتعالى، وتابوا إليه، أغاثهم الله عزَّ وجلَّ؛ وقد قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠: ١٢].

فإن قال قائل: أليس يوجد في الأرض من هم صلحاء قائمون بأمر الله مؤدون لحقوق عباد الله ومع ذلك نجد الفساد في الأرض؟

فالجواب: أن هذا الإيراد أوردته أم المؤمنين زينب رضي الله عنها على النبي ﷺ حيث قال: «**وَيلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبْ**»؛ قالت: أنهلك وفينا الصالحون؟! قال ﷺ: «**نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**»[2]؛ وقوله ﷺ: «**إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**» يشمل معنيين:

أحدهما: أن يكثر الخبث في العاملين بحيث يكون عامة الناس على هذا الوصف.

والثاني: أن يكثر فعل الخبث بأنواعه من فئة قليلة، لكن لا تقوم الفئة الصالحة بإنكاره؛ فمثلًا :إذا كثر الكفار في أرض كان ذلك سببًا للشر والبلاء؛ لأن الكفار نجس؛ فكثرتهم كثرة خبث؛ وإذا كثرت أفعال المعاصي كان ذلك سببًا أيضًا للشر والبلاء؛ لأن المعاصي خبث.

٥ - ومن فوائد الآية: أن هؤلاء الذين اعترضوا على الله فيما ضرب من الأمثال، ونقضوا عهده، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض هم الخاسرون. وإن ظنوا أنهم يحسنون صنعًا.

❁ ❁ ❁

(١) رواه البخاري (٥٦٣٨)، ومسلم (٢٥٥٦).

(٢) رواه البخاري (٣١٦٨)، ومسلم (٢٨٨٠).

قال الله تعالى:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ..﴾: الاستفهام هنا للإنكار والتعجب؛ والكفر بالله هو الإنكار، والتكذيب مأخوذ من: كَفَر الشيء: إذا ستره؛ ومنه الكُفُرّى: لغلاف طلع النخل؛ والمعنى: كيف تجحدونه، وتكذبون به، وتستكبرون عن عبادته، وتنكرون البعث مع أنكم تعلمون نشأتكم؟!.

قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾: وذلك: قبل نفخ الروح في الإنسان هو ميت؛ جماد؛ ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ أي: بنفخ الروح؛ ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ ثانية؛ وذلك بعد أن يخرج إلى الدنيا؛ ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ الحياة الآخرة التي لا موت بعدها؛ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: بعد الإحياء الثاني ترجعون إلى الله، فينبئكم بأعمالكم، ويجازيكم عليها.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** شدة الإنكار حتى يصل إلى حد التعجب ممن يكفر وهو يعلم حاله ومآله.

٢ - **ومنها:** أن الموت يطلق على ما لا روح فيه. وإن لم تسبقه حياة؛ يعني: لا يشترط للوصف بالموت تقدم الحياة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾؛ أما ظن بعض الناس أنه لا يقال: «ميت» إلا لمن سبقت حياته؛ فهذا ليس بصحيح؛ بل إن الله تعالى أطلق وصف الموت على الجمادات؛ قال تعالى في الأصنام: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: ٢١].

٣ - **ومنها:** أن الجنين لو خرج قبل أن تنفخ فيه الروح فإنه لا يثبت له حكم الحي؛ ولهذا لا يُغَسَّل، ولا يكفن، ولا يصلى عليه، ولا يرث، ولا يورث؛ لأنه ميت جماد لا يستحق شيئًا مما يستحقه الأحياء؛ وإنما يدفن في أيِّ مكان في المقبرة، أو غيرها.

٤ - **ومنها:** تمام قدرة الله عزَّ وجلَّ؛ فإن هذا الجسد الميت ينفخ الله فيه الروح، فيحيى، ويكون إنسانًا يتحرك، ويتكلم، ويقوم، ويقعد، ويفعل ما أراد الله عزَّ وجلَّ.

٥ - **ومنها:** إثبات البعث؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ والبعث أنكره من أنكره من الناس، فقالوا: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]؛ فأقام الله - تبارك وتعالى - على إمكان ذلك ثمانية أدلة في آخر سورة «يس»:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]: هذا دليل على أنه يمكن أن يحيي العظام وهي رميم؛ وقوله تعالى: ﴿أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ دليل قاطع، وبرهان جليّ على إمكان إعادته كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩] يعني: كيف يعجز عن إعادتها وهو سبحانه وتعالى بكل خلق عليم: يعلم كيف يخلق الأشياء، وكيف يكونها؛ فلا يعجز عن إعادة الخلق.

الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠]: الشجر الأخضر فيه البرودة، وفيه الرطوبة؛ والنار فيها الحرارة واليبوسة؛ هذه النار الحارة اليابسة تخرج من شجر بارد رطب؛ وكان الناس فيما سبق يضربون أغصانًا من أشجار معينة بالزند؛ فإذا ضربوها انقدحت النار، ويكون عندهم شيء قابل للاشتعال بسرعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠] تحقيقًا لذلك.

ووجه الدلالة: أن القادر على إخراج النار الحارة اليابسة من الشجر الأخضر مع ما بينهما من تضاد قادر على إحياء العظام وهي رميم.

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ﴾ [يس: ٨١].

ووجه الدلالة: أن خلْق السموات والأرض أكبر من خلق الناس؛ والقادر على الأكبر قادر على ما دونه.

الدليل الخامس : قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]؛ فـ ﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾ صفته، ووصفه الدائم؛ وإذا كان خلَّاقًا، ووصفه الدائم هو الخلق فلن يعجز عن إحياء العظام وهي رميم.

الدليل السادس: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]: إذا أراد شيئًا مهما كان؛ و ﴿شَيْـًٔا﴾: نكرة في سياق الشرط، فتكون للعموم؛ ﴿أَمْرُهُۥٓ﴾ أي: شأنه في ذلك أن يقول له كن فيكون؛ أو ﴿أَمْرُهُۥٓ﴾ الذي هو واحد «أوامر»؛ ويكون المعنى: إنما أمره أن يقول: «كن»، فيعيده مرة أخرى.

ووجه الدلالة: أن الله سبحانه وتعالى لا يستعصي عليه شيء أراده.

الدليل السابع: قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يس: ٨٤]: كل شيء فهو مملوك لله عزَّ وجلَّ: الموجود يعدمه؛ والمعدوم يوجده؛ لأنه رب كل شيء.

ووجه الدلالة: أن الله سبحانه وتعالى نزَّه نفسه؛ وهذا يشمل تنزيهه عن العجز عن إحياء العظام وهي رميم

الدليل الثامن: قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

ووجه الدلالة: أنه ليس من الحكمة أن يخلق الله هذه الخليقة، ويأمرها، وينهاها، ويرسل إليها الرسل، ويحصل ما يحصل من القتال بين المؤمن، والكافر، ثم يكون الأمر هكذا يذهب سدًى؛ بل لابد من الرجوع؛ وهذا دليل عقلي.

فهذه ثمانية أدلة على قدرة الله على إحياء العظام وهي رميم جمعها الله عزَّ وجلَّ في موضع واحد؛ وهناك أدلة أخرى في مواضع كثيرة في القرآن؛ وكذلك في السنة.

٦- **ومن فوائد الآية:** أن الخلق مآلهم، ورجوعهم إلى الله عزَّ وجلَّ.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩]

❁ التفسير ❁

لما ذكر جلَّ وعلَا أنه قادر على الإحياء والإماتة، بيَّن منَّته على العباد بأنه خلق لهم ما في الأرض جميعًا

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم﴾ أي: أوجد عن علم وتقدير على ما اقتضته حكمته جلَّ وعلَا، وعلمه؛ و﴿لَكُم﴾: اللام هنا لها معنيان؛ المعنى الأول: الإباحة، كما تقول: «أبحت لك»؛ والمعنى الثاني: التعليل: أي: خلق لأجلكم.

قوله تعالى: ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾؛ ﴿مَّا﴾ اسم موصول تعُمُّ: كل ما في الأرض فهو مخلوق لنا من الأشجار، والزروع، والأنهار، والجبال.. كل شيء.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ﴾ أي: بعد أن خلق لنا ما في الأرض جميعًا ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: علا إلى السماء؛ هذا ما فسرها به ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ؛ وقيل: أي: قصد إليها؛ وهذا ما اختاره ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ؛ فللعلماء في تفسير ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى﴾ قولان: الأول: أن الاستواء هنا بمعنى القصد؛ وإذا كان القصد تامًّا قيل: استوى؛ لأن الاستواء كله يدل على الكمال، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤] أي: كمل؛ فمن نظر إلى أن هذا الفعل عُدِّي بـ ﴿إِلَى﴾ قال: إن ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ هنا ضُمِّن معنى قصد؛ ومن نظر إلى أن الاستواء لا يكون إلا في علوٍّ جعل ﴿إِلَى﴾ بمعنى «على»؛ لكن هذا ضعيف؛ لأن الله تعالى لم يستوِ على السماء أبدًا؛ وإنما استوى على العرش؛ فالصواب ما ذهب إليه ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو أن الاستواء هنا بمعنى القصد التام، والإرادة

الجازمة؛ و﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: العلوّ؛ وكانت السماء دخانًا. أي: مثل الدخان؛﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ أي: جعلها سوية طباقًا غير متناثرة قوية متينة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾؛ ومن علمه عزَّ وجلَّ أنه علم كيف يخلق هذه السماء.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: منَّة الله تعالى على عباده بأن خلق لهم ما في الأرض جميعًا؛ فكل شيء في الأرض فإنه لنا. والحمد لله، والعجب أن من الناس من سخر نفسه لما سخره الله له؛ فخدم الدنيا، ولم تخدمه؛ وصار أكبر همه الدنيا: جمع المال، وتحصيل الجاه، وما أشبه ذلك.

٢ ـ ومنها: أن الأصل في كل ما في الأرض الحلُّ. من أشجار، ومياه، وثمار، وحيوان، وغير ذلك؛ وهذه قاعدة عظيمة؛ وبناءً على هذا لو أن إنسانًا أكل شيئًا من الأشجار، فقال له بعض الناس: «هذا حرام»؛ فالمحرِّم يطالَب بالدليل؛ ولو أن إنسانًا وجد طائرًا يطير، فرماه، وأصابه، ومات، وأكله، فقال له الآخر: «هذا حرام»؛ فالمحرِّم يطالب بالدليل؛ ولهذا لا يَحْرم شيء في الأرض إلا ما قام عليه الدليل.

٣ ـ ومن فوائد الآية: تأكيد هذا العموم بقوله تعالى: ﴿جَمِيعٗا﴾ مع أن ﴿مَّا﴾ موصولة تفيد العموم؛ لكنه سبحانه وتعالى أكده حتى لا يتوهم واهم بأن شيئًا من أفراد هذا العموم قد خرج من الأصل.

٤ ـ ومنها: إثبات الأفعال لله عزَّ وجلَّ. أي: أنه يفعل ما يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: و﴿ٱسۡتَوَىٰٓ﴾ فعل؛ فهو جلَّ وعلَّا يفعل ما يشاء، ويقوم به من الأفعال ما لا يحصيه إلا الله، كما أنه يقوم به من الأقوال ما لا يحصيه إلا الله.

٥ ـ ومنها: أن السموات سبع؛ لقوله تعالى: ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ﴾

٦ ـ ومنها: كمال خلق السموات؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾

٧ ـ ومنها: إثبات عموم علم الله؛ لقوله تعالى:﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾

٨ ـ ومنها: أن نشكر الله على هذه النعمة. وهي أنه تعالى خلق لنا ما في الأرض جميعًا؛ لأن الله لم يبينها لنا لمجرد الخبر؛ ولكن لنعرف نعمته بذلك، فنشكره عليها.

٩ ـ ومنها: أن نخشى، ونخاف؛ لأن الله تعالى بكل شيء عليم؛ فإذا كان الله عليمًا بكل شيء ـ حتى ما نخفي في صدورنا ـ أوجب لنا ذلك أن نحترس مما يغضب الله عزَّ وجلَّ سواء في أفعالنا، أو في أقوالنا، أو في ضمائر قلوبنا.

❁ ❁ ❁

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾: قال المعربون: ﴿إذ﴾ مفعول لفعل محذوف؛ والتقدير: اذكر إذ قال؛ والخطاب في قوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾ للنبي ﷺ؛ ولما كان الخطاب له صارت الربوبية هنا من أقسام الربوبية الخاصة.

قوله تعالى: ﴿للملائكة﴾: اللام للتعدية. أي: تعدية القول للمقول له؛ و «**الملائكة**» جمع «**مَلْئَك**»، وأصله «**مألك**»؛ لأنه مشتق من الألُوكة. وهي الرسالة؛ لكن صار فيها إعلال بالنقل. أي: نقل حرف مكان حرف آخر؛ مثل أشياء أصلها: «**شيئاء**»؛ و«**الملائكة**» عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور، وجعل لهم وظائف، وأعمالًا مختلفة؛ فمنهم الموكل بالوحي كجبريل؛ وبالقطر، والنبات كميكائيل؛ وبالنفخ في الصور كإسرافيل؛ وبأرواح بني آدم كملَك الموت.. إلى غير ذلك من الوظائف والأعمال.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾؛ خليفة يخلف الله؛ أو يخلف من سبقه؛ أو يخلف بعضهم بعضًا يتناسلون. على أقوال:.

أما الأول: فيحتمل أن الله أراد من هذه الخليقة ـ آدم، وبنيه ـ أن يجعل منهم الخلفاء يخلفون الله تعالى في عباده بإبلاغ شريعته، والدعوة إليها، والحكم بين عباده؛ لا عن جهل بالله سبحانه وتعالى. وحاشاه من ذلك، ولا عن عجز؛ ولكنه يمنُّ على من يشاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [ص: ٢٦]: هو خليفة يخلف الله عزَّ وجلَّ في الحكم بين عباده.

والثاني: أنهم يخلفون من سبقهم؛ لأن الأرض كانت معمورة قبل آدم؛ وعلى هذا الاحتمال تكون ﴿خَلِيفَةً﴾ هنا بمعنى الفاعل؛ وعلى الأول بمعنى المفعول.

والثالث: أنه يخلف بعضهم بعضًا؛ بمعنى: أنهم يتناسلون: هذا يموت، وهذا يحيى؛ وعلى هذا التفسير تكون ﴿خَلِيفَةً﴾ صالحة لاسم الفاعل، واسم المفعول.

كل هذا محتمل؛ وكل هذا واقع؛ لكن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ يرجح أنهم خليفة لمن سبقهم، وأنه كان على الأرض مخلوقات قبل ذلك تسفك

الدماء، وتفسد فيها، فسألت الملائكة ربها عزَّ وجلَّ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ كما فعل من قبلهم. واستفهام الملائكة للاستطلاع والاستعلام، وليس للاعتراض؛ قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: وستتغير الحال؛ ولا تكون كالتي سبقت.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ أي نُنَزِّه؛ والذي يُنَزَّه الله عنه شيئان؛ أولًا: النقص؛ والثاني: النقص في كماله؛ وزد ثالثًا إن شئت: مماثلة المخلوقين؛ كل هذا يُنَزَّه الله عنه؛ النقص: مطلقًا؛ يعني أن كل صفة نقص لا يمكن أن يوصف الله بها أبدًا. لا وصفًا دائمًا، ولا خبرًا؛ والنقص في كماله: فلا يمكن أن يكون في كماله نقص؛ قدرته: لا يمكن أن يعتريها عجز؛ قوته: لا يمكن أن يعتريها ضعف؛ علمه: لا يمكن أن يعتريه نسيان.. وهلم جرًّا؛ ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨] أي: تعب وإعياء؛ فهو عزَّ وجلَّ كامل الصفات لا يمكن أن يعتري كماله نقص؛ ومماثلة المخلوقين: هذه إن شئنا أفردناها بالذكر؛ لأن الله تعالى أفردها بالذكر، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]؛ وإن شئنا جعلناها داخلة في القسم الأول ـ النقص ـ لأن تمثيل الخالق بالمخلوق يعني النقص؛ بل المفاضلة بين الكامل والناقص تجعل الكامل ناقصًا، كما قال القائل:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الـسَّيْفَ يَـنْقُصُ قَـدْرُهُ ... إِذَا قِيلَ إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ العَصَا

لو قلت: فلان عنده سيف أمضى من العصا تبين أن السيف هذا رديء، وليس بشيء؛ فربما نفرد هذا القسم الثالث، وربما ندخله في القسم الأول؛ على كل حال التسبيح ينبغي لنا. عندما نقول: «سبحان الله»، أو: «أسبح الله»، أو ما أشبه ذلك. أن نستحضر هذه المعاني.

قوله تعالى: و﴿بِحَمْدِكَ﴾: قال العلماء: الباء هنا للمصاحبة. أي: تسبيحًا مصحوبًا بالحمد مقرونًا به؛ فتكون الجملة متضمنة لتنزيه الله عن النقص، وإثبات الكمال لله بالحمد؛ لأن الحمد: وصف المحمود بالكمال محبة وتعظيمًا؛ فإن وصفتَ مرة أخرى بكمال فسَمِّه ثناءً؛ والدليل على هذا ما جاء في الحديث الصحيح أن الله تعالى قال: «**قَسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين؛ فإذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] قال تعالى: حمدني عبدي؛ وإذا قال: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣] قال تعالى: أثنى عليَّ عبدي**»[1]؛ لأن نفي النقص يكون قبل إثبات الكمال من أجل أن يَرِد الكمال على محل خالٍ من النقص.

قوله تعالى: ﴿وَنُقَدِّسُ﴾: «التقديس» معناه التطهير؛ وهو أمر زائد على «التنزيه»؛ لأن «التنزيه» تبرئة وتخلية؛ و«التطهير» أمر زائد؛ ولهذا نقول في دعاء الاستفتاح: «**اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ**

---

(١) رواه مسلم (٣٩٥)، والترمذي (٢٩٥٣)، والنسائي (٩٠٩)، وأبوداود (٨٢١)، وابن ماجه (٣٧٨٤)، وأحمد في «مسنده» (٧٢٨٩).

خطَايَاي كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ المشرِقِ وَالمغْرِبِ؛ اللهُمَّ نَقِّني مِنْ خَطَايَاي كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَس؛ اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَاي بِالماءِ، وَالثَّلْجِ، وَالبَرَد»[1]: فالأول: طلبُ المباعدة؛ والثاني: طلب التنقية. يعني: التخلية بعد المباعدة؛ والثالث: طلب الغسل بعد التنقية؛ حتى يزول الأثر بالكلية؛ فيجمع الإنسان بين تنْزيه الله عزَّ وجلَّ عن كل عيب ونقص، وتطهيره. أنه لا أثر إطلاقًا لما يمكن أن يعلق بالذهن من نقص.

قوله تعالى: ﴿لَكَ﴾ اللام هنا للاختصاص؛ فتفيد الإخلاص؛ وهي أيضًا للاستحقاق؛ لأن الله. جلَّ وعلَّا. أهل لأن يقدس.

أجابهم الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: من أمر هذه الخليفة التي سيكون منها النبيون، والصدِّيقون، والشهداء، والصالحون.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** إثبات القول لله عزَّ وجلَّ، وأنه بحرف، وصوت؛ وهذا مذهب السلف الصالح من الصحابة، والتابعين، وأئمة الهدى من بعدهم؛ يؤخذ كونه بحرف من قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾؛ لأن هذه حروف؛ ويؤخذ كونه بصوت من أنه خاطب الملائكة بما يسمعونه؛ وإثبات القول لله على هذا الوجه من كماله سبحانه وتعالى؛ بل هو من أعظم صفات الكمال: أن يكون عزَّ وجلَّ متكلمًا بما شاء كونًا، وشرعًا؛ متى شاء؛ وكيف شاء؛ فكل ما يحدث في الكون فهو كائن بكلمة ﴿كُن﴾؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]؛ وكل الكون مراد له قدرًا؛ وأما قوله الشرعي: فهو وحيه الذي أوحاه إلى رسله، وأنبيائه.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الملائكة ذوو عقول؛ وجهه أن الله تعالى وجه إليهم الخطاب، وأجابوا؛ ولا يمكن أن يوجه الخطاب إلا إلى من يعقله؛ ولا يمكن أن يجيبه إلا من يعقل الكلامَ، والجوابَ عليه؛ وإنما نبَّهنا على ذلك؛ لأن بعض أهل الزيغ قالوا: إن الملائكة ليسوا عقلاء.

٣ ـ **ومنها:** إثبات الأفعال لله عزَّ وجلَّ أي: أنه تعالى يفعل ما شاء متى شاء كيف شاء؛ ومن أهل البدع من ينكر ذلك زعمًا منه أن الأفعال حوادث؛ والحوادث لا تقوم إلا بحادث فلا يجيء، ولا يستوي على العرش، ولا ينزل، ولا يتكلم، ولا يضحك، ولا يفرح، ولا يعجب؛ وهذه دعوى فاسدة من وجوه:

الأول: أنها في مقابلة نص؛ وما كان في مقابلة نص فهو مردود على صاحبه.

الثاني: أنها دعوى غير مسلَّمة؛ فإن الحوادث قد تقوم بالأول الذي ليس قبله شيء.

---

(١) رواه البخاري (٧١١)، ومسلم (٥٩٨).

الثالث: أن كونه تعالى فعالًا لما يريد من كماله، وتمام صفاته؛ لأن من لا يفعل إما أن يكون غير عالم، ولا مريد؛ وإما أن يكون عاجزًا؛ وكلاهما وصفان ممتنعان عن الله سبحانه وتعالى.

فتَعَجَّبْ كيف أُتي هؤلاء من حيث ظنوا أنه تنزيه لله عن النقص؛ وهو في الحقيقة غاية النقص!!! فاحمد ربك على العافية، واسأله أن يعافي هؤلاء مما ابتلاهم به من سفه في العقول، وتحريف للمنقول.

٤ - **ومن فوائد الآية:** أن بني آدم يخلف بعضهم بعضًا. على أحد الأقوال في معنى ﴿خَلِيفَةً﴾؛ وهذا هو الواقع؛ فتجد من له مائة مع من له سنة واحدة، وما بينهما؛ وهذا من حكمة الله عزَّ وجلَّ؛ لأن الناس لو من وُلِد بقي لضاقت الأرض بما رحبت، ولما استقامت الأحوال، ولا حصلت الرحمة للصغار، ولا الولاية عليهم إلى غير ذلك من المصالح العظيمة.

٥ - **ومنها:** قيام الملائكة بعبادة الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾

٦ - **ومنها:** كراهة الملائكة للإفساد في الأرض؛ لقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾

٧ - **ومنها:** أن وصف الإنسان نفسه بما فيه من الخير لا بأس به إذا كان المقصود مجرد الخبر دون الفخر؛ لقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾؛ ويؤيد ذلك قول النبي ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[1]؛ وأما إذا كان المقصود الفخر، وتزكية النفس بهذا فلا يجوز؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

٨ - **ومنها:** شدة تعظيم الملائكة لله عزَّ وجلَّ، حيث قالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١:٣٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ﴾: الفاعل هو الله عزَّ وجلَّ؛ و﴿ءَادَمَ﴾ هو أبو البشر؛

---

(١) رواه مسلم (٢٢٧٨)، والترمذي (٣١٤٨)، وأبوداود (٤٦٧٣)، وابن ماجه (٤٣٠٨)، وأحمد في «مسنده» (١٥)، والبغوي في «شرح السنة» (١٣/ ٢٠٤).

و﴿ٱلْأَسْمَآءَ﴾ جمع «اسم»؛ و«أل» فيها للعموم بدليل قوله تعالى: ﴿كُلَّهَا﴾؛ وهل هذه الأسماء أسماء لمسميات حاضرة؛ أو لكل الأسماء؟ للعلماء في ذلك قولان؛ والأظهر أنها أسماء لمسميات حاضرة بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ وهذه الأسماء ـ والله أعلم ـ ما يحتاج إليها آدم، وبنوه في ذلك الوقت.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ أي: عرض المسميات؛ بدليل قوله تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، ولأن الميم علامة جمع العاقل؛ فلم تعلم الملائكة أسماء تلك المسميات؛ بل كان جوابهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾، ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾: وأراد عزَّ وجلَّ بذلك أن يعرف الملائكة أنهم ليسوا محيطين بكل شيء علمًا، وأنهم يفوتهم أشياء يفضلهم آدم فيها.

قوله تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾: هل هو فعل أمر يراد به قيام المأمور بها وُجِّهَ إليه، أو هو تحدٍّ؟

الجواب: الظاهر الثاني: أنه تحدٍّ؛ بدليل قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أن لديكم علمًا بالأشياء فأنبئوني بأسماء هؤلاء؛ لأن الملائكة قالت فيما سبق: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فقال تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ثم امتحنهم الله بهذا.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تنزيهًا لك عما لا يليق بجلالك؛ فأنت يا ربنا لم تفعل هذا إلا لحكمة بالغة.

قوله تعالى: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾: اعتراف من الملائكة أنهم ليسوا يعلمون إلا ما علمهم الله، هذا مع أنهم ملائكة مقرَّبون إلى الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾: هذه الجملة مؤكدة بـ «إن»، وضمير الفصل: ﴿أَنتَ﴾؛ والمعنى: إنك ذو العلم الواسع الشامل المحيط بالماضي والحاضر والمستقبل؛ و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ يعني ذا الحكمة والحكم؛ لأن الحكيم مشتقة من الحكم والحكمة؛ فهذان اسمان من أسماء الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾، و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآيتين: بيان أن الله تعالى قد يمنُّ على بعض عباده بعلم لا يعلمه الآخرون؛ وجهه: أن الله علم آدم أسماء مسميات كانت حاضرة، والملائكة تجهل ذلك.

٢ ـ ومنها: أن اللغات توقيفية. وليست تجريبية؛ «**توقيفية**» بمعنى: أن الله هو الذي علم الناس إياها؛ ولولا تعليم الله الناسَ إياها ما فهموها؛ وقيل: إنها «**تجريبية**» بمعنى أن الناس كوَّنوا هذه الحروف والأصوات من التجارب، فصار الإنسان أولًا أبكم لا يدري ماذا يتكلم، لكن يسمع صوت الرعد، يسمع حفيف الأشجار، يسمع صوت الماء وهو يسيح على الأرض، وما أشبه

ذلك؛ فاتخذ مما يسمع أصواتًا تدل على مراده؛ ولكن هذا غير صحيح؛ والصواب أن اللغات مبدؤها توقيفي؛ وكثير منها كسبي تجريبي يعرفه الناس من مجريات الأحداث؛ ولذلك تجد أن أشياء تحدث ليس لها أسماء من قبل، ثم يحدث الناس لها أسماء؛ إما من التجارب، أو غير ذلك من الأشياء.

٣- ومن فوائد الآيتين: جواز امتحان الإنسان بما يدعي أنه مُجيد فيه.

٤- ومنها: جواز التحدي بالعبارات التي يكون فيها شيء من الشدة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

٥- ومنها: أن الملائكة تتكلم؛ لقوله تعالى: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

٦- ومنها: اعتراف الملائكة عليهم الصلاة والسلام بأنهم لا علم لهم إلا ما علمهم الله عزَّ وجلَّ.

ويتفرع على ذلك: أنه ينبغي للإنسان أن يعرف قدر نفسه، فلا يدَّعي علم ما لم يعلم.

٧- ومنها: شدة تعظيم الملائكة لله عزَّ وجلَّ، حيث اعترفوا بكماله، وتنزيهه عن الجهل بقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ﴾؛ واعترفوا لأنفسهم بأنهم لا علم عندهم؛ واعترفوا لله بالفضل في قولهم: ﴿إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾.

٨- ومنها: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما ﴿الْعَلِيمُ﴾ و﴿الْحَكِيمُ﴾؛ فـ ﴿الْعَلِيمُ﴾: ذو العلم الواسع المحيط بكل شيء جملة وتفصيلًا لما كان، وما يكون من أفعاله، وأفعال خلقه.

و﴿الْحَكِيمُ﴾: ذو الحكمة البالغة التي تعجز عن إدراكها عقول العقلاء وإن كانت قد تدرك شيئًا منها؛ و«الحكمة» هي وضع الشيء في موضعه اللائق به؛ وتكون في شرع الله، وفي قدر الله؛ أما الحكمة في شرعه فإن جميع الشرائع مطابقة للحكمة في زمانها، ومكانها، وأحوال أممها؛ فما أمر الله بشيء، فقال العقل الصريح: «ليته لم يأمر به»؛ وما نهى عن شيء، فقال: «ليته لم ينهَ عنه»؛ وأما الحكمة في قدره فما من شيء يقدره الله إلا وهو مشتمل على الحكمة إما عامة؛ وإما خاصة.

واعلم أن الحكمة تكون في نفس الشيء: فوقوعه على الوجه الذي حكم الله تعالى به في غاية الحكمة؛ وتكون في الغاية المقصودة منه: فأحكام الله الكونية، والشرعية كلها لغايات محمودة قد تكون معلومة لنا، وقد تكون مجهولة؛ والأمثلة على هذا كثيرة واضحة.

ولـ ﴿الْحَكِيمُ﴾ معنًى آخر؛ وهو ذو الحكم، والسلطان التام؛ فلا معقب لحكمه؛ وحكمه تعالى نوعان: شرعي، وقدري؛ فأما الشرعي فوحيه الذي جاءت به رسله؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠]؛ وأما حكمه القدري فهو ما قضى به قدرًا على عباده من شدة، ورخاء، وحزن، وسرور، وغير ذلك؛ ومنه قوله تعالى عن أحد إخوة

يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠]

والفرق بين الحكم الشرعي، والكوني: أن الشرعي لا يلزم وقوعه ممن حُكِم عليه به؛ ولهذا يكون العصاة من بني آدم، وغيرهم المخالفون لحكم الله الشرعي؛ وأما الحكم القدري فلا معارض له، ولا يخرج أحد عنه؛ بل هو نافذ في عباده على كل حال.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾؛ القائل هو الله عزَّ وجلَّ؛ و﴿آدم﴾ هو أبو البشر؛ والظاهر أن هذا اسم له، وليس وصفًا؛ وهو مشتق لغة من الأُدْمة؛ وهي لون بين البياض الخالص والسواد

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أي: أنبأ الملائكة؛ ﴿قَالَ﴾ أي: قال الله ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾: الاستفهام هنا للتقرير؛ والمعنى: قلت لكم، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]: والمعنى: قد شرحنا لك صدرك؛ ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ما غاب فيهما. وهو نوعان: نسبي؛ وعام؛ فأما النسبي فهو ما غاب عن بعض الخلق دون بعض؛ وأما العام فهو ما غاب عن الخلق عمومًا.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي ما تظهرون؛ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي تخفون.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** إثبات القول لله عزَّ وجلَّ لقوله تعالى: ﴿يَا آدَمُ﴾؛ وأنه بحرف، وصوت مسموع؛ لأن آدم سمعه، وفهمه، فأنبأ الملائكة به؛ وهذا الذي عليه أهل السنة والجماعة، والسلف الصالح. أن الله يتكلم بكلام مسموع مترتب بعضه سابق لبعض.

٢ - **ومنها:** أن آدم - عليه الصلاة والسلام - امتثل، وأطاع، ولم يتوقف؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُم﴾؛ ولهذا طوى ذكر قوله: «فأنبأهم» إشارة إلى أنه بادر، وأنبأ الملائكة.

٣ - **ومنها:** جواز تقرير المخاطب بما لا يمكنه دفعه؛ والتقرير لا يكون إلا هكذا. أي: بأمر لا يمكن دفعه؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٤ ـ ومنها: بيان عموم علم الله عزَّ وجلَّ، وأنه يتعلق بالمشاهد، والغائب؛ لقوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٥ ـ ومنها: أن السموات ذات عدد؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ و«**الأرض**» جاءت مفردة، والمراد بها الجنس؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] أي في العدد.

٦ ـ ومنها: أن الملائكة لها إرادات تُبْدَى، وتُكْتَمْ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

٧ ـ ومنها: أن الله تعالى عالم بما في القلوب سواء أُبدي أم أُخفي؛ لقوله تعالى: ﴿مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

فإن قال قائل: ما الدليل على أن الملائكة لها قلوب؟.

فالجواب: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

❀ ❀ ❀

❀ قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]

❀ التفسير ❀

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ يعني: اذكر إذ قلنا؛ ومثل هذا التعبير يتكرر كثيرًا في القرآن، والعلماء يقدرون لفظ: «اذكر»، وهم بحاجة إلى هذا التقدير؛ لأن «إذ» ظرفية؛ والظرف لا بد له من شيء يتعلق به إما مذكورًا؛ وإما محذوفًا؛ وفي نظم الجُمل:.

لَا بُـدَّ للجَـارِّ مِـنَ التَّعَلُّـقِ ... بِفِعْـلٍ أَوْ مَعْنَـاهُ نَحْـوَ مُرْتَقِـي

ومثله الظرف؛ وجاء الضمير في ﴿قُلْنَا﴾ بضمير الجمع من باب التعظيم ـ لا التعدد ـ كما هو معلوم.

قوله تعالى: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: سبق الكلام على ذكر الملائكة، ومن أين اشتق هذا اللفظ.

قوله تعالى: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾: «**السجود**» هو السجود على الأرض بأن يضع الساجد جبهته على الأرض خضوعًا وخشوعًا؛ وليس المراد به هنا الركوع؛ لأن الله تعالى فرّق بين الركوع والسجود، كما في قوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ [الحج: ٧٧].

قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ أي: من غير تأخير؛ فالفاء هنا للترتيب والتعقيب؛ ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ هو الشيطان؛ وسُمي إبليسًا لأنه أبلَسَ من رحمة الله. أي: أَيِسَ منها يأسًا لا رجاء بعده. ﴿أَبَىٰ﴾ أي امتنع؛ ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أي: صار ذا كبر؛ ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: زعم بعض العلماء أن المراد: كان من الكافرين في علم الله بناءً على أن﴿كان﴾ فعل ماضٍ؛ والمضي يدل على شيء سابق؛ لكن هناك تخريجًا أحسن من هذا: أن نقول: إن «كان» تأتي أحيانًا مسلوبة الزمان، ويراد بها تحقق اتصاف الموصوف بهذه الصفة؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]، وما أشبهها؛ هذه ليس المعنى أنه كان فيما مضى؛ بل لا يزال؛ فتكون ﴿كان﴾ هنا مسلوبة الزمان، ويراد بها تحقيق اتصاف الموصوف بما دلت عليه الجملة؛ وهذا هو الأقرب، وليس فيه تأويل؛ ويُجرى الكلام على ظاهره.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: بيان فضل آدم على الملائكة؛ وجهه أن الله أمر الملائكة أن يسجدوا له تعظيمًا له.

٢ ـ ومنها: أن السجود لغير الله إذا كان بأمر الله فهو عبادة؛ لأن لله تعالى أن يحكم بما شاء؛ ولذلك لما امتنع إبليس عن هذا كان من الكافرين؛ وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على كفر تارك الصلاة؛ قال: لأنه إذا كان إبليس كفر بترك سجدة واحدة أُمر بها، فكيف عن ترك الصلاة كاملة؟! وهذا الاستدلال إن استقام فهو هو؛ وإن لم يستقم فقد دلت نصوص أخرى من الكتاب، والسنة، وأقوال الصحابة على كفر تارك الصلاة كفرًا أكبر مخرجًا عن الملة.

ويدل على أن المحرَّم إذا أمر الله تعالى به كان عبادة قصة إبراهيم عليه السلام، حين أمره الله أن يذبح ابنه إسماعيل فامتثل أمر الله؛ ولكن الله رحمه، ورحم ابنه برفع ذلك عنهما، حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٣ ـ ١٠٥]؛ ومن المعلوم أن قتل الابن من كبائر الذنوب، لكن لما أمر الله عزَّ وجلَّ به كان امتثاله عبادة.

٣ ـ ومن فوائد الآية: أن إبليس ـ والعياذ بالله ـ جمع صفات الذم كلها: الإباء عن الأمر؛ والاستكبار عن الحق، وعلى الخلق؛ والكفر؛ إبليس استكبر عن الحق؛ لأنه لم يمتثل أمر الله؛ واستكبر على الخلق؛ لأنه قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]؛ فاستكبر في نفسه، وحقر غيره؛ و«الكبر» بطر الحق، وغمط الناس[1].

---

(١) روى الإمام مسلم في «صحيحه» (٩١) من حديث عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة

تنبيه:

إن قال قائل: في الآية إشكال. وهو أن الله تعالى لما ذكر أمر الملائكة بالسجود، وذكر أنهم سجدوا إلا إبليس؛ كان ظاهرها أن إبليس منهم؛ والأمر ليس كذلك؟.

والجواب: أن إبليس كان مشاركًا لهم في أعمالهم ظاهرًا، فكان توجيه الأمر شاملًا له بحسب الظاهر؛ وقد يقال: إن الاستثناء منقطع؛ والاستثناء المنقطع لا يكون فيه المستثنى من جنس المستثنى منه.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٣٥]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا﴾ فاعل القول هو الله عزَّ وجلَّ؛ ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾: «زوج» معطوف على الفاعل في ﴿ٱسْكُنْ﴾؛ لأن ﴿أَنتَ﴾ توكيد للفاعل؛ وليست هي الفاعل؛ لأن ﴿ٱسْكُنْ﴾ فعل أمر؛ وفعل الأمر لا يمكن أن يظهر فيه الفاعل؛ لأنه مستتر وجوبًا؛ وعلى هذا فـ ﴿أَنتَ﴾ الضمير المنفصل توكيد للضمير المستتر؛ و﴿وَزَوْجُكَ﴾ هي حواء، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري، وغيره.

قوله تعالى: ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ هي البستان الكثير الأشجار، وسمي بذلك؛ لأنه مستتر بأشجاره؛ وهل المراد بـ ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ جنة الخلد؛ أم هي جنة سوى جنة الخلد؟.

الجواب: ظاهر الكتاب والسنة أنها جنة الخلد، وليست سواها؛ لأن «أل» هنا للعهد الذهني.

فإن قيل: كيف يكون القول الصحيح أنها جنة الخلد مع أن من دخلها لا يخرج منها. وهذه أخرج منها آدم؟

فالجواب: أن من دخل جنة الخلد لا يخرج منها: بعد البعث؛ وفي هذا يقول ابن القيم في الميمية المشهورة.

فحيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَـدْنٍ فَإِنهَـا ... مَنَازِلُـك الأُولَـى وَفِيهَـا المُخَـيَّمَ

قال: «منازلك الأولى»؛ لأن أبانا آدم نزلها.

من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة، قال: إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس».

قوله تعالى: ﴿وَكُلَا﴾: أمر بمعنى الإباحة والإكرام؛ ﴿مِنۡهَا﴾ أي: من هذه الجنة؛ ﴿رَغَدًا﴾ أي: أكلًا هنيًا ليس فيه تنغيص؛ ﴿حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ أي: في أيِّ مكان من هذه الجنة، ونقول أيضًا: وفي أيِّ زمان؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَكُلَا﴾ فعل مطلق لم يقيد بزمن.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ أشار الله تعالى إلى الشجرة بعينها، و«أل» فيها للعهد الحضوري؛ لأن كل ما جاء بـ «أل» بعد اسم الإشارة فهو للعهد الحضوري؛ إذ إن اسم الإشارة يعني الإشارة إلى شيء قريب؛ وهذه الشجرة غير معلومة النوع، فتبقى على إبهامها.

قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا﴾: وقعت جوابًا للطلب. وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا﴾؛ فالفاء هنا للسببية؛ والفعل بعدها منصوب بـ «أن» مضمرة بعد فاء السببية؛ وقيل: إن الفعل منصوب بنفس الفاء؛ القول الأول للبصريين، والثاني للكوفيين؛ والثاني هو المختار عندنا بناءً على القاعدة أنه متى اختلف علماء النحو في إعراب كلمة أو جملة فإننا: نأخذ بالأسهل ما دام المعنى يحتمله.

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: من المعتدين لمخالفة الأمر.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: إثبات القول لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ﴾.

٢- ومنها: أن قول الله يكون بصوت مسموع، وحروف مرتبة؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ..﴾ إلخ؛ ولولا أن آدم يسمعه لم يكن في ذلك فائدة؛ وأيضًا هو مرتب؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ﴾: وهذه حروف مرتبة، كما هو ظاهر؛ وإنما قلنا ذلك لأن بعض أهل البدع يقول: إن كلام الله تعالى هو المعنى القائم بنفسه، وليس بصوت، ولا حروف مرتبة؛ ولهم في ذلك آراء مبتدعة أوصلها بعضهم إلى ثمانية أقوال.

٣- ومن فوائد الآية: منَّة الله عزَّ وجلَّ على آدم وحواء حيث أسكنهما الجنة.

٤- ومنها: أن النكاح سنة قديمة منذ خلق الله آدم، وبقيت في بنيه من الرسل، والأنبياء، ومن دونهم، كما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلًا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

فإن قال قائل: زوجته بنت من؟.

فالجواب: أنها خلقت من ضلعه.

فإن قال: إذن تكون بنتًا له، فكيف يتزوج ابنته؟.

فالجواب: أن لله تعالى أن يحكم بما شاء؛ فكما أباح أن يتزوج الأخ أخته من بني آدم الأولين؛ فكذلك أباح أن يتزوج آدم من خلقها الله من ضلعه.

٥- ومن فوائد الآية: أن الأمر يأتي للإباحة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنۡهَا﴾؛ فإن هذه للإباحة بدليل قوله تعالى: ﴿حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾: خيَّرهما أن يأكلا من أيِّ مكان؛ ولا شك أن الأمر يأتي للإباحة؛ ولكن الأصل فيه أنه للطلب حتى يقوم دليل أنه للإباحة.

٦ ـ ومنها: أن ظاهر النص أن ثمار الجنة ليس له وقت محدود؛ بل هو موجود في كل وقت؛ لقوله تعالى: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾؛ فالتعميم في المكان يقتضي التعميم في الزمان؛ وقد قال الله تعالى في فاكهة الجنة: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣].

٧ ـ ومنها: أن الله تعالى قد يمتحن العبد، فينهاه عن شيء قد تتعلق به نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾؛ ووجه ذلك أنه لولا أن النفس تتعلق بها ما احتيج إلى النهي عن قربانها.

٨ ـ ومنها: أنه قد يُنهى عن قربان الشيء والمراد النهي عن فعله؛ للمبالغة في التحذير منه؛ فإن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾: المراد: لا تأكلا منها، لكن لما كان القرب منها قد يؤدي إلى الأكل نُهي عن قربها.

٩ ـ ومنها: إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١٠ - ومنها: أن معصية الله تعالى ظلم للنفس، وعدوان عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ وفي قراءة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾؛ والفرق بينهما أن ﴿أزلهما﴾ بمعنى: أوقعهما في الزلل؛ و﴿أزالهما﴾ بمعنى: نحّاهما؛ فعلى القراءة الأولى يكون الشَّيطان أوقعهما في الزلل، فزالا عنها، وأُخرجا منها؛ وعلى الثانية يكون الشيطان سببًا في تنحيتهما؛ و﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الظاهر أنه الشيطان الذي أبى أن يسجد لآدم: وسوس لهما ليقوما بمعصية الله كما فعل هو حين أبى أن يسجد لآدم.

قوله تعالى: ﴿عَنْهَا﴾ أي: عن الجنة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من النعيم؛ لأنهما كانا في أحسن ما يكون من الأماكن.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا﴾ أي قال الله لهما: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾: الضمير للجمع، والمراد آدم، وحواء، وإبليس؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: الشيطان عدو لآدم وحواء.

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ يعني: أنكم سوف تستقرون في الأرض، وسوف

تتمتعون بها بما أعطاكم الله من النعم، ولكن لا على وجه الدوام؛ بل إلى حين. وهو قيام الساعة.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: الحذر من وقوع الزلل الذي يمليه الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾

٢- ومنها: أن الشَّيطان يغرُّ بني آدم كما غرَّ أباهم حين وسوس لآدم وحواء، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين، وقال: يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى؛ فالشيطان قد يأتي الإنسان، فيوسوس له، فيصغر المعصية في عينه؛ ثم إن كانت كبيرة لم يتمكن من تصغيرها؛ منَّاه أن يتوب منها، فيسهل عليه الإقدام؛ ولذلك احذر عدوك أن يغرك.

٣- ومنها: إضافة الفعل إلى المتسبب له؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾؛ وقد ذكر الفقهاء - رحمهم الله - أن المتسبب كالمباشر في الضمان، لكن إذا اجتمع متسبب ومباشر تمكن إحالة الضمان عليه فالضمان على المباشر؛ وإن لم تمكن فالضمان على المتسبب؛ مثال الأول: أن يحفر بئرًا، فيأتي شخص، فيدفع فيها إنسانًا، فيهلك: فالضمان على الدافع؛ ومثال الثاني: أن يلقي شخصًا بين يدي أسد، فيأكله: فالضمان على الملقي. لا على الأسد.

٤- ومن فوائد الآية: أن الشيطان عدو للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾؛ وقد صرح الله تعالى بذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]

٥- ومنها: أن قول الله تعالى يكون شرعيًا، ويكون قدريًا؛ فقوله تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا﴾: هذا شرعي؛ وقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: الظاهر أنه كوني؛ لأنه سبحانه وتعالى يعلم أنه لو عاد الأمر إليهما لما هبطا؛ ويحتمل أن يكون قولًا شرعيًا؛ لكن الأقرب عندي أنه قول كوني. والله أعلم.

٦- ومنها: أن الجنة في مكان عالٍ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾؛ والهبوط يكون من أعلى إلى أسفل.

٧- ومنها: أنه لا يمكن العيش إلا في الأرض لبني آدم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]؛ وبناءً على ذلك نعلم أن محاولة الكفار أن يعيشوا في غير الأرض إما في بعض الكواكب، أو في بعض المراكب محاولة يائسة؛ لأنه لابد أن يكون مستقرهم الأرض.

٨- ومنها: أنه لا دوام لبني آدم في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

❁ ❁ ❁

قال الله تعالى:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ﴾ يعني: أخذ وقَبِل، ورضي من الله كلمات حينما ألقى الله إليه هذه الكلمات؛ وهذه الكلمات[1] هي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]؛ فالكلمات اعتراف آدم وحواء بأنهما أذنبا، وظلما أنفسهما، وتضرعهما إلى الله سبحانه وتعالى بأنه إن لم يغفر لهما ويرحمهما لكانا من الخاسرين؛ و﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾ فيه إضافة الربوبية إلى آدم؛ وهي الربوبية الخاصة.

قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾: الفاعل هو الله. يعني: فتاب ربه عليه؛ و«التوبة» هي: رفع المؤاخذة، والعفو عن المذنب إذا رجع إلى ربه عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾: هذه الجملة تعليل لقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾؛ لأن التوبة مقتضى هذين الاسمين العظيمين: ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ و﴿هُوَ﴾ ضمير فصل يفيد هنا الحصر والتوكيد؛ و﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ صيغة مبالغة من «تاب»؛ وذلك لكثرة التائبين، وكثرة توبة الله؛ ولذلك سمى الله نفسه «التواب»؛ و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: ذو الرحمة الواسعة الواصلة إلى من شاء من عباده.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** منَّة الله سبحانه وتعالى على أبينا آدم حين وفقه لهذه الكلمات التي كانت بها التوبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ﴾.

٢ - **ومنها:** أن منة الله على أبينا هي منَّة علينا في الحقيقة؛ لأن كل إنسان يشعر بأن الله إذا منَّ على أحد أجداده كان مانًّا عليه.

٣ - **ومنها:** أن قول الإنسان: «ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» سبب لقبول توبة الله على عبده؛ لأنها اعتراف بالذنب؛ وفي قول الإنسان: «ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» أربعة أنواع من التوسل؛ الأول: التوسل بالربوبية؛ الثاني: التوسل بحال العبد: ﴿ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾؛ الثالث: تفويض الأمر إلى الله؛ لقوله: ﴿وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا..﴾ إلخ؛ الرابع: ذكر حال العبد إذا لم تحصل له مغفرة الله ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ

(١) صحيح البخاري (٣/ ص ١٢٠٧)، و«سنن البيهقي الكبرى» (٧٥٢٩)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٤٩٠٣)، والبيهقي في «الشعب» (٣٧١٦).

﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، وهي تشبه التوسل بحال العبد؛ بل هي توسل بحال العبد؛ وعليه فيكون توسل العبد بحاله توسلًا بحاله قبل الدعاء، وبحاله بعد الدعاء إذا لم يحصل مقصوده.

٤ ـ ومن فوائد الآية: أن الله تعالى يتكلم بصوت مسموع؛ وجه ذلك أن آدم تلقى منه كلمات؛ وتلقي الكلمات لا يكون إلا بسماع الصوت؛ وهذا الذي عليه أهل السنة والجماعة أن الله يتكلم بكلام بصوت مسموع، وحروف مرتبة.

٥ ـ ومنها: منة الله عزَّ وجلَّ على آدم بقبول التوبة؛ فيكون في ذلك منَّتان؛ الأولى: التوفيق للتوبة، حيث تلقَّى الكلمات من الله؛ و الثانية: قبول التوبة، حيث قال تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾.

واعلم أن لله تعالى على عبده توبتين؛ التوبة الأولى قبل توبة العبد؛ وهي التوفيق للتوبة؛ والتوبة الثانية بعد توبة العبد؛ وهي قبول التوبة؛ وكلاهما في القرآن؛ قال الله. تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة: ١١٨]: فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي وفقهم للتوبة، وقوله تعالى: ﴿لِيَتُوبُوٓا۟﴾ أي يقوموا بالتوبة إلى الله؛ وأما توبة القبول ففي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥]

٦ ـ ومن فوائد الآية: أن الإنسان إذا صدق في تفويض الأمر إلى الله، ورجوعه إلى طاعة الله فإن الله تعالى يتوب عليه؛ وهذا له شواهد كثيرة أن الله أكرم من عبده؛ من تقرب إليه ذراعًا تقرب الله إليه باعًا، ومن أتاه يمشي أتاه الله هرولة؛ فكرم الله عزَّ وجلَّ أعلى وأبلغ من كرم الإنسان.

٧ ـ ومنها: إثبات هذين الاسمين الكريمين: ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ وما تضمناه من صفة وفعل.

٨ ومنها: اختصاص الله بالتوبة والرحمة؛ بدليل ضمير الفصل؛ ولكن المراد اختصاصه بالتوبة التي لا يقدر عليها غيره؛ لأن الإنسان قد يتوب على ابنه، وأخيه، وصاحبه، وما أشبه ذلك؛ لكن التوبة التي لا يقدر عليها إلا الله. وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. هذه خاصة بالله.

كذلك الرحمة المراد بها الرحمة التي لا تكون إلا لله؛ أما رحمة الخلق بعضهم لبعض فهذا ثابت. لا يختص بالله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَانُ»[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (١٩٢٤)، وأبوداود (٤٩٤١)، وأحمد في «مسنده» (٦٤٩٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٥٢٢).

قال الله تعالى:

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾: الواو ضمير جمع، وعبر به عن اثنين لأن آدم وحواء هما أبَوَا بني آدم؛ فوجه الخطاب إليهما بصيغة الجمع باعتبارهما مع الذرية؛ هذا هو الظاهر؛ وأما حمله على أن أقل الجمع اثنين، وأن ضمير الجمع هنا بمعنى ضمير التثنية فبعيد؛ لأن كون أقل الجمع اثنين شاذ في اللغة العربية؛ وأما قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] فإن الأفصح في المتعدد إذا أضيف إلى متعدد أن يكون بلفظ الجمع. وإن كان المراد به اثنين؛ و﴿جَمِيعًا﴾ منصوبة على الحال من الواو في قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا﴾ أصلها: «فإنْ ما»: أدغمت النون في «ما»؛ و «إن» شرطية، و «ما» زائدة للتوكيد؛ و﴿يَأْتِيَنَّكُم﴾ فعل مضارع مؤكد بنون التوكيد؛ ولذلك لم يكن مجزومًا؛ بل كان مبنيًا على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد لفظًا، وتقديرًا.

قوله تعالى: ﴿مِّنِّى هُدًى﴾ أي: علمًا: وذلك بالوحي الذي يوحيه الله تعالى إلى أنبيائه، ورسله.

قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ﴾: الفاء هنا رابطة لجواب الشرط؛ لأن الجملة بعد الفاء هي جواب الشرط؛ والجملة هنا اسمية؛ و«مَنْ» شرطية؛ و«تبع» فعل الشرط؛ والفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ رابطة للجواب أيضًا، و «لا» نافية، و«خوف» مبتدأ؛ وجملة: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ﴾ جواب «إنْ» في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾؛ وجملة: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ جواب ﴿فَمَن تَبِعَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ أي: أخذ به تصديقًا بأخباره، وامتثالًا لأحكامه؛ وأضافه الله لنفسه؛ لأنه الذي شرعه لعباده، ولأنه موصل إليه.

قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي فيما يستقبل؛ لأنهم آمنون؛ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: على ما مضى؛ لأنهم قد اغتنموه، وقاموا فيه بالعمل الصالح؛ بل هم مطمئنون غاية الطمأنينة.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: أن الجنة التي أُسكنها آدم أولًا كانت عالية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾؛ والهبوط لا يكون إلا من أعلى.

٢- ومنها: إثبات كلام الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْنَا﴾.

٣ ـ منها: أنه بصوت مسموع، وحروف مرتبة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾؛ فلولا أنهم سمعوا ذلك ما صح توجيه الأمر إليهم.

٤ ـ ومنها: أن التوكيد في الأسلوب العربي فصيح، ومن البلاغة؛ لقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾؛ وهو توكيد معنوي؛ لأنه حال من حيث الإعراب؛ لأن الشيء إذا كان هامًّا فينبغي أن يؤكد؛ فتقول للرجل إذا أردت أن تحثه على الشيء: «**يا فلان عجل عجل عجل**» ثلاث مرات؛ والمقصود التوكيد، والحث.

٥ ـ ومنها: أن الهدى من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾.

فإن قال قائل: «إنْ» في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا﴾ لا تدل على الوقوع؛ لأنها ليست كـ «إذا» ؟

قلنا: نعم، هي لا تدل على الوقوع، لكنها لا تنافيه؛ والواقع يدل على الوقوع. أنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير؛ وممكن أن نقول: في هذه الصيغة. ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾. ما يدل على الوقوع؛ وهو توكيد الفعل.

ويتفرع على هذه الفائدة: أنك لا تسأل الهدى إلا من الله عزَّ وجلَّ؛ لأنه هو الذي يأتي به.

٦ ـ ومن فوائد الآية: أن من اتبع هدى الله فإنه آمن من بين يديه، ومن خلفه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

٧ ـ ومنها: أنه لا يتعبد لله إلا بما شرع؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

٨ ـ ومنها: أن من تعبد لله بغير ما شرع فهو على غير هدى؛ فيكون ضالًّا كما شهدت بذلك السنة؛ فقد كان النبي ﷺ في خطبة الجمعة يقول: «**وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا؛ وَكُلِ مُحْدَثَةٌ بِدْعَةٌ؛ وَكُلِ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[1].

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مبتدأ؛ وجملة: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ خبر المبتدأ؛ وجملة: ﴿هُمْ

---

(١) صحيح: رواه أبوداود (٤٦٠٧)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد في «مسنده» (١٧١٨٤)، وابن خزيمة في «صحيحه» (١٧٨٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٣٥٣).

﴿فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ في موضع نصب على الحال. يعني: حال كونهم خالدين. ويجوز أن تكون استئنافية لبيان مآلهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: بالأمر؛ ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ أي: بالخبر؛ فعندهم جحود واستكبار؛ وهذان هما الأساسان للكفر؛ لأن الكفر يدور على شيئين: إما استكبار؛ وإما جحود؛ فكفر إبليس: كفر استكبار؛ لأنه مُقِرٌّ بالله، لكنه استكبر؛ وكفر فرعون وقومه: كفر جحود؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ [النمل: ١٤]: فهم في ألسنتهم مكذبون، لكنهم في نفوسهم مصدقون؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

فقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: كفروا بالله، فاستكبروا ؟عن طاعته، ولم ينقادوا لها؛ ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: بالآيات الشرعية؛ وإن انضاف إلى ذلك الآيات الكونية زاد الأمر شِدَّة؛ لكن المهم الآيات الشرعية؛ لأن من المكذبين الكافرين من آمنوا بالآية الكونية دون الشرعية؛ فمثلًا: كفار قريش مؤمنون بالآية الكونية مقرون بأن الله خالق السموات والأرض، وأنه المحيي، وأنه المميت، وأنه المدبر لجميع الأمور؛ لكنهم كافرون بالآية الشرعية.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المذكورون؛ وأشار إليهم بإشارة البعيد لانحطاط رتبتهم لا ترفيعًا لهم، وتعلية لهم؛ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: الملازمون لها؛ ولهذا لا تأتي «أصحاب النار» إلا في الكفار؛ لا تأتي في المؤمنين أبدًا؛ لأن المراد الذين هم مصاحبون لها؛ والمصاحب لابد أن يلازم مَنْ صاحبه؛ ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: ماكثون؛ والمراد بذلك المكث، الدائم الأبدي؛ ودليل ذلك ثلاث آيات في كتاب الله؛ آية في النساء، وآية في الأحزاب، وآية في الجن؛ أما آية النساء فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]؛ وأما آية الأحزاب فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]؛ وأما آية الجن فقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** أن الذين جمعوا بين هذين الوصفين ـ الكفر، والتكذيب ـ هم أصحاب النار مخلدون فيها أبدًا. كما سبق ـ؛ فإن اتصفوا بأحدهما فقد دل الدليل على أن المكذب خالد في النار؛ وأما الكافر فمن كان كفره مخرجًا عن الملة فهو خالد في النار؛ ومن كان كفره لا يخرج من الملة فإنه غير مخلد في النار.

٢ ـ **ومنها:** أن الله تعالى قد بين الحق بالآية التي تقطع الحجة، وتبين المحجة.

٣ ـ **ومنها:** انحطاط رتبة من اتصفوا بهذين الوصفين. الكفر، والتكذيب.

٤ ـ **ومنها**: إثبات النار؛ وقد ثبت بالدليل القطعي أنها موجودة الآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: يا أولاد إسرائيل؛ والأصل في «بني» أن تكون للذكور، لكن إذا كانت لقبيلة، أو لأمة شملت الذكور والإناث، كقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ و﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لقب يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل؛ ومعناه. على ما قيل: عبد الله؛ وبنوه هم اليهود، والنصارى، ورسلهم؛ لكن النداء في هذه الآية لليهود والنصارى الموجودين في عهد النبي ﷺ؛ ووجه الله تعالى النداء لبني إسرائيل؛ لأن السورة مدنية؛ وكان من بني إسرائيل ثلاث قبائل من اليهود في المدينة وهم: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة؛ سكنوا المدينة ترقبًا للنبي ﷺ الذي علموا أنه سيكون مُهَاجَرُهُ المدينة؛ ليؤمنوا به، ويتبعوه؛ لكن لما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ﴾ أي اذكروها بقلوبكم، واذكروها بألسنتكم، واذكروها بجوارحكم؛ وذلك؛ لأن الشكر يكون في الأمور الثلاثة: في القلب، واللسان، والجوارح.

وقوله تعالى: ﴿نِعْمَتِىَ﴾ مفرد مضاف، فَيَعُمُّ جميع النعم الدينية والدنيوية؛ وقد أنعم الله تعالى على بني إسرائيل بنِعَم كثيرة.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾: أشار بهذه الجملة إلى أن هذه النعم فضل مَحْضٌ من الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾ أي: ائتوا به وافيًا ـ وعهده سبحانه وتعالى: أنه عهد إليهم أن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويؤمنوا برسله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة: ١٢]. هذا عهد الله.

قوله تعالى: ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أي: أعطكم ما عهدت به إليكم وافيًا ـ وهو الجزاء على أعمالهم ـ المذكور في قوله تعالى: ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

﴿ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [المائدة: ١٢]؛ فلو وفوا بعهد الله لوفى الله بعهدهم.

وقوله تعالى: ﴿أُوفِ﴾ جواب الطلب في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾؛ ولهذا جاءت مجزومة بحذف حرف العلة.

قوله تعالى: ﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ أي: لا ترهبوا إلا إياي؛ و«الرهبة» شدة الخوف.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: أن الله تعالى يوجه الخطاب للمخاطب، إما لكونه أوعى من غيره؛ وإما لكونه أولى أن يمتثل؛ وهنا وجّهه لبني إسرائيل؛ لأنهم أولى أن يمتثلوا؛ لأن عندهم من العلم برسالة النبي ﷺ، وأنها حق ما ليس عند غيرهم.

٢ - ومنها: أن تذكير العبد بنعمة الله عليه أدعى لقبوله الحق، وأقوم للحجة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾؛ فهل هذا من وسائل الدعوة إلى الله؛ بمعنى: أننا إذا أردنا أن ندعو شخصًا نذكره بالنعم؟

فالجواب: نعم، نذكره بالنعم؛ لأن هذا أدعى لقبول الحق، وأدعى لكونه يحب الله عزَّ وجلَّ؛ ومحبة الله تحمل العبد على أن يقوم بطاعته.

٣ - ومن فوائد الآية: عظيم منَّة الله تعالى في إنعامه على هؤلاء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾.

٤ - ومنها: أن مَنْ وَفَّى لله بعهده وَفَّى الله له؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾؛ بل إن الله أكرم من عبده، حيث يجزيه الحسنة بعشر أمثالها؛ وفي الحديث القدسي: «إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا؛ وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا؛ وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»[1].

٥ - ومن فوائد الآية: أن مَنْ نَكَثَ بعهد الله فإنه يعاقب بحرمانه ما رَتَّبَ الله تعالى على الوفاء بالعهد؛ وذلك؛ لأن المنطوق في الآية أن من وَفَّى لله وَفَّى الله له؛ فيكون المفهوم أن من لم يَفِ فإنه يعاقب، ولا يعطى ما وُعِد به؛ وهذا مقتضى عدل الله عزَّ وجلَّ.

٦ - ومنها: وجوب الوفاء بالنذر؛ لأن النَّاذِرُ معاهد لله، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥].

٧- ومنها: وجوب إخلاص الرهبة لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: الآية ٤٠].

٨ - ومنها: أن الرهبة عبادة؛ لأن الله تعالى أمر بها، وأمر بإخلاصها.

فإن قال قائل: هل ينافي التوحيد أن يخاف الإنسان من سَبُع، أو من عدوٍ؟

فالجواب: لا ينافي هذا التوحيد؛ ولهذا وقع من الرسل: إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما

---

(١) رواه البخاري (٧٠٩٩)، ومسلم (٢٧٦٥).

جاءه الضيوف، ولم يأكلوا أَوْجَسَ منهم خِيْفَةً؛ وموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما ألقى السحرة حبالهم وعِصِيِّهِمْ أَوْجَسَ فِي نفسه خِيْفَةً؛ ولأن الخوف الطبيعي مما تقتضيه الطبيعة؛ ولو قلنا لإنسان: «**إنك إذا خفت من أحد سوى الله خوفًا طبيعيًا لكنت مشركًا**» لكان هذا من تكليف ما لا يطاق؛ لأن خوف الإنسان مما يخاف منه خوفٌ طبيعي غريزي لا يمكنه دفعه؛ كل إنسان يخاف مما يُخشى منه الضرر.

فإن قال قائل: لو منعه الخوف من واجب عليه هل يُنهى عنه، أو لا؟

فالجواب: نعم، يُنهى عنه؛ لأن الواجب عليه يستطيع أن يقوم به؛ إلا إذا جاء الشرع بالعفو عنه في هذه الحال فلا حرج عليه في هذا الخوف؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]؛ لكن إذا كان في الشرع رخصة لك أن تخالف ما أمر الله به في هذه الحال فلا بأس؛ ولهذا لو كان إنسان يريد أن يصلي صلاة الفريضة، وحوله جدار قصير، ويخشى إن قام أن يتبين للعدو؛ فله أن يصلي قاعدًا؛ وهذا لأن الله تعالى عفا عنه: قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]؛ ولو كان العدو أكثر مِنْ مِثْلَيِّ المسلمين فلا يلزمهم أن يُصَابِرُوْهُمْ، ويجوز أن يَفِرُّوْا.

❀ ❀ ❀

❀ قال الله تعالى:

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١]

❀ التفسير ❀

قوله تعالى: ﴿وَءَامِنُواْ﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُواْ﴾

﴿بِمَآ أَنزَلْتُ﴾: هو القرآن أنزله الله سبحانه وتعالى على محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي: مصدِّقًا لما ذُكر في التوراة والإنجيل من أوصاف محمد ﷺ ومن أوصاف القرآن الذي يأتي ﷺ به؛ وكذلك أيضًا هو مصدق لما معهم: شاهد للتوراة والإنجيل بالصدق؛ فصار تصديق القرآن لما معهم من وجهين:

الوجه الأول: أنه وقع مطابقًا لما أخبرت التوراة والإنجيل به.

والوجه الثاني: أنه قد شهد لهما بالصدق؛ فالقرآن يدل دلالة واضحة على أن الله أنزل التوراة، وأنزل الإنجيل. وهذه شهادة لهما بأنهما صدق.؛ وكذلك التوراة والإنجيل قد ذُكر فيهما من أوصاف القرآن، ومن أوصاف محمد ﷺ حتى صاروا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم؛ فإذا وقع

الأمر كما ذُكر فيهما صار ذلك تصديقًا لهما؛ ولهذا لو حدثتك بحديث، فقلت أنت: «صدقتَ»، ثم وقع ما حدثتك به مشهودًا تشاهده بعينك؛ صار الوقوع هذا تصديقًا أيضًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ يعني: لا يليق بكم وأنتم تعلمون أنه حق أن تكونوا أول كافر به؛ ولا يعني ذلك كونوا ثاني كافر؛ والضمير في قوله تعالى: ﴿تَكُونُوٓاْ﴾ ضمير جمع، و﴿كَافِرِۭ﴾ مفرد، فكيف يصح أن تخبر بالمفرد عن الجماعة؟

والجواب: قال المفسرون: إن تقدير الكلام: أول فريق كافر به؛ لأن الخطاب لبني إسرائيل عمومًا. وهم جماعة..

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ﴾ أي: لا تأخذوا؛ ﴿بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ أي: الجاه، والرئاسة، وما أشبه ذلك؛ لأن بني إسرائيل إنما كفروا يريدون الدنيا؛ ولو أنهم اتبعوا محمدًا ﷺ لكانوا في القمة، ولأوتوا أجرهم مرتين؛ لكن حسدًا، وابتغاء بقاء الجاه والشرف، وأنهم هم أهل كتاب حسدوا النبي ﷺ، فلم يؤمنوا به.

قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: لا تتقوا إلا إياي؛ و«التقوى»: اتخاذ وقاية من عذاب الله عزَّ وجلَّ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ ففي الآية الأولى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ أمر بالتزام الشريعة، وألا يخالفوها عصيانًا؛ وفي هذه الآية: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ أمر بالتزام الشريعة، وألا يخالفوها لا في الأمر، ولا في النهي.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أنه يجب على بني إسرائيل أن يؤمنوا بالقرآن الذي جاء به محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾

٢ - **ومنها:** أن الكافر مخاطب بالإسلام؛ وهذا مجمع عليه، لكن هل يخاطب بفروع الإسلام؟

الجواب: فيه تفصيل؛ إن أردت بالمخاطبة أنه مأمور أن يفعلها فلا؛ لأنه لا بد أن يُسلم أولًا، ثم يفعلها ثانيًا؛ ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «فَادْعُهُم إِلى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ؛ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَخبِرْهُم أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ»[1].

إذنْ هَم لا يخاطبون بالفعل. يعني لا يقال: افعلوا.؛ فلا نقول للكافر: تعال صلِّ؛ بل نأمره أولًا بالإسلام؛ وإن أردت بالمخاطبة أنهم يعاقبون عليها إذا ماتوا على الكفر فهذا صحيح؛ ولهذا يقال للمجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٢:٤٧] يعني هذا دأبهم حتى ماتوا؛ ووجه الدلالة من الآية أنه لولا أنهم كانوا مخاطبين بالفروع لكان قولهم: ﴿لَمۡ نَكُ

---

(١) رواه مسلم (١٩)، والترمذي (٦٢٥)، والنسائي (٢٥٢٢)، وأبوداود (١٥٨٤)، وابن ماجه (١٧٨٣)، وأحمد في مسنده (٢٠٧١).

مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤٣. ٤٤] عبثًا لا فائدة منه، ولا تأثير له.

٣ ـ ومن فوائد الآية: أن من اشترى بآيات الله ثمنًا قليلًا ففيه شبه من اليهود؛ فالذين يقرؤون العلم الشرعي من أجل الدنيا يكون فيهم شبه باليهود؛ لأن اليهود هم الذين يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا؛ وفي الحديث عن النبي ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ الله لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1] يعني ريحها؛ وحينئذٍ يشكل على كثير من الطلبة من يدخل الجامعات لنيل الشهادة: هل يكون ممن اشترى بآيات الله ثمنًا قليلًا؟

والجواب: أن ذلك حسب النية؛ إذا كان الإنسان لا يريد الشهادة إلا ليتوظف ويعيش، فهذا اشترى بآيات الله ثمنًا قليلًا؛ وأما إذا كان يريد أن يصل إلى المرتبة التي ينالها بالشهادة من أجل أن يتبوأ مكانًا ينفع به المسلمين فهذا لم يشترِ بآيات الله ثمنًا قليلًا؛ لأن المفاهيم الآن تغيرت، وصار الإنسان يوزن بما معه من بطاقة الشهادة.

٤ ـ ومن فوائد الآية: أن جميع ما في الدنيا قليل، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

٥ ـ ومنها: أن شرائع الله من آياته لما تضمنته من العدل والإصلاح، بخلاف ما يسنُّه البشر من الأنظمة والقوانين فإنه ناقص:.

أولًا: لنقص علم البشر، وعدم إحاطتهم بما يُصْلِحُ الخلق.

ثانيًا: لخفاء المصالح عليهم: فقد يظن ما ليس بمصلحة مصلحة؛ وبالعكس.

ثالثًا: أننا لو قدرنا أن هذا الرجل الذي سن النظام أو القانون من أذكى الناس وأعلم الناس بأحوال الناس؛ فإن علمه هذا محدود في زمانه، وفي مكانه؛ أما في زمانه فظاهر؛ لأن الأمور تتغير: قد يكون المصلحة للبشر في هذا الزمن كذا، وكذا؛ وفي زمن آخر خلافه؛ وفي المكان أيضًا قد يكون هذا التشريع الذي سنه البشر مناسبًا لأحوال هذه الأمة في مكانهم؛ ولكن في أمة أخرى لا يصلح؛ ولهذا ضل كثير من المسلمين - مع الأسف الشديد - في أخذ القوانين الغربية، أو الشرقية، وتطبيقها على مجتمع إسلامي؛ لأن الواجب تحكيم الكتاب والسنة؛ والعجب أن بعض الناس ـ نسأل الله العافية ـ تجدهم قد مشوا على قوانين شرعت من عشرات السنين، أو مئاتها، وأهلها الذين شرعوها قد عدلوا عنها، فصار هؤلاء كالذين يمشمشون العظام بعد أن ترمى في الزبالة؛ وهذا شيء واضح: هناك قوانين شرعت لقوم كفار، ثم تغيرت الحال، فغيروها، ثم جاء بعض المسلمين إلى هذه القوانين القشور الملفوظة، وصاروا يتمشمشونها.

---

(١) صحيح: رواه أبوداود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وأحمد في «مسنده» (٨٤٣٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٨). وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦١٥٩).

٦- **ومن فوائد الآية:** وجوب تقوى الله عزَّ وجلَّ، وإفراده بالتقوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾.

فإن قال قائل: أليس الله يأمرنا أن نتقي أشياء أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] ؟

فالجواب: بلى، ولكن اتقاء هذه الأمور من تقوى الله عزَّ وجلَّ. فلا منافاة.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: لا تمزجوا بينهما حتى يشتبه الحق بالباطل؛ فهم كانوا يأتون بشبهات تُشَبِّه على الناس؛ فيقولون مثلًا: محمد حق، لكنه رسول الأميين لا جميع الناس.

قوله تعالى: ﴿وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ﴾: هنا الواو تحتمل أنها عاطفة، وتحتمل أنها واو المعية؛ والمعنى على الأول: لا تلبسوا الحق بالباطل ولا تكتموا الحق؛ فتكون الجملتان منفردًا بعضهما عن بعض؛ ويحتمل أن تكون الواو للمعية، فيكون النهي عن الجمع بينهما؛ والمعنى: ولا تلبسوا الحق بالباطل مع كتمان الحق؛ لكن على هذا التقدير يبقى إشكال: وهو أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ يقتضي أنهم يذكرون الحق والباطل؛ فيقال: نعم، هم وإن ذكروا الحق والباطل فقد كتموا الحق في الحقيقة؛ لأنهم لبسوه بالباطل، فيبقى خفيًّا.

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: الجملة في موضع نصب على الحال. أي والحال أنكم تعلمون صنيعكم..

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** وجوب بيان الحق، وتمييزه عن الباطل؛ فيقال: هذا حق، وهذا باطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾؛ ومن لَبْس الحق بالباطل: أولئك القوم الذين يوردون الشبهات إما على القرآن، أو على أحكام القرآن، ثم يزيلون الإشكال ـ مع أن إيراد الشبه إذا لم تكن قريبة لا ينبغي ـ ولو أزيلت هذه الشبهة؛ فإن الشيطان إذا أوقع الشبهة في القلب فقد

تستقر فيه. وإن ذكر ما يزيلها..

٢ - ومن فوائد الآية: أنه ليس هناك إلا حق، وباطل؛ وإذا تأملت القرآن والسنة وجدت الأمر كذلك؛ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال النبي ﷺ: «**الْقُرآنَ حُجَةٌ لَكَ أَوْ عَلَيكَ**»[١].

فإن قال قائل: أليس هناك مرتبة بين الواجب، والمحرم؛ وبين المكروه، والمندوب. وهو المباح.؟ قلنا: بلى، لا شك في هذا؛ لكن المباح نفسه لا بد أن يكون وسيلة إلى شيء؛ فإن لم يكن وسيلة إلى شيء صار من قسم الباطل كما جاء في الحديث: «**كَلُّ لَـهْوٍ يَلْهُو بِهِ ابْنُ آدَمَ فَهُوَ بَاطِلٌ إِلَّا لِعْبَهُ فِي رُمْحِهِ، وَمَعَ أَهْلِهِ، وَفِي فَرَسِهِ**»[٢]؛ وهذه الأشياء الثلاثة إنما استثنيت؛ لأنها مصلحة. كلها تعود إلى مصلحة..

٣ - ومن فوائد الآية: تحريم كتمان الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَكْتُمُوا۟﴾؛ ولكن هل يقال: إن الكتمان لا يكون إلا بعد طلب؟

الجواب: نعم، لكن الطلب نوعان: طلب بلسان المقال؛ وطلب بلسان الحال؛ فإذا جاءك شخص يقول: ما تقول في كذا وكذا: فهذا طلب بلسان المقال؛ وإذا رأيت الناس قد انغمسوا في محرم: فبيانه مطلوب بلسان الحال؛ وعلى هذا فيجب على الإنسان أن يبين المنكر، ولا ينتظر حتى يُسأل؛ وإذا سئل ولم يُجب لكونه لا يعلم فلا إثم عليه؛ بل هذا هو الواجب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]. هذه واحدة.

ثانيًا: إذا رأى من المصلحة ألا يبين فلا بأس أن يكتم كما جاء في حديث علي بن أبي طالب: «**حدثوا الناس بما يعرفون؛ أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟!**»[٣]؛ وقال ابن مسعود: «**إنك لن تحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة**»[٤]؛ فإذا رأيت من المصلحة ألا تبين فلا تبين ولا لوم عليك.

ثالثًا: إذا كان قصد السائل الامتحان، أو قصده تتبع الرخص، أو ضرب أقوال العلماء بعضها ببعض. وأنت تعلم هذا.: فلك أن تمتنع؛ الامتحان أن يأتي إليك، وتعرف أن الرجل يعرف

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣)، والترمذي (٣٥١٧)، والنسائي (٢٤٣٧)، وابن ماجه (٢٨٠)، وأحمد في «مسنده» (٢٢٩٥٩).

(٢) رواه البيهقي في «سننه الكبرى» (١٩٥٢٥)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ١٩٣) برقم(١٧٨٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٥٣٤).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

المسألة، لكن سألك لأجل أن يمتحنك: هل أنت تعرفها، أو لا؛ أو يريد أن يأخذ منك كلامًا ليشي به إلى أحد، وينقله إلى أحد: فلك أن تمتنع؛ كذلك إذا علمت أن الرجل يتتبع الرخص، فيأتي يسألك يقول: سألت فلانًا، وقال: هذا حرام، وأنت تعرف أن المسؤول رجل عالم ليس جاهلًا: فحينئذٍ لك أن تمتنع عن إفتائه؛ أما إذا كان المسؤول رجلًا تعرف أنه ليس عنده علم. إما من عامة الناس، أو من طلبة العلم الذين لم يبلغوا أن يكونوا من أهل الفتوى: فحينئذٍ يجب عليك أن تفتيه؛ لأنه لا حرمة لفتوى من أفتاه؛ أما لو قال لك: أنا سألت فلانًا، ولكني كنت أطلبك، ولم أجدك، وللضرورة سألت فلانًا؛ لكن لما جاء الله بك الآن أفتني: فحينئذٍ يجب عليك أن تفتيه؛ لأن حال هذا الرجل كأنه يقول: أنا لا أطمئن إلا لفتواك؛ وخلاصة القول أنه لا يجب عليك الإفتاء إلا إذا كان المستفتي مسترشدًا؛ لأن كتمان الحق لا يتحقق إلا بعد الطلب بلسان الحال، أو بلسان المقال.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: ائتوا بها مستقيمة بشروطها، وأركانها، وواجباتها، ومكملاتها؛ وهذا كما أمر الله تعالى به بني إسرائيل أمر به هذه الأمة؛ و﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هنا تشمل الفريضة، والنافلة.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: أعطوا الزكاة؛ و«آت» التي بمعنى «أعطِ» تنصب مفعولين؛ المفعول الأول هنا الزكاة؛ والمفعول الثاني محذوف؛ والتقدير: أهلَها؛ و﴿الزكاة﴾ هي: المال المدفوع؛ امتثالًا لأمر الله إلى أهله من أموال مخصوصة معروفة؛ وسمي بذل المال زكاة؛ لأنه يزكي النفس، ويطهرها، كما قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي: صلوا مع المصلين؛ وإنما قلنا ذلك؛ لأنه لا يُتعبد لله بركوع مجرد

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: أن الصلاة واجبة على الأمم السابقة، وأن فيها ركوعًا كما أن في الصلاة التي في شريعتنا ركوعًا؛ وقد دلَّ على ذلك أيضًا قول الله تعالى لمريم: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]؛ فعلى الأمم السابقة صلاة فيها ركوع، وسجود.

٢ ـ ومنها: أن الأمم السابقة عليهم زكاة؛ لأنه لابد من الامتحان بالزكاة؛ فإن من الناس من يكون بخيلًا. بذل الدرهم عليه أشد من شيء كثير.؛ فيُمتحَن العباد بإيتاء الزكاة، وبذلِ شيء من

أموالهم حتى يُعلم بذلك حقيقة إيمانهم؛ ولهذا سميت الزكاة صدقة؛ لأنها تدل على صدق إيمان صاحبها.

٣ ـ ومنها: الإجمال في موضع، وتبيينه في موضع آخر؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ولم يبين مقدار الواجب، ولا من يدفع إليه، ولا الأموال التي فيها الزكاة؛ لكن هذه الأشياء مبينة في موضع آخر؛ إذ لا يتم الامتثال إلا ببيانها.

٤ ـ ومنها: جواز التعبير عن الكل بالبعض، إذا كان هذا البعض من مباني الكل التي لا يتم إلا بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

٥ ـ ومنها: وجوب صلاة الجماعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾؛ هكذا استدل بها بعض العلماء؛ ولكن في هذا الاستدلال شيء؛ لأنه لا يلزم من المعية المصاحبة في الفعل؛ ولهذا قيل لمريم: ﴿ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾: والنساء ليس عليهن جماعة؛ إذنْ لا نسلم أن هذه الآية تدل على وجوب صلاة الجماعة؛ ولكن ـ الحمد لله ـ وجوب صلاة الجماعة ثابت بأدلة أخرى ظاهرة من الكتاب، والسنة، وأقوال الصحابة رضي الله عنهم.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ..﴾: الاستفهام هنا للإنكار؛ والمراد إنكار أمر الناس بالبر مع نسيان النفس؛ إذ النفس أولَى أن يبدأ بها؛ و«البر» هو الخير؛ قال أهل التفسير: إن الواحد منهم يأمر أقاربه باتباع الرسول ﷺ، ويقول: إنه حق؛ لكن تمنعه رئاسته وجاهه أن يؤمن به؛ ومن أمثلة ذلك: أن النبي ﷺ عاد غلامًا من اليهود كان مريضًا، فحضر أجله والنبي ﷺ عنده؛ فدعاه النبي ﷺ إلى الرشد، فنظر إلى أبيه كأنه يستشيره، فقال له أبوه: «أطع أبا القاسم». وأبوه يهودي.، فتشهد الغلام شهادة الحق، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحَمْدُ لله الَّذِي أَنْقَذَه بِيْ مِنَ النَّار»[1] أي: بدعوتي؛ إذنْ هؤلاء اليهود من أحبارهم من يأمر الناس بالبر ـ وهو اتباع الرسول ﷺ ـ ولكنه ينسى نفسه، ولا يؤمن؛ فقال الله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: تقرؤون التوراة؛ والجملة هنا حالية. أي: والحال أنكم تتلون الكتاب؛ فلم تأمروا بالبر إلَّا عن علم؛ ولكن مع ذلك

---

(١) سبق تخريجه.

﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تتركونها، فلا تأمرونها بالبر.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: الاستفهام هنا للتوبيخ. يعني: أفلا يكون لكم عقول تدركون بها خطأكم، وضلالكم.؟! و«**العقل**» هنا عقل الرشد، وليس عقل الإدراك الذي يناط به التكليف؛ لأن العقل نوعان: عقل هو مناط التكليف. وهو إدراك الأشياء، وفهمها.؛ وهو الذي يتكلم عليه الفقهاء في العبادات، والمعاملات، وغيرها؛ وعقل الرشد. وهو أن يحسن الإنسان التصرف.؛ وسمي إحسان التصرف عقلًا؛ لأن الإنسان عَقَل تصرفه فيما ينفعه.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: توبيخ هؤلاء الذين يأمرون بالبر، وينسون أنفسهم؛ لأن ذلك مُنَافٍ للعقل؛ وقد ورد الوعيد الشديد على من كان هذا دأبه؛ فقد أخبر النبي ﷺ «**أَنَّهُ يُؤْتَى بِالرَّجُلِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ**». و«**الأقتاب**» هي: الأمعاء «**فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ، أَلَيسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالمَعْرُوفِ، وتَنْهَانَا عَنْ المُنكَرِ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وأَنْهَاكُم عَنْ المُنكَرِ وآتِيهِ**»[1]؛ فهو من أشد الناس عذابًا. والعياذ بالله..

فإن قال قائل: بناءً على أنه مخالف للعقل، وبناءً على شدة عقوبته أنقول لمن لا يفعل ما أَمَر به، ومن لا يترك ما نهى عنه: «**لا تأمر، ولا تنهَ**»؟

فالجواب: نقول: لا، بل مُرْ، وافعل ما تأمر به؛ لأنه لو ترك الأمر مع تركه فِعلَه ارتكب جنايتين:

الأولى: ترك الأمر بالمعروف.

والثانية: عدم قيامه بما أمر به.

وكذلك لو أنه ارتكب ما ينهى عنه، ولم يَنْهَ عنه فقد ارتكب مفسدتين:

الأولى: ترك النهي عن المنكر.

والثانية: ارتكابه للمنكر.

ثم نقول: أينا الذي لم يسلم من المنكر! لو قلنا: لا ينهى عن المنكر إلا من لم يأت منكرًا لم يَنهَ أحد عن منكر؛ ولو قلنا: لا يأمر أحد بمعروف إلا من أتى المعروف لم يأمر أحد بمعروف؛ ولهذا نقول: مُرْ بالمعروف، وجاهد نفسك على فعله، وانْهَ عن المنكر، وجاهد نفسك على تركه.

٢ ـ ومن فوائد الآية: توبيخ العالم المخالف لما يأمر به، أو لما ينهى عنه؛ وأن العالم إذا خالف فهو أسوأ حالًا من الجاهل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾؛ وهذا أمر فُطر الناس عليه. أن العالم إذا خالف صار أشد لومًا من الجاهل.؛ حتى العامة تجدهم إذا فعل العالم منكرًا قالوا: كيف

(١) رواه البخاري (٣٠٩٤)، وأحمد في «مسنده» (٢١٨٣٢)، والبيهقي في «الشعب» (٧٥٦٨).

تفعل هذا وأنت رجل عالم؟! أو إذا ترك واجبًا قالوا: كيف تترك هذا وأنت عالم؟!.

٣ - ومن فوائد الآية: توبيخ بني إسرائيل، وأنهم أمة جهلة حمقى ذوو غيٍّ؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

٤ - ومنها: أن من أمر بمعروف ولم يفعله؛ أو نهى عن منكر وفعله من هذه الأمة، ففيه شبه باليهود؛ لأن هذا دأبهم. والعياذ بالله.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ أي: استعينوا على أموركم بالصبر والصلاة؛ و«**الاستعانة**» هي طلب العون؛ و«**الاستعانة بالصبر**»: أن يصبر الإنسان على ما أصابه من البلاء، أو حُمِّل إياه من الشريعة؛ و﴿وَالصَّلَاةِ﴾ هي: العبادة المعروفة؛ وتعم الفرض، والنفل.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا﴾: قيل: إن الضمير يعود على ﴿وَالصَّلَاةِ﴾؛ لأنها أقرب مذكور؛ والقاعدة في اللغة العربية: أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور ما لم يمنع منه مانع؛ وقيل: إن الضمير يعود على الاستعانة المفهومة من قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا﴾؛ لأن الفعل ﴿وَاسْتَعِينُوا﴾ يدل على زمن ومصدر؛ فيجوز أن يعود الضمير على المصدر المفهوم من الفعل، كما في قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]، أي: العدل المفهوم من قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا﴾ أقرب للتقوى؛ لكن المعنى الأول أوضح.

قوله تعالى: ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: لشاقة ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ أي: الذليلين لأمر الله.

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: إرشاد الله - تبارك وتعالى - عباده إلى الاستعانة بهذين الأمرين: الصبر، والصلاة.

٢- ومنها: جواز الاستعانة بغير الله؛ لكن فيما يثبت أن به العون؛ فمثلًا: إذا استعنت إنسانًا يحمل معك المتاع إلى البيت كان جائزًا؛ قال النبي ﷺ: «**وتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، فَتَحْمِلَهُ عَلَيْهَا، أَو تَرْفَعُ لَهُ عَلَيهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ**»[1].

أما الاستعانة بما لا عون فيه فهي سفه في العقل، وضلال في الدين، وقد تكون شركًا: كأن

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣٤)، ومسلم (١٠٠٩).

يستعين بميت، أو بغائب لا يستطيع أن يعينه لبعده عنه، وعدم تمكنه من الوصول إليه.

٣ - ومن فوائد الآية: فضيلة الصبر، وأن به العون على مكابدة الأمور؛ قال أهل العلم: والصبر ثلاثة أنواع؛ وأخذوا هذا التقسيم من الاستقراء:

الأول: الصبر على طاعة الله.

والثاني: الصبر عن معصية الله.

والثالث: الصبر على أقدار الله.

فالصبر على الطاعة هو أشقها وأفضلها؛ لأن الصبر على الطاعة يتضمن فعلًا وكفًّا اختياريًّا: فعل الطاعة؛ وكفُّ النفس عن التهاون بها، وعدم إقامته؛ فهو إيجادي إيجابي؛ والصبر عن المعصية ليس فيه إلا كف فقط؛ لكنه أحيانًا يكون شديدًا على النفس؛ ولهذا جعل النبي ﷺ الشاب الذي دعته امرأة ذات منصب، وجمال، فقال: «إِنِّي أَخَافُ اللهَ»[1] في رتبة الإمام العادل؛ من حيث إن الله يظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله. وإن كان الإمام العادل أفضل؛ لأن قوة الداعي في الشباب، وكون المرأة ذات منصب وجمال، وانتفاء المانع فيما إذا كان خاليًا بها يوجب الوقوع في المحذور؛ لكن قال: «إني أخاف الله»؛ ربما يكون هذا الصبر أشق من كثير من الطاعات؛ لكن نحن لا نتكلم عن العوارض التي تعرض لبعض الناس؛ إنما نتكلم عن الشيء من حيث هو؛ فالصبر على الطاعة أفضل من الصبر عن المعصية؛ والصبر عن المعصية أفضل من الصبر على أقدار الله؛ لأنه لا اختيار للإنسان في دفع أقدار الله؛ لكن مع ذلك قد يجد الإنسان فيه مشقة عظيمة؛ ولكننا نتكلم ليس عن صبر معين في شخص معين؛ قد يكون بعض الناس يفقد حبيبه، أو ابنه، أو زوجته، أو ما أشبه ذلك، ويكون هذا أشق عليه من كثير من الطاعات من حيث الانفعال النفسي؛ والصبر على أقدار الله ليس من المكلف فيه عمل؛ لأن ما وقع لابد أن يقع - صبرت، أم لم تصبر - : هل إذا جزعت، وندمت، واشتد حزنك يرتفع المقدور؟!.

الجواب: لا؛ إذن كما قال بعض السلف: إما أن تصبر صبر الكرام؛ وإما أن تسلو سُلوّ البهائم.

٤ - ومن فوائد الآية: الحث على الصبر بأن يحبس الإنسان نفسه، ويُحمِّلها المشقة حتى يحصل المطلوب؛ وهذا مجرب. أن الإنسان إذا صبر أدرك مناله؛ وإذا ملَّ كسل، وفاته خير كثير.؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «احرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، واسْتَعِنْ بِالله، ولَا تَعْجِزْ»[2]؛ وكثير من الناس يرى أن بداءته بهذا العمل مفيدة له، فيبدأ، ثم لا يحصل له مقصوده بسرعة، فيعجز، ويكِلّ، ويترك؛ إذن ضاع عليه وقته الأول، وربما يكون زمنًا كثيرًا؛ ولا يأمن أنه إذا عدل عن الأول، ثم شرع في ثانٍ

---

(١) رواه البخاري (٦٢٩)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) رواه مسلم (٢٦٦٤)، وابن ماجه (٧٩)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٤٦١).

أن يصيبه مثل ما أصابه أولًا، ويتركه؛ ثم تمضي عليه حياته بلا فائدة؛ لكن إذا صبر مع كونه يعرف أنه ليس بينه وبين مراده إلا امتداد الأيام فقط، وليس هناك موجب لقطعه؛ فليصبر: لنفرض أن إنسانًا من طلبة العلم هَمَّ أن يحفظ: «بلوغ المرام»، وشرع فيه، واستمر حتى حفظ نصفه؛ لكن لحقه الملل، فعجز، وترك: فالمدة التي مضت خسارة عليه إلا ما يبقى في ذاكرته مما حفظ فقط؛ لكن لو استمر، وأكمل حصل المقصود؛ وعلى هذا فقس.

٥ ـ ومن فوائد الآية: فضيلة الصلاة؛ حيث إنها مما يستعان بها على الأمور وشؤون الحياة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ ونحن نعلم علم اليقين أن هذا خبر صدق لا مرية فيه؛ وقد روي عن النبي ﷺ أنه كان إذا حَزَبَهُ أَمرٌ صَلَّى[1]؛ ويؤيد ذلك اشتغاله لله في العريش يوم بدر بالصلاة، ومناشدة ربه بالنصر[2].

فإن قال قائل: كيف تكون الصلاة عونًا للإنسان؟

فالجواب: تكون عونًا إذا أتى بها على وجه كامل. وهي التي يكون فيها حضور القلب، والقيام بما يجب فيها، أما صلاة غالب الناس اليوم فهي صلاة جوارح لا صلاة قلب؛ ولهذا تجد الإنسان من حين أن يكبِّر ينفتح عليه أبواب واسعة عظيمة من الهواجيس التي لا فائدة منها؛ ولذلك من حين أن يسلِّم تنجلي عنه، وتذهب؛ لكن الصلاة الحقيقية التي يشعر الإنسان فيها أنه قائم بين يدي الله، وأنها روضة فيها من كل ثمرات العبادة لا بد أن يَسلوَ بها عن كل هَمٍّ؛ لأنه اتصل بالله عزَّ وجلَّ الذي هو محبوبه وأحب شيء إليه؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**جُعِلَتْ قُرَّةُ عَينِيَ فِي الصَّلَاةِ**»[3]؛ أما الإنسان الذي يصلي ليتسلى بها، لكن قلبه مشغول بغيرها فهذا لا تكون الصلاة عونًا له؛ لأنها صلاة ناقصة؛ فيفوت من آثارها بقدر ما نقص فيها، كما قال الله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ وكثير من الناس يدخل في الصلاة، ويخرج منها لا يجد أن قلبه تغير من حيث الفحشاء والمنكر. هو على ما هو عليه.؛ لا لَانَ قَلْبُهُ لذكر، ولا تحول إلى محبة العبادة.

٦ ـ ومن فوائد الآية: أنه إذا طالت أحزانك فعليك بالصبر، والصلاة.

٧ ـ ومنها: أن الأعمال الصالحة شاقة على غير الخاشعين. ولا سيما الصلاة..

٨ ـ ومنها: أن تحقيق العبادة لله سبحانه وتعالى بالخشوع له مما يسهل العبادة على العبد؛ فكل

---

(١) حسن: رواه أبوداود (١٣١٩)، وأحمد في «مسنده» (٢٣٣٤٧)، والبغوى في «شرح السنة» (٤/ ١٥٥)، والبيهقي في «الشعب» (٣١٨١)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٧٠٣).

(٢) انظر «صحيح البخاري» (٢٧٥٨)، و مسلم (١٧٦٣).

(٣) **صحيح:** رواه النسائي (٣٩٣٩)، وأحمد في «مسنده» (١٢٣١٥)، والنسائي في «الكبرى» (٨٨٨٧)، والبيهقي في «الكبرى» (١٣٢٣٢)، وعبدالرزاق في «مصنفه» (٧٩٣٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٩٨).

من كان لله أخشع كان لله أطوع؛ لأن الخشوع خشوع القلب؛ والإخبَاتُ إلى الله تعالى، والإِنَابَةِ إليه تدعو إلى طاعته.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:٤٦]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿الذين يظنون﴾ أي: يتيقنون؛ و«الظن» يستعمل في اللغة العربية بمعنى اليقين، وله أمثلة كثيرة؛ منها قول الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ [التوبة:١١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ أي: أنهم سيلاقون الله عزَّ وجلَّ؛ وذلك يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وأنهم إليه راجعون﴾ أي: في جميع أمورهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** إثبات ملاقاة الله عزَّ وجلَّ؛ لأن الله مدح الذين يتيقنون بهذا اللقاء.

٢ ـ **ومنها:** إثبات رؤية الله عزَّ وجلَّ، كما ذهب إليه كثير من العلماء؛ لأن اللقاء لا يكون إلا مع المقابلة، وهذا يعني ثبوت الرؤية؛ فإن استقام الاستدلال بهذه الآية على رؤية الله فهذا مطلوب؛ وإن لم يستقم الاستدلال فَثَمّ أدلة أخرى كثيرة تدل على ثبوت رؤية الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة.

٣ ـ **ومنها:** أن هؤلاء المؤمنين يوقنون أنهم راجعون إلى الله في جميع أمورهم؛ وهذا يستلزم أمورًا:.

أولًا: الخوف من الله؛ لأنك ما دمت تعلم أنك راجع إلى الله فسوف تخاف منه.

ثانيًا: مراقبة الله عزَّ وجلَّ. المراقبة في الجوارح.؛ والخوف في القلب؛ يعني: أنهم إذا علموا أنهم سيرجعون إلى الله فسوف يخشونه في السرِّ والعلانية.

ثالثًا: الحياء منه؛ فلا يفقدك حيث أمرك، ولا يجدك حيث نهاك.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾ أي: بألسنتكم وقلوبكم؛ والمراد بـ «النعمة» - وإن كانت مفردة - جمع «النِّعَم»، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾: وهي نعم كثيرة؛ منها ما ذكَّرهم بها نبيهم موسى. عليه الصلاة والسلام.، حيث قال: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]: وهي نعم عظيمة دينية، ودنيوية؛ فالدينية في قوله: ﴿إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ﴾؛ والدنيوية في قوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾؛ و ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: من النعمتين.

قوله تعالى: ﴿فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: جعلتكم أفضل من غيركم؛ والمراد عالَم زمانهم؛ وأصل «عالمين» كل من سوى الله، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]؛ فليس ثَمَّ إلا رب، ومربوب؛ العالَم: مربوب؛ والله: رب؛ فالعالَم من سوى الله؛ وسمي عالَمًا؛ لأنه عَلَم على خالقه؛ فإن العالم من آيات الله سبحانه وتعالى الدالة على كمال علمه، وقدرته، وسلطانه، وحكمته، وغير ذلك من معاني ربوبيته.

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: أنه يجب على بني إسرائيل أن يذكروا نعمة الله عليهم، فيقوموا بشكرها؛ ومن شكرها أن يتبعوا محمدًا ﷺ.

٢ - ومنها: إظهار أن هذه النعمة لم تأت بكسبهم، ولا بكدِّهم، ولا بإرث عن آبائهم؛ وإنما هي بنعمة الله عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾.

٣ - ومنها: أن بني إسرائيل أفضل العالم في زمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنهم في ذلك الوقت هم أهل الإيمان؛ ولذلك كُتب لهم النصر على أعدائهم العمالقة، فقيل لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: ٢١]؛ و«الأرض المقدسة» هي فلسطين؛ وإنما كتب الله أرض فلسطين لبني إسرائيل في عهد موسى؛ لأنهم هم عباد الله الصالحون؛ والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال موسى لقومه: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ

يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ثم قال: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]؛ إذن المتقون هم الوارثون للأرض؛ لكن بني إسرائيل اليوم لا يستحقون هذه الأرض المقدسة؛ لأنهم ليسوا من عباد الله الصالحين؛ أما في وقت موسى فكانوا أولى بها من أهلها؛ وكانت مكتوبة لهم، وكانوا أحق بها؛ لكن لما جاء الإسلام الذي بُعث به النبي ﷺ صار أحق الناس بهذه الأرض المسلمون ـ لا العرب ـ؛ ففلسطين ليس العرب بوصفهم عربًا هم أهلها؛ بل إن أهلها المسلمون بوصفهم مسلمين. لا غير وبوصفهم عبادًا لله عزَّ وجلَّ صالحين؛ ولذلك لن ينجح العرب فيما أعتقد ـ والعلم عند الله ـ في استرداد أرض فلسطين باسم العروبة أبدًا؛ ولا يمكن أن يستردوها إلا باسم الإسلام على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]؛ ومهما حاول العرب، ومهما ملؤوا الدنيا من الأقوال والاحتجاجات، فإنهم لن يفلحوا أبدًا حتى ينادوا بإخراج اليهود منها باسم دين الإسلام ـ بعد أن يطبقوه في أنفسهم ـ؛ فإن هم فعلوا ذلك فسوف يتحقق لهم ما أخبر به النبي ﷺ «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ، حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ، يَا عَبْدَ اللهِ، هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ»[1]؛ فالشجر، والحجر يدل المسلمين على اليهود يقول: «يا عبد الله». باسم العبودية لله، ويقول: «يا مسلم» ـ باسم الإسلام ـ؛ والرسول ﷺ يقول: «يقاتل المسلمون اليهود»، ولم يقل: «العرب».

ولهذا أقول: إننا لن نقضي على اليهود باسم العروبة أبدًا؛ لن نقضي عليهم إلا باسم الإسلام؛ ومن شاء فليقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]: فجعل الميراث لعباده الصالحين؛ وما عُلِّق بوصف فإنه يوجد بوجوده، وينتفي بانتفائه؛ فإذا كنا عبادَ الله الصالحين ورثناها بكل يسر وسهولة، وبدون هذه المشقات، والمتاعب، والمصاعب، والكلامِ الطويل العريض الذي لا ينتهي أبدًا!! نستحلها بنصر الله عزَّ وجلَّ، وبكتابة الله لنا ذلك. وما أيسره على الله.! ونحن نعلم أن المسلمين ما ملكوا فلسطين في عهد الإسلام الزاهر إلا بإسلامهم؛ ولا استولوا على المدائن عاصمة الفرس، ولا على عاصمة الروم، ولا على عاصمة القبط إلا بالإسلام؛ ولذلك ليت شبابنا يعون وعيًا صحيحًا بأنه لا يمكن الانتصار المطلق إلا بالإسلام الحقيقي. لا إسلام الهوية بالبطاقة الشخصية.! ولعل بعضنا سمع قصة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حينما كسرت الفُرس الجسور على نهر دجلة، وأغرقت السفن لئلا يعبر المسلمون إليهم؛ فسخَّر الله لهم البحر؛ فصاروا يمشون على ظهر الماء بخيلهم، ورجلهم، وإبلهم؛ يمشون على الماء كما

---

(١) رواه البخاري (٢٧٦٨)، ومسلم (٢٩٢٢).

يمشون على الأرض لا يغطي الماء خفاف الإبل؛ وإذا تعب فرس أحدهم قيض الله له صخرة تربو حتى يستريح عليها؛ وهذا من آيات الله - ولا شك -؛ والله تعالى على كل شيء قدير؛ فالذي فلق البحر لموسى - عليه الصلاة والسلام - ولقومه، وصار يبسًا في لحظة، ومشوا عليه آمنين؛ قادر على ما هو أعظم من ذلك.

فالحاصل: أن بني إسرائيل لا شك أفضل العالمين حينما كانوا عباد الله الصالحين؛ أما حين ضربت عليهم الذِّلة، واللعنة، والصَّغار فإنهم ليسوا أفضل العالمين؛ بل منهم القردة، والخنازير؛ وهم أذَلّ عباد الله لقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

ويدل لذلك. أي أن المراد بقوله تعالى.: ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: في وقتكم، أو فيمن سبقكم: قوله تعالى في هذه الأمة أمة محمد ﷺ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٠]؛ فقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ صريح في تفضيلهم على الناس؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ أننا نوفي سبعين أمة نحن أكرمها، وأفضلها عند الله عزَّ وجلَّ[1]. وهذا أمر لا شك فيه، ولله الحمد.

٤ - ومن فوائد الآية: أن الله تعالى إذا فضل أحدًا بعلم أو مال، أو جاه فإن ذلك من النِعَمِ العظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: خصها بالذكر لأهميتها.

٥ - ومنها: تفاضل الناس، وأن الناس درجات؛ وهذا أمر معلوم - حتى الرسل يفضل بعضهم بعضًا-، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥].

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة:٤٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ أي: اتخذوا وقاية من هذا اليوم بالاستعداد له بطاعة الله.

(١) حسن: رواه الترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجه (٤٢٨٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٣٠١).

قوله تعالى: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ أي: لا تغني؛ و﴿نَفْسٌ﴾ نكرة في سياق النفي، فيكون عامًّا؛ فلا تجزي ولا تغني نفس عن نفس أبدًا. حتى الرسول ﷺ لا يغني شيئًا عن أبيه، ولا أمه.؛ وقد نادى ﷺ عشيرته الأقربين؛ فجعل ينادي كل واحد باسمه، ويقول: «يَا صَفِيَّةُ عَمَّةُ رَسُولِ اللهِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا؛ يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ شَيْئًا..» [1]. مع أن العادة أن الإنسان يدافع عن حريمه، وعن نسائه؛ لكن في يوم القيامة ليست هناك مدافعة؛ بل قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]: تزول الأنساب، وينسى الإنسان كل شيء، ولا يسأل أين ولدي، ولا أين ذهب أبي، ولا أين ذهب أخي، ولا أين ذهبت أمي: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ أي: لا يقبل من نفس عن نفس شفاعة؛ و«الشفاعة» هي: التوسط للغير بجلب منفعة، أو دفع مضرة؛ فشفاعة النبي ﷺ لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة[2]: من جلب المنفعة؛ وشفاعته فيمن استحق النار ألا يدخلها، وفيمن دخلها أن يخرج منها[3]: من دفع المضرة؛ فيومَ القيامة لا تجزي نفس عن نفس شيئًا، ولا يقبل من نفس عن نفس شفاعة أبدًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ أي: من النفس؛ ﴿عَدْلٌ﴾ أي: بديل يعدل به عن الجزاء؛ و«العدل» بمعنى: المعادِل المكافئ؛ ففي الدنيا قد تجب العقوبة على شخص، ويفتدي نفسه ببدل؛ لكن في الآخرة لا يمكن.

قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا أحد ينصرهم، أي: يمنعهم من عذاب الله؛ لأن الذي يخفف العذاب واحد من هذه الأمور الثلاثة: إما شفاعة؛ وإما معادلة؛ وإما نصر.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: التحذير من يوم القيامة؛ وهذا يقع في القرآن كثيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

٢ ـ ومنها: أنه في يوم القيامة لا تجزي نفس عن نفس شيئًا ـ بخلاف الدنيا ـ: فإنه قد يجزي أحد عن أحد؛ لكن يوم القيامة لا.

٣ ـ ومنها: أن الشفاعة لا تنفع يوم القيامة؛ والمراد: لا تنفع من لا يستحق أن يُشفَعَ له؛ وأما من يستحق فقد دلت النصوص المتواترة على ثبوت الشفاعة. وهي معروفة في مظانها من كتب الحديث والعقائد.

---

(١) رواه البخاري (٢٦٠٢)، ومسلم (٢٠٤).

(٢) كما روى مسلم في صحيحه (١٩٦) من حديث أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعًا».

(٣) انظر «صحيح مسلم» (١٩٣).

٤ ـ **ومنها**: أن يوم القيامة ليس فيه فداء؛ لا يمكن أن يقدم الإنسان فداءً يعدل به؛ لقوله تعالى: ﴿ولا عدلٌ﴾

٥ ومنها: أنه لا أحد يُنصر يوم القيامة إذا كان من العصاة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٥، ٢٦]؛ فلا أحد يَنصُرُ أحدًا يوم القيامة. لا الآلهة، ولا الأسياد، ولا الأشراف، ولا غيرهم..

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٤٩].

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: واذكروا إذ أنقذناكم من آل فرعون؛ والمراد بـ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ جماعة فرعون، ويدخل فيهم فرعون بالأولوية؛ لأنه هو المسلَّط لهم على بني إسرائيل.

وكان بنو إسرائيل مستضعفين في مصر، وسُلِّط عليهم الفراعنة حتى كانوا كما قال الله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ ومعنى «السوم» في الأصل: الرعي؛ ومنه السائمة ـ أي: الراعية ـ والمعنى: أنهم لا يرعونكم إلا بهذا البلاء العظيم و﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: سيئه وقبيحه.

قوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾: الفعل مضعَّف ـ أي: مشدد ـ للمبالغة؛ لكثرة من يذْبحون، وعظم ذبحهم؛ هذا وقد جاء في سورة الأعراف: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ وهو بمعنى ﴿يُذَبِّحُونَ﴾؛ ويحتمل أن يكون مغايرًا له؛ فيُحمل على أنهم يقتلون بعضًا بغير الذبح، ويذبحون بعضًا؛ وعلى كلٍّ فالجملة بيان لقوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ هذا وجاء في سورة إبراهيم: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ بالواو عطفًا على قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾؛ والعطف يقتضي المغايرة؛ فيكون المعنى أنهم جمعوا بين سوم العذاب. وهو التنكيل والتعذيب، وبين الذبح.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي: يَسْتَبْقُونَ نساءكم؛ لأنه إذا ذهب الرجال وبقيت النساء ذلَّ الشعب، وانكسرت شوكته؛ لأن النساء ليس عندهن من يدافع، ويبقين خدمًا لآل فرعون؛ وهذا ـ والعياذ بالله ـ من أعظم ما يكون من الإذلال؛ ومع هذا أنجاهم الله تعالى من آل فرعون، وأورثهم ديار آل فرعون، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ

﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧ ـ ٥٩] وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٨]، وهم بنو إسرائيل..

قوله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: وفي إنجائكم من آل فرعون ابتلاء من الله عزَّ وجلَّ عظيم ـ أي: اختبار عظيم ـ؛ ليعلم من يشكر منكم، ومن لا يشكر.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: تذكير الله تعالى لبني إسرائيل نعمته عليهم بإنجائهم من آل فرعون.

٢ ـ ومنها: أن الإنجاءَ من العدو نعمة كبيرة ينعم الله بها على العبد؛ ولهذا ذكرهم الله بها في قوله تعالى: ﴿نَجَّيْنَٰكُم﴾.

٣ ـ ومنها: بيان حِنْقِ آل فرعون على بني إسرائيل؛ وقيل: إن هذا التقتيل كان بعد بعثة موسى؛ لأن فرعون لما جاءه موسى بالبينات قال: ﴿ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾ [غافر: ٢٥]، وقال في سورة الأعراف: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وذكر بعض المؤرخين أن هذا التقتيل كان قبل بعثة موسى، أو قبل ولادته؛ لأن الكهنة ذكروا لفرعون أنه سيولد لبني إسرائيل ولد يكون هلاكك على يده؛ فجعل يقتلهم؛ وعضدوا هذا القول بما أوحى الله تعالى إلى أم موسى: ﴿أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ [القصص: ٧]؛ لكن هذه الآية ليست صريحة فيما ذكروا؛ لأنها قد تخاف عليه إما من هذا الفعل العام الذي يقتَّل به الأبناء، أو بسبب آخر، وآية الأعراف: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩] لا دليل فيها صراحة على أن التقتيل كان قبل ولادة موسى عليه السلام؛ لأن الإيذاء لا يدل على القتل، ولأن فرعون لم يقل: سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم إلا بعد أن أُرسل إليه موسى عليه السلام، ولهذا قال موسى عليه السلام لقومه بعد ذلك: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

٤ ـ ومنها: أن الرب سبحانه وتعالى له مطلق التصرف في عباده بما يَسُوؤهُم، أو يسرهم؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: هذا العذاب الذي سامكم إياه آل فرعون، والإنقاذ منه؛ كله من الله عزَّ وجلَّ؛ فهو الذي بيده الخير، ومنه كل شيء، وبيده ملكوت كل شيء.

❁ ❁ ❁

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ﴾: متعلقة بمحذوف؛ والتقدير: واذكروا - يعني بني إسرائيل - إذ؛ ﴿فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ أي: فلقناه لكم، وفصلنا بعضه عن بعض حتى عبرتم إلى الشاطئ.

قوله تعالى ﴿فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾: وذلك أن موسى وقومه لما تكاملوا خارجين من هذا الذي فلقه الله عزَّ وجلَّ من البحر دخل فرعون وقومه؛ فلما تكاملوا داخلين أمر الله تعالى البحر، فانطبق عليهم، فغرقوا جميعًا.

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾: الجملة هذه حالية. أي: أن هذا وقع والحال أنكم تنظرون؛ ولهذا قال الله - تبارك وتعالى - لفرعون: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩٢] ينظرون إليك أنك قد هلكت.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** مناسبة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ لما قبله ظاهرة جدًّا، وذلك أنه لما ذكر الله سبحانه وتعالى تسلُّطَ آل فرعون عليهم ذكر مآل هؤلاء المتسلطين؛ وأن الله أغرقهم، وأنجى هؤلاء، وأورثهم أرضهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩].

٢ - **ومنها:** تذكير الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل بنعمه؛ وقد تضمن هذا التذكير حصول المطلوب، وزوال المكروه؛ حصول المطلوب: بنجاتهم؛ وزوال المكروه: بإهلاك عدوهم.

٣ - **ومنها:** بيان قدرة الله تعالى على كل شيء؛ فهذا الماء السيال أمره الله - تبارك وتعالى - أن يتمايز، وينفصل بعضه عن بعض؛ فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم. أي: كالجبل العظيم؛ وثَمَّ وَجهٌ آخر من هذه القدرة: أن هذه الطرق صارت يبسًا في الحال مع أنه قد مضى عليها سنون كثيرة لا يعلمها إلا الله عزَّ وجلَّ والماء من فوقها، ولكنها صارت في لحظة واحدة يبسًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧]؛ وقد ذكر بعض المفسرين أنه كانت في هذه الفرق فتحات ينظر بعضهم إلى بعض. حتى لا ينْزعجوا، ويقولوا: أين أصحابنا؟! وهذا ليس ببعيد على الله سبحانه وتعالى.

وقد وقع مثل ذلك لهذه الأمة؛ فقد ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في «البداية والنهاية» أنه ما من آية سبقت

لرسول إلا لرسولنا ﷺ مثلها: إما له ﷺ هو بنفسه، أو لأمته؛ ومعلوم أن الكرامات التي تقع لمتبع الرسول هي في الحقيقة آيات له؛ لأنها تصديق لطريق هذا الولي المتبع للرسول؛ فتكون آية على صدق الرسول، وصحة الشريعة؛ ولهذا من القواعد المعروفة أن كل كرامة لولي فهي آية لذلك النبي المتبع؛ وذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في «**البداية والنهاية**» على ذلك أمثلة؛ ومنها أن من الصحابة من مشوا على الماء؛ وهو أبلغ من فلق البحر لبني إسرائيل ومشيهم على الأرض اليابسة.

٤ - من فوائد الآية: أن الآل يدخل فيهم من ينتسبون إليهم؛ فقد قال تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾؛ وفرعون قد غرق بلا شك، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠:٩١] الآيتين.

٥ - ومنها: أن إغراق عدو الإنسان وهو ينظر من نعمة الله عليه؛ فإغراقه، أو إهلاكه نعمة؛ وكون عدوه ينظر إليه نعمة أخرى؛ لأنه يشفي صدره؛ وإهلاك العدو بيد عدوه أشفى، كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]؛ نعم، عند عجز الناس لا يبقى إلا فعل الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا في غزوة الأحزاب نُصروا بالريح التي أرسلها الله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩].

٦ - ومن فوائد الآية: عتوّ بني إسرائيل؛ فإن بني إسرائيل مع هذه النعم العظيمة كانوا من أشد الناس طغيانًا، وتكذيبًا للرسل، واستكبارًا عن عبادة الله عزَّ وجلَّ.

٧ - ومنها: أن الله تعالى سخِر من فرعون، حيث أهلكه بجنس ما كان يفتخر به، وأورث أرضه موسى - عليه الصلاة والسلام - وقد كان فرعون يقول: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١. ٥٢]؛ فأغرقه الله تعالى بالماء الذي كان يفتخر بجنسه، وأورث موسى أرضه الذي وصفه بأنه مَهِين، ولا يكاد يبين.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥١:٥٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ﴾ أي: واذكروا إذ واعدنا موسى؛ ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾: وعده الله

تعالى لميقاته ثلاثين ليلة، ثم أتمها بعشر، فصارت أربعين ليلة؛ وفي قوله تعالى: ﴿وَعَدْنَا﴾ قراءتان سبعيتان: بألف بعد الواو؛ وبدونها.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ أي: صيرتم العجل؛ و﴿الْعِجْلَ﴾ مفعول أول؛ والثاني: محذوف؛ والتقدير: اتخذتم العجل إلهًا؛ و«**العجل**» تمثال من ذهب صنعه السَّامِرِيُّ، وقال لبني إسرائيل: هذا إلهكم، وإله موسى فنسي.

قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد موسى حين ذهب لميقات الله.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾: هذه الجملة حال من التاء في قوله تعالى: ﴿اتَّخَذْتُمُ﴾؛ والفائدة من ذكر هذه الحال زيادة التوبيخ، وأنهم غير معذورين.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ أي: تجاوزنا عن عقوبتكم؛ ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾: أتى بها؛ لأن العفو إنما حصل حين تابوا إلى الله، وقتلوا أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، «لعل» هنا للتعليل؛ و﴿تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون الله على نعمه؛ والشكر يكون بالقلب: وهو إيمان القلب بأن النعمة من الله عزَّ وجلَّ، وأن له المنة في ذلك؛ ويكون باللسان: وهو التحدث بنعمة الله اعترافًا ـ لا افتخارًا ـ ويكون بالجوارح: وهو القيام بطاعة المُنعِم؛ وفي ذلك يقول الشاعر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثلاثةً ... يَدي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرُ المُحَجَّبَا

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين:** حكمة الله ـ تبارك وتعالى ـ في تقديره، حيث واعد موسى أربعين ليلة لينَزِّل عليه فيها التوراة. مع أنه سبحانه وتعالى قادر على أن يَنزِّلها في ليلة مرة واحدة؛ ولكن لحكمة ـ لا نعلم ما هي ـ وعده الله تعالى ثلاثين ليلة أولًا، ثم أتمها بعشر؛ فتم ميقات ربه أربعين ليلة.

٢ ـ **ومنها:** بيان جهل بني إسرائيل الجهل التام؛ وجه ذلك أن هذا الحُلِّي الذي جعلوه إلهًا هم الذين صنعوه بأنفسهم؛ فقد استعاروا حُليًّا من آل فرعون، وصنعوه على صورة الثور عجلًا جسدًا. لا روح فيه؛ ثم قال السامري: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨]؛ وزعموا أن موسى ضلَّ، ولم يهتد إلى ربه، وهذا ربه! والعياذ بالله؛ فكيف يكون المصنوع ربًّا لكم ولموسى وأنتم الذين صنعتموه! وهذا دليل على جهلهم، وغباوتهم إلى أبعد الحدود؛ وقد قالوا لموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ حينما أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] قال لهم نبيهم موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وصدق عليه الصلاة والسلام.

٣ ـ **ومن فوائد الآيتين:** أن اتخاذهم العجل كان عن ظلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾.

وهذا أبلغ، وأشنع في توبيخهم، والإنكار عليهم.

٤ ـ ومنها: سعة حلم الله عزَّ وجلَّ، وأنه مهما بارز الإنسان ربه بالذنوب فإن حلم الله تعالى قد يشمله، فيوفق للتوبة؛ وهؤلاء وفِّقوا لها.

٥ ـ ومنها: أن العفو موجب للشكر؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ وإذا كان العفو؛ وهو زوال النقم. موجبًا للشكر فحدوث النعم أيضًا موجب للشكر من باب أولى.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: واذكروا إذ أعطينا موسى؛ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾ إما صفة مشبهة، أو مصدر بمعنى اسم الفاعل؛ لأن المراد بـ﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾ الفارق؛ والمراد به هنا الفارق بين الحق والباطل؛ وعطفه هنا من باب عطف الصفة على الموصوف؛ والعطف يقتضي المغايرة؛ والمغايرة يكتفى فيها بأدنى شيء؛ قد تكون المغايرة بين ذاتين؛ وقد تكون المغايرة بين صفتين؛ وقد تكون بين ذات وصفة؛ فمثلًا: قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]: المغايرة بين ذاتين؛ وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى: ١-٤]: المغايرة بين صفتين؛ وقوله تعالى هنا: ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾: المغايرة بين ذات وصفة؛ فـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ نفس التوراة؛ و﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾ صفته؛ فالعطف هنا من باب عطف الصفة على الموصوف.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: «لعل» للتعليل؛ أي: لعلكم تهتدون بهذا الكتاب الذي هو الفرقان؛ لأن الفرقان هدى يهتدي به المرء من الضلالة؛ و﴿تَهْتَدُونَ﴾ أي: هداية العلم والتوفيق؛ فهو نازل للهداية؛ ولكن من الناس من يهتدي، ومنهم من لا يهتدي.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: أن إنزال الله تعالى الكتب للناس من نعمه وآلائه؛ بل هو من أكبر النعم؛ لأن الناس لا يمكن أن يستقلوا بمعرفة حق الخالق؛ بل ولا حق المخلوق؛ ولذلك نزلت الكتب تبيانًا للناس.

٢ ـ ومنها: أن موسى ﷺ نبيٌّ رسول، لأن الله تعالى آتاه الكتاب.

٣ ـ **ومنها**: فضيلة التوراة؛ لأنه أُطلق عليها اسم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ و«أل» هذه للعهد الذهني؛ فدل هذا على أنها معروفة لدى بني إسرائيل، وأنه إذا أُطلق الكتاب عندهم فهو التوراة؛ أيضًا سماها الله تعالى الفرقان، كما سمى القرآن الفرقان؛ لأن كلا الكتابين أعظم الكتب وأهداهما؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ [القصص: ٤٩]. يعني: التوراة، والإنجيل. ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩]؛ ودل هذا على أن التوراة مشاركة للقرآن في كونها فرقانًا؛ ولهذا كانت عمدة الأنبياء من بني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: بيان عتوِّ بني إسرائيل، وطغيانهم؛ لأنه إذا كانت التوراة التي نزلت عليهم فرقانًا، ثم هم يكفرون هذا الكفر دلَّ على زيادة عتوهم، وطغيانهم؛ إذ من نُزِّل عليه كتاب يكون فرقانًا كان يجب عليه بمقتضى ذلك أن يكون مؤمنًا مذعنًا.

٥ ـ **ومنها**: أن الله تبارك وتعالى يُنزل الكتب، ويجعلها فرقانًا لغاية حميدة حقًّا، وهي الهداية؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

٦ ـ **ومنها**: أن من أراد الهداية فليطلبها من الكتب المنزلة من السماء. لا يطلبها من الأساطير، وقصص الرهبان، وقصص الزهاد، والعباد، وجعجعة المتكلمين، والفلاسفة، وما أشبه ذلك؛ بل من الكتب المنَزلة من السماء.

فعلى هذا ما يوجد في كتب الوعظ من القصص عن بعض الزهاد، والعباد، ونحوهم نقول لكاتبيها وقارئيها: خير لكم أن تبدوا للناس كتاب الله عزَّ وجلَّ، وما صح عن رسوله ﷺ وتبسطوا ذلك، وتشرحوه، وتفسروه بما ينبغي أن يفهم حتى يكون ذلك نافعًا للخلق؛ لأنه لا طريق للهداية إلى الله إلا ما جاء من عند الله عزَّ وجلَّ.

٧ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبَّباتها؛ وبسط ذلك مذكور في كتب العقائد.

٨ ـ **ومنها**: أن الإيتاء المضاف إلى الله سبحانه وتعالى يكون كونيًّا، ويكون شرعيًّا؛ مثال الكوني: قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ [القصص: ٧٦]؛ ومثال الشرعي قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الإسراء: ٢].

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة: ٥٤]

❁ التفسير ❁

ثم ذكر الله تعالى نعمة أخرى أيضًا فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ أي: واذكروا إذ قال موسى لقومه؛ ﴿يَٰقَوْمِ﴾ أي: يا أصحابي؛ وناداهم بوصف القومية تحببًا، وتوددًا، وإظهارًا بأنه ناصح لهم؛ لأن الإنسان ينصح لقومه بمقتضى العادة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾: أكد الجملة لبيان حقيقة ما هم عليه؛ و﴿ظَلَمْتُمْ﴾ بمعنى: نقصتم أنفسكم حقها؛ لأن «الظلم» في الأصل بمعنى النقص، كما قال الله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: لم تنقص.

قوله تعالى: ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾: الباء هنا للسببية. أي: بسبب اتخاذكم العجل؛ و«**اتخاذ**» مصدر فِعْله: اتخذ؛ وهو مضاف إلى فاعله: الكاف؛ و﴿ٱلْعِجْلَ﴾ مفعول أول؛ والمفعول الثاني محذوف تقديره: إلهًا؛ والمعنى: ظلمتم أنفسكم بسبب اتخاذكم العجل إلهًا تعبدونه من دون الله؛ وهذا العجل سبق أنه عجل من ذهب، وأن الذي فتن الناس به رجل يقال له: السَّامري.

قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ أي: ارجعوا إليه من معصيته إلى طاعته؛ و«**الباريء**»: الخالق المعتني بخلقه؛ فكأنه يقول: كيف تتخذون العجل إلهًا وتَدعون خالقكم الذي يعتني بكم؛ وهذا كقول إلياس عليه السلام لقومه: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ١٢٥، ١٢٦].

قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾: الفاء هنا تفسيرية؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟﴾ تفسير للمجمل في قوله تعالى: ﴿تُوبُوٓا۟﴾؛ وعلى هذا فالفاء للتفسير؛ أي: فتوبوا بهذا الفعل. وهو أن تقتلوا أنفسكم؛ أي ليقتل بعضكم بعضًا؛ وليس المعنى أن كل رجل يقتل نفسه. بالإجماع؛ فلم يقل أحد من المفسرين: إن معنى قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: يقتل كل رجل نفسه؛ وإنما المعنى: ليقتل بعضكم بعضًا: يقتل الإنسان ولده، أو والده، أو أخاه؛ المهم أنكم تستعدون، وتتخذون سلاحًا؛ خناجر، وسكاكين، وسيوفًا. وكل واحد منكم يهجم على الآخر، ويقتله.

واختلف المفسرون: هل هذا القتل وقع في ظلمة، أو وقع جهارًا بدون ظلمة؟ فقيل: إنهم لما أمروا بذلك قالوا: لا نستطيع أن يقتل بعضنا بعضًا وهو ينظر إليه: ينظر الإنسان إلى ابنه فيقتله،

وإلى أبيه، وإلى صديقه! هذا شيء لا يطاق؛ فألقى الله تعالى عليهم ظلمة، وصار يقتل بعضهم بعضًا، ولا يدري مَن قتل.

وقيل: بل إنهم قتلوا أنفسهم جهرًا بدون ظلمة، وأن هذا أبلغ في الدلالة على صدق توبتهم، وأنه لما رأى موسى ﷺ أنهم سينتهون؛ لأنه إذا قتل بعضهم بعضًا لن يبقى إلا واحد. ابتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن يرفع عنهم الإصر؛ فأمروا بالكف؛ وقيل: بل سقطت أسلحتهم من أيديهم - والله أعلم -.

وظاهر القرآن أنه لم تكن هناك ظلمة، وأنهم أمروا أن يقتل بعضهم بعضًا عِيانًا، وهذا أبلغ في الدلالة على صدق توبتهم، ورجوعهم إلى الله سبحانه وتعالى.

وذهب بعضهم إلى أن المراد: أن يقتل البريء منكم المجرم. يعني الذين دعوا إلى عبادة العجل، وعكفوا عليه يُقتَلون؛ والذين تبرؤوا منه يَقتلون - والله أعلم -.

ولكن الظاهر الأول؛ لأن قتل البريء للمجرم ليس فيه دلالة على صدق التوبة من المجرمين؛ لأن الإنسان قد يُقتل وهو مُصِرٌّ على الذنب؛ ولا يدل ذلك على توبته.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المشار إليه قتل أنفسهم؛ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ أي: من عدم التوبة؛ أو من عدم القتل؛ وهذا من التفضيل بما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ والتفضيل بما ليس في الطرف الآخر منه شيء وارد في اللغة العربية؛ لكن بعضهم يقول: إنه لا يكون بمعنى التفضيل؛ بل المراد به وجود الخير في هذا الأمر بدون وجود مفضَّل عليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾: هذه الجملة تعليل لما قبلها؛ و﴿هُوَ﴾ ضمير فصل؛ وسبق بيان فوائده؛ و﴿التَّوَّابُ﴾ أي: كثير التوبة: لكثرة توبته على العبد الواحد، وكثرة توبته على التائبين الذين لا يحصيهم إلا الله، فهو يتوب في المرات المتعددة على عبده، ويتوب على الأشخاص الكثيرين الذين تكثر توبتهم؛ و﴿الرَّحِيمُ﴾ أي: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: أنه ينبغي للداعي إلى الله أن يستعمل الأسلوب الذي يجذب إليه الناس، ويعطفهم عليه؛ لقوله تعالى حكاية عن موسى: ﴿يَا قَوْمِ﴾؛ فإن هذا لا شك فيه من التودد، والتلطف، والتحبب ما هو ظاهر.

٢- ومنها: أن اتخاذ الأصنام مع الله ظلم؛ لقوله: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ﴾.

٣- ومنها: أن المعاصي ظلم للنفوس؛ وَجهُ ذلك: أن النفس أمانة عندك؛ فيجب عليك أن ترعاها بأحسن رعاية، وأن تجنبها سوء الرعاية؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن

العاص: «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حقًّا»(١).

٤ ـ **ومنها:** أنه ينبغي التعبير بما يناسب المقام؛ لقوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾؛ لأن ذكر «**البارئ**» هنا كإقامة الحجة عليهم في أن العجل لا يكون إلهًا؛ فإن الذي يستحق أن يكون إلهًا هو البارئ. أي: الخالق سبحانه وتعالى.

٥ ـ **ومنها:** وجوب التوبة؛ لقوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾

٦ ـ **ومنها:** أن التوبة على الفور؛ لقوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ﴾؛ لأن الفاء للترتيب، والتعقيب.

٧ ـ **ومنها:** إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبباتها؛ لقوله: ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ﴾: فإن الباء هنا للسببية.

٨ ـ **ومنها:** أنه ينبغي للداعي إلى الله أن يبين الأسباب فيما يحكم به؛ لقوله: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾.

٩ ـ **ومنها:** سفاهة بني إسرائيل، حيث عبدوا ما صنعوا وهم يعلمون أنه لا يرجع إليهم قولًا، ولا يملك لهم ضرًّا، ولا نفعًا.

١٠ ـ **ومنها:** ما وضع الله تعالى على بني إسرائيل من الأغلال والآصار، حيث كانت توبتهم من عبادة العجل أن يقتل بعضهم بعضًا؛ لقوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

١١ ـ **ومنها:** أن الأمة كنفس واحدة؛ وذلك لقوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ لأنهم ما أُمروا أن يقتل كل واحد منهم نفسه؛ بل يقتل بعضهم بعضًا؛ ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] أي: لا يلمز بعضكم بعضًا؛ وعبر عن ذلك بـ «النفس»؛ لأن الأمة شيء واحد؛ فمن لمز أخاه فكمن لمز نفسه

١٢ ـ **ومنها:** تفاضل الأعمال؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾

١٣ ـ **ومنها:** أن الله سبحانه وتعالى يتوب على التائبين مهما عظم ذنبهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾.

١٤ ـ **ومنها:** إثبات اسمين من أسماء الله. وهما ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾، و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ وإثبات ما تضمناه من صفة. وهي: التوبة، والرحمة؛ وإثبات ما تضمناه من صفة باقترانهما. لا تكون عند انفراد أحدهما؛ لأنه لما اقترنا حصل من اجتماعهما صفة ثالثة، وهي: الجمع بين التوبة التي بها زوال المكروه، والرحمة التي بها حصول المطلوب.

١٥ ـ **ومنها:** أنه ينبغي للإنسان أن يتعرض لما يقتضيه هذان الاسمان من أسماء الله؛ فيتعرض لتوبة الله ورحمته؛ فيتوب إلى ربه سبحانه وتعالى، ويرجو الرحمة؛ وهذا هو أحد المعاني التي قال

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٤١٣)، وأبوداود (١٣٦٩)، وأحمد في «مسنده» (٢٦٣٥١)، والنسائي في «الكبرى» (٢٩٢٢)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢١٤٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٦٣٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٤٦).

عنها رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحْصَاهَا». أي: أسماء الله التسعة والتسعين. «دَخَلَ الجنَّةَ»[١]؛ فإن من إحصائها أن يتعبد الإنسان بمقتضاها.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:٥٥:٥٦]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: واذكروا أيضًا يا بني إسرائيل إذ قلتم..؛ والخطاب لمن كان في عهد الرسول ﷺ، لكن إنعامه على أول الأمة إنعام على آخرها؛ فصح توجيه الخطاب إلى المتأخرين مع أن هذه النعمة على من سبقهم.

قوله تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ أي: لن ننقاد، ولن نصدق، ولن نعترف لك بما جئت به.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾: ﴿نَرَى﴾ بمعنى نبصر؛ ولهذا لم تنصب إلا مفعولًا واحدًا؛ لأنها رؤية بصرية؛ واختلف العلماء متى كان هذا، على قولين:.

القول الأول: أن موسى ﷺ اختار من قومه سبعين رجلًا لميقات الله، وذهب بهم؛ ولما صار يكلم الله ويكلمه الله قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾؛ فعلى هذا القول يكون صعقهم حينما كان موسى خارجًا لميقات الله.

القول الثاني: أنه لما رجع موسى من ميقات الله، وأنزل الله عليه التوراة، وجاء بها قالوا: «ليست من الله؛ ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾».

والسياق يؤيد الثاني؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾، ثم ذكر قصة العجل، وهذه كانت بعد مجيء موسى بالتوراة، ثم بعد ذلك ذكر: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾.

وأما قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] فقد أيد بعضهم القول الأول بهذه الآية؛ ولكن الحقيقة ليس فيه

---

(١) رواه البخاري (٢٥٨٥)، ومسلم (٢٦٧٧).

تأييد لهم؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. رُجِفَ بهم؛ والأخرى: أخذتهم الصاعقة. صعقوا، وماتوا.

فالظاهر لي: أن القول الأول لا يترجح بهذه الآية لاختلاف العقوبتين؛ هذه الآية كانت العقوبة بالصاعقة؛ وتلك كانت بالرجفة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾ يعني: الموت الذي صعقوا به؛ ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي: ينظر بعضكم إلى بعض حين تتساقطون؛ والجملة في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ حال من الكاف في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾ يعني: والحال أنكم تنظرون.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾: أصل «البعث» في اللغة :الإخراج؛ ويطلق على الإحياء، كما هذه الآية؛ ويدل على أن المراد به الإحياء هنا قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾؛ وهو موت حقيقي، وليس نومًا، لأن النوم يسمى وفاة؛ ولا يسمى موتًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]

وقوله تعالى: ﴿بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾: هذه نعمة كبيرة عليهم أن الله تعالى أخذهم بهذه العقوبة، ثم بعثهم ليرتدعوا؛ ويكون كفارة لهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون الله سبحانه وتعالى؛ و«لعل» هنا للتعليل.

وهذه إحدى الآيات الخمس التي في سورة البقرة التي فيها إحياء الله تعالى الموتى؛ والثانية: في قصة صاحب البقرة؛ والثالثة: في الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فقال الله لهم: ﴿مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]؛ والرابعة: في قصة الذي مرَّ على قريةٍ، وهي خاوية على عروشها، فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٥٩]؛ والخامسة في قصة إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى..﴾ [البقرة: ٢٦٠] الآية؛ والله تعالى على كل شيء قدير، ولا يُنافي هذا ما ذكر الله في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦]؛ لأن هذه القصص الخمس، وغيرها. كإخراج عيسى الموتى من قبورهم. تعتبر أمرًا عارضًا يؤتى به لآية من آيات الله سبحانه وتعالى؛ أما البعث العام: فإنه لا يكون إلا يوم القيامة؛ ولهذا نقول في شبهة الذين أنكروا البعث من المشركين، ويقولون: ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨]، ويقولون: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الدخان: ٣٦] نقول: إن هؤلاء مموهون؛ فالرسل لم تقل لهم: إنكم تبعثون الآن؛ بل يوم القيامة؛ ولينتظروا، فسيكون هذا بلا ريب.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين:** تذكير الله تعالى بني إسرائيل بنعمته عليهم؛ حيث بعثهم من بعد موتهم.

٢ ـ **ومنها:** سفاهة بني إسرائيل؛ وما أكثر ما يدل على سفاهتهم؛ فهم يؤمنون بموسى، ومع ذلك قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾.

٣ ـ **ومنها:** أن من سأل ما لا يمكن فهو حري بالعقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾؛ لأن الفاء تدل على السببية؛ ولا سيما في مثل حال هؤلاء الذين قالوا هذا عن تشكك؛ وفرق بين قول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وبين قول هؤلاء: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾؛ فموسى قال ذلك شوقًا إلى الله عزَّ وجلَّ، وليتلذذ بالرؤية إليه؛ أما هؤلاء فقالوه تشككًا. يعني: لسنا بمؤمنين إلا إذا رأيناه جهرة؛ ففرق بين الطلبين.

٤ـ **ومن فوائد الآيتين:** أن ألم العقوبة، ووقعها إذا كان الإنسان ينظر إليها أشد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾؛ فإن الإنسان إذا رأى الناس يتساقطون في العقوبة يكون ذلك أشد وقعًا عليه.

٥ ـ **ومنها:** بيان قدرة الله سبحانه وتعالى، حيث أحياهم بعد الموت؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾.

٦ ـ **ومنها:** وجوب الشكر على من أنعم الله عليه بنعمة؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ والشكر هو القيام بطاعة المنعم إقرارًا بالقلب، واعترافًا باللسان، وعملًا بالأركان؛ فيعترف بقلبه أنها من الله، ولا يقول: إنما أوتيته على علم عندي؛ كذلك أيضًا يتحدث بها بلسانه اعترافًا ـ لا افتخارًا؛ وكذلك أيضًا يقوم بطاعة الله سبحانه وتعالى بجوارحه؛ وبهذه الأركان الثلاثة يكون الشكر؛ وعليه قول الشاعر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثلاثةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرُ المُحَجَّبَا

٧ـ **ومن فوائد الآيتين:** إثبات الحكمة لله تعالى: لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ فإن «لعل» هنا للتعليل المفيد للحكمة.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ أي: جعلناه ظلًّا عليكم؛ وكان ذلك في التِيْهِ حين تاهوا؛ وقد بقوا في التيه بين مصر والشام أربعين سنة يتيهون في الأرض؛ وما كان عندهم ماء، ولا مأوى؛ ولكن الله تعالى رحمهم، فظلل عليه الغمام؛ و﴿ٱلْغَمَامَ﴾ هو السحاب الرقيق الأبيض؛

وقيل: السحاب مطلقًا؛ وقيل: السحاب البارد الذي يكون به الجو باردًا، ويتولد منه رطوبة، فيبرد الجو. وهذا هو الظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾: يقولون: ﴿الْمَنَّ﴾ شيء يشبه العسل؛ ينْزل عليهم بين طلوع الفجر وطلوع الشمس؛ فإذا قاموا أكلوا منه؛ ﴿وَالسَّلْوَىٰ﴾: طائر ناعم يسمى «السُّمَانَى»، أو هو شبيه به؛ وهو من أحسن ما يكون من الطيور، وألذه لحمًا.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا﴾ الأمر هنا للإباحة؛ يعني: أننا أبحنا لكم هذا الذي أنزلنا عليكم من المنِّ والسَّلوى؛ ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾: ﴿مِن﴾ هنا لبيان الجنس؛ وليست للتبعيض؛ لأنهم أبيح لهم أن يأكلوا جميع الطيبات.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي: ما نقصونا شيئًا؛ لأن الله لا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة الطائعين.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ مفعول مقدم لـ﴿يَظْلِمُونَ﴾؛ وقُدِّم لإفادة الحصر. أي: لا يظلمون بهذا إلا أنفسهم؛ أما الله ـ تبارك وتعالى ـ فإنهم لا يظلمونه؛ لأنه سبحانه وبحمده لا يتضرر بمعصيتهم، كما لا ينتفع بطاعتهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** نعمة الله تبارك وتعالى بما هيأه لعباده من الظلِّ؛ فإن الظلَّ عن الحرِّ من نعم الله على العباد؛ ولهذا ذكره الله عزَّ وجلَّ هنا ممتنًا به على بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ [النحل: ٨١].

٢ ـ **ومنها:** أن الغمام يسير بأمر الله عزَّ وجلَّ، حيث جعل الغمام ظلًا على هؤلاء.

٣ ـ **ومنها:** بيان نعمة الله على بني إسرائيل بما أنزل عليهم من المنِّ والسَّلوى. يأتيهم بدون تعب، ولا مشقة؛ ولهذا وصف بـ«المنِّ».

٤ ـ **ومنها:** أن لحم الطيور من أفضل اللحوم؛ لأن الله تعالى هيأ لهم لحوم الطير. وهو أيضًا لحوم أهل الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١].

٥ ـ **ومنها:** أن الإنسان إذا أنعم الله عليه بنعمة فينبغي أن يتبسط بها، ولا يحرم نفسه منها؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧]؛ فإن الإنسان لا ينبغي أن يتعفف عن الشيء المباح؛ ولهذا قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «من امتنع من أكل الطيبات لغير سبب شرعي فهو مذموم»؛ وهذا صحيح؛ لأنه ترك ما أباح الله له وكأنه يقول: إنه لا يريد أن يكون لله عليه مِنَّة؛ فالإنسان لا ينبغي أن يمتنع عن الطيبات إلا لسبب شرعي؛ والسبب الشرعي قد يكون لسبب يتعلق ببدنه؛ وقد يكون لسبب يتعلق بدينه؛ وقد يكون لسبب يتعلق بغيره؛ فقد يمتنع الإنسان عن اللحم لأن بدنه لا يقبله، فيكون تركه له من باب الحمية؛ وقد يترك الإنسان

اللحم لأنه يخشى أن تتسلى به نفسه حتى يكون همه أن يُذهب طيباته في حياته الدنيا؛ وقد يترك الإنسان الطيب من الرزق مراعاةً لغيره، مثل ما يذكر عن عمر رضي الله عنه في عام الرمادة ـ عام الجدب المشهور ـ أنه كان لا يأكل إلا الخبز والزيت، حتى اسود جلده، ويقول: بئس الوالي أنا إن شبعت والناس جياع[1]؛ فيكون تركه لذلك مراعاة لغيره؛ إذنْ من امتنع من الطيبات لسبب شرعي فليس بمذموم.

٦ ـ **ومنها:** أن المباح من الرزق هو الطيب؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ﴾.

٧ ـ **ومنها:** تحريم أكل الخبيث، والخبيث نوعان: خبيث لذاته؛ وخبيث لكسبه؛ فالخبيث لذاته كالميتة، والخنْزير، والخمر، وما أشبهها، كما قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥] أي: نجس خبيث؛ وهذا محرم لذاته؛ محرم على جميع الناس؛ وأما الخبيث لكسبه فمثل المأخوذ عن طريق الغش، أو عن طريق الربا، أو عن طريق الكذب، وما أشبه ذلك؛ وهذا محرم على مُكتسبه، وليس محرمًا على غيره إذا اكتسبه منه بطريق مباح؛ ويدل لذلك أن النبي ﷺ كان يعامل اليهود مع أنهم كانوا يأكلون السحت، ويأخذون الربا، فدلّ ذلك على أنه لا يحرم على غير الكاسب.

٨ ـ **ومن فوائد الآية:** أن بني إسرائيل كفروا هذه النعمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

٩ ـ **ومنها:** أن العاصي لا يضر الله شيئًا؛ وإنما يظلم نفسه.

۞ ۞ ۞

۞ قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨: ٥٩]

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل إذ قلنا ادخلوا هذه القرية؛ و﴿ٱدْخُلُوا۟﴾ أمر كوني وشرعي؛ لأنهم أُمروا بأن يدخلوها سجدًا وهذا أمر شرعي؛ ثم

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٣٥).

فُتحت، فدخلوها بالأمر الكوني.

واختلف المفسرون في تعيين هذه القرية؛ والصواب أن المراد بها: بيت المقدس؛ لأن موسى قال لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: ٢١]؛ و﴿ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ هي: البلد المسكون؛ مأخوذة من القرْي. وهو التجمع؛ وسميت البلاد المسكونة قرية لتجمع الناس بها؛ ومفهوم القرية في اللغة العربية غير مفهومها في العرف؛ لأن مفهوم القرية في العرف: البلد الصغير؛ وأما الكبير فيسمى: مدينة؛ ولكنه في اللغة العربية ـ وهي لغة القرآن ـ لا فرق بين الصغير والكبير؛ فقد سمى الله عزَّ وجلَّ مكة قرية، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ [محمد: ١٣]: المراد بقريته التي أخرجته: مكة، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [الشورى: ٧]: فسمى مكة أم القرى وهو شامل للبلاد الصغيرة والكبيرة.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾: الأمر للإباحة أي: فأبحنا لكم أن تأكلوا منها؛ ﴿حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾ أي: في أي مكان كنتم من البلد في وسطها، أو أطرافها تأكلون ما تشاءون؛ ﴿رَغَدٗا﴾ أي: طمأنينة، وهنيئًا لا أحد يعارضكم في ذلك، ولا يمانعكم.

قوله تعالى: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ﴾ أي: باب القرية؛ لأن القرى يجعل لها أبوابًا تحميها من الداخل والخارج؛ ﴿سُجَّدٗا﴾ منصوب على أنه حال من الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱدۡخُلُواْ﴾ أي: ساجدين؛ والمعنى: إذا دخلتم فاسجدوا شكرًا لله؛ وعلى هذا فالحال ليست مقارنة لعاملها؛ بل هي متأخرة عنه.

قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ أي: قولوا هذه الكلمة: ﴿حِطَّةٞ﴾ أي: احطط عنا ذنوبنا، وأوزارنا؛ فهي بمعنى قولوا: ربنا اغفر لنا؛ والمراد: اطلبوا المغفرة من الله سبحانه وتعالى إذا دخلتم وسجدتم؛ و﴿حِطَّةٞ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ والتقدير: سؤالنا حطة، أو:حاجتنا حطة. أي: أن تحط عنا ذنوبنا؛ والجملة من المبتدأ والخبر في محل نصب مقول القول.

قوله تعالى: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ بنون مفتوحة، وفاء مكسورة؛ وفي قراءة: ﴿تُغفَر لكم﴾ بتاء مضمومة، وفاء مفتوحة؛ وفي قراءة ثالثة: ﴿يُغفَر﴾ بياء مضمومة وفاء مفتوحة؛ وكلها قراءات صحيحة؛ بأيها قرأت أجزأك.

وقوله تعالى: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾: «المغفرة» هي: ستر الذنب، والتجاوز عنه؛ ومعناه: أن الله ستر ذنبك، ويتجاوز عنك، فلا يعاقبك؛ لأن «المغفرة» مأخوذة من المغفر. وهو ما يوقى به الرأس في الحرب؛ لأنه يستر، ويقي؛ ومن فسر «المغفرة» بمجرد الستر فقد قصَّر؛ لأن الله تعالى إذا خلا بعبده المؤمن يوم القيامة، وقرره بذنوبه قال: «**قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ**»[1]

---

(١) رواه البخاري (٢٣٠٩)، ومسلم (٢٧٦٨).

أي: اليوم أسترها أيضًا، ثم أتجاوز عنها؛ و﴿خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ جمع خَطِيَّة، كـ«مطايا» جمع مطية؛ و«الخطية» ما يرتكبه الإنسان من المعاصي عن عمد؛ وأما ما يرتكبه عن غير عمد فيسمى «أخطاء»؛ ولهذا يفرق بين «مخطئ»، و«خاطئ»؛ الخاطئ ملوم؛ والمخطئ معذور، كما قال الله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قوله تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ﴾ أي: سنعطي زيادة على مغفرة الذنوب ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: الذين يقومون بالإحسان، و«الإحسان» نوعان:

الأول: إحسان في عبادة الله؛ وقد فسره رسول الله ﷺ بقوله: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[1].

والنوع الثاني: إحسان في معاملة الخلق وهو بذل المعروف، وكَفُّ الأذى.

قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: فاختار الذين ظلموا منهم على وجه التبديل، والمخالفة ﴿قولًا غير الذي قيل لهم﴾: وذلك أنهم قالوا: «حنطة في شعيرة» بدلًا عن قولهم: «حطة».

وفي قوله تعالى: ﴿فبدَّل الذين ظلموا﴾ إظهار في موضع الإضمار؛ ومقتضى السياق أن يكون بلفظ: فبدلوا قولًا. إلخ، وللإظهار في موضع الإضمار فوائد من أهمها:

أولًا: تحقيق اتصاف محل المضمر بهذا الوصف؛ معنى ذلك: الحكم على هؤلاء بالظلم.

ثانيًا: أن هذا مقياس لغيرهم أيضًا؛ فكل من بدَّل القول الذي قيل له فهو ظالم؛ فيؤخذ منه تعميم الحكم بعموم علة الوصف.

ثالثًا: التنبيه ـ أعني: تنبيه المخاطب؛ لأنه إذا جاء الكلام على خلاف السياق انتبه المخاطب.

قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ الفاء للسببية؛ والمعنى: فبسبب ما حصل منهم من التبديل أنزلنا ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: عليهم؛ ﴿رِجْزًا﴾ أي: عذابًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]. أي: العذاب. ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]، والعذاب غير الرجس؛ لأن الرجس: النجس القذر؛ والرجز: العذاب، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من فوقهم، كالحجارة، والصواعق، والبَرَد، والريح، وغيرها؛ والمراد بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ هنا: العلوّ، ولا يلزم أن يكون المراد بها السماء المحفوظة؛ لأن كل ما علا فهو سماء ما لم يوجد قرينة كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾: الباء هنا للسببية. أي: بسبب؛ و«ما» مصدرية. أي: بكونهم فسقوا؛ وإذا كانت مصدرية: فإنه يحول ما بعدها من الفعل أو الجملة إلى مصدر؛ و﴿كَانُوا۟﴾: هل

---

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

المراد فيما مضى؛ أم المراد تحقيق اتصافهم بذلك؟ الجواب: الثاني؛ وهذا يأتي في القرآن كثيرًا؛ و﴿يَفْسُقُونَ﴾ أي: يخرجون عن طاعة الله عزَّ وجلَّ.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآيتين:** إثبات القول لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟﴾؛ وهو قول حقيقي بصوت، وبحرف؛ لكن صوته سبحانه وتعالى لا يشبهه صوت من أصوات المخلوقين؛ ولا يمكن للإنسان أن يدرك هذا الصوت؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]؛ وهكذا جميع صفات الله عزَّ وجلَّ لا يمكن إدراك حقائقها.

٢ - **ومنها:** وعد الله لهم بدخولها؛ ويؤخذ هذا الوعد من الأمر بالدخول؛ فكأنه يقول: فتحنا لكم الأبواب فادخلوا.

٣ - **ومنها:** جواز أكل بني إسرائيل من هذه القرية التي فتحوها؛ فإن قال قائل: أليس حِلُّ الغنائم من خصائص هذه الأمة. أي: أمة محمد ﷺ؟ فالجواب: بلى، والإذن لبني إسرائيل أن يأكلوا من القرية التي دخلوها ليس على سبيل التمليك؛ بل هو على سبيل الإباحة؛ وأما حِلُّ الغنائم لهذه الأمة فهو على سبيل التمليك.

٤ - **ومنها:** أنه يجب على من نصره الله وفتح له البلاد أن يدخلها على وجه الخضوع والشكر لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾؛ ولهذا لما فتح النبي ﷺ مكة دخلها مُطأطِئًا رأسه يقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١].

٥ - **ومنها:** لؤم بني إسرائيل، ومضادَّتُهم لله، ورسله؛ لأنهم لم يدخلوا الباب سجدًا؛ بل دخلوا يزحفون على أستاههم على الوراء استكبارًا واستهزاءً.

٦ - **ومنها:** بيان قبح التحريف سواء كان لفظيًّا، أو معنويًّا؛ لأنه يغير المعنى المراد بالنصوص.

٧ - **ومنها:** أن الجهاد مع الخضوع لله عزَّ وجلَّ، والاستغفار سبب للمغفرة؛ لقوله تعالى: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، وسبب للاستزادة أيضًا من الفضل؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٨ - **ومنها:** أن الإحسان سبب للزيادة سواء كان إحسانًا في عبادة الله، أو إحسانًا إلى عباد الله؛ فإن الإحسان سبب للزيادة؛ وقد ثبت عن الرسول ﷺ أنه قال: «**اللهُ فِي عَونِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَونِ أَخِيهِ**»[1]؛ وقال: «**وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ**»[2].

٩ - **ومنها:** تحريم التبديل لكلمات الله وهو تحريفها؛ وأنه من الظلم، لقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا﴾.

١٠ - **ومنها:** بيان عقوبة هؤلاء الظالمين، وأن الله أنزل عليهم الرجز من السماء.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩)، والترمذي (١٤٢٥)، وأبو داود (٤٩٤٦)، وابن ماجه (٢٢٥).

(٢) رواه البخاري (٢٣١٠)، ومسلم (٢٥٨٠).

١١ - ومنها: الإشارة إلى عدل الله عزَّ وجلَّ، وأنه لا يظلم أحدًا، وأن الإنسان هو الظالم لنفسه.

١٢ - ومنها: إثبات فسوق هؤلاء بخروجهم عن طاعة الله؛ والفسق نوعان: فسق أكبر مخرج عن الملة، وضده «**الإيمان**»، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠]؛ وفسق أصغر لا يخرج عن الملة، وضده «**العدالة**»، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات:٦]

١٣ - ومنها: إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبَّباتها؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

١٤ - ومنها: الرد على الجبرية الذين يقولون: إن الله سبحانه وتعالى مجبر العبد على عمله؛ ووجه الرد أن الله سبحانه وتعالى أضاف الفسق إليهم؛ والفسق هو: الخروج عن الطاعة؛ والوجه الثاني: أنهم لو كانوا مجبرين على أعمالهم لكان تعذيبهم ظلمًا، والله - تبارك وتعالى - يقول: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

١٥ - ومنها: أن الفسوق سبب لنزول العذاب.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة:٦٠]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ أي: واذكر إذ استسقى موسى لقومه. أي: طلب السقيا لهم؛ وهذا يعم كونهم في التيه، وغيره.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾: «**العصا**» معروفة؛ و﴿الْحَجَرَ﴾: المراد به الجنس؛ فيشمل أيَّ حجر يكون؛ وهذا أبلغ من القول بأنه حجر معين؛ وهذه «**العصا**» كان فيها أربع آيات عظيمة:

أولًا: أنه يلقيها فتكون حيَّة تسعى ثم يأخذها فتعود عصا.

ثانيًا: أنه يضرب بها الحجر، فينفجر عيونًا.

ثالثًا: أنه ضرب بها البحر فانفلق؛ فكان كل فرق كالطود العظيم.

رابعًا: أنه ألقاها حين اجتمع إليه السحرة، وألقوا حبالهم وعصيهم، فألقاها فإذا هي

تلقف ما يأفِكون.

قوله تعالى: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ﴾؛ «**الانفجار**»: الانفتاح والانشقاق؛ ومنه سُمِي «**الفجر**»؛ لأنه ينشق به الأفق؛ فمعنى ﴿انفجرت﴾ أي: تشققت منه هذه العيون.

قوله تعالى: ﴿ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗا﴾؛ ﴿عَيۡنٗا﴾: تمييز؛ وكانت العيون اثنتي عشرة؛ لأن بني إسرائيل كانوا اثنتي عشرة أسباطًا؛ لكل سبط واحدة.

قوله تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ﴾ أي: من الأسباط ﴿مَّشۡرَبَهُمۡ﴾ أي: مكان شربهم، وزمانه حتى لا يختلط بعضهم ببعض، ويضايق بعضهم بعضًا.

وهذه من نعمة الله على بني إسرائيل؛ وهي من نعمة الله على موسى؛ أما كونها نعمة على موسى: فلأنها آية دالة على رسالته؛ وأما كونها نعمة على بني إسرائيل: فلأنها مزيلة لعطشهم، ولظمئهم.

قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ الأمر هنا للإباحة فيما يظهر؛ ﴿مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ﴾ أي: من عطائه، حيث أخرج لكم من الثمار، ورزقكم من المياه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ أي: لا تسيروا مفسدين؛ فنهاهم عن الإفساد في الأرض؛ فـ«**العُثو**»، و«**العِثِي**» معناه: الإسراع في الإفساد؛ والإفساد في الأرض يكون بالمعاصي، كما قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

الفوائد:

١ـ من فوائد الآية: مشروعية الاستسقاء عند الحاجة إلى الماء؛ لأن موسى استسقى لقومه؛ وشَرعُ مَنْ قبلنا شَرَعَ لنا إن لم يرد شرعنا بخلافه؛ فكيف وقد أتى بوفاقه؟! فقد كان النبي ﷺ يستسقي في خطبة الجمعة[1]، ويستسقي في الصحراء على وجه معلوم[2].

٢ـ ومنها: أن السقيا كما تكون بالمطر النازل من السماء تكون في النابع من الأرض.

٣ـ ومنها: أن الله سبحانه وتعالى هو الملجأ للخلق؛ فهم إذا مسهم الضر يلجؤون إلى الله سبحانه وتعالى.

٤ـ ومنها: أن الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كغيرهم في الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى؛ فلا يقال: إن الرسل قادرون على كل شيء، وأنهم لا يصيبهم السوء.

٥ـ ومنها: رأفة موسى بقومه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٩٦٨)، ومسلم (٨٩٧).

(٢) رواه البخاري (٩٨٢)، ومسلم (٨٩٤).

٦ ـ ومنها: أن الله سبحانه وتعالى قَادِرٌ جَوَّاد؛ ولهذا أجاب الله تعالى دعاء موسى؛ لأن العاجز لا يسقي؛ والبخيل لا يعطي.

٧ ـ ومنها: إثبات سمع الله سبحانه وتعالى، لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا﴾؛ لأن الفاء هنا للسببية؛ يعني: فلما استسقى موسى قلنا؛ فدل على أن الله سمع استسقاء موسى، فأجابه.

٨ ـ ومنها: كمال قدرة الله عزَّ وجلَّ، حيث إن موسى ﷺ يضرب الحجر اليابس بالعصا، فيتفجر عيونًا؛ وهذا شيء لم تجر العادة بمثله؛ فهو دليل على قدرة الله عزَّ وجلَّ، وأنه ليس كما يزعم الطبائعيون بأنه طبيعة؛ إذ لو كانت الأمور بالطبيعة ما تغيرت، وبقيت على ما هي عليه.

٩ ـ ومنها: الآية العظيمة في عصا موسى، حيث يضرب به الحجر، فيتفجر عيونًا مع أن الحجر صلب ويابس؛ وقد وقع لرسول الله ﷺ ما هو أعظم، حيث أُتي إليه بإناء فيه ماء، فوضع يده فيه، فصار يفور من بين أصابعه كالعيون[1]؛ ووجه كونه أعظم: أنه ليس من عادة الإناء أن يتفجر عيونًا بخلاف الحجارة؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٧٤]؛ ووجه آخر: أن الإناء منفصل عن الأرض لا صلة له بها بخلاف الحجارة.

١٠ ـ ومنها: حكمة الله سبحانه وتعالى بجعل هذا الماء المتفجر اثنتي عشرة عينًا؛ لفائدتين:

الفائدة الأولى: السعة على بني إسرائيل؛ لأنه لو كان عينًا واحدة لحصلت مشقة الزحام.

الفائدة الثانية: الابتعاد عن العداوة والبغضاء بينهم؛ لأنهم كانوا اثنتي عشرة أسباطًا؛ فلو كانوا جُمعوا في مكان واحد مع الضيق والحاجة إلى الماء لحصل بينهم نزاع شديد؛ وربما يؤدي إلى القتال؛ فهذا من رحمة الله ـ تبارك وتعالى ـ ببني إسرائيل، حيث فجره اثنتي عشرة عينًا، ولهذا أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذه النعمة بقوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾: كل أناس من بني إسرائيل.

١١ ـ من فوائد الآية: أن الله سبحانه وتعالى يذكِّر بني إسرائيل بهذه النعم العظيمة لأجل أن يقوموا بالشكر؛ ولهذا قال تعالى ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

١٢ ـ ومنها: أن ما خلق الله تعالى من المأكول والمشروب للإنسان، فالأصل فيه الإباحةُ والحِلُّ؛ لأن الأمر للإباحة؛ فما أخرج الله تعالى لنا من الأرض، أو أنزل من السماء فالأصل فيه الحل؛ فمن نازع في حل شيء منه فعليه الدليل؛ فالعبادات الأصل فيها الحظر؛ وأما المعاملات والانتفاعات بما خلق الله فالأصل فيها الحِلُّ والإباحة.

١٣ ـ ومنها: تحريم الإفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؛ والأصل في النهي التحريم.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه البخاري (٩٨٢)، ومسلم (٨٩٤).

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾؛ المنَّ والسَّلوى من أحسن الأطعمة، وأنفعها للبدن، وألذها مذاقًا، ومن أحسن ما يكون؛ لكن بني إسرائيل لِدَنَاءَتِهِم لم يصبروا على هذا؛ قالوا: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾: لا نريد المنَّ والسَّلوى فقط؛ نريد أطعمة متعددة؛ ولكنها أطعمة بالنسبة للتي رُزِقوها أدنى. يعني: ليست مثلها؛ بل إنها تعتبر رديئة جدًّا بالنسبة لهذا.

فإن قال قائل: كيف يقولون: طعام واحد وهما طعامان: المنَّ والسَّلوى؟

فالجواب: أن المنَّ في الغالب يستعمل في الشرب؛ فهو ينبذ في الماء ويشرب؛ أو يقال: المراد بالطعام هنا الجنس؛ يعني: لا نصبر على هذا الجنس فقط. ليس عندنا إلا منٌّ وسَلوى.

قوله تعالى: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾: هذا توسل منهم بموسى ليدعو الله عزَّ وجلَّ لهم؛ وكلمة: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ تدل على جفاء عظيم منهم؛ فهم لم يقولوا: «ادع لنا ربنا»، أو «ادع الله»؛ بل قالوا: «ادع لنا ربك»، كأنهم بريئون منه - والعياذ بالله؛ وهذا من سفههم، وغطرستهم، وكبريائهم.

قوله تعالى: ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾؛ ﴿يُخْرِجْ﴾ فعل مضارع مجزوم على أنه جواب الطلب: «ادع»؛ أو جواب لشرط محذوف؛ والتقدير: إن تدعه يخرج لنا.

قوله تعالى: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: مما تخرجه.

قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَقْلِهَا﴾؛ ﴿مِنۢ﴾ بيانية؛ بينت الاسم الموصول: ﴿مَا﴾؛ لأن الاسم الموصول مبهم يحتاج إلى بيان؛ و﴿بَقْلِهَا﴾: هو النبات الذي ليس له ساق، مثل الكرَّاث؛ ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾: هي صغار البطيخ؛ ﴿وَفُومِهَا﴾ هو الثُّوم؛ يقال: «ثوم» بالمثلثة؛ ويقال: «فوم» بالفاء الموحدة، ﴿وَعَدَسِهَا﴾؛ «العدس» معروف؛ ﴿وَبَصَلِهَا﴾: أيضًا معروف.

وكل هذه بالنسبة للمَنّ، والسَّلوى ليست بشيء؛ ولهذا أنكر عليهم موسى ﷺ،

فقال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾، أي: أتأخذون الذي هو أدنى بدلًا عن الذي هو خير.

قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ يعني: أن هذا ليس بصعب يحتاج إلى دعاء الله؛ لأن الله تعالى أوجده في كل مصر؛ وكأن موسى ﷺ أنكر عليهم هذا؛ وبين لهم أنه لا يليق به أن يسأل الله سبحانه وتعالى لهم ما هو أدنى وموجود في كل مصر؛ وأما قول من قال من المفسرين: «إنه دعا، وقيل له: قل لهم: يهبطون مصرًا فإن لهم ما سألوا» فهذا ليس بصحيح؛ لأنه كيف ينكر عليهم أن يطلبوا ذلك منه، ثم هو يذهب ويدعو الله به!!! فالصواب: أن موسى وبَّخهم على ما سألوا، وأنكر عليهم، وقال لهم: إن هذا الأمر الذي طلبتم موجود في كل مصر؛ ولهذا قال: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾؛ و﴿مِصْرًا﴾ ليست البلد المعروف الآن، ولكن المقصود أيُّ مَصْر كانت؛ ولهذا نُكِّرت؛ و«مصر» البلد لا تنكَّر، ولا تنصرف؛ واقرأ قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ [يونس: ٨٧]؛ فالمعنى: اهبطوا أيَّ مصر من الأمصار تجدون ما سألتم.

قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾؛ وفي قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمُ﴾ ثلاث قراءات: كسر الهاء وضم الميم؛ وكسرها جميعًا؛ وضمها جميعًا.

قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ جملة مستأنفة، إخبار من الله عزَّ وجلَّ بما حصل عليهم؛ و﴿ٱلذِّلَّةُ﴾: الهوان؛ فهم أذلة لا يقابلون عدوًّا، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ [الحشر: ١٤] و﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾: الفقر؛ فليس عندهم شجاعة، ولا غنًى؛ لا كرم بالمال، ولا كرم بالنفس؛ فـ«الشجاعة» كرم بالنفس: بأن يجود الإنسان بنفسه لإدراك مقصوده؛ و«الكرم» جود بالمال؛ فلم يحصل لهم هذا، ولا هذا؛ فلا توجد أمة أفقر قلوبًا ولا أبخل من اليهود، فالأموال كثيرة، لكن قلوبهم فقيرة وأيديهم مغلولة.

قوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رجعوا؛ والباء للمصاحبة؛ و﴿مِّنَ﴾ للابتداء؛ يعني الغضب من الله. أي أن الله غضب عليهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾: الظاهر أن المشار إليه كل ما سبق، وليس فقط قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ..﴾؛ فكل ما سبق مشار إليه حتى سؤالهم الذي هو أدنى عن الذي هو خير؛ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: الباء للسببية؛ ﴿كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: يُكَذِّبُونَ بها؛ والمراد: الآية الكونية والشرعية؛ فالشرعية تتعلق بالعبادة؛ والكونية تتعلق بالربوبية، فهم يكفرون بهذا وبهذا.

قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: يعتدون عليهم بالقتل؛ وفي قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ قراءتان؛ الأولى: بتشديد الياء بدون همز: ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾؛ والثانية: بتخفيف الياء،

والهمز: ﴿النبيئين﴾؛ فعلى القراءة الأولى قيل: إنه مشتق من النَّبْوَة. وهو الارتفاع؛ لارتفاع منْزلة الأنبياء؛ وقيل: من النبأ، وأبدلت الهمزة ياءً تخفيفًا؛ وعلى القراءة الثانية:فإنه مشتق من النبأ؛ لأن الأنبياء مُخبَرون عن الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: الباطل المحض؛ وهذا القيد لبيان الواقع، وللتشنيع عليهم بفعلهم؛ لأنه لا يمكن قتل نبي بحق أبدًا.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾: المشار إليه ما سبق من كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق؛ ﴿بِمَا عَصَوا﴾: الباء للسببية؛ و«**المعصية**» الخروج عن الطاعة إما بترك المأمور؛ وإما بفعل المحظور؛ ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿بِمَا عَصَوا﴾؛ و«**الاعتداء**»:مجاوزة الحد إما بالامتناع عما يجب للغير؛ أو بالتعدي عليه.

والفرق بين «**المعصية**»، و«**العدوان**» إذا ذكرا جميعًا: أن «**المعصية**» فعل ما نُهِيَ عنه؛ و«**الاعتداء**»: تجاوز ما أُمِر به، مثل:أن يصلي الإنسان الظهر مثلًا خمس ركعات؛ وقيل: إن «**المعصية**» ترك المأمور؛ و«**العدوان**» فعل المحظور.

وسواء أكان هذا أم هذا فالمهم أن هؤلاء اعتدوا، وعصوا؛ فلم يقوموا بالواجب، ولا تركوا المحرم؛ ولذلك تدرجت بهم الأمور حتى كفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءه؛ وفي ذلك دليل لما ذهب إليه بعض أهل العلم أن المعاصي بريد الكفر؛ فالإنسان إذا فعل معصية استهان بها، ثم يستهين بالثانية، والثالثة.. وهكذا حتى يصل إلى الكفر؛ فإذا تراكمت الذنوب على القلوب حالت بينها وبين الهدى والنور، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

الفوائد:

١- **من فوائد الآية:** لُؤم بني إسرائيل وسفههم؛ حيث إنهم طلبوا أن يغير لهم الله هذا الرزق الذي لا يوجد له نظير بقولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾.

٢- **ومنها:** غطرسة بني إسرائيل وجفاؤهم؛ لقولهم: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾؛ ولم يقولوا: «ادع لنا ربنا»، أو: «ادع لنا الله»؛ كأن عندهم. والعياذ بالله. أنفة؛ مع أنهم كانوا مؤمنين بموسى ومع ذلك يقولون: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾. كما قالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

٣- **ومنها:** أن من اختار الأدنى على الأعلى ففيه شبه من اليهود؛ ومن ذلك هؤلاء الذين يختارون الشيء المحرم على الشيء الحلال.

٤- **ومنها:** أن من علوِّ هِمَّة المرء أن ينظر للأكمل والأفضل في كل الأمور.

٥ - ومنها: أن التوسع في المآكل والمشارب، واختيار الأفضل منها إذا لم يصل إلى حد الإسراف فلا ذم فيه؛ ولذلك لم ينكر النبي ﷺ على أصحابه حين أتوه بتمر جيد بدلًا عن الرديء[١]؛ لكن لو ترك التوسع في ذلك لغرض شرعي فلا بأس كما فعله عمر رضي الله عنه عام الرمادة؛ وأما إذا تركها لغير غرض شرعي فهو مذموم؛ لأن الله تعالى يحب من عبده إذا أنعم عليه نعمة أن يرى أثر نعمته عليه[٢].

٦ - ومن فوائد الآية: حِلّ البقول، والقثّاء، والفوم، والعدس، والبصل؛ لقولهم: ﴿فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ..﴾ إلى قوله: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ﴾ أي: من الأصناف المذكورة.

وهذه الأصناف مباحة في شريعة موسى؛ وكذلك في شريعتنا؛ فإنه لما قُدِّم للرسول ﷺ قدر فيه بقول فكره أكلها؛ فلما رآه بعض أصحابه كره أكلها قال الرسول ﷺ «**كُلْ؛ فَإِنِّي أُنَاجِي مَنْ لَا تُنَاجِي**»[٣]؛ فأباحها لهم؛ وكذلك في خيبر لما وقع الناس في البصل، وعلموا كراهة النبي ﷺ لها قالوا: حُرِّمَت؛ قال ﷺ: «**إِنَّهُ لَيْسَ بِي تَحْرِيمُ مَا أَحَلَّ اللهُ**»[٤]؛ فبين أنه حلال.

٧ - ومن فوائد الآية: جواز إسناد الشيء إلى مكانه لا إلى الفاعل الأول؛ لقولهم: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾؛ والذي يُنبِتُ حقيقة هو الله سبحانه وتعالى.

٨ - ومنها: جواز إسناد الشيء إلى سببه الحقيقي الذي ثبت أنه سبب شرعًا، أو حسًّا؛ مثال ذلك: لو أطعمت جائعًا يكاد يموت من الجوع فإنه يجوز أن تقول: «**لولا أني أطعمته لهلك**»؛ لأن الإطعام سبب لزوال الجوع؛ والهلاك معلوم بالحس؛ ومثال الشرعي: القراءة على المريض فيبرأ، فتقول: «**لولا القراءة عليه لم يبرأ**»؛ أما المحظور فهو أن تثبت سببًا غير ثابت شرعًا، ولا حسًّا، أو تقرن مشيئة الله بالسبب بحرف يقتضي التسوية مع الله عزَّ وجلَّ؛ مثال الأول: أولئك الذين يعلقون التمائم البدعية، أو يلبسون حلقًا، أو خيوطًا لدفع البلاء أو رفعه. كما زعموا؛ ومثال الثاني: ما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال له رجل: «**ما شاء الله وشئت**»، فقال له النبي ﷺ: «**أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا، بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»[٥]، لأنك إذا قلت: «**ما شاء الله وشئت**» جعلت المخاطَب ندًّا لله في المشيئة.

---

(١) رواه البخاري (٢١٨٨)، ومسلم (١٥٩٤).

(٢) لما روى الترمذي (٢٨١٩) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧١٢).

(٣) رواه البخاري (٨١٧)، ومسلم (٥٦٤).

(٤) رواه مسلم (٥٦٥)، وأحمد في «مسنده» (١١٠٩٩)، وابن خزيمة في «صحيحه» (١٦٦٧).

(٥) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (١٨٣٩)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٢٤)، والبيهقي في «الكبرى» (٥٦٠٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٣٩).

فإذا قال قائل: أليس الله قد ذم قارون حينما قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]؛ فنسب حصول هذا المال إلى العلم؛ وهذا قد يكون صحيحًا؟

فالجواب: أن هذا الرجل أنكر أن يكون من الله ابتداءً؛ ومعلوم أن الإنسان إذا أضاف الشيء إلى سببه دون أن يعتقد أن الله هو المسبِّب فهو مشرك؛ وأيضًا فإن قارون أراد بقوله هذا أن يدفع وجوب الإنفاق عليه مبتغيًا بذلك الدار الآخرة.

والخلاصة: أن الحادث بسبب معلوم له صور:

الصورة الأولى: أن يضيفه إلى الله وحده.

الثانية: أن يضيفه إلى الله تعالى مقرونًا بسببه المعلوم؛ مثل أن يقول: «**لولا أن الله أنجاني بفلان لغرقت**».

الثالثة: أن يضيفه إلى السبب المعلوم وحده مع اعتقاد أن الله هو المسبِّب؛ ومنه قول النبي ﷺ في عمه أبي طالب لما ذكر عذابه: «**لَوْلاَ أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»[1].

الرابعة: أن يضيفه إلى الله مقرونًا بالسبب المعلوم بـ«**ثم**»، كقوله: «**لولا الله ثم فلان**».

«**وهذه الأربع كلها جائزة**».

الصورة الخامسة: أن يضيفه إلى الله، وإلى السبب المعلوم مقرونًا بالواو؛ فهذا شرك، كقوله: لولا الله وفلان

الصورة السادسة: أن يضيفه إلى الله وإلى السبب المعلوم مقرونًا بالفاء، مثل: «**لولا الله ففلان**»؛ فهذا محل نظر: يحتمل الجواز، ويحتمل المنع.

الصورة السابعة: أن يضيفه إلى سبب موهوم ليس بثابت شرعًا، ولا حسًّا، فهذا شرك. كما سبق.

٩ - ومن فوائد الآية: توبيخ موسى عليه السلام لبني إسرائيل، وأن الذي يستبدل الأدنى بالذي هو خير يستحق التوبيخ؛ لأن موسى وبخهم، حيث قال: ﴿أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌ﴾

١٠ - ومنها: أنه يجوز للإنسان أن يعتذر عن الوساطة إذا لم يكن لها داعٍ؛ لأنه قال: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡ﴾؛ وكأنه قال: لا حاجة أن أدعو الله أن يخرج لكم مما تنبت الأرض.

١١ - ومنها: ضرب الذِّلة على بني إسرائيل؛ وقد ذكر الله تعالى أنهم ضُرِبت عليهم الذِّلة أينما ثُقِفُوا إلا بحبل من الله - وهو الإسلام؛ أو بحبل من الناس وهو المساعدات الخارجية؛ والمشاهد الآن أن اليهود أعِزاء بما يساعدهم إخوانهم من النصارى.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٧٠)، ومسلم (٢٠٩).

١٢ ـ ومنها: أن اليهود قد ضربت عليهم المسكَنَةُ، وهي الفقر؛ ويشمل فقر القلوب الذي هو شِدَّةُ الطمع بحيث إن اليهودي لا يشبع ولا يتوقف عن طلب المال ولو كان من أكثر الناس مالًا؛ ويشمل أيضًا فقر المال وهو قلته.

١٣ ـ ومنها: أن بني إسرائيل لا يقومون للمسلمين لو حاربوهم من قبل الإسلام؛ لأن ضرب الذلة بسبب المعصية؛ فإذا حُوربوا بالطاعة والإسلام فلا شك أنه سيكون الوبالُ عليهم؛ وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ [الحشر: ١٤]؛ وما يشاهد اليوم من مقاتلة اليهود للعرب فإنما ذلك لسببين:

الأول: قلة الإخلاص لله تعالى؛ فإن كثيرًا من الذين يقاتلون اليهود ـ أو أكثرهم ـ لا يقاتلونهم باسم الإسلام، وأن تكون كلمة الله هي العليا؛ وإنما يقاتلونهم باسم العروبة؛ فهو قتال عصبي قَبَلِيٌّ؛ ولذلك لم يفلح العرب في مواجهة اليهود.

والسبب الثاني: كثرة المعاصي من كبيرة وصغيرة حتى إن بعضها ليؤدي إلى الكفر؛ وقد حصل للمسلمين في أُحُد ما حصل بمعصية واحدة مع ما انضم إليها من التنازع والفشل، كما قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

١٤ ـ ومن فوائد الآية: إثبات صفة الغضب لله تعالى؛ وغضب الله سبحانه وتعالى صفة من صفاته؛ لكنها لا تماثل صفات المخلوقين؛ فنحن عندما نغضب تنتفخ الأوداج مِنَّا، ويحمر الوجه، ويقفُّ الشعر، ويفقد الإنسان صوابه؛ وهذه العوارض لا تكون في غضب الله؛ لأن الله ليس كمثله شيء؛ بل هو غضب يليق بالله عزَّ وجلَّ دال على كمال عظمته وسلطانه؛ وإذا قلنا بهذا، وسلَّمنا أن الغضب صفة حقيقية برئت بذلك ذمتنا، وصرنا حسب ما أمر الله به، ورسولهﷺ.

وفسر أهل التحريف «**غضب الله**» بانتقامه، ولا يثبتونه صفة لله عزَّ وجلَّ؛ وفسره آخرون بأنه إرادة الانتقام؛ فمعنى ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [المجادلة:١٤] عندهم: أراد أن ينتقم منهم؛ وتفصيل ذلك مذكور في كتب العقائد.

١٥ ـ ومن فوائد الآية: أن بني إسرائيل جمعوا بين المعاصي، والعدوان.

١٦ ـ ومنها: بيان حكمة الله عزَّ وجلَّ حيث ربط الأشياء بأسبابها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا﴾؛ وهذا من الحكمة أن يكون للأسباب تأثيرًا في مسبَّباتها بما جعله الله رابطًا بين الأسباب والمسبَّبات، ولكن الأسباب قد يكون لها موانع؛ فقد توجد الأسباب، ولكن توجد موانع أقوى منها؛ فالنار لم تحرق إبراهيم ﷺ ـ مع أنها سبب للإحراق ـ لوجود مانع؛ وهو قول الله تعالى لها: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

❀ ❀ ❀

❁ **قال الله تعالى:**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٦٢]

❁ التفسير ❁

لما ذكر الله سبحانه وتعالى ما عاقب به بني إسرائيل من ضرب الذِّلة والمسكنة، والغضب؛ بيَّن أن المؤمنين من بني إسرائيل وغيرهم كلهم لهم أجرهم عند الله.

ومناسبة الآية لما قبلها: أنه تعالى لما قال: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بيَّن أن من آمن منهم وعمل صالحًا فإن الله لا يضيع أجره؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني: أمة محمد ﷺ؛ لأنهم هم الذين يستحقون الوصف بالإيمان المطلق، حيث آمنوا بجميع الكتب والرسل.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي: الذين انتسبوا إلى دين اليهود: وهي شريعة موسى، ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ أي: الذين انتسبوا إلى دين عيسى.

قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾: اختلف فيهم على عدة أقوال؛ فمن العلماء من يقول: إن الصابئين فرقة من النصارى؛ ومنهم من يقول: إنهم فرقة من اليهود؛ ومنهم من يقول: إنهم فرقة من المجوس؛ ومنهم من يقول: إنهم أمة مستقلة تدين بدين خاص بها؛ ومنهم من يقول: إنهم من لا دين لهم: من كانوا على الفطرة؛ ولا يتدينون بدين. وهذا هو الأقرب؛ فإذا أرسل إليهم الرسل فآمنوا بالله واليوم الآخر ثبت لهم انتفاء الخوف والحزن، كغيرهم من الطوائف الذين ذُكروا معهم.

قوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ هذا بدل ممن قبله عائد إلى الذين هادوا، والنصارى، والصابئين.

قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أي: ثوابهم؛ وسمى الله تعالى «الثواب» أجرًا؛ لأنه سبحانه وتعالى التزم على نفسه أن يجزي به، كالتزام المستأجر بدفع الأجرة للأجير؛ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: أضاف ربوبيته إليهم على سبيل الخصوص تشريفًا، وتكريمًا، وإظهارًا للعناية بهم؛ فهذه كفالة من الله عزَّ وجلَّ، وضمان، والتزام بهذا الأجر؛ فهو أجر غير ضائع.

قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ «الخوف» هو الهمُّ مما يستقبل؛ و«الحزن»: هو الغم على ما فات من محبوب، أو ما حصل من مكروه؛ ولهذا يقال لمن أصيب بمصيبة: «إنه محزون»؛ ويقال لمن يتوقع أمرًا مرعبًا، أو مروعًا: «إنه خائف»؛ وقد يطلق «الحزن» على الخوف مما يستقبل، كقول النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه وهما في الغار: «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا»[1]، فالمراد - والله أعلم - لا تخف؛ فقوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: من كل مما يخاف في المستقبل: من عذاب القبر، وعذاب النار، وغير ذلك؛ وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: على ما مضى من الدنيا؛ لأنهم انتقلوا إلى خير منها؛ أما الكافر فيحزن على ما فرط في الحياة الدنيا ويتحسر، كما قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٤-٥٦]: هذا تحزُّن، وتحسُّر.

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: أن الله سبحانه وتعالى لا يظلم أحدًا، فكل من آمن بالله واليوم الآخر، فإن له أجره من أيِّ صنف كان.

٢ - ومنها: ثمرة الإيمان بالله واليوم الآخر- وهو حصول الأجر، وانتفاء الخوف مما يستقبل، والحزن على ما مضى.

٣ - ومنها: أنه لا فرق في ذلك بين جنس وآخر؛ فالذين هادوا، والنصارى، والصابئون مثل المؤمنين إذا آمنوا بالله واليوم الآخر- وإن كان المؤمنون من هذه الأمة يمتازون على غيرهم بأنهم أكثر أجرًا.

٤ - ومنها: عظم أجر الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٥ - ومنها: أنه إذا ذكر الثناء بالشر على طائفة، وكان منهم أهل خير فإنه ينبغي ذكر أولئك الذين اتصفوا بالخير حتى لا يكون قدحًا عامًّا؛ لأنه تعالى بعدما قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١] بيَّن أن منهم من آمن بالله واليوم الآخر، وأن من آمن بالله واليوم الآخر فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم، ولا هم يحزنون.

❁ ❁ ❁

(١) رواه البخاري (٣٤١٩)، ومسلم (٢٠٠٩).

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٣: ٦٤]

التفسير

ثم ذكَّر سبحانه وتعالى بني إسرائيل بأمر أخذه عليهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ يعني: اذكروا إذا أخذنا ميثاقكم؛ و«الميثاق»: العهد الثقيل المؤكد؛ وسمي بذلك من الوَثاق - وهو الحبل الذي يُشد به المأسور -، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤].

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ﴾ أي: فوق رؤوسِكُم ﴿الطُّورَ﴾ هو الجبل المعروف؛ رفعه الله تبارك وتعالى على بني إسرائيل لما تهاونوا في طاعة الله سبحانه وتعالى إنذارًا لهم، وقال تعالى لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي: اقبلوا ما أعطيناكم من التوراة. كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ١٢١]واعملوا به بقوة؛ والمراد بالـ «قوة» هنا: الحزم، والتنفيذ والتطبيق؛ وضده: أن يأخذ الإنسان أخذًا ضعيفًا متساهلًا على كسل؛ والباء في قوله تعالى: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ للمصاحبة؛ أي: خذوا هذا الكتاب - أي التوراة التي جاء بها موسى ﷺ - أخذًا مصحوبًا بقوة، فلا تهملوا شيئًا منه.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي: اذكروا كل ما فيه، واعملوا به؛ لأن ﴿مَا﴾ اسم موصول يفيد العموم.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: «لعل» للتعليل؛ أي: لأجل أن تتقوا الله عزَّ وجلَّ؛ فالأخذ بهذا الميثاق الذي آتاهم الله على وجه القوة وذكر ما فيه وتطبيقه يوجب التقوى؛ لأن الطاعات يَجُرُّ بعضها بعضًا، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]؛ فالطاعات يجر بعضها بعضًا، لأن الطاعة إذا ذاق الإنسان طعمها نشط، وابتغى طاعة أخرى، ويتغذى قلبه؛ وكلما تغذى من هذه الطاعة رغب في طاعة أخرى؛ وبالعكس المعاصي: فإنها توجب وحشة بين العبد وبين الله عزَّ وجلَّ، ونفورًا، والمعاصي يَجُرُّ بعضها بعضًا؛ وسبق قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]؛ ثم بعد هذا الإنذار وكون الجبل فوقهم في ذلك الوقت خضعوا وخشعوا، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا

أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ [الأعراف: ١٧١]؛ ففي تلك الساعة هرعوا إلى السجود وسجدوا؛ ولكنهم مالوا في سجودهم ينظرون إلى الجبل خائفين منه؛ ولهذا يقال: إن سجود اليهود إلى الآن سجود مائل كأنما ينظرون إلى شيء فوقهم؛ وقالوا: إن هذا السجود سجدناه لله سبحانه وتعالى لإزالة الشدة؛ فلا نزال نسجد به؛ فهذا سجودهم إلى اليوم.

قوله تعالى: ﴿ثم توليتم﴾ أي: أعرضتم وأدبرتم عن طاعة الله سبحانه وتعالى ﴿من بعد ذلك﴾: المشار إليه: رفع الجبل في قوله تعالى: ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾؛ والمعنى: بعد هذه الإنابة وقت رفع الطور توليتم، ولم تذكروها؛ ما ذكرتم أن الذي خوفكم بهذا الجبل قد يعيد عليكم ذلك مرة أخرى.

قوله تعالى: ﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ بإرسال الرسل، وبيان السبل، وغير ذلك فـ «**الفضل**» بمعنى: التفضل؛ و«**لولا**» حرف امتناع لوجود؛ و«**فضل**» مبتدأ، وخبره محذوف، كما قال ابن مالك:

وَبَعْـدَ لَـوْلاَ غَالِبًـا حَـذْفُ الخَبَـرْ حَـتْمٌ وَفِـيْ نَـصٍّ يَمِـيْنِ ذَا اسْـتَقَرْ

والتقدير: فلولا فضل الله عليكم موجود.

قوله تعالى: ﴿لكنتم من الخاسرين﴾: اللام واقعة في جواب «**لولا**».

وقوله تعالى: ﴿الخاسرين﴾ أي: الذين خسروا الدنيا والآخرة، فلم يربحوا منهما بشيء؛ لأن أخسر الناس هم الكفار؛ فلا هم استفادوا من دنياهم، ولا من آخرتهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين:** تذكير الله ـ تبارك وتعالى ـ لبني إسرائيل بما أخذ عليهم من عهد؛ لقوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور﴾؛ وهذا التذكير مقتضاه الإلزام ـ أي: فالتزموا بالميثاق.

٢ ـ **ومنها:** عتو بني إسرائيل؛ حيث لم يؤمنوا إلا حين رفع فوقهم الطور كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم؛ فحينئذٍ آمنوا؛ وهذا الإيمان في الحقيقة يشبه إيمان المكره الذي قيل له: إما أن تؤمن؛ أو تُقْتَل.

٣ ـ **ومنها:** بيان قوة الله عزَّ وجلَّ، وقدرته؛ لقوله تعالى: ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾؛ وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة﴾ [الأعراف: ١٧١]؛ فلا أحد من الخلق يستطيع أن يحمل ذلك الجبل ويجعله ظلة، لا يسقط عليهم إلا الله عزَّ وجلَّ؛ فالأحجار العظيمة الثقيلة الكبيرة أمسكها الله تعالى بقدرته.

٤ - **ومنها**: أن الواجب على أهل المِلَّة أن يأخذوا كتابهم بقوة لا بضعف، ولين، ومداهنة؛ بل لابد من قوة في التطبيق والدعوة؛ التطبيق على أنفسهم؛ ودعوة غيرهم إلى ذلك بدون فتور، ولا تراخٍ على حدِّ قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ لأنه لا يتم الأمر إلا بهذا.

٥ - **ومنها**: أن الأخذ بالكتاب المُنَزَّل يوجب التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: لأجل أن تكونوا من المتقين لله عزَّ وجلَّ.

٦ - **ومنها**: لُؤم بني إسرائيل؛ لأنهم بعد أن رجع الجبل إلى مكانه تولوا، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ﴾؛ وهذا من اللُّؤم؛ لأن من الواجب أن يذكروا رفع الجبل فوقهم حتى يستقيموا، ويستمروا على الأخذ بقوة؛ لكنهم تولوا من بعد ما رأوا الآية.

٧ - **ومنها**: بيان فضل الله سبحانه وتعالى على بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

٨ - **ومنها**: أن الإنسان لا يستقل بنفسه في التوفيق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾.

٩ - **ومنها**: إثبات فضل الله تعالى على بني إسرائيل بما أعطاهم من الآيات كونية، والشرعية.

١٠ - **منها**: إثبات الأسباب، وربطها بمسبباتها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾؛ فهذا صريح في إثبات الأسباب، وتأثيرها في مسبَّبها.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ (٦٥) فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:٦٥،٦٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ﴾: اللام موطئة للقسم؛ وعلى هذا فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات، وهي: القسم المقدر، واللام، و«قد»؛ والتقدير: والله لقد؛ و﴿عَلِمْتُمُ﴾: الخطاب لبني إسرائيل؛ أي: علمتم عِلم اليقين وعرفتم معرفة تامة ﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ﴾ أي: تجاوزوا الحدود، وطغوا منكم.

قوله تعالى: ﴿فِي ٱلسَّبْتِ﴾ أي: في الحكم الذي حكم الله به عليهم يوم السبت؛ وذلك أن الله حرم عليهم العمل والصيد في ذلك اليوم ليتفرغوا للعبادة؛ فابتلاهم بكثرة الحيتان يوم السبت حتى تكون فوق الماء شُرَّعًا، ثم لا يرونها بعد ذلك؛ فتحيلوا على صيدها بحيلة؛ حيث وضعوا شباكًا يوم الجمعة، فتدخل فيها الحيتان إذا جاءت يوم السبت، ثم يأخذونها يوم الأحد، ويقولون: نحن لم نصدها يوم السبت، فقال لهم الله تعالى: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ أي: ذليلين، فصاروا كذلك.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ أي: صيرناها؛ واختلف المفسرون في مرجع الضمير المفعول به؛ فقيل: يعود على القرية؛ لقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [الأعراف: ١٦٣]؛ فيكون مرجع الضمير مفهومًا من السياق؛ وقيل: يعود على العقوبة ـ أي فجعلنا العقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا﴾؛ فيكون المعنى: فجعلنا هذه العقوبة نكالًا.

قوله تعالى: ﴿نكالًا﴾: النكال، والتنكيل أن يعاقب الإنسان بعقوبة تمنعه من الرجوع إلى ما عوقب عليه.

قوله تعالى: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾: اختلف في مرجع الضمير «ها»؛ فقيل: يرجع إلى القرية؛ فيكون: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾: ما قرب منها من القرى من أمامها؛ و﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾: ما كان من القرى من خلفها؛ لأن أهل القرى علموا بما نزل بها من العقوبة، فكان ذلك نكالًا لهم؛ وقيل: إن المراد بـ «ما بين يديها»: ما يأتي بعدها: «وما خلفها»: ما سبقها؛ ولكن في هذا إشكالًا؛ لأن من سبقها قد مضى، فلا يكون منتفعًا، ولا ناكلًا إلَّا أن يراد بـ«ما بين يديها»: من عاصرها، و«ما خلفها»: من يأتي بعدهم، ويكون «الخَلْف» هنا بمعنى الأمام، كما جاء «الوراء» بمعنى «الأمام» في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

قوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: موضع اتعاظ للذين يتقون الله.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآيتين: توبيخ اليهود الموجودين في عهد الرسول ﷺ على عدم الإيمان به؛ ووجه ذلك أنهم علموا ما حلَّ بأسلافهم من النكال بسبب المخالفة؛ فكان عليهم أن يكون ذلك موعظة لهم يرتدعون به عن معصية الله ورسوله ﷺ.

٢ ـ ومنها: تحريم الحِيَل، وأن التحيُّل على المحارم لا يخرج عن العدوان؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾؛ بل الحيل على فعل محرم أعظم إثمًا من إتيان المحرم على وجه

صريح؛ لأنه جمع بين المعصية والخداع؛ ولهذا كان المنافقون أشد جرمًا وعداوة للمؤمنين من الكفار الصرحاء؛ قال أيوب السختياني رَحِمَهُ اللهُ في المتحيلين: «**إنهم يخادعون الله كما يخادعون الصبيان؛ ولو أتوا الأمر على وجهه لكان أهون**»؛ وصدق رحمه الله؛ وللحيل مفاسد كثيرة ـ راجع إن شئت كتاب «**إغاثة اللهفان**» لابن القيم رَحِمَهُ اللهُ وغيره.

وأنت إذا تأملت حِيَلُ اليهود في السبت، وحيلهم في بيع شحوم الميتة وقد حرمت عليهم، ثم أذابوها، وباعوها، وأكلوا ثمنها؛ وتأملت حيل بعض المسلمين اليوم على الربا وغيره؛ وجدت أن حيل بعض المسلمين اليوم على ما ذُكر أشد حيلة من حيل اليهود، ومع ذلك أحل الله بهم نقمته، وقد نهانا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**لَا تَرتَكِبُوا مَا ارتَكَبَتِ اليَهُودُ، فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ الله بِأَدنَى الحِيَلِ**»[1]؛ فالمتحيل على المحرَّم واقع فيه، ولا تنفعه الحيلة.

٣ ـ ومن فوائد الآيتين: بيان حكمة الله في مناسبة العقوبة للذنب؛ لأن عقوبة هؤلاء المتحيلين أنهم مُسِخُوا قردة خاسئين؛ والذنب الذي فعلوه أنهم فعلوا شيئًا صورته صورة المباح؛

---

(١) قال الألباني رحمه الله في «غاية المرام» (١١): [وقال عليه السلام: «لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود، وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل» ذكره ابن القيم في «إغاثة اللهفان» جـ١ ص ٣٤٨. وقال: رواه أبو عبد الله ابن بطة بإسناد جيد يصحح مثله الترمذي) ص ٣٢ [٣٤]. ضعيف . أخرجه ابن بطة في «جزء الخلع وإبطال الحيل» (ص ٢٤ – من دفائن الكنوز) وإسناده هكذا: حدثنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن سلم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني، حدثنا يزيد بن هارون حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: فذكره.

قلت: وهذا إسناد رجاله ثقات من رجال «التهذيب» غير أبي الحسن أحمد بن محمد بن سلم، فلم أجد له ترجمة. وقد أورده ابن تيمية في «إبطال الحيل» (ص ٢٣ -٢٤) من المجلد الثالث من «الفتاوى» عن ابن بطة بإسناده هذا إلا أنه وقع فيه «ابن مسلم» بدل «ابن سلم» وقال: «وهذا إسناد جيد، يصحح مثله الترمذي وغيره تارة، ويحسنه تارة، ومحمد بن محمد (كذا) بن مسلم المذكور مشهور ثقة، ذكره الخطيب في «تاريخه» كذلك، وسائر الإسناد أشهر من أن يحتاج إلى وصفهم. قلت: ثم رأيت ابن تيمية قال في موطن آخر (٣ / ٢٨٧): «إسناده حسن». وقال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٢ / ٢٥٧): «إسناده جيد».

قلت: ولم أره في «تاريخ بغداد» كما سبق، لا باسم المتقدم ولا باسم محمد بن محمد بن مسلم، على أن الصواب الأول. فقد رأيت ابن بطة قال في «الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية» (ق ١١ / ٢): حدثنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن سلم المخمري قال: حدثنا حسن بن محمد بن الصباح الزعفراني ... فساق حديثا آخر. ولو فرضنا أن ابن سلم هذا ثقة، فلا يتم بذلك صحة الإسناد، لأن ابن بطة نفسه متكلم فيه من قبل حفظه، على علمه وفضله وصلاحه، فقد أورده الذهبي في «الضعفاء» وقال: «إمام في السنة، يهم ويغلط».

وقد بسط القول فيما قيل فيه من حيث الرواية العلامة المحقق عبد الرحمن اليماني في كتابه «التنكيل» ثم انتهى إلى القول بأنه «لا يحتج بما ينفرد بروايته»، وهذا هو الذي يقتضيه التحقيق العلمي مع نبذ التعصب، واتباع الحق، وعليه فالإسناد ضعيف، ويؤكد ضعفه عدم وروده في الأمهات الست والمسانيد وغيرها من الأصول المعتمدة وكتب الحديث المشهورة. وقد قال ابن الجوزي: «ما أحسن قول القائل: إذا رأيت الحديث يباين المعقول أو يخالف المنقول، أو يناقض الأصول فاعلم أنه موضوع. قال: ومعنى مناقضته للأصول أن يكون خارجا عن دواوين الإسلام من المسانيد والكتب المشهورة».

ولكن حقيقته غير مباح؛ فصورة القرد شبيهة بالآدمي، ولكنه ليس بآدمي؛ وهذا؛ لأن الجزاء من جنس العمل؛ ويدل لذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

٤ ـ ومنها: بيان قدرة الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾؛ فكانوا في لحظة قردة.

٥ ـ ومنها: إثبات القول لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

٦ ـ ومنها: أن الذين مُسِخُوا قردة من هذه القرية هم الذين اعتدوا في السبت؛ وأما الذين نَهَوا عن السوء فقد نجوا؛ وأما الذين سكتوا عن المعتدين ولم يشاركوهم فقد سكت الله عنهم؛ فنسكت عنهم.

٧ ـ ومنها: أن العقوبات فيها تنكيل لغير العامل؛ لقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾؛ ولهذا يقص الله علينا من نبأ المكذبين للرسل ما يكون لنا فيه عبرة، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

٨ ـ ومنها: أن الحدود الشرعية نكال للفاعل أن يعود مرة أخرى إلى هذا الذنب، ولغير الفاعل.

٩ ـ ومنها: أن الذين ينتفعون بمثل هذه المواعظ هم المتقون.

١٠ ـ ومنها: أن المواعظ قسمان: كونية، وشرعية؛ فالموعظة هنا كونية قدرية؛ لأن الله أحل بهم العقوبة التي تكون نكالًا لما بين يديها، وما خلفها، وموعظة للمتقين؛ وأما الشرعية فمثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]؛ والمواعظ الكونية أشد تأثيرًا لأصحاب القلوب القاسية؛ أما المواعظ الشرعية فهي أعظم تأثيرًا في قلوب العارفين بالله اللينة قلوبهم؛ لأن انتفاع المؤمن بالشرائع أعظم من انتفاعه بالمقدورات.

١١ـ ومن فوائد الآيتين: أن الذين ينتفعون بالمواعظ هم المتقون؛ وأما غير المتقي فإنه لا ينتفع لا بالمواعظ الكونية، ولا بالمواعظ الشرعية؛ قد ينتفع بالمواعظ الكونية اضطرارًا وإكراهًا؛ وقد لا ينتفع؛ وقد يقول: هذه الأشياء ظواهر كونية طبيعية عادية، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤]؛ وقد ينتفع، ويرجع إلى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

١٢ـ ومن فوائد الآيتين: أن من فوائد التقوى ـ وما أكثر فوائدها ـ: أن المتقي يتعظ بآيات الله سبحانه وتعالى الكونية، والشرعية.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٦٧:٧٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل إذ قال موسى لقومه، وإضافة «القوم» إليه لبيان أنه عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يقول لهم إلا ما فيه خير؛ لأن الإنسان سوف ينصح لقومه أكثر مما ينصح لغيرهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾: قالها في جواب ذكره الله سبحانه وتعالى في أثناء القصة:

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢]؛ فقد قُتل منهم نفس فتخاصموا، وتدافعوا: كل يدعي أن هؤلاء قتلوه؛ حتى كادت تثور الفتنة بينهم؛ ولا حاجة بنا إلى أن نعلل لماذا قُتل؛ أو لأي غرض؛ هذا ليس من الأمور التي تهمنا؛ لأن القرآن لم يتكلم بها؛ ولكن غاية ما يكون أن نأخذ عن بني إسرائيل ما لا يكون فيه قدح في القرآن، أو تكذيب له، فقالوا: لا حاجة إلى أن نتقاتل ويُذهب بعضنا بعضًا؛ نذهب إلى نبي الله موسى، ويخبرنا من الذي قتله؛ فذهبوا إليه، فقال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ صدَّر الأمر من الله؛ لم يقل: آمركم، ولا

قال: اذبحوا؛ بل قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾؛ ليكون أعظم وقعًا في نفوسهم، وأدعى إلى قبوله وامتثاله.

وقوله ﴿بَقَرَةً﴾: لم تعين بوصف؛ فلو ذبحوا أيَّ بقرة كانت لكانوا ممتثلين؛ ولكنهم تعنتوا، وتشددوا فشدد الله عليهم. كما سيأتي.

قوله تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾؛ ﴿هُزُوًا﴾ مصدر بمعنى اسم المفعول؛ أي: أتتخذنا مهزوءًا بنا؛ ويجوز أن تكون (هزوًا) على بابها؛ ويكون المعنى: أتتخذنا ذوي هُزْء؛ فحُذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه؛ و«الهزء» السخرية؛ وإنما قالوا ذلك لاستبعادهم أن يكون ذبح البقرة سببًا لزوال ما بينهم من المُدَارَأةِ؛ والتعبير بقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أبلغ من قول «أتستهزئ بنا»؛ لأن الأولى تفيد أنهم جُعلوا محل استهزاء ـ بخلاف الثانية فإنما تدل على حصول الاستهزاء ـ ولو بمرة واحدة.

فأجابهم نبي الله بقوله: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: أعتصم بالله أن أكون من أولي الجهل فأتخذ عباد الله هزوًا؛ والمراد بـ «الجهل» هنا: السفه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧] ـ أي: بسفاهة ـ ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾: سبق الكلام على نظيرها؛ ﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾: هذا الطلب ليس له وجه؛ لأن اللفظ بيِّنٌ: فالبقرة معلومة، والمطلق ليس مجملًا ـ يحتاج إلى بيان ـ لوضوح معناه؛ فإذا قيل مثلًا: «أكرم رجلًا»؛ فلا يحتاج أن تقول: «ما صفة هذا الرجل؟» إذا أكرمت أيَّ رجل حصل المقصود؛ فلو أنهم ذهبوا وذبحوا أيَّ بقرة، وامتثلوا ما أمرو به لانتهى الأمر؛ ولكنهم تعنتوا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ أي: موسى ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ﴾ أي: الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾: «البكر» معروف: التي لم تلد ولا قرعها الفحل، و«الفارض» تُعرف بمقابلها، فإذا كانت «البكر» هي التي لم يقرعها الفحل، فإن «الفارض» هي المُسِّنة الكبيرة؛ وهذا ـ أي: تفسير الكلمة، أو معرفة معنى الكلمة بمعرفة ما يقابلها ـ له نظير في القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]؛ فكلمة: ﴿ثُبَاتٍ﴾ هنا يتبين معناها: بما ذكر مقابلًا لها ـ وهو قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾؛ فيكون معناها: متفرقين أفرادًا.

قوله تعالى: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: وسط بين ذلك ـ أي: بين كونها فارضًا وبكرًا؛ وفيه إشكال على هذا: لأنه إذا كان المشار إليه اثنين وجب تثنية اسم الإشارة؛ واسم الإشارة هنا مفرد

مذكر؟ والجواب عنه أن يقال: ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بين ذلك المذكور من الفارض والبكر - أي: لا تكون هكذا ولا هكذا، ولكن عوان بين ذلك المذكور.

قوله: ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾؛ هذا الأمر من موسى؛ وليس من كلام الله عزَّ وجلَّ؛ فموسى يقول لبني إسرائيل: افعلوا ما تؤمرون به من ذبح بقرة لا فارض ولا بكر، ولا تتعنتوا فيشدد عليكم مرة ثانية؛ ولو أنهم امتثلوا، وذبحوا بقرة عوانًا بين ذلك لحصل المقصود؛ وكان عليهم أن يفعلوا - وإن لم يأمرهم نبيهم به؛ ولكنهم أهل عناد وتعنت؛ ولهذا أمرهم أمرًا ثانيًا؛ ومع ذلك قالوا: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾: كل هذا من باب التعنت والتشدد؛ و﴿مَا لَوْنُهَا﴾ يعني أيُّ شيء لونها - بيضاء؛ سوداء؛ شهباء...؟.

قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ أي: موسى: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ﴾ أي: الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾: شدد عليهم مرة أخرى في اللون:

أولًا: حيث قال تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ﴾، فخرج بهذا ما عدا الصفرة من الألوان - وهذا نوع تضييق.

ثانيًا: بكونها: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾؛ و «**الفاقع**» يعني الصافي؛ والمعنى: أنه ليس فيه ما يشوبه، ويخرجه عن الصفرة؛ وقيل: معنى ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ أي: شديد الصفرة، وهو كلما كان صافيًا كان أبيَنُ في كونه أصفر.

ثالثًا: بكونها: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ يعني: ليست صفرتها صفرة توجب الغم؛ أو صفرتها مستكرهة؛ بل هي صفرة تجلب السرور لمن نظر إليها.

فصار التضييق من ثلاثة أوجه: صفراء؛ والثاني: فاقع لونها؛ والثالث: تسر الناظرين.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾: هذا أيضًا طلب ثالث؛ يقولون: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ أي: من حيث العمل؛ ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ أي: اشتبهت علينا البقرة المطلوبة؛ وفي الحقيقة أنه ليس في هذا اشتباه؛ إذ ذُكر لهم أنها بقرة، وذكر لهم سنها؛ وذكر لهم لونها؛ فأين التشابه؟! لكن هذا من عنادهم وتعنتهم، وتباطئهم في تنفيذ أمر الله.

قولهم: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾: أكدوا الهداية هنا بمؤكدين؛ وهما: «إن»، واللام؛ ومؤكد ثالث؛ وهو الجملة الاسمية؛ وهي أبلغ من الجملة الفعلية، وأخذوا على أنفسهم أنهم سيهتدون؛ ولكنهم علَّقوا ذلك بمشيئة الله، قال بعض السلف: «**لو لم يقولوا: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لم يهتدوا إليها أبدًا**» - وهذا فيما إذا كان قصدهم تفويض الأمر إلى الله عزَّ وجلَّ؛ ويحتمل أن يكون قصدهم أنهم لو لم يهتدوا لاحتجوا بالمشيئة، وقالوا: «**إن الله لم يشأ أن نهتدي**»! وما هذا الاحتمال ببعيد عليهم.

فأجابهم على هذا: ﴿قَالَ﴾: أي: موسى ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ﴾ أي:الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾: هذا أيضًا تشديد زيادة على ما سبق؛ و﴿ذَلُولٌ﴾ على وزن فَعول؛ وهي المتذللة التي ذللت لصاحبها؛ و«والمذللة»: هي التي تثير الأرض للزرع؛ و﴿لَا تَسْقِي الحَرْثَ﴾ أي: لا يُسنَى عليها؛ فهي ليست سانية، ولا حارثة؛ و﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ أي: من العيوب؛ ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: ليس فيها لون يخالف لونها؛ مأخوذ من وشي الثوب؛ وهو تلوينه بألوان مختلفة، مثل عِدَة مأخوذة من الوعد؛ إذنْ هي صفراء ليس فيها سواد، ولا فيها بياض، ولا فيها أي لون آخر؛ وهذا كله من زيادة التشديد عليهم.

وبهذا التقرير نعرف أنه لا حاجة بنا إلى ما ذكره كثير من المفسرين من الإسرائيليات من أن هذه البقرة كانت عند رجل بارٍّ بأمه، وأنهم اشتروها منه بملء مَسكها ذهبًا، يعني: بملء جلدها ذهبًا؛ وهذا من الإسرائيليات التي لا تصدق، ولا تكذب، ولكن ظاهر القرآن هنا يدل على كذبها؛ إذ لو كان واقعًا لكان نقله من الأهمية بمكان لما فيه من الحث على برِّ الوالدين حتى نعتبر؛ فالصواب أن نقول في تفسير الآية ما قال الله عزَّ وجلَّ، ولا نتعرض للأمور التي ذكرها المفسرون هنا من الحكايات.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ ﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾ اسم زمان، يُشار به للوقت الحاضر؛ فمقتضى كلامهم أنه أولًا أتى بالباطل، وقد صدَّروا هذه القصة بقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾؛ يعني: الآن عرفنا أنك لست تستهزئ، وإنما أنت صادق؛ هذا هو المتبادر من الآية الكريمة، وليس بغريب على تعنتهم أن يقولوا مثل هذا القول؛ وقال بعض المفسرين اتقاءً لهذا المعنى البشع: إن المراد بقولهم: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالبيان التام ـ أي: الآن بينت لنا أوصافها، فجعلوا «الحق» هنا بمعنى البيان؛ ولكن الصواب أن «الحق» هنا ضد الهزء والباطل؛ يدل على ذلك أنهم صدروا هذه القصة بقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾؛ فبعد هذه المناقشات مع موسى، والسؤالات، وطلب الله عزَّ وجلَّ قالوا: الآن جئت بالحق، وعرفنا أنك لست مستهزئًا بنا؛ بل إنك جادٌّ فيما تقول.

قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ أي: بعد العثور عليها بأوصافها السابقة؛ ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي: ما قاربوا أن يفعلوا؛ وذلك بإيرادهم الطلب عن سنها، ولونها، وعملها، وهذا تباطؤ يبعدهم من الفعل؛ لكنهم فعلوا؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل إذ قتلتم نفسًا؛ ووجه الخطاب لمن كانوا في عهد النبي ﷺ مع أن الفعل كان ممن سبقهم؛ لأن الأمة الواحدة بمنزلة الجسد الواحد؛ وفعل أولها كفعل آخرها فيما يلحقهم من ذمٍّ.

قوله تعالى: ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا﴾ أي: تدافعتم؛ كل منكم يدافع عن نفسه التهمة، ويتهم الآخر، وكان قد قُتل منهم قتيل من إحدى القبيلتين؛ فادَّعت كل واحدة أن الأخرى هي قاتلته؛ وكاد

يكون بينهم فتنة؛ فأتوا إلى موسى، فقال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ..﴾ إلخ.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي: مظهر ما كنتم تخفونه من تعيين القاتل؛ وذلك بالآية العظيمة التي بينَّها في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾؛ القائل هو الله عزَّ وجلَّ؛ ولكن عن طريق الوحي إلى نبيه موسى ـ عليه الصلاة والسلام؛ وأضاف قول موسى إليه تبارك وتعالى؛ لأنه هو الآمر به، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦. ١٨]: فالمراد بقوله تعالى: ﴿قَرَأْنَٰهُ﴾ قرأه جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ فهنا قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ يعني: أن الله تعالى أمر نبيه موسى ﷺ، فقال لهم بأمر الله: ﴿ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي: اضربوا هذا القتيل ببعض هذه البقرة؛ ولم يعين الله تعالى البعض: أهو الساق؛ أو الفخذ؛ أو الرقبة؛ أو الرأس، أو أيُّ جزء من أجزائها؟ فليس لنا أن نعينه بجزء منها.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: مثل إحياء هذا القتيل يحيي الله عزَّ وجلَّ الموتى بكلمة واحدة، كما قال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يظهرها لكم حتى تروها؛ والمراد بـ «الآيات» هنا الآيات الكونية؛ لأنها إحياء ميت بضربه بجزء من أجزاء هذه البقرة؛ ويحتمل أن يكون المراد آياته الشرعية أيضًا؛ لأن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمرهم بذلك؛ فضربوا الميت ببعض هذه البقرة؛ فصار ذلك مصداقًا لقول موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ «لعل» للتعليل؛ أي: لأجل أن تعقلوا عن الله ـ تبارك وتعالى ـ آياته، وتفهموها؛ والعقل هو ما يحجز الإنسان عن فعل ما لا ينبغي؛ وهو خلاف الذكاء؛ فالذكاء هو سرعة البديهة والفهم؛ وقد يكون الإنسان ذكيًّا، ولكنه ليس بعاقل.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيات:** تعظيم الله عزَّ وجلَّ، حيث أُسنِد الأمر إليه بصيغة الغائب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

٢ ـ **منها:** أنه ينبغي للإنسان أن يسلك الأسباب التي تؤدي إلى قبول الأمر أو الخبر؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾.

٣ ـ **ومنها:** استهتار بني إسرائيل، حيث قالوا لنبيهم عليه الصلاة والسلام: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ وقد أخبرهم أن الله تعالى أمرهم أن يذبحوا بقرة؛ فلم يحملوا هذا محمل الجدِّ مع أن الواجب أن يحملوا هذا محمل الجدِّ؛ لأنه أمر من الله عزَّ وجلَّ.

٤ ـ **ومنها:** أن الاستهزاء بالناس من الجهل وهو الحمق والسفه؛ لقول موسى عليه الصلاة

والسلام: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

٥ ـ ومنها: أن جميع الخلق محتاجون إلى الله تعالى، وإلى الاعتصام به عزَّ وجلَّ؛ فإن موسى ﷺ كان من أُولي العزم من الرسل؛ ومع ذلك فهو محتاج إلى ربه تبارك وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾؛ والاستعاذة لا تكون إلا بالله عزَّ وجلَّ؛ وقد تكون بالمخلوق فيما يقدر عليه، مثل قوله ﷺ: «فَمَنْ وَجَدَ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ»[(١)].

٦ ـ ومنها: استكبار بني إسرائيل، حيث قالوا لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾؛ فأمروه أمرًا، ثم أضافوا ربوبية الله عزَّ وجلَّ إلى موسى، كأنهم متبرئون من ذلك؛ فلم يقولوا: «ادع ربنا» أو «ادع الله»؛ ومما يدل على استكبارهم كونهم طلبوا من موسى عليه الصلاة والسلام أن يبين لهم ما هذه البقرة، مع أن البقرة معروفة؛ وهي عند الإطلاق تشمل أيَّ واحدة.

٧ ـ ومنها: تأكيد الأمر على بني إسرائيل أن يفعلوه؛ لقوله: ﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾؛ ومع ذلك لم يمتثلوا؛ بل تعنتوا وطلبوا شيئًا آخر: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَا﴾؛ فسألوه عن اللون مع أن أيَّ لون يمكن أن يكون في البقرة لا يمنع من إجزائها.

٨ ـ ومنها: بيان ما يدل أيضًا على تعنتهم؛ وذلك أنهم طلبوا بيان هل البقرة عاملة أو غير عاملة؟.

٩ ـ ومنها: أن استعمال البقر في الحرث والسقي كان قديمًا معروفًا بين الأمم، ولا يزال إلى وقتنا هذا قبل أن تظهر الآلات الحديدية.

١٠ ـ ومنها: تشديد الله عليهم، حيث أمرهم بذبح بقرة موصوفة بهذه الصفات التي يعز وجودها في بقرة واحدة؛ وذلك بأن تكون متوسطة في السن لا فارضًا ولا بكرًا؛ وأن تكون صفراء فاقعًا لونها تَسرُّ الناظرين؛ وألا تكون ذلولًا تثير الأرض وتسقي الحرث؛ وأن تكون مسلَّمة ليس فيها شيء من العيوب وألا يخالط لونها لون آخر؛ لقوله: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾.

١١ ـ ومنها: أن من شدد على نفسه شدد الله عليه ـ كما حصل لهؤلاء؛ فإنهم لو امتثلوا أول ما أُمِروا فذبحوا أيَّ بقرة لكفاهم؛ ولكنهم شددوا وتعنتوا، فشدد الله عليهم؛ على أنه يمكن أن يكون تعنتهم هذا للتباطؤ في تنفيذ الأمر.

١٢ ـ ومنها: أن بني إسرائيل أرادوا أن يتقهقروا عن تنفيذ أمر الله عزَّ وجلَّ على درجات؛ الدرجة الأولى: ما سبق من قولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗا﴾؛ الدرجة الثانية: قولهم: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾، الدرجة الثالثة: قولهم: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَا﴾؛ الدرجة الرابعة: قولهم: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ مرة أخرى.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٠٦)، ومسلم (٢٨٨٦).

١٣ ـ ومنها: استهتار بني إسرائيل؛ حيث قالوا: ﴿ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ فكأنهم يقولون: الآن رضينا بوصف هذه البقرة، ثم قاموا بذبحها على مضض؛ وكل هذا يدل على استهتارهم بأوامر الله عزَّ وجلَّ.

١٤ ـ ومنها: أن الإنسان إذا لم يقبل هدى الله عزَّ وجلَّ من أول مرة فإنه يوشك أن يشدد الله عليه؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ**»[1].

١٥ ـ ومنها: تذكير بني إسرائيل بهذه النعمة التي أنعم الله بها عليهم ببيان الأمر الواقع حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم.

١٦ ـ ومنها: تأخير ذكر السبب بعد القصة، والمبادرة بذكر النعمة قبل بيان سببها.

١٧ ـ ومنها: أن قول الرسول قول لمرسله إذا كان بأمره؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾.

١٨ ـ منها: أن البعض الذي ضرب به هذا القتيل من البقرة غير معلوم؛ لقوله تعالى: ﴿بِبَعْضِهَا﴾؛ فقد أبهمه الله؛ ومحاولة بعض المفسرين أن يعينوه محاولة ليس لها داع؛ لأن المقصود الآية.

١٩ ـ ومنها: أنه ينبغي لطالب العلم أن يعتني بمعنى القصة، وغرضها دون من وقعت عليه؛ لقوله تعالى: ﴿بِبَعْضِهَا﴾؛ ولم يعين لهم ذلك توسعة عليهم؛ ليحصل المقصود بأيِّ جزء منها؛ ولهذا نرى أنه من التكلف ما يفعله بعض الناس إذا سمع حديثًا أنه جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: «**يا رسول الله..**» كذا وكذا؛ تجد بعض الناس يتعب، ويتكلف في تعيين هذا الرجل؛ وهذا ليس بلازم؛ المهم معنى القصة وموضوعها؛ أما أن تعرف مَنْ هذا الرجل؟ من هذا الأعرابي؟ ما هذه الناقة مثلًا؟ ما هذا البعير؟ فليس بلازم؛ إذ إن المقصود في الأمور معانيها وأغراضها، وما توصل إليه؛ فلا يضر الإبهام ـ اللهم إلا أن يتوقف فهم المعنى على التعيين.

٢٠ ـ ومن فوائد الآيات: أن المبهم في أمور متعددة أيسر على المكلف من المعين؛ وذلك إذا كانوا قد أُمِرُوا أن يضربوه ببعضها فقط؛ فإذا قيل لك: «**افعل بعض هذه الأشياء**» يكون أسهل مما إذا قيل لك: «**افعل هذا الشيء بعينه**»؛ فيكون في هذا توسعة على العباد إذا خُيِّروا في أمور متعددة ـ والله أعلم ـ.

٢١ ـ ومنها: أن هذه الآية من آيات الله عزَّ وجلَّ وهي أن تكون البقرة سببًا لحياة هذا القتيل؛ إذ لا رابطة في المعقول بين أن تُذبح البقرة، ويضرب القتيل ببعضها، فيحيى.

٢٢ ـ ومنها: أن بيان الأمور الخفية التي يحصل فيها الاختلاف والنِّزاع من نعمة الله عزَّ وجلَّ؛

---

(١) رواه البخاري (٣٩)، والنسائي (٥٠٣٤)، والنسائي في «الكبرى» (١١٧٦٥).

يعني مثلًا إذا اختلفنا في أمور، وكاد الأمر يتفاقم، ويصل إلى الفتنة، ثم أظهر الله ما يبينه فإن هذا من نعمة الله سبحانه وتعالى علينا؛ لأنه يزيل بذلك هذا الخلاف وهذا النِّزاع.

٢٣ - ومنها: أن الله سبحانه وتعالى يُخرج ما كان يكتمه أهل الباطل ويبينه للناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾؛ واذكروا قول الله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]

٢٤ - ومنها: التحذير من أن يكتم الإنسان شيئًا لا يرضاه الله عزَّ وجلَّ؛ فإنه مهما يكتم الإنسان شيئًا مما لا يُرضي الله عزَّ وجلَّ فإن الله سوف يطلع خلقه عليه - إلا أن يعفو الله عنه -.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ أي: صلبت، وتحجرت؛ ﴿مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعد أن مَنَّ الله عليكم بما حصل من المدارأة في القتيل حتى تبين.

قوله تعالى: ﴿فَهِيَ﴾ أي: قلوبكم ﴿كَالْحِجَارَةِ﴾ أي: مثلها؛ ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي: من الحجارة؛ لأن الحجارة أقسى شيء - حتى إنَّها أقسى من الحديد؛ إذ إن الحديد يَلينُ عند النار، والحجارة تتفتت ولا تلين؛ و﴿أَوْ﴾ هنا ليست للشك؛ لأن الله سبحانه وتعالى عالم بحالها؛ لكن اختلف العلماء - رحمهم الله - هل هي بمعنى «بل»، فتكون للإضراب؛ أو إنها لتحقيق ما سبق - أي: أنها إن لم تكن أشد من الحجارة فهي مثلها؟ في هذا قولان لأهل العلم - رحمهم الله؛ وهي كقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]: فمن العلماء من قال: إن ﴿أَوْ﴾ بمعنى «بل» - أي: بل يزيدون على مائة ألف؛ ومنهم من قال: إنها لتحقيق ما سبق - أي: إن لم يزيدوا على مائة ألف فإنهم لن ينقصوا؛ والله أعلم بما أراد في كتابه.

ثم بيَّن الله عزَّ وجلَّ أن الحجارة فيها خير بخلاف قلوب هؤلاء فإنه لا خير فيها؛ فقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ يعني: إن بعض الحجارة تتفجر منها الأنهار - أي: أنهار الماء التي يشرب الناس منها، ويسقون بها زروعهم، ومواشيهم.

وقوله تعالى: ﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ﴾: ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل نصب اسم ﴿إِنَّ﴾؛ واللام للتوكيد؛

أي: لَلذِي يتفجر منه الأنهار.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾: وهي دون الأول؛ الأول يتفجر منها الأنهار؛ أما هذه فإنها تتشقق، ويخرج منها الماء كالذي يحصل في أحجار الآبار، وما أشبهها.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، ولما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، قال الله سبحانه وتعالى له: ﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقوله تعالى: ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾، ﴿مِنْ﴾ هنا سببية؛ و﴿خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: خوفهم مع العلم بعظمته.

قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: فنفى سبحانه وتعالى أن يكون غافلًا عما يعملون؛ وذلك لكمال علمه، وإحاطته تبارك وتعالى.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** لُؤم بني إسرائيل الذين جاءتهم هذه النعم ومع ذلك فهم لم يلينوا للحق؛ بل قست قلوبهم على ظهور هذه النعم.

٢ - **ومنها:** تشبيه المعقول بالمحسوس في قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾؛ لأن الحجارة أمر محسوس؛ والقلب قسوته أمر معقول؛ إذ إنه ليس المعنى أن القلب الذي هو المضغة يقسو؛ القلب هو هو؛ لكن المراد: أنه يقسو قسوة معنوية بإعراضه عن الحق، واستكباره عليه؛ فهو أمر معنوي شُبِهَ بالأمر الحسي؛ وهذا من بلاغة القرآن تشبيه المعقول بالمحسوس حتى يتبين.

٣ - **ومنها:** أن الحجارة أقسى شيء يضرب به المثل.

٤ - **ومنها:** بيان قدرة الله سبحانه وتعالى، حيث جعل هذه الحجارة الصماء تتفجر منها الأنهار، وقد كان موسى- عليه الصلاة والسلام - يضرب بعصاه الحجر، فينبجس ويتفجر عيونًا بقدرة الله تبارك وتعالى.

٥ - **ومنها:** أن الحجارة خير من قلوب هؤلاء بأن فيها خيرًا؛ فإن من الحجارة ما يتفجر منه الأنهار؛ ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء؛ ومنها ما يهبط من خشية الله؛ وهذه كلها خير، وليس في قلوب هؤلاء خير.

٦ - **ومنها:** أن الجمادات تعرف الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾؛ وهذا أمر معلوم من آيات أخرى، كقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١]، وقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا

قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]: ففهمتا الأمر، وانقادتا.

٧ ـ ومن فوائد الآية: عظمة الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾؛ والخشية هي الخوف المقرون بالعلم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَـٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]؛ فمن علم عظمة الله سبحانه وتعالى فلا بد أن يخشاه.

٨ ـ ومنها: سعة علم الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ وهذه الصفة من صفات الله سبحانه وتعالى السلبية؛ والصفات السلبية هي: التي ينفيها الله سبحانه وتعالى عن نفسه. وتتضمن أمرين هما:

نفي هذه الصفة؛ وإثبات كمال ضدها.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ﴾؛ الهمزة للاستفهام؛ والمراد به الاستبعاد، والتيئيس ـ أي: تيئيس المسلمين من أن يؤمن هؤلاء اليهود لهم؛ والفاء عاطفة على مقدر بعد الهمزة مناسب للمقام؛ و«**الطمع**» معناه: الرجاء المقرون بالرغبة الأكيدة؛ يعني: أنتم ترجون مع رغبة؛ لأن الذي يرجو الشيء مع الرغبة الأكيدة فيه يقال: طمع فيه؛ و«**الإيمان**» هنا بمعنى التصديق أي: أن يُصَدِّقوا لكم؛ ويحتمل أن يكون بمعنى الانقياد، والاستسلام لكم؛ وهذا أمر بعيد؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ..﴾: الواو هنا للحال؛ و﴿وَقَدۡ﴾ للتحقيق؛ فالجملة في محل نصب وهي حال، حالًا من الواو في ﴿يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ﴾ يعني: والحال أن فريقًا منهم يسمعون كلام الله؛ و«**الفريق**» بمعنى: الطائفة؛ و﴿مِّنۡهُمۡ﴾ أي: من بني إسرائيل.

قوله تعالى: ﴿يَسۡمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾: ذكر المفسرون فيه قولين:

القول الأول: أن المراد بذلك التوراة ـ يسمعونها ثم يحرفونها ـ أي: يغيرونها؛ ومنه قولهم: حَرَفْت الدابة ـ يعني: غيرت اتجاهها؛ ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي: من بعد ما فهموها، وعرفوا معناها، ولم تشكل عليهم؛ ومن ذلك تحريفهم إياها في صفة النبي ﷺ، ومبعثه، وقولهم: إنه الرسول المنتظر. وليس هذا الرسول.

والقول الثاني: أن المراد بذلك الذين أسمعهم الله كلامه سبحانه وتعالى لموسى عليه

السلام؛ وهم الذين اختارهم موسى ـ وهم سبعون رجلًا ـ فأسمعهم الله تعالى كلامه لموسى، ولكنهم قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾، ثم حرَّفوا ما سمعوه من كلام الله سبحانه وتعالى لموسى.

وقد بحثت في كتب التفسير التي لَديَّ فلم أجد احتمالًا ثالثًا ـ وهو أن المراد بـ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ القرآن، وأنهم يسمعونه ثم يحرفونه؛ لأن القرآن كلام الله؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] أي حتى يسمع القرآن؛ فإن كان هذا الاحتمال صحيحًا فهو أقرب من القولين السابقين ـ والله أعلم بمراده.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعلمون أنهم يحرفون الكلم أي: كلام الله عزَّ وجلَّ، ويعلمون أن التحريف محرم؛ فتعدوا الحدود وحرَّفوا كلام الله عزَّ وجلَّ، وارتكبوا الإثم عن بصيرة.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: أن من كان لا يؤمن بما هو أظهر فإنه يَبْعُدُ أن يؤمن بما هو أخفى؛ لأن من يسمع كلام الله ثم يحرفه، أَبْعَدُ قبولًا للحق ممن لم يسمعه.

٢ ـ ومنها: أن الله تعالى يسلي رسوله ﷺ بما يذهب عنه الأسى والحزن؛ حيث بين له حال هؤلاء، وأنهم قوم عتاة لا مطمع في إيمانهم.

٣ ـ ومنها: إثبات أن الله يتكلم، وأن كلامه بصوت مسموع؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾؛ وكلام الله تبارك وتعالى صفة حقيقية تتضمن اللفظ والمعنى؛ فهو سبحانه وتعالى يتكلم بحروف وأصوات مسموعة؛ وتفصيل ذلك والرد على من خالفه مذكور في كتب العقائد.

٤ ـ ومنها: أن كلام الله سبحانه وتعالى من صفاته الفعلية باعتبار آحاده؛ وأما باعتبار أصل الصفة فهو صفة ذاتية؛ والفرق بين الصفات الذاتية والفعلية، أن الصفات الذاتية: لازمة لذات الله أزلًا، وأبدًا ـ ومعنى «أزلًا» أي: فيما مضى؛ و«أبدًا» أي: فيما يستقبل ـ مثل الحياة والعلم والقدرة والقوة والعزة، والسمع والبصر إلى غير ذلك، والصفات الفعلية: هي التي تتعلق بمشيئته، فتحْدُث إذا شاء، كالاستواء على العرش، والنُّزول إلى سماء الدنيا، والمجيء يوم القيامة للفصل بين العباد، والفرح، والرضا، والغضب ـ عند وجود أسبابها.

٥ ـ ومن فوائد الآية: الرد على الأشعرية، وغيرهم ممن يرون أن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه؛ وأن الحروف والأصوات عبارة عن كلام الله، وليست كلام الله؛ بل خلقها الله ليعبر بها عما في نفسه؛ و الرد عليهم مفصلًا في كتب العقائد.

٦ ـ ومنها: أن هؤلاء اليهود قد حرَّفوا كلام الله، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾.

٧ ـ ومنها: بيان قبح تحريف هؤلاء اليهود؛ لأنهم حرَّفوا ما عقلوه؛ والتحريف بعد عقل المعنى

أعظم؛ لأن الإنسان الجاهل قد يعذر بجهله؛ لكن الإنسان العالم الذي عقل الشيء يكون عمله أقبح؛ لأنه تجرأ على المعصية مع علمه بها- فيكون أعظم.

٨ ـ ومنها: قبح تحريف كلام الله، وأن ذلك من صفات اليهود؛ ومن هذه الأمة من ارتكبه، لكن القرآن محفوظ؛ فلا يمكن وقوع التحريف اللفظي فيه؛ لأنه يعلمه كل أحد؛ وأما التحريف المعنوي فواقع، لكن يقيض الله عزَّ وجلَّ من الأئمة، وأتباعهم من يبينه، ويكشف عوار فاعله.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٦:٧٧]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ الضمير يعود على اليهود؛ أي: إذا قابلوا، واجتمعوا بـ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بالله ورسوله محمد ﷺ ﴿قَالُوا﴾ أي: بألسنتهم: ﴿آمَنَّا﴾ أي: دخلنا في الإيمان كإيمانكم، وآمنا بالرسول محمد ﷺ؛ هذا إذا لقوا المؤمنين؛ ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي: إذا أوى بعضهم إلى بعض وانفرد به قال بعضهم لبعض: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ﴾: الاستفهام هنا للإنكار والتعجب؛ والضمير الهاء يعود على المؤمنين بالرسول ﷺ؛ يعني يقول اليهود بعضهم لبعض إذا اجتمعوا: كيف تحدثون المؤمنين بالله ورسوله ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: من العلم بصحة رسالة النبي ﷺ ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾: اللام للعاقبة ـ أي: أن ما حدثتموهم به ستكون عاقبته أن يحاجوكم به عند ربكم.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: الهمزة للاستفهام؛ والمراد به التوبيخ؛ يعني: أين عقولكم؟! أنتم إذا حدثتموهم بهذا، وقلتم: إن هذا الذي بُعث حق، وأنه نبي يحاجونكم به عند الله يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ الفاء واقعة بعد همزة الاستفهام؛ وهذا يكثر في القرآن: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾؛ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾؛ ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾؛ وأشباه ذلك؛ يعني أنه يأتي حرف العطف بعد همزة الاستفهام؛ وهمزة الاستفهام لها الصدارة في جملتها؛ ولا صدارة مع وجود العاطف؛ لأن الفاء عاطفة؛ فقال بعض النحويين: إن بين الهمزة وحرف العطف جملة محذوفة عُطفت عليها الجملة التي بعد حرف العطف، وهذه الجملة تقدر بما يناسب المقام؛ وقال آخرون: بل إن الهمزة مقدمة؛ وإن حرف العطف هو الذي تأخر- يعني:

زُحلق حرف العطف عن مكانه، وجعلت الهمزة مكانه؛ وعلى هذا فيكون التقدير: فألا تعقلون؛ أما على الأول فيكون التقدير: أجهلتم فلا تعقلون؛ أو: أسفهتم فلا تعقلون.. المهم يقدر شيء مناسب حسب السياق؛ فالقول الأول أدق؛ والثانية أسهل؛ لأن الثاني لا يحتاج عناءً وتكلفًا فيما تقدره بين الهمزة والعاطف.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾: الاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار عليهم لكونهم نزَّلوا أنفسهم منْزلة الجاهل؛ ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾: يشمل ما يسره الإنسان في نفسه، وما يسره لقومه وأصحابه الخاصين به؛ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: ما يظهرون لعامة الناس؛ فالله سبحانه وتعالى يعلم هذا وهذا؛ ولا يخفى عليه شيء؛ والمعنى: كيف يؤنب بعضهم بعضًا بهذا الأمر وهم لو جاءوا إلى النبي ﷺ ومن معه، وأنكروا نبوَّته، ولم يؤمنوا فإن الله تعالى لا يخفى عليه الأمر؟! فسواء أقرُّوا، أو لم يُقِرُّوا عند الصحابة أن الرسول حق، فإن الله تعالى عالم بهم.

الفوائد:

١ - **ومن فوائد الآية:** أن في اليهود منافقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا..﴾ إلخ.

٢ - **ومنها:** أن من سجايا اليهود وطبائعهم الغدر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ..﴾ إلخ؛ لأن هذا نوع من الغدر بالمؤمنين.

٣- منها: أن بعضهم يلوم بعضًا على بيان الحقيقة حينما يرجعون إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾.

٤ - **ومنها:** أن العلم من الفتح؛ لقولهم: ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ ولا شك أن العلم فتح يفتح الله به على المرء من أنواع العلوم والمعارف ما ينير به قلبه.

٥ - **ومنها:** أن المؤمن والكافر يتحاجَّان عند الله يوم القيامة؛ لقولهم: ﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾؛ ويؤيده قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦].

٦ - **ومنها:** سفه اليهود الذين يتخذون من صنيعهم سلاحًا عليهم؛ لقولهم: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

٧ - **ومنها:** الثناء على العقل والحكمة؛ لأن قولهم: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ توبيخ لهم على هذا الفعل؛ وأنه ينبغي للإنسان أن يكون عاقلًا؛ ما يخطو خطوة إلا وقد عرف أين يضع قدمه؛ ولا يتكلم إلا وينظر ما النتيجة من الكلام؛ ولا يفعل إلا وينظر ما النتيجة من الفعل: قال النبي ﷺ «مَنْ كَانَ يُؤمِنُ باللهِ واليوم الآخِرِ فَلْيَقُلْ خيرًا، أو لِيَصمُتْ»[1].

---

(١) رواه البخاري (٥٦٧٢)، ومسلم (٤٧).

٨ ـ ومنها: أن كفر اليهود بالرسول محمد ﷺ عن علم؛ ولهذا صاروا مغضوبًا عليهم.

٩ ـ ومنها: توبيخ اليهود على التحريف؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

١٠ ـ ومنها: إثبات عموم علم الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾

١١ ـ ومنها: الوعيد على مخالفة أمر الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ ..﴾ الآية؛ لأن المقصود بذلك تهديد هؤلاء، وتحذيرهم.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:٧٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: من اليهود؛ ﴿أُمِّيُّونَ﴾ أي: بمنْزلة الأميين؛ والأُمّي: من لا يعرف أن يقرأ، ولا أن يكتب؛ ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أي: إلا قراءة بدون فهم للمعنى؛ ومن لم يفهم المعنى فهو في حكم من لا يعرف القراءة؛ لأنه لا يستفيد شيئًا بقراءته؛ ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: ما هم إلا يظنون؛ لأن الإنسان الذي لا يعرف إلا اللفظ ليس عنده علم.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: أن الأُمّية يوصف بها من لا يقرأ، ومن يقرأ ولا يفهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾.

٢ ـ ومنها: ذم من لا يعتني بمعرفة معاني كتاب الله عزَّ وجلَّ.

٣ ـ ومنها: أن من لا يفهم المعنى فإنه لا يتكلم إلا بالظن؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾؛ العامي يقرأ القرآن من أوله إلى آخره، لكن لا يفهم معناه؛ فإذا تكلم في حكم من أحكام الله الشرعية التي دل عليها الكتاب فإنما كلامه عن ظن؛ لأنه في الحقيقة لا يعلم؛ ولا يمكن أن يعلم إلا إذا فهم المعنى.

٤ ـ ومنها: ذم الحكم بالظن، وأنه من صفات اليهود؛ وهذا موجود كثيرًا عند بعض الناس الذين يحبون أن يقال عنهم: «**إنهم علماء**»؛ تجده يفتي بدون علم، وربما أفتى بما يخالف القرآن والسنة وهو لا يعلم.

٥ ـ ومنها: أن المقلِّد ليس بعالم؛ لأنه لا يفهم المعنى؛ وقد قال ابن عبد البر: «**إن العلماء أجمعوا أن**

المقلد لا يعد في العلماء»؛ وهو صحيح: المقلد ليس بعالم؛ غاية ما هنالك أنه نسخة من كتاب؛ بل الكتاب أضبط منه؛ لأنه قد ينسى؛ وليس معنى ذلك أننا نذم التقليد مطلقًا؛ التقليد في موضعه هو الواجب؛ لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ..﴾؛ «ويل» كلمة وعيد؛ يتوعد الله تعالى من اتصفوا بهذه الصفة؛ وهي مبتدأ؛ وجاز الابتداء بها وهي نكرة؛ لأنها تفيد الوعيد؛ والوعيد معنًى خاص، فزال به إجمال النكرة المطلقة؛ و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ بمعنى: المكتوب؛ والمراد به: التوراة؛ ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾: كلمة مؤكدة لقوله تعالى: ﴿يَكْتُبُونَ﴾؛ أو مبينة للواقع؛ لأنه لا كتابة إلا باليد غالبًا؛ والمعنى: أنهم يكتبونه بأيديهم، فيتحققون أنه ليس الكتاب المنَزَّل؛ فهم يباشرون هذه الجناية العظيمة؛ ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ﴾ أي: بعدما كتبوه بأيديهم، وعرفوا أنه من صُنْع أيديهم؛ ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: نزل من عند الله؛ ﴿لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ﴾ أي: ليأخذوا به؛ واللام للتعليل؛ فإذا دخلت اللام على الفعل المضارع تكون للتعليل كما هي هنا؛ وتكون للعاقبة، مثل: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]؛ وتكون زائدة، مثل: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ٨] أي: يريدون أن يطفئوا؛ لأن الفعل «يريد» يتعدى بنفسه بدون حرف الجرّ؛ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: عوضًا قليلًا؛ وهذا العوض القليل هو الرئاسة، والجاه والمال، وغير ذلك من أمور الدنيا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]؛ فمهما حصل في الدنيا من رئاسة، وجاه، ومال، وولد، فهو قليل بالنسبة للآخرة؛ كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل من حديث سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال: «**لَمَوْضِعُ سَوطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا**»[1]: الدنيا من أولها إلى آخرها برئاساتها، وأموالها، وبنيها، وقصورها، وكل ما فيها، وموضع السوط متر تقريبًا؛ إذنْ متاع الدنيا قليل.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٧٨)، والترمذي (١٦٤٨)، وابن ماجه (٤٣٣٠)، أحمد في «مسنده» (٢٢٨٤٩)، والدارمي في «سننه» (٢٨٢٠).

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾: هذا وعيد على فعلهم؛ ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾: هذا وعيد على كسبهم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** الوعيد على الذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون: هذا من عند الله؛ وهم كاذبون.

٢ - **ومنها:** أنهم يفعلون ذلك من أجل الرئاسة، والمال، والجاه؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ وقد ورد الوعيد على من طلب علمًا يبتغى به وجه الله لينال عرضًا من الدنيا.

٣ - **ومنها:** أن الدنيا كلها مهما بلغت فهي قليل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧].

٤ - **ومنها:** أن الجزاء بحسب العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾

٥ - **ومنها:** إثبات العلل، والأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ فإن هذا بيان لعلة الوعيد؛ وهذه غير الفائدة السابقة؛ لأن الفائدة السابقة جزاؤهم بقدر ما كتبوا؛ وهذه بيان السبب.

٦ - **ومنها:** أن عقوبة القول على الله بغير علم تشمل الفعل، وما ينتج عنه من كسب محرم؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾؛ فما نتج عن المحرم من الكسب فإنه يأثم به الإنسان؛ مثلًا: إنسان عمل عملًا محرمًا - كالغش - فإنه آثم بالغش؛ وهذا الكسب الذي حصل به هو أيضًا آثم به.

❀ ❀ ❀

❀ قال الله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٠-٨٢]

❀ التفسير ❀

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: اليهود: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ أي: لن تصيبنا نار الآخرة

﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ يعنون أنهم يبقون فيها أيامًا معدودة، ثم يخلفهم فيها النبي ﷺ، والمؤمنون؛ فنحن نقول: إقراركم على أنفسكم بدخول النار مقبول؛ ودعواكم الخروج من النار دعوى لا بينة لها؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى متحديًا إياهم: ﴿قُلۡ﴾ - الخطاب للنبي ﷺ -: ﴿أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا﴾ أي: أأخذتم عند الله عهدًا أن لا تمسكم النار إلا أيامًا معدودة، ثم يخلفكم فيها الرسول والمؤمنون؟! والاستفهام هنا للإنكار؛ و«**العهد**»: الميثاق والالتزام؛ ﴿فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ﴾ أي: إن اتخذتم عند الله عهدًا فلن يخلفه؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد.

قوله تعالى: ﴿أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، قيل: إنَّ ﴿أَمۡ﴾ متصلة؛ وقيل: إنها منقطعة؛ والفرق بينهما من وجهين:

الأول: أن المنقطعة تكون بمعنى «بل»؛

والثاني: أن ما بعدها منقطع عما قبلها؛ وأما المتصلة: فتكون بمعنى «أو»، وما بعدها معادل لما قبلها؛ مثال المتصلة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ [البقرة: ٦]؛ ومثال المنقطعة: قوله تعالى: ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور: ٣٢] أي: بل هم قوم طاغون؛ أما في هذه الآية التي نحن بصددها فيحتمل أنها منقطعة؛ وعلى هذا فيكون معناها: بل تقولون على الله ما لا تعلمون؛ ويحتمل أنها متصلة، فيكون معناها: هل أنتم اتخذتم عند الله عهدًا فادعيتموه، أو أنكم تقولون على الله ما لا تعلمون؟! وعلى كلا الاحتمالين فهم يقولون على الله ما لا يعلمون؛ إذنْ إذا لم يكن عندهم من الله عهد، وقد قالوا على الله ما لا يعلمون، فتكون دعواهم هذه باطلة.

قوله تعالى مبينًا من الذي تمسَّه النار، ومن الذي لا تمَسه: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾: قال المفسرون: ﴿بَلَىٰ﴾ هنا بمعنى «بل»؛ فهي للإضراب الانتقالي؛ ويحتمل أن تكون للإضراب الإبطالي. أي لإبطال قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ و﴿مَن﴾ يحتمل أن تكون اسم شرط؛ وجوابه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ ويحتمل أن تكون موصولة بمعنى: الذي؛ وهي مبتدأ، وخبره: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، وقرن بالفاء لمشابهة الاسم الموصول لاسم الشرط في العموم؛ والاحتمال الأول أَوْلَى؛ و«**الكسب**» معناها: حصول الشيء نتيجة لعمل؛ و﴿سَيِّئَةً﴾ من ساء يسوء؛ والمراد: الأعمال السيئة.

قوله تعالى: ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾: «**الإحاطة**» في اللغة: الشمول؛ و﴿وَأَحَٰطَتۡ﴾ أي: صارت كالحائط عليه، وكالسور - أي: اكتنفته من كل جانب؛ وفي قوله تعالى: ﴿خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ قراءتان: الإفراد، والجمع؛ والإفراد بمعنى الجمع؛ لأنه مفرد مضاف فيعم؛ لكن الجمع يفيد الإشارة إلى أنواع الخطايا.

وقوله تعالى: ﴿سَيِّئَةً﴾، و﴿خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾: قيل: بمعنى واحد، وأن السيئة امتدت حتى أحاطت به؛ وقيل: إن المراد بالسيئة: الكفر؛ والخطيئة: ما دونه؛ وهذا هو المعروف عند المفسرين.

قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: المشار إليه ما سبق؛ و﴿أَصْحَٰبُ﴾ جمع صاحب ـ أي أهل النار ـ؛ وسموا أصحابًا لها لملازمتهم إياها ـ والعياذ بالله؛ و﴿خَٰلِدُونَ﴾ أي: ماكثون؛ فالخلود بمعنى المُكْثِ والدوام؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: مبتدأ؛ خبره: قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ لما ذكر الله عزَّ وجلَّ مصير الكافرين ذكر بعده مصير المؤمنين ليكون العبد سائرًا إلى الله سبحانه وتعالى بين الخوف والرجاء؛ وقد وصف الله تعالى القرآن بأنه مثاني ـ أي تُثَنَّى فيه المعاني والأحوال.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: صدقوا بما يجب الإيمان به مع القبول والإذعان؛ فلا يكون الإيمان مجرد تصديق؛ بل لا بد من قبول للشيء، واعتراف به، ثم إذعان، وتسليم لما يقتضيه ذلك الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: عملوا الأعمال الصالحات؛ والعمل يصدق على القول والفعل؛ وليس العمل مقابل القول؛ بل الذي يقابل القول: الفعل؛ وإلا فالقول والفعل كلاهما عمل؛ لأن القول عمل اللسان، والفعل عمل الجوارح.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: أهلها الملازمون لها؛ لأن الصحبة ملازمة؛ و﴿ٱلْجَنَّةِ﴾: الدار التي أعدها الله تعالى للمتقين؛ وفيها كما قال الرسول ﷺ: «مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(1)، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

قوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ سبق الكلام عليها.

الفوائد:

١ـ من فوائد الآيات: أن اليهود يِقُرُّون بالآخرة، وأن هناك نارًا، لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾؛ لكن هذا الإقرار لا ينفعهم؛ لأنهم كذَّبوا محمدًا ﷺ؛ وعلى هذا ليسوا بمؤمنين.

٢ ـ ومنها: أنهم قالوا على الله ما لا يعلمون، إما كذبًا، وإما جهلًا؛ والأول أقرب؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

---

(1) رواه البخاري (٣٠٧٢)، ومسلم (٢٨٢٤).

٣ ـ **ومنها:** حسن مجادلة القرآن؛ لأنه حصر هذه الدعوى في واحد من أمرين، وكلاهما مُنْتَفٍ: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ وهذا على القول بأن ﴿أَمْ﴾ هنا متصلة؛ أما على القول بأنها منقطعة فإنه ليس فيها إلا إلزام واحد.

٤ ـ **ومنها:** أن الله سبحانه وتعالى لن يخلف وعده؛ وكونه لا يخلف الوعد يتضمن صفتين عظيمتين هما: الصدق، والقدرة، لأن إخلاف الوعد إما لكَذِب، وإما لعجز؛ فكون الله ـ جلّ وعلا ـ لا يخلف الميعاد يقتضي كمال صدقه، وكمال قدرته.

٥ ـ **ومنها:** أَنَّ مِنْ دَأْبِ اليهود، القول على الله بلا علم؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ والقول على الله يتضمن القول عليه في أحكامه، وفي ذاته وصفاته؛ من قال عليه ما لا يعلم بأنه حلَّل أو حرَّم أو أوجب، فقد قال على الله بلا علم؛ ومن أثبت له شيئًا من أسماء أو صفات لم يثبتها الله لنفسه فقد قال على الله بلا علم؛ ومن نفى شيئًا من أسمائه وصفاته فقد قال على الله بلا علم؛ ومن صرف شيئًا عن ظاهره من نصوص الكتاب والسنة بلا دليل فقد قال على الله بلا علم.

٦ـ **ومن فوائد الآيات:** تحريم الإفتاء بلا علم؛ وعلى هذا يجب على المفتي أن يتقي الله عزَّ وجلَّ، وألا يتسرع في الإفتاء؛ لأن الأمر خطير.

٧ ـ **ومنها:** أن الثواب والعقاب لا يترتب على الأشخاص بحسب النسب أو الانتماء؛ وإنما هو بحسب العمل.

٨ ـ **ومنها:** أن من أحاطت به خطيئته، فلم يكن له حسنة فإنه من أصحاب النار الذين لا يخرجون منها.

٩ ـ **ومنها:** أن من كسب سيئة لكن لم تحط به الخطيئة فإنه ليس من أصحاب النار؛ لكن إن كان عليه سيئات فإنه يعذب بقدرها ـ ما لم يعف الله سبحانه وتعالى عنه.

١٠ ـ **ومنها:** إثبات النار، وأنها دار الكافرين.

١١ ـ **ومنها:** خلود أهل النار فيها؛ هو خلود مؤبد لا يخفف عنهم فيه العذاب، وقد صرح الله عزَّ وجلَّ بتأبيد الخلود فيها في ثلاثة مواضع من القرآن؛ الأول: في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]؛ الموضع الثاني: في سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]؛ الموضع الثالث: في سورة الجن في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

١٢ ـ **ومن فوائد الآيات :** أن أهل الجنة هم الذين قاموا بالإيمان والعمل الصالح؛ ولا يكون

العمل صالحًا إلا بأمرين:

الإخلاص لله عزَّ وجلَّ، والمتابعة للرسول ﷺ، والدليل على ذلك قول الله تعالى في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَركتهُ وَشِركَه»[1]ـ. وهذا فُقِدَ فيه الإخلاص؛ وقول النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[2]ـ وهذا فُقِدَ فيه المتابعة؛ وكذلك قول الرسول ﷺ: «فَأَيُّما شَرْطٍ كَانَ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللهِ فَهُوَ بَاطِلٌ وإِنْ كَانَ مِائَةَ شَرطٍ»[3].

١٣ـ ومن فوائد الآيات: أن الإيمان وحده لا يكفي لدخول الجنة؛ بل لا بد من عمل صالح.

١٤ ـ ومنها: أن العمل وحده لا يكفي حتى يكون صادرًا عن إيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ ولذلك لم ينفع المنافقين عملهم؛ لفقد الإيمان في قلوبهم.

١٥ ـ ومنها: بلاغة القرآن، وحسن تعليمه؛ حيث إنه لما ذكر أصحاب النار ذكر أصحاب الجنة؛ وهذا من معنى قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]؛ فإن من معاني المثاني: أن تثنى فيه الأمور؛ فيذكر الترغيب والترهيب؛ والمؤمن والكافر؛ والضار والنافع؛ وما أشبه ذلك.

١٦ ـ ومنها: إثبات الجنة.

١٧ ـ منها: أن أصحاب الجنة مخلدون فيها؛ وتأبيد الخلود في الجنة صرح الله سبحانه وتعالى به في آيات عديدة.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ﴾ أي: اذكروا إذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل؛

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجه (٤٢٠٢)، وأحمد في «مسنده» (٩٦١٧).

(٢) رواه البخاري (٢٥٥٠)، ومسلم (١٧١٨).

(٣) رواه البخاري (٢٤٢٤)، والنسائي (٣٤٥١)، وابن ماجه (٢٥٢١)، وأحمد في «مسنده» (٢٥٧٥٨).

و«الميثاق»: العهد؛ وسمي «العهد» ميثاقًا؛ لأنه يوثق به المعاهد، كالحبل الذي توثق به الأيدي والأرجل؛ لأنه يُلزمه؛ و﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ هو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم؛ وبنوه: ذريته من ذكور وإناث، كما يقال: «بنو تميم» لذكورهم وإناثهم و«بنو إسرائيل» بنو عم للعرب؛ لأن العرب من بني إسماعيل؛ وهؤلاء من بني إسرائيل؛ وجدهم واحد وهو إبراهيم ﷺ والميثاق بينه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ فالميثاق اشتمل على ثمانية أمور:

الأول: ألَّا يعبدوا إلا الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ و«**العبادة**» معناها: الذل والخضوع؛ مأخوذة من قولهم: طريق معبَّد - أي: مذلَّل.

الثاني: الإحسان إلى الوالدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: أحسنوا بالوالدين إحسانًا؛ وهو شامل للإحسان بالقول والفعل، والمال والجاه، وجميع طرق الإحسان؛ لأن الله أطلق؛ فكل ما يسمى إحسانًا فهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾؛ والمراد بـ «**الوالدين**»: الأب والأم، والأباعد لهم حق؛ لكن ليسوا كحق الأب والأم الأدنيين، ولهذا اختلف إرثهم، واختلف ما يجب لهم في بقية الحقوق.

الثالث: الإحسان إلى القرابة؛ لقوله تعالى: ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ وهي معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾؛ والمعنى: وإحسانًا بذي القربى؛ ﴿وَذِى﴾ بمعنى صاحب؛ و﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بمعنى القرابة؛ ويشمل: القرابة من قِبَلِ الأم؛ والقرابة من قِبَلِ الأب؛ لأن ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ جاءت بعد «**الوالدين**» أي: القربى من قِبَل الأم، ومن قِبَل الأب.

الرابع: الإحسان إلى اليتامى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: جمع يتيم، وهو الذي مات أبوه قبل أن يبلغ من ذكر أو أنثى، وأوصى الله تعالى باليتامى؛ لأنه ليس لهم من يربيهم أو يعولهم؛ إذ إن أباهم قد توفي؛ فهم محل للرأفة والرحمة والرعاية.

الخامس: الإحسان إلى المساكين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾: جمع مسكين وهو الفقير الذي أسكنه الفقر؛ لأن الإنسان إذا اغتنى فإنه يطغى، ويزداد، ويرتفع، ويعلو؛ وإذا كان فقيرًا فإنه بالعكس، وهنا يدخل الفقراء مع ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾؛ لأن «**الفقراء**»، و«**المساكين**» من الأسماء التي إذا قرنت افترقت؛ وإذا افترقت اجتمعت؛ فكلمة «**الفقراء**» إذا كانت وحدها شملت الفقراء والمساكين؛ و«**المساكين**» إذا كانت وحدها شملت الفقراء والمساكين؛ وإذا قيل: فقراء ومساكين - مثل آية الزكاة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] - صار «**الفقراء**» لها معنى؛ و«**المساكين**» لها معنى؛ لما اجتمعت الآن افترقت: فـ«**الفقير**»: من لا يجد شيئًا من الكفاية، أو يجد دون النصف؛ و«**المسكين**»: من يجد نصف الكفاية دون كمالها.

السادس: أن يقولوا للناس قولًا حسنًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ بسكون السين،

وفي قراءة: ﴿حَسَنًا﴾ بفتحها؛ والقول الحسن يشمل: الحسن في هيئته؛ وفي معناه، ففي هيئته: أن يكون باللطف واللين، وعدم الغلظة والشدة، وفي معناه: بأن يكون خيرًا؛ لأن كل قولٍ حسنٍ فهو خير؛ وكل قول خير فهو حسن.

السابع: إقامة الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ أي: ائتوا بها قائمة ـ أي: قويمة ليس فيها نقص؛ وذلك بأن يأتوا بها بشروطها، وأركانها، وواجباتها؛ وكمال ذلك أن يأتوا بمستحباتها؛ و﴿الصَّلَوٰةَ﴾ تشمل الفريضة والنافلة.

الثامن: إيتاء الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ أي: أعطوها مستحقها؛ و«**الزكاة**» هي النصيب الذي أوجبه الله لمستحقه في الأموال الزكوية.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ وفائدته: إدخال الموجودين في عهد النبي ﷺ في هذا الحكم ـ أعني التولي؛ و«التولي» ترك الشيء وراء الظهر؛ وهذا أبلغ من الإعراض؛ لأن الإعراض قد يكون بالقلب، أو بالبدن مع عدم استدبار.

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ الجملة هنا حالية؛ أي: توليتم في إعراض؛ وذلك أن المتولي قد لا يكون عنده إعراض في قلبه ـ فقد يتولى بالبدن، ولكن قلبه متعلق بما وراءه؛ ولكن إذا تولى مع الإعراض فإنه لا يرجى منه أن يُقْبِل بعد ذلك.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: بيان عظمة الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾؛ لأن الضمير هنا للتعظيم؛ وهو سبحانه وتعالى العظيم الذي لا أعظم منه.

٢ ـ ومنها: أن التوحيد جاءت به الرسل جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾.

٣ ـ ومنها: أن العبادة خاصة بالله ـ تبارك وتعالى؛ فلا يعبد غيره؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾؛ لأن هذا يفيد الحصر.

٤ ـ ومنها: وجوب الإحسان إلى الوالدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾؛ وإنما أوجب ذلك؛ لأن نعمة الوالدين على ولدهما هي التي تلي نعمة الله عزَّ وجلَّ؛ ولذلك قال الله سبحانه وتعالى في سورة لقمان: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]؛ فهما سبب وجودك، وإمدادك، وإعدادك. وإن كان أصل ذلك من الله؛ فلولا الوالدان ما كنت شيئًا؛ والإحسان إلى الوالدين شامل للإحسان بالقول والفعل، والمال والجاه، وغير ذلك من أنواع الإحسان؛ وضده أمران؛ أحدهما: أن يسيء إليهما؛ والثاني: ألَّا يحسن، ولا يسيء؛ وكلاهما تقصير في حق الوالدين مناف لبرهما؛ وفي الإساءة زيادة الاعتداء.

٥ ـ ومن فوائد الآية: وجوب الإحسان إلى ذوي القربى ـ أي: قرابة الإنسان؛ وهم من

يجتمعون به بالأب الرابع، فما دون؛ ولكن يجب أن نعلم أن الإحسان يتفاوت؛ فكل من كان أقرب فهو أولى بالإحسان؛ لأن الحكم إذا عُلِّق بوصف قوي بحسب قوة ذلك الوصف؛ فمثلًا: يجب عليك من صلة العم أكثر مما يجب عليك من صلة أولاد العم؛ ويجب عليك من صلة الخال أكثر مما يجب عليك من صلة أولاد الخال.

٦ - **ومنها:** وجوب الإحسان إلى اليتامى؛ وهو يشمل الإحسان إليهم أنفسهم؛ والإحسان في أموالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

٧ - **ومنها:** وجوب الإحسان إلى المساكين؛ وذلك بإعطائهم ما يستحقون من الزكاة، ودفع الضرورة، وما أشبه ذلك.

٨ - **ومنها:** وجوب القول الحسن؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾؛ وضد القول الحسن قولان؛ قول سوء؛ وقول ليس بسوء، ولا حسن؛ أما قول السوء فإنه منهي عنه؛ وأما القول الذي ليس بسوء، ولا حسن فليس مأمورًا به، ولا منهيًّا عنه؛ لكن تركه أفضل؛ ولهذا وصف الله عباد الرحمن بأنهم: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]؛ وقال الرسول ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا؛ أَوْ لِيَصْمُتْ**»[١].

٩ - **ومنها:** الأمر بإقامة الصلاة على وجه الوجوب فيما لا تصح الصلاة إلا به؛ وعلى وجه الاستحباب فيما تصح الصلاة بدونه وهو من كمالها.

١٠ - **منها:** أن الصلوات مفروضة على من كان قبلنا.

١١ - **ومنها:** وجوب إيتاء الزكاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾

١٢ - **ومنها:** وجوب الزكاة على من كان قبلنا؛ ولكن لا يلزم أن يكونوا مساوين لنا في الأموال التي تجب فيها الزكاة، ولا في مقدار الزكاة، ولا في أهلها الذين تدفع إليهم.

١٣ - **ومنها:** أن بني إسرائيل مع هذا الميثاق الذي أخذه الله عليهم لم يقوموا به؛ إلا القليل منهم.

١٤ - **ومنها:** أن تولي بني إسرائيل كان توليًّا كبيرًا؛ حيث كان توليًّا بإعراض.

١٥ - **ومنها:** أن المتولي المعرض أشد من المتولي غير المعرض.

١٦ - **ومنها:** أن التولي قد يكون بإعراض، وقد يكون بغير إعراض؛ لأنه لو كان بإعراض مطلقًا لم يستقم قوله: ﴿وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾

❁ ❁ ❁

(١) رواه البخاري (٥٦٧٢)، ومسلم (٤٧).

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة:٨٤:٨٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾: يذكِّرهم الله سبحانه وتعالى بالميثاق الذي أخذه عليهم؛ وبَيَّن الله تعالى الميثاق هنا بأمرين:

الأول: قوله تعالى: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ أي: لا تُريقُونها؛ و«السفك» و«السفح» بمعنى واحد؛ والمراد بسفك الدم: القتل، كما قال الرسول ﷺ في مكة: «**لَا يَحِلُّ لِامرِئٍ يُؤمِنُ باللهِ وَاليَومِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا**»[١] أي: يقتل نفسًا بغير حق؛ و﴿دِمَاءَكُمْ﴾ أي: دماء بعضكم؛ لكن الأمة الواحدة كالجسد الواحد؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: «**ذِمَّةُ المُسلمينَ وَاحِدَةٌ يسعَى بِها أَدنَاهُم**»[٢]، وقال: «**وَيُجِيرُ عَلَيهِم أَقصَاهُم**»[٣].

الأمر الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾؛ المراد: لا يُخرج بعضكم بعضًا من دياركم؛ ولا شك أن الإخراج من الوطن شاق على النفوس؛ وربما يكون أشق من القتل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي: ثم بعد هذا الميثاق بقيتم عليه، وأقررتم به، وشهدتم عليه، ولم يكن الإقرار غائبًا عنكم، أو منسيًّا لديكم؛ بل هو باق لا زائل؛ ثم بعد هذا الميثاق، والإقرار به، والشهادة عليه ﴿أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾؛ و﴿هَؤُلَاءِ﴾ منادى حذف منه حرف النداء ـ أي: يا هؤلاء؛ وليست خبر المبتدأ؛ و﴿أَنْتُمْ﴾: مبتدأ خبره جملة: ﴿تَقْتُلُونَ﴾؛

---

(١) رواه البخاري (١٧٣٥)، ومسلم (١٣٥٤).

(٢) رواه البخاري (١٧٧١)، والترمذي (١٥٧٩)، وأبوداود (٢٠٣٤).

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (٦٦٩٢)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٢٨٠)، وقال الشيخ شعيب: صحيح وهذا إسناد حسن.

والخطاب لمن كان في عهد الرسول ﷺ؛ وإنما وجه إليهم؛ لأنهم من الأمة التي فعلت ذلك ورضوا به.

وقوله تعالى: ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: يقتل بعضكم بعضًا؛ ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾ أي تجلونهم عن الديار؛ وهذا وقع بين طوائف اليهود قرب بعثة النبي ﷺ؛ حيث قتل بعضهم بعضًا، وأخرج بعضهم بعضًا من ديارهم.

قوله تعالى: ﴿تَظَاهَرُونَ﴾ بتخفيف الظاء؛ وفيها قراءة أخرى: ﴿تَظَّاهَرُونَ﴾ بتشديد الظاء؛ وأصله: تتظاهرون؛ ولكن أبدلت التاء ظاءً، ثم أدغمت بالظاء الأصلية؛ و﴿تَظَاهَرُونَ﴾ أي تعالَون؛ لأن الظهور معناه العلوّ، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الصف: ٩] يعني ليعليه؛ وسمي العلوّ ظهورًا: من الظهر؛ لأن ظهر الحيوان أعلاه؛ وقيل: ﴿تَظَاهَرُونَ﴾ أي: تعينون من يعتدي على بعضكم في عدوانه.

قوله تعالى: ﴿بِالْإِثْمِ﴾ أي بالمعصية؛ ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ أي: الاعتداء على الغير بغير حق؛ فكل عدوان معصية؛ وليست كل معصية عدوانًا؛ إلا على النفس: فالرجل الذي يشرب الخمر عاصٍ وآثم؛ والرجل الذي يقتل معصومًا هذا آثم، ومعتدٍ؛ والذي يخرجه من بلده آثم،ومعتدٍ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾؛ فهؤلاء بعد ما أخذ عليهم الميثاق مع الإقراروالشهادة لم يقوموا به؛ أخرجوا أنفسهم من ديارهم، وتظاهروا عليهم بالإثم والعدوان.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ﴾ أي: يجيئون إليكم؛ ﴿أُسَارَىٰ﴾: جمع أسير؛ وتجمع أيضًا على أسرى، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ﴾ [الأنفال: ٧٠]؛ والأسير هو الذي استولى عليه عدوه؛ ولا يلزم أن يأسره بالحبل؛ لكن الغالب أنه يؤسر به؛ لئلا يهرب؛ و﴿تُفَادُوهُمْ﴾ أي: تفكوهم من الأسر بفداء؛ وفي قراءة ﴿تفدوهم﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ يعني: تفدون المأسورين وهو محرم عليكم إخراجهم من ديارهم؛ فأنتم لم تقوموا بالإيمان بالكتاب كله؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾؛ والاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ؛ والفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ﴾ عاطفة؛ وسبق الكلام على مثل ذلك؛ أعني: وقوع العاطف بعد همزة الاستفهام؛ ووجه كونهم يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض: أنهم كفروا بما نهوا عنه من سفك الدماء، وإخراج أنفسهم من ديارهم؛ وآمنوا بفدائهم الأسرى؛ والذي يعبد الله على هذه الطريق لم يعبد الله حقيقة؛ وإنما عبد هواه؛ فإذا صار الحكم الشرعي يناسبه قال: آخذ به؛ وإذا كان لا يناسبه راوغ عنه بأنواع التحريف والتماس الأعذار.

قوله تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ «ما» نافية؛ والجزاء، والمجازاة، والمعاقبة معناها واحد؛ أو متقارب؛ ومعنى «الجزاء»: إثابة العامل على عمله؛ والمعنى: ما ثوابكم على عملكم هذا إلا خزي في الحياة الدنيا؛ و«الخزي» معناه الذلّ.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يوم البعث؛ وسمي بذلك؛ لأن الناس يقومون فيه من قبورهم لرب العالمين؛ولأنه يقوم فيه الأشهاد؛ولأنه يقام فيه العدل؛﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ظرف متعلق بـ﴿يُرَدُّونَ﴾ أي: يرجعون من ذلِّ الدنيا وخزيها؛ ﴿إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ أي: أعظمه؛ و﴿الْعَذَابِ﴾: العقوبة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ﴾: هذه صفة سلبية، أي: نفى الله سبحانه وتعالى عن نفسه صفة الغفلة؛ وذلك لكمال علمه ومراقبته؛ و﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: بالتاء؛ وفيها قراءة: ﴿يعملون﴾: بالياء.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾: المشار إليه هؤلاء اليهود الذين نقضوا العهد؛ ﴿اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي: اختاروا الدنيا على الآخرة؛ فالآخرة عندهم مزهود فيها مبيعة؛ والدنيا مرغوب فيها مشتراة؛ ووصفت هذه الحياة بالدنيا لدنوها زمنًا؛ لأنها سابقة على الآخرة؛ ولدنوها منْزلةً؛ لأنها دون الآخرة؛ وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «لَمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1].

وقوله تعالى: ﴿بِالْآخِرَةِ﴾: الباء هنا للبدل؛ وهي تدخل دائمًا على الثمن، كقولهم: «**اشتريت الثوب بدينار**»: فالدينار هو الثمن؛ ويقال: «**اشتريت الدينار بثوب**»: فالثوب هو الثمن.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: لا يهوَّن عنهم لا زمنًا، ولا شدة، ولا قوة؛ ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي: ولا أحد يمنع عنهم عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠]؛ فهم يائسون من الخروج؛ فلم يقولوا: «أخرجنا من النار»، ولم يقولوا: «**يخفف عنا دائمًا**»؛ بل قالوا: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾: يتمنون أن العذاب يخفف عنهم يومًا واحدًا من الأبدي السرمدي؛ ولكن ذلك لا يحصل لهم؛ فيقال لهم توبيخًا، وتقريعًا، وتنديمًا: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا﴾؛ ولا ينفعهم الدعاء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾، أي: ضياع.

الفوائد:

١ـ **من فوائد الآيات:** أن بني إسرائيل أُخذ عليهم تحريم قتال بعضهم بعضًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾

٢ ـ **ومنها:** تحريم إخراج بعضهم بعضًا من ديارهم.

٣ ـ **ومنها:** أن الأمة كالنفس الواحدة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾.

---

(١) سبق تخريجه برقم (١٠٧).

٤ ـ **ومنها:** الأسلوب البليغ في قوله تعالى: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ﴾؛ وذلك أن مثل هذا التعبير فيه الحث البليغ على اجتناب ما نُهي عنه، وكأن الذي اعتدى على غيره قد اعتدى على نفسه.

٥ ـ **ومنها:** أن بني إسرائيل قد أقروا على أنفسهم بهذا الميثاق، وشهد بعضهم على بعض؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾

٦ ـ **ومنها:** بيان تمرد بني إسرائيل؛ حيث إنهم نقضوا العهد الذي أخذه الله عليهم، فصار بعضهم يقتل بعضًا، ويخرج بعضهم بعضًا من ديارهم.

٧ ـ **ومنها:** أن بعضهم يتعالى على بعض بالإثم والعدوان.

٨ ـ **ومنها:** تحريم التظاهر على الغير بغير حق؛ لقوله تعالى: ﴿تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾؛ وأما إذا علا عليه بحق فإن هذا لا بأس به؛ فإن الله سبحانه وتعالى فضل العباد بعضهم على بعض، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

٩ ـ **ومنها:** تناقض بني إسرائيل في دينهم، وقبولهم للشريعة؛ حيث إنه يقتل بعضهم بعضًا، ويخرج فريقًا من ديارهم؛ ثم إذ أتى بعضهم أسيرًا فاداه ـ أي: دفع فدية لفك أَسْرِهِ؛ لأنه واجب عليهم في شريعتهم أن يفدي بعضهم بعضًا؛ وهذا من الإيمان ببعض الكتاب، والكفر ببعضه؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

١٠ ـ **ومنها:** أن الكفر ببعض الشريعة كفر بجميعها؛ وجه ذلك: أن الله توعد هؤلاء الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض؛ ومثل ذلك إذا آمن ببعض الرسل دون بعض فإنه كفر بالجميع؛ ودليل ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] ـ ونوح هو أول الرسل لم يسبقه رسول؛ ومع ذلك جعل الله المكذبين له مكذبين لجميع الرسل؛ ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

١١ ـ **ومن فوائد الآيات:** مضاعفة العقوبة على بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾.

١٢ ـ **ومنها:** إثبات يوم القيامة؛ وهو اليوم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين مبعوثين من قبورهم.

١٣ ـ **ومنها:** تهديد الذين نقضوا العهد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

١٤ ـ **ومنها:** كمال علم الله سبحانه وتعالى، ومراقبته لخلقه.

١٥ ـ ومنها: إثبات أن صفات الله تعالى ثبوتية، ومنفية؛ لكن يجب أن نعلم أن النفي المحض لا يوجد في صفات الله تعالى؛ وإنما النفي الواقع في صفاته لبيان كمال ضد ذلك المنفي؛ ففي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] إثبات كمال العدل مع نفي الظلم عنه؛ وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] إثبات كمال القوة مع نفي اللغوب عنه؛ وعلى هذا فقس؛ فالضابط في الصفات التي نفاها الله تعالى عن نفسه أنها تدل على نفي تلك الصفة، وعلى ثبوت كمال ضدها.

١٦ ـ ومن فوائد الآيات: توبيخ من اختار الدنيا على الآخرة؛ وهو مع كونه ضلالًا في الدين سفه في العقل؛ إذ إن الدنيا متاع قليل، ثم يزول؛ والآخرة خير وأبقى.

١٧ ـ ومنها: أن هؤلاء القوم خالدون في العذاب أبد الآبدين؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾.

١٨ ـ ومنها: أن المجرم لا يجد ناصرًا له يمنعه من عذاب الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

مسألة:

هذا الذي قصه الله تعالى علينا من أخبار بني إسرائيل مضمونه التحذير من الوقوع فيما وقعوا فيه ولكن مع الأسف أن بعض هذه الأمة وقعوا في جنس ما وقع فيه بنو إسرائيل؛ وهذا مصداق قول النبي ﷺ «لَتَرْكَبُنْ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبلَكُم»[1].

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٧، ٨٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ﴾: اللام موطئة للقسم؛ و«قد» للتحقيق؛ وعليه فتكون هذه الجملة مؤكَّدة بثلاثة مؤكِّدات ـ وهي: القسم المقدَّر، واللام الموطئة للقسم، و«قد»؛ و﴿ءَاتَيْنَا﴾ أي: أعطينا؛

---

(١) رواه البخاري (٦٨٨٩)، ومسلم (٢٦٦٩).

و﴿مُوسَى﴾ هو ابن عمران أفضل أنبياء بني إسرائيل؛ و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: المراد به هنا التوراة.

قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ أي: أتبعنا من بعده بالرسل؛ لأن التابع يأتي في قفا المتبوع.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ أي: أعطيناه ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: صفة لموصوف محذوف؛ والتقدير: الآية البينات؛ أي: الظاهرات في الدلالة على صدقه وصحة رسالته؛ وهذه الآيات البينات تشمل الآيات الشرعية؛ كالشريعة التي جاء بها؛ والآيات القدرية الكونية؛ كإحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم بإذن الله.

قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ أي: قويناه، كقوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤] أي: قويناهم عليهم؛ وهو معروف اشتقاقه؛ لأنه من **(الأيد)** بمعنى القوة، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] أي: بقوة.

قوله تعالى: ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ من باب إضافة الموصوف إلى صفته؛ أي: بالروح المقدس؛ و**(القُدُس)**، و**(القُدْس)** بمعنى الطاهر؛ واختلف المفسرون في المراد بـ **(روح القدس)**:

القول الأول: أن المراد روح عيسى؛ لأنها روح قدسية طاهرة؛ فيكون معنى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي: أيدناه بروح طيبة طاهرة تريد الخير، ولا تريد الشر.

والقول الثاني: أن المراد بـ **(روح القدس)**: الإنجيل؛ لأن الإنجيل وحي؛ والوحي يسمى روحًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

والقول الثالث: أن المراد بـ **(روح القدس)** جبريل ـ عليه الصلاة والسلام كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]: وهو جبريل؛ وقال النبي ﷺ لحسان بن ثابت، وهو يهجو المشركين: «**اَللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ القُدُسِ**»[1] أي: جبريل؛ وهذا أصح الأقوال؛ وهو أن المراد بـ **(روح القدس)**: جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ يكون قرينًا له يؤيده، ويقويه، ويلقنه الحجة على أعدائه؛ وهذا الذي رَجَّحْنَاهُ هو الذي رَجَّحَهُ ابن جرير، وابن كثير؛ أن المراد بـ **(روح القدس)**: جبريل عليه الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري والتوبيخ؛ والفاء عاطفة؛ و**(كُلَّما)** أداة شرط تفيد التكرار؛ ولا بد فيها من شرط وجواب؛ والشرط هنا: قوله تعالى: ﴿جَآءَكُمْ﴾؛ والجواب: ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ﴾ أي: من الله؛ ﴿بِمَا﴾ أي: بشرع؛ ﴿لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ أي: لا تريد؛ ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي: سلكتم طريق الكبرياء، والعلوّ على ما جاءت به الرسل؛

---

(١) رواه البخاري (٤٤٢)، ومسلم (٢٤٨٥).

﴿فَفَرِيقًا﴾ أي: طائفة؛ ونصب على أنه مفعول مقدم لـ﴿كَذَّبْتُمْ﴾؛ ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ أي: وطائفة أخرى تقتلونهم؛ وقدم المفعول على عامله؛ لإفادة الحصر مع مراعاة رؤوس الآي؛ والحصر هنا في أحد شيئين لا ثالث لهما: إما التكذيب؛ وإما القتل، يعني مع التكذيب.

وهنا قال تعالى: ﴿كَذَّبْتُمْ﴾. فعل ماضٍ؛ وقال تعالى: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ فعل مضارع؛ فأما كون الأول فعلًا ماضيًا، فالأمر فيه ظاهر؛ لأنه وقع منهم التكذيب؛ وأما الإتيان بفعل مضارع بالنسبة للقتل فهو أولًا مراعاة لفواصل الآية؛ لأنه لو قال: «فريقًا قتلتم» لم تتناسب مع التي قبلها والتي بعدها؛ ثم إن بعض العلماء أبدى فيها نكتة: وهي أن هؤلاء اليهود استمر قتلهم الرسل حتى آخرهم محمدًا ﷺ فإنهم قتلوا الرسول ﷺ بالسُّمِّ الذي وضعوه له في خيبر؛ فإنه ﷺ ما زال يتأثر منه، حتى إنه ﷺ في مرض موته قال: «مَا زَالَت أَكْلَةُ خَيْبَرَ تُعَاوِدُنِي، وَهَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ الأَبْهَرِ مِنِّي»[1]؛ قال الزهري: إن النبي ﷺ مات شهيدًا؛ لأن اليهود تسببوا في قتله؛ وهذا ليس ببعيد أن يكون هذا من أسرار التعبير بالمضارع في القتل؛ وإن كان قد يَرِدُ عليه أن التكذيب استمر حتى زمن الرسول ﷺ فلماذا لم يقل: «فريقًا تكذبون وفريقًا تقتلون»؟! والجواب عن هذا: أن القتل أشد من التكذيب؛ فعبر عنه بالمضارع المستمر إلى آخر الرسل.

فإن قيل: كيف يصح قول الزهري: إن النبي ﷺ مات شهيدًا؛ لأن اليهود كانوا سببًا في قتله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] ؟

فالجواب: المراد بقوله تعالى: ﴿يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾: حال التبليغ؛ أي: بلغ وأنت في حال تبليغك معصوم، ولهذا لم يعتد عليه أحد أبدًا في حال تبليغه فقتله.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ أي: بنو إسرائيل معتذرين عن ردهم ما جاء به الرسول ﷺ؛ ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ جمع أغلف؛ و«الأغلف» هو الذي عليه غلاف يمنع من وصول الحق إليه - يعني مغلفة لا تصل إليها دعوة الرسل؛ وهذه حجة باطلة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾؛ و﴿بَل﴾ للإضراب الإبطالي - أي: أن الله تعالى أبطل حجتهم هذه، وبيَّن أنه تعالى: ﴿لَّعَنَهُمُ﴾- أي: طردهم وأبعدهم عن رحمته؛ ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بسبب كفرهم، حيث اختاروا الكفر على الإيمان؛ و«كُفْر» مصدر مضاف إلى فاعله؛ ولم يذكر مفعوله ليعم الكفرَ بكل ما يجب الإيمان به.

قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: قليلًا إيمانهم؛ وعلى هذا تكون ﴿مَّا﴾ إما مصدرية؛ وإما زائدة لتوكيد القلة؛ وهل المراد بالقلة العدم، أو هي على ظاهرها؟ المعنى الأول أقرب؛ لأن الظاهر من حالهم عدم الإيمان بالكلية؛ ولا يمتنع أن يراد بالقلة العدم إذا دلت عليها القرائن الحالية أو اللفظية.

---

(١) رواه الدارمي في «سننه» (٦٧)، وقال حسين أسد: إسناده حسن وهو مرسل.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآيتين: إثبات رسالة موسى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٢ ـ ومنها: تأكيد الخبر ذي الشأن ـ وإن لم ينكر المخاطب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾؛ فإنها مؤكدة بثلاث مؤكدات مع أنه لم يخاطب بها من ينكر؛ وتأكيد الكلام يكون في ثلاثة مواضع:

أولًا: إذا خوطب به المنكِر، وقد قال علماء البلاغة: إنه في هذه الحال يؤكد وجوبًا.

ثانيًا: إذا خوطب به المتردد؛ وقد قال علماء البلاغة: إنه في هذه الحال يؤكد استحسانًا.

ثالثًا: إذا كان الخبر ذا أهمية بالغة فإنه يحسن توكيده ـ وإن خوطب به من لم ينكر أو يتردد.

٣ـ ومن فوائد الآيتين: أن من بعد موسى من الرسل من بني إسرائيل تبع له؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾؛ ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٤٤]

٤ ـ ومنها: ثبوت رسالة عيسى؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾

٥ ـ ومنها: أن من ليس له أب فإنه ينسب إلى أمه؛ لأن عيسى عليه السلام نسب إلى أمه.

وبهذا نعرف أن القول الراجح من أقوال أهل العلم أن: أم من ليس له أب شرعًا هي عصبته؛ فإن عدمت فعصبتها؛ خلافًا لمن قال: إن أمه ليس لها تعصيب؛ ويظهر أثر ذلك بالمثال: فلو مات من ليس له أب عن أمه وخاله: فلأمه الثلث والباقي لخاله ـ على قول من يقول: إن الأم لا تعصيب لها؛ أما على القول الراجح: فلأمه الثلث فرضًا، والباقي تعصيبًا.

٦ ـ ومن فوائد الآيتين: أن عيسى ابن مريم ﷺ أعطاه الله سبحانه وتعالى آيات كونية، وشرعية؛ مثال الشرعية: الإنجيل؛ ومثال الكونية: إحياء الموتى، وإخراجهم من القبور، وإبراء الأكمه والأبرص، وأنه يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه، فيكون طيرًا يطير بإذن الله؛ وكذلك أيضًا يخبرهم بما يأكلون، وما يدخرون في بيوتهم؛ قال العلماء: إنما أعطي هذه الآية الكونية؛ لأن الطب في عهده ارتقى إلى درجة عالية، فأتاهم بآيات لا يقدر الأطباء على مثلها؛ كما أن محمدًا ﷺ ترقى في عهده الكلام إلى منْزلة عالية في البلاغة والفصاحة؛ فآتاه الله سبحانه وتعالى القرآن العظيم الذي عجزوا أن يأتوا بمثله.

٧ ـ ومن فوائد الآيتين: أن الله سبحانه وتعالى أيد عيسى بجبرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾.

٨ ـ ومنها: أن الملائكة من جملة تسخيرهم للخلق أنهم يؤيدون من أمَرهم الله بتأييده؛ ولهذا قال النبي ﷺ لحسان بن ثابت: «**اَللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**»[1].

---

(١) سبق تخريجه.

٩ ـ ومنها: بيان عتوّ بني إسرائيل، وأنهم لا يريدون الحق؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

١٠ ـ ومنها: أن بني إسرائيل يبادرون بالاستكبار عند مجيء الرسل إليهم، ولا يتأنون؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾؛ لأن مقتضى ترتب الجزاء على الشرط أن يكون الجزاء عقيبًا للشرط: كلما وجد الشرط وجد الجزاء فورًا.

١١ ـ ومنها: توبيخ ولوم بني إسرائيل، وبيان مناهجهم بالنسبة للشرائع، وبالنسبة لمن جاء بالشرائع؛ ففي الشرائع: لا يقبلون إلا ما وافق أهواءهم، وبالنسبة لمن جاء بالشرائع بما لا تهوى أنفسهم: انقسموا إلى قسمين: فريقًا يكذبون؛ وفريقًا يقتلون مع التكذيب.

١٢ ـ ومنها: أن من استكبر عن الحق إذا كان لا يوافق هواه من هذه الأمة فهو شبيه ببني إسرائيل؛ فإذا استكبر عن الحق ـ سواء تحيل على ذلك بالتحريف؛ أو أقر بأن هذاهو الحق، ولكنه استكبر عنه ـ فإنه مشابه ببني إسرائيل.

والخارجون عن الحق ينقسمون إلى قسمين:

قسم يقرُّ به، ويعترف بأنه عاصٍ؛ وهذا أمره واضح، وسبيله بين، وقسم آخر يستكبر عن الحق، ويحاول أن يحرف النصوص إلى هواه؛ وهذا الأخير أشد على الإسلام من الأول؛ لأنه يتظاهر بالاتباع وهو ليس من أهله.

١٣ ـ ومن فوائد الآيتين: أن بعض الناس يستكبر عن الحق؛ لأنه مخالف لهواه.

١٤ ـ ومنها: أن بني إسرائيل انقسموا في الرسل الذين جاءوا بما لا تهوى أنفسهم إلى قسمين: قسم كذبوهم؛ وقسم آخر قتلوهم مع التكذيب.

١٥ ـ ومنها: أن هؤلاء الذين لم يقبلوا الحق احتجوا بما ليس بحجة؛ فقالوا: قلوبنا غلف.

١٦ ـ ومنها: أن من صنع مثل صنيعهم فهو شبيه بهم؛ يوجد أناس نسمع عنهم أنهم إذا نُصِحوا ودُعوا إلى الحق قالوا: «ما هدانا الله»؛ وهؤلاء مشابهون لليهود الذين قالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾

١٧ ـ ومنها: أن القلوب بفطرتها ليست غلفاء؛ لقوله تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ وهذا الإضراب للإبطال؛ يعني: ليست القلوب غَلفاء لا تقبل الحق، لكن هناك شيء آخر هو الذي منع من وصول الحق؛ وهو لَعْن الله إياهم بسبب كفرهم.

١٨ ـ ومنها: أن الفطرة من حيث هي فطرة تقبل الحق، ولكن يوجد لها موانع.

١٩ ـ منها: بيان أن الأسباب مهما قويت إذا غلب عليها المانع لم تؤثر شيئًا؛ فالقلوب وإن كانت مفطورة على الدين القيم لكن إذا وجد موانع لم تتمكن من الهدى؛ وقد قيل: إن الأمور لا تتم إلا بوجود أسبابها، وانتفاء موانعها.

٢٠ ـ ومنها: إثبات الأسباب، وأن لها تأثيرًا في مسبباتها بإذن الله؛ لقوله تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾

٢١ ـ ومنها: أن الإيمان في هؤلاء اليهود قليل، أو معدوم؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [البقرة:٨٩، ٩٠]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ﴾: هو القرآن؛ ونكَّره هنا للتعظيم؛ وأكد تعظيمه بقوله تعالى: ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وأضافه الله تعالى إليه؛ لأنه كلامه، كما سيأتي في الفوائد إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾: له معنيان:

المعنى الأول: أنه حكم بصدقها، كما قال في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]؛ فهو يقول عن التوراة: إنه حق، وعن الإنجيل: إنه حق؛ وعن الزبور: إنه حق؛ فهو يصدقها، كما لو أخبرك إنسان بخبر فقلت: «صدقت» تكون مصدقًا له.

المعنى الثاني: أنه جاء مطابقًا لما أخبرت الكتب السابقة التوراة، والإنجيل؛ فعيسى ابن مريم ﷺ قال: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ [الصف: ٦]؛ فجاء هذا الكتاب مصدقًا لهذه البشارة.

وقوله تعالى: ﴿لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ أي: من التوراة والإنجيل؛ وهذا واضح أن التوراة أخبرت بالرسول ﷺ إما باسمه، أو بوصفه الذي لا ينطبق على غيره.

قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ﴾ أي: من قبل أن يجيئهم ﴿يَسۡتَفۡتِحُونَ﴾ أي: يستنصرون، ويقولون: سيكون لنا الفتح والنصر ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: من المشركين الذين هم الأوس والخزرج؛ لأنهم كانوا على الكفر، ولم يكونوا من أهل الكتاب ـ كما هو معروف؛ فكانوا يقولون:

إنه سيبعث نبي، وسنتبعه، وسننتصر عليكم؛ لكن لما جاءهم الشيء الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم كفروا به؛ ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ﴾: اللعنة: هي الطرد والإبعاد عن رحمة الله؛ ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: حاقة عليهم؛ وهو مظهر في موضع الإضمار؛ إذ كان مقتضى السياق: «**فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله عليهم**»؛ والإظهار في موضع الإضمار له فوائد؛ منها: مراعاة الفواصل كما هنا؛ ومنها: الحكم على موضع الضمير بما يقتضيه هذا الوصف؛ ومنها: الإشعار بالتعليل؛ ومنها: إرادة التعميم.

قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾: «**بئس**»: فعل ماضٍ لإنشاء الذم؛ يقابلها «**نِعْم**»: فهي فعل ماضٍ لإنشاء المدح؛ و«**بئس**» و«**نعْم**» اسمان جامدان لا يتصرفان؛ أي: لا يتحولان عن صيغة الماضي؛ و«**ما**» اسم موصول بمعنى الذي؛ أي: بئس الذي اشتروا به أنفسهم؛ أو إنها نكرة موصوفة، والتقدير: «**بئس شيئًا اشتروا به أنفسهم**»، و﴿اشْتَرَوْا﴾ فسرها أكثرهم بمعنى باعوا؛ وهو خلاف المشهور؛ لأن معنى «**اشترى الشيء**»: اختاره؛ والمختار للشيء لا يكون بائعًا له؛ والصحيح أنها على بابها؛ ووجهه: أن هؤلاء الذين اختاروا الكفر كانوا راغبين فيه، فكانوا مشترين له.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يَكْفُرُوا﴾: ﴿أَنْ﴾ هنا مصدرية؛ والفعل بعدها مؤول بمصدر، والتقدير: كفرُهم؛ وهو المخصوص بالذم؛ وإعرابه مبتدأ مؤخر خبره الجملة قبله؛ ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾: «**ما**» هذه اسم موصول بمعنى الذي؛ والمراد به: القرآن؛ لأنه تعالى قال في الأول: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾؛ و﴿بَغْيًا﴾ مفعول لأجله عامله، قوله تعالى: ﴿يَكْفُرُوا﴾؛ و«**البغي**» فسره كثير من العلماء بالحسد؛ والظاهر أنه أخص من الحسد؛ لأنه بمعنى العدوان؛ لأن الباغي هو العادي، كما قيل: على الباغي تدور الدوائر؛ وقيل: البغي: مرتعُ مبتغيه وخيم؛ فالبغي ليس مجرد الحسد فقط؛ نعَم، قد يكون ناتجًا عن الحسد؛ والذين فسَّروه بالحسد فسَّروه بسببه.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: «**الفضل**» في اللغة: زيادة العطاء؛ والمراد بـ «**الفضل**» هنا الوحي أو القرآن، كما قاله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

قوله تعالى: ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾: ﴿مَنْ﴾ اسم موصول؛ والمراد: النبي ﷺ؛ لأن القرآن في الحقيقة نزل على النبي ﷺ للناس، كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]؛ و﴿يَشَاءُ﴾ أي: يريد بالإرادة الكونية؛ والمراد بـ﴿عِبَادِهِ﴾ هنا الرسل.

قوله تعالى: ﴿فَبَاءُوا﴾ أي: رجعوا؛ ﴿بِغَضَبٍ﴾: الباء للمصاحبة؛ يعني رجعوا مصطحبين لغضب من الله سبحانه وتعالى؛ ونكَّره للتعظيم؛ ولهذا قال بعض الناس: إن المراد بـ «**الغضب**»:

غضب الله سبحانه وتعالى، وغيره ـ حتى المؤمنين من عباده يغضبون من فعل هؤلاء وتصرفهم.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ غَضَبٍ﴾، كقوله تعالى: ﴿ظُلُمَٰتٌ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠]؛ يعني غضبًا فوق غضب؛ فما هو الغضب الذي باءوا به؟ وما هو الغضب الذي كان قبله؟

الجواب: الغضب الذي باءوا به أنهم كفروا بما عرفوا، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾؛ والغضب السابق أنهم استكبروا عن الحق إذا كان لا تهواه أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [البقرة: ٨٧]؛ والغضب الثالث: قتلهم الأنبياء، أو تكذيبهم؛ فهذه ثلاثة أنواع من أسباب الغضب؛ وقد يكون أيضًا هناك أنواع أخرى.

قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: هذا إظهار في موضع الإضمار فيما يظهر؛ لأن ظاهر السياق أن يكون بلفظ الضمير؛ أي: ولهم عذاب مهين؛ والإظهار في موضع الإضمار له فوائد سبق بيانها قريبًا.

وقوله تعالى: ﴿عَذَابٌ﴾ أي: عقوبة؛ و﴿مُّهِينٌ﴾ أي: ذو إهانة وإذلال؛ ولو لم يكن من إذلالهم ـ حين يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧] ـ إلا قول الله عزَّ وجلَّ لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] لكفى.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآيتين:** أن القرآن من عند الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ **ومنها:** أن القرآن كلامه سبحانه وتعالى تكلم به حقيقة؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ ومعلوم أن الكلام ليس جسمًا يقوم بنفسه حتى نقول: إنه مخلوق.

٣ ـ **ومنها:** التنويه بفضل القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾، ولقوله تعالى: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ **ومنها:** أن اليهود كانوا يعرفون أن النبي ﷺ سيبعث وتكون له الغلبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: يستنصرون؛ أي يطلبون النصر، أو يَعِدون به؛ فقبل نزول القرآن وقبل مجيء الرسول ﷺ يقولون للعرب: إنه سيبعث نبي، وينْزل عليه كتاب، وننتصر به عليكم، ولما جاءهم الرسول الذي كانوا يستفتحون به كفروا به.

٥ ـ **ومنها:** أن اليهود لم يخضعوا للحق؛ حتى الذي يقرون به لم يخضعوا له؛ لأنهم كفروا به؛ فيدل على عتوهم، وعنادهم.

٦ ـ **ومنها:** أن الكافر مستحق للعنة الله، وواجبة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٧ ـ استدل بعض العلماء بهذه الآية على جواز لعن الكافر المعين؛ ولكن لا دليل فيها؛ لأن اللعن الوارد في الآية على سبيل العموم؛ ثم هو خبر من الله عزَّ وجلَّ، ولا يلزم منه جواز الدعاء به؛

ويدل على منع لعن المعين أن النبي ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ العَنْ فُلَانًا، وَفُلَانًا»[1]. لأئمة الكفر، فنهاه الله عن ذلك؛ ولأن الكافر المعين قد يهديه الله للإسلام إن كان حيًّا؛ وإن كان ميتًا فقد قال النبي ﷺ: «لَا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ؛ فَإِنَّهُم قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا»[2].

٨ - **ومن فوائد الآيتين:** أن كفر بني إسرائيل ما هو إلا بغي، وحسد؛ لقوله تعالى: ﴿بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

٩ - **ومنها:** أن من رد الحق من هذه الأمة؛ لأن فلانًا الذي يرى أنه أقل منه هو الذي جاء به؛ فقد شابه اليهود

١٠ - **ومنها:** أنه يجب على الإنسان أن يعرف الحق بالحق لا بالرجال؛ فما دام أن هذا الذي قيل حقٌّ فاتبَعْه من أيٍّ كان مصدره؛ فاقبل الحق للحق؛ لا لأنه جاء به فلان وفلان.

١١ - **ومنها:** أن العلم من أعظم فضل الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾؛ ولا شك أن العلم أفضل من المال؛ وإذا أردت أن تعرف الفرق بين فضل العلم وفضل المال فانظر إلى العلماء في زمن الخلفاء السابقين؛ الخلفاء السابقون قَلّ ذكرهم؛ والعلماء في وقتهم بقي ذكرهم: هم يُدَرِّسون الناس، وهم في قبورهم؛ وأولئك الخلفاء نُسوا؛ اللهم إلا من كان خليفة له مآثر موجودة أو محمودة؛ فدل هذا على أن فضل العلم أعظم من فضل المال.

١٢ - **ومن فوائد الآيتين:** إثبات مشيئة الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾؛ وهي عامة فيما يحبه الله، وما لا يحب؛ فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن؛ وكل شيء عُلِّق بالمشيئة فهو مقرون بالحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]؛ فليست أفعال الله وأحكامه لمجرد المشيئة؛ بل هي لحكمة بالغة اقتضت المشيئة.

١٣ - **ومن فوائد الآيتين:** أن هذا الفضل الذي نزله الله لا يجعل المفضَّل به ربًّا يُعْبد؛ بل هو من العباد، حتى ولو تميز بالفضل؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

وهذه الفائدة لها فروع نوضحها، فنقول: إن من آتاه الله فضلًا من العلم والنبوة لم يخرج به عن أن يكون عبدًا؛ إذن لا يرتقي إلى منْزلة الربوبية؛ فالرسول ﷺ عبد من عباد الله؛ فلا نقول لمن نزل عليه الوحي: إنه يرتفع حتى يكون ربًّا يملك النفع والضرر، ويعلم الغيب.

ويتفرع عنها: أن من آتاه الله من فضله من العلم وغيره ينبغي أن يكون أعبد لله من غيره؛ لأن الله تعالى أعطاه من فضله؛ فكان حقه عليه أعظم من حقه على غيره؛ فكلما عظم الإحسان من الله عزَّ وجلَّ استوجب الشكر أكثر؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقوم في الليل حتى تتورم قدماه؛ فقيل له في

---

(١) رواه البخاري (٣٨٤٢)، وابن ماجه (١٠٧٨)، وأحمد في «مسنده» (٦٣٤٩)، والنسائي في «الكبرى» (٦٦٥).

(٢) رواه البخاري (١٣٢٩)، والنسائي (١٩٣٦)، وأحمد في «مسنده» (٢٥٥٠٩).

ذلك؛ فقال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»[1].

ويتفرع عنها فرع ثالث: أن بعض الناس اغتر بما آتاه الله من العلم، فيتعالى في نفسه، ويتعاظم حتى إنه ربما لا يقبل الحق؛ فحُرِم فضل العلم في الحقيقة.

١٤ ـ من فوائد الآيتين: أن العقوبات تتراكم بحسب الذنوب جزاءً وفاقًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾.

١٥ ـ ومنها: أن المستكبر يعاقب بنقيض حاله؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ بعد أن ترفعوا؛ فعوقبوا بما يليق بذنوبهم؛ وعلى هذا جرت سنة الله سبحانه وتعالى في خلقه؛ قال الله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦].

١٦ ـ ومنها: أن الإظهار في موضع الإضمار من أساليب البلاغة، وفيه من الفوائد ما سبق ذكره قريبًا.

١٧ ـ ومنها: إثبات الغضب من الله سبحانه وتعالى، لقوله تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾؛ والغضب من صفات الله الفعلية المتعلقة بمشيئته؛ وهكذا كل صفة من صفات الله تكون على سبب.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: لليهود؛ وأبهم القائل ليكون شاملًا لكل من قال لهم هذا القول: إما الرسول ﷺ وإما غيره؛ ﴿ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: صدِّقوا به مع قبوله والإذعان له؛ لأن الإيمان شرعًا: التصديق مع القبول والإذعان؛ وليس كل من صدق يكون مؤمنًا حتى يكون قابلًا مذعنًا؛ والدليل على ذلك أن أبا طالب كان مصدقًا برسول الله ﷺ ولم يكن مؤمنًا؛ لأنه لم يقبل، ولم يذعن؛ و«ما» اسم موصول؛ المراد به: القرآن العظيم؛ و﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: من عنده.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾: هذا جواب: ﴿إذا﴾؛ ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعنون به التوراة؛ ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ يعنون به القرآن؛ و«وراء» هنا بمعنى سوى؛ ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾: هذه

---

(١) رواه البخاري (١٠٧٨)، ومسلم (٢/ ١٩).

الجملة حال من «ما» في قوله تعالى: ﴿بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ يعني: أن هذا الذي كفروا به هو الحق؛ وضده الباطل؛ وهو الضائع سدىً الذي لا يستفاد منه؛ أما الحق فهو الثابت المفيد النافع؛ وهذا الوصف بلا شك ينطبق على القرآن؛ ﴿مُصَدِّقًا﴾: حالٌ أيضًا من ﴿هو﴾ أي: الضمير؛ وسبق معنى كونه مصدقًا لما معهم؛ وقوله تعالى هنا: ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾ يعني التوراة.

ثم قال تعالى مكذبًا لقولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ الخطاب في ﴿قُلْ﴾ إما للرسول ﷺ؛ وإما لكل من يتأتى خطابه؛ ﴿فَلِمَ﴾: اللام حرف جر؛ و«ما» اسم استفهام دخل عليه حرف جر، فوجب حذف ألفها للتخفيف؛ والاستفهام للإنكار والتوبيخ؛ يعني لو كنتم صادقين بأنكم تؤمنون بما أنزل عليكم فلم تقتلون أنبياء الله؟ لأن قتلهم لأنبياء الله؟ مستلزم لكفرهم بهم؛ أي: بأنبياء الله؛ ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل بعثة الرسول ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿أَنۢبِيَآءَ﴾ فيها قراءتان: (أنبئاء) بالهمزة؛ و﴿أَنۢبِيَآءَ﴾ بالياء، مثل: «النبي»، و«النبيء»؛ و«النبيء» جمعه أنبئاء؛ و«النبي» جمعه أنبياء.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن القرآن كلام الله؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ لأن ما أنزل الله هو القرآن - وهو كلام؛ والكلام ليس عينًا قائمة بذاتها؛ بل هو صفة في غيره؛ فإذا كان صفة في غيره وهو نازل من عند الله لزم أن يكون كلام الله عزَّ وجلَّ.

٢ - **ومنها:** علوّ الله سبحانه وتعالى؛ لأنه إذا كان القرآن كلامه وهو نازل من عنده دلَّ على علوّ المتكلم به.

٣ - **ومنها:** كذب اليهود في قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾؛ لأنهم لو آمنوا به لآمنوا بمحمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ..﴾ [الأعراف: ١٥٧] إلخ.

٤ - **ومنها:** عتوّ اليهود وعنادهم؛ لأنهم يقولون: لا نؤمن إلا بما أنزل علينا.

٥ - **ومنها:** أن من دُعي إلى الحق من هذه الأمة وقال: «المذهب كذا، وكذا» - يعني ولا أرجع عنه - ففيه شبه من اليهود؛ لأن الواجب إذا دعيت إلى الحق أن تقول: «سمعنا وأطعنا»؛ ولا تعارضه بأي قول كان، أو مذهب.

٦ - **ومنها:** وجوب قبول الحق من كل من جاء به.

٧ - **ومنها:** إفحام الخصم بإقامة الحجة عليه من فعله؛ ووجه ذلك: أن الله أقام على اليهود الحجة على فعلهم؛ لأنهم قالوا: نؤمن بما أنزل علينا وهم قد قتلوا أنبياء الله الذين جاءوا بالكتاب إليهم؛ فإن قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ ليس بحق؛ لأنه لو كانوا مؤمنين حقيقة ما قتلوا

الأنبياء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة:٩٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ﴾: الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام الموطئة للقسم - وهي للتوكيد؛ و«قد» وهي هنا للتحقيق؛ لأنها دخلت على الماضي؛ و﴿جَاءَكُم﴾: الخطاب لليهود؛ والدليل على أنه لليهود قوله تعالى: ﴿مُّوسَىٰ﴾؛ لأن موسى نبيهم؛ وهنا خاطبهم باعتبار الجنس لا باعتبار الشخص؛ إذ إن موسى لم يأت هؤلاء الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ لكنه أتى بني إسرائيل الذين هؤلاء منهم.

قوله تعالى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: الباء للمصاحبة، أو للتعدية؛ يعني: جاءكم مصحوبًا بالبينات؛ أو أن البينات هي التي جيء بها، فتكون للتعدية؛ و«البينات» صفة لموصوف محذوف؛ والتقدير: بالآيات البينات؛ أي: بالعلامات الدالة على رسالته؛ ومنها: اليد، والعصا، والحجر، وفلق البحر، والجراد الذي أرسل على آل فرعون، والسنون، وأشياء كثيرة، مثل القمل، والضفادع، والدم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ﴾: تفيد الترتيب بمهلة- يعني: ثم بعد أن مضى عليكم وقت أمكنكم أن تتأملوا في هذه الآية، وأن تعرفوها: الذي حصل أنكم لم ترفعوا بها رأسًا: ﴿اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾: «اتخذ» من أفعال التصيير، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] يعني صيَّره؛ إذنْ هي تنصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر؛ المفعول الأول: ﴿الْعِجْلَ﴾؛ والمفعول الثاني محذوف تقديره: إلهًا؛ وحذف للعلم به، كما قال ابن مالك في الألفية:

وَحَذْفُ مَا يُعْلَمُ جَائِزٌ ....

و﴿الْعِجْلَ﴾ هو ولد البقرة، وليس عجلًا من حيوان؛ ولكنه عجل من حلي: صنعوا من الحلي مجسمًا كالعجل، وجعلوا فيه ثقبًا تدخله الريح، فيكون له صوت كخوار الثور، فأغواهم السامري، وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى فنسي؛ لأن موسى كان قد ذهب منهم لميقات ربه على أنه ثلاثون يومًا، فزاد الله تعالى عشرًا، فصار أربعين يومًا؛ فقال لهم السامري: إن موسى ضلَّ عن إلهه؛ ولهذا تخلف، فلم يرجع؛ فهو قد ضلَّ، ولم يهتد إلى إلهه؛ فهذا إلهكم وإله موسى، فاتَّخِذوه إلهًا.

قوله تعالى: ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد ذهاب موسى لميقات ربه؛ لأن موسى رجع إليهم،

وقال للسامري عن إلهه: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧]؛ وجرى هذا: فحرقه موسى ﷺ، ونسفه في البحر.

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: معتدون؛ وأصل الظلم النقص، كما في قوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣]؛ وسمي العدوان ظلمًا؛ لأنه نقص في حق المعتدى عليهم؛ وجملة: ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ حال في موضع النصب من فاعل ﴿ٱتَّخَذْتُمُ﴾ أي: والحال أنكم ظالمون؛ وهذا أبلغ في القبح: أن يعمل الإنسان العمل القبيح وهو يعلم أنه ظالم.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: إقامة البرهان على عناد اليهود؛ ووجه ذلك: أنه قد جاءهم موسى بالبينات، فاتخذوا العجل إلهًا.

٢ ـ ومنها: سفاهة اليهود وغباوتهم، لاتخاذهم العجل إلهًا مع أنهم هم الذين صنعوه.

٣ ـ ومنها: أن اليهود اغتنموا فرصة غياب موسى مما يدل على هيبتهم له؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ يعني من بعد ذهاب موسى إلى ميقات ربه.

٤ ـ ومنها: أن اليهود عبدوا العجل عن ظلم، وليس عن جهل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾: ﴿إِذْ﴾ تأتي في القرآن كثيرًا؛ والمعربون يعربونها بأنها مفعول لفعل محذوف؛ تقديره: اذكر؛ وإذا كان الخطاب لأكثر من واحد يقدر: اذكروا، أي: اذكروا إذ أخذنا ميثاقكم؛ و«الميثاق»: العهد؛ وسمي العهد ميثاقًا؛ لأنه يتوثق به.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ وهو الجبل المعروف؛ رفعه الله عزَّ وجلَّ على رؤوسهم تهديدًا لهم؛ فجعلوا يشاهدونه فوقهم كأنه ظلة؛ فسجدوا خوفًا من الله عزَّ وجلَّ،

وجعلوا ينظرون إلى الجبل وهم يتضرعون إلى الله سبحانه وتعالى بكشف كربتهم؛ ولهذا ذكر بعض أهل العلم عن اليهود أنهم يرون أن أفضل سجدة يسجدون لله بها أن يسجدوا وقد أداروا وجوههم إلى السماء؛ يقولون: هذه السجدة أنجانا الله بها؛ فهي أشرف سجدة عندنا.

قوله تعالى: ﴿خُذُواْ﴾ فعل أمر؛ وهو في محل نصب مقولًا لقول محذوف؛ أي: قلنا خذوا ﴿مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم﴾ أي: ما أعطيناكم؛ والمراد به التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجدٍّ ونشاط؛ فالجد: العزيمة الثابتة؛ والنشاط: القوة في التنفيذ؛ ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ أي: سماع قبول واستجابة؛ فأمروا بأن يأخذوا بالتوراة بقوة، وأن يسمعوا ويستجيبوا، وينقادوا؛ وكان الجواب: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا﴾ أي: بآذاننا؛ ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أي: بأفعالنا؛ فما سمعوا السمع الذي طُلب منهم؛ ولكنهم استكبروا عنه؛ وظاهر الآية الكريمة أنهم قالوا ذلك لفظًا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾؛ وقال بعضهم: قالوا: ﴿سَمِعْنَا﴾ بألسنتهم، وعصوا بأفعالهم؛ فيكون التعبير بالعصيان هو عبارة عن أفعالهم، وأنهم لم يقولوا بألسنتهم: ﴿وَعَصَيْنَا﴾؛ وهذا ضعيف؛ لأن الواجب حمل اللفظ على ظاهره؛ حتى يقوم دليل صحيح على أنه غير مراد، ولأنه لا يمتنع أن يقولوا: «سمعنا وعصينا» بألسنتهم وهم الذين قالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]؛ فالذين تجرأوا أن يقولوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ يتجرءون أن يقولوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ بألسنتهم؛ وكأن الذين قالوا: إن المراد بالمعصية هنا فعل المعصية؛ وليس معناه أنهم قالوا بألسنتهم: ﴿وَعَصَيْنَا﴾ كأنهم قالوا: إنهم التزموا بهذا والجبل فوق رؤوسهم؛ ومن كان هذه حاله لا يمكن أن يقول: «سمعنا، وعصينا» والجبل فوقه؛ ويمكن الجواب عن هذا بأنهم قالوا ذلك بعد أن فُرِّج عنهم؛ و«**العصيان**»: هو الخروج عن الطاعة بترك المأمور، أو فعل المحظور؛ فمن ترك الجماعة وهي واجبة عليه فهو عاصٍ؛ ومن زنى، أو سرق، أو شرب الخمر فهو أيضًا عاصٍ لله ورسوله.

قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾: قال بعضهم: إنه على تقدير مضاف؛ والتقدير: أشربوا في قلوبهم حب العجل؛ لأن العجل نفسه لا يمكن أن يشرب في القلب؛ ومعنى ﴿وَأُشْرِبُواْ﴾: أنه جُعل هذا الحب كأنه ماء سقي به القلب؛ إذْ امتزج بالقلب كما يمتزج الماء بالمدر إذا أشرب إياه؛ والمدر هو الطين اليابس؛ فهذا القلب أشرب فيه حب العجل، ولكن عبر بالعجل عن حبه؛ لأنه أبلغ؛ فكأن نفس العجل دخل في قلوبهم؛ والذي أشرب هذا في قلوبهم هو الله سبحانه وتعالى؛ ولكن من بلاغة القرآن أن ما يكرهه الله يعبر عنه غالبًا بالبناء لما لم يسم فاعله؛ لأن النبي ﷺ يقول: «وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيكَ»[1]، وقال الله تعالى عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]؛ ففي الشر قالوا: ﴿أُرِيدَ﴾، ولم ينسبوه إلى الله؛ أما الرشد

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣١٣٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٨٤)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.

فنسبوه إلى الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾: الباء هنا للسببية؛ أي: بسبب كفرهم بالله السابق على عبادة العجل؛ لأنهم قد نووا الإثم قبل أن يقعوا فيه؛ فصاروا كفارًا به، ثم أشربوا في قلوبهم العجل حتى صاروا لا يمكن أن يتحولوا عنه: قال لهم هارون ﷺ ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ [طه: ٩٠]؛ ولكن كان جوابهم لهارون: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١]؛ فأصروا؛ لأنهم أشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾: يخاطب الله سبحانه وتعالى النبي ﷺ أو يخاطب كل من يصح توجيه الخطاب إليه ـ أي: قل أيها النبي؛ أو قل أيها المخاطب: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾: «بئس» فعل ماضٍ يراد به إنشاء الذم؛ و«ما» نكرة مبنية على السكون في محل نصب تمييز، يعني: بئس شيئًا يأمركم به إيمانكم عبادةُ العجل؛ يعني: إذا كان عبادة العجل هو مقتضى إيمانكم فإن إيمانكم قد أمركم بأمر قبيح؛ يعني: أين إيمانكم وأنتم قد أشرب في قلوبكم العجل؟! وأن هذا الإيمان الذي زعمتموه هو الذي حبب إليكم عبادة العجل، وعبدتموه.

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: صادقين في دعوى الإيمان؛ و﴿إِن﴾ شرطية، والمقصود بها التحدي؛ يعني: إن كنتم مؤمنين حقيقة فكيف يأمركم إيمانكم بهذا العمل القبيح!!!.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** أن الله تعالى أخذ الميثاق على بني إسرائيل بالإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ ..﴾ إلخ.

٢ ـ **ومنها:** أن بني إسرائيل ما آمنوا إلا عن كره؛ لأنهم لم يؤمنوا إلا حين رفع فوقهم الطور.

٣ ـ **ومنها:** بيان قدرة الله عزَّ وجلَّ.

٤ ـ **ومنها:** أن أمر الكون كله بيد الله عزَّ وجلَّ، وأنه سبحانه وتعالى قادر على خرق العادات؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾

٥ ـ **ومنها:** وجوب تلقي شريعة الله بالقوة دون الكسل والفتور، لقوله تعالى: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾.

٦ ـ **ومنها:** بيان عتوِّ بني إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾؛ وهذا أبلغ ما يكون في العتو؛ لأنه كان يمكن أن يكون العصيان عن جهل؛ لكنهم قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

٧ ـ **ومنها:** أن السمع نوعان: سمع استجابة، وسمع إدراك؛ مثال الأول: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟﴾؛ ومثال الثاني: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾

٨ ـ **ومنها:** أن المؤمن حقًا لا يأمره إيمانه بالمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني: إن كنتم مؤمنين حقًا ما اتخذتم العجل إلهًا.

٩ ـ **ومنها**: أن الشر لا يسنده الله تعالى إلى نفسه؛ بل يذكره بصيغة المبني لما لم يُسمَّ فاعله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ﴾؛ ولهذا نظير من القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]؛ والنبي ﷺ يقول: «**وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيْكَ**»؛ فالشر في المفعول ـ لا في الفعل؛ الخير والشر كل من خلْق الله عزَّ وجلَّ؛ لكن الشر بالنسبة لإيجاد الله له هو خير، وليس بشر؛ لأن الله سبحانه وتعالى ما أوجده إلا لحكمة بالغة وغاية محمودة. وإن كان شرًّا ـ لكن الشر في المفعولات ـ أي: المخلوقات؛ وأما نفس الفعل فهو ليس بشًر؛ أرأيت الرجل يكوي ابنه بالنار ـ والنار مؤلمة محرقة ـ لكنه يريد أن يُشفى ـ فهذا المفعول الواقع من الفاعل شر مؤلم محرق لكن غايته محمودة ـ وهو شفاء الولد؛ فيكون خيرًا باعتبار غايته.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الله تعالى قد يبتلي العبد، فيملأ قلبه حبًّا لما يكرهه الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾.

١١ ـ **ومنها**: أن الإيمان الحقيقي لا يحمل صاحبه إلا على طاعة الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٤:٩٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ﴾: ﴿كَانَتْ﴾ هنا ناقصة، وخبرها يجوز أن يكون الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿لَكُمُ﴾؛ وتكون ﴿خَالِصَةً﴾ حالًا من ﴿الدَّارُ﴾ يعني: حال كونها خالصة من دون الناس؛ ويجوز أن يكون الخبر: ﴿خَالِصَةً﴾؛ والمعنى واحد؛ والمراد بـ﴿الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ الجنة؛ وإنما قال تعالى ذلك؛ لأنهم قالوا: «لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة، وبعدها تخلفوننا أنتم في النار؛ ونكون نحن في الجنة» ـ هذا كلام اليهود؛ والذي يقول هذا الكلام يدعي أن الدار الآخرة خالصة؛ أي: خاصة له من دون

الناس، وأن المستحق للنار منهم يدخلها أيامًا معدودة، ثم يخرج إلى الجنة.

قوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: اطلبوا حصوله ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في دعواكم أن الدار الآخرة خالصة لكم من دون الناس؛ لأنها حينئذٍ تكون لكم خيرًا من الدنيا؛ فتمنوا الموت لتصلوا إليها؛ وهذا تحدٍّ لهم؛ ولهذا قال الله تعالى هنا: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾؛ وفي سورة الجمعة قال تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًا﴾ [الجمعة: ٧]؛ وذلك لأنهم يعلمون كذب دعواهم أن لهم الدار الآخرة خالصة.

وظاهر الآية الكريمة على ما فسرنا أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يتحداهم بأنه إن كانت الدار الآخرة لهم كما يزعمون فليتمنوا الموت لِيَصِلوا إليها؛ وهذا لا شك هو ظاهر الآية الكريمة؛ وهو الذي رجحه ابن جرير، وكثير من المفسرين؛ وذهب بعض العلماء إلى أن المراد بقوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: فباهلونا، وتمنوا الموت لمن هو كاذب منا؛ فتكون هذه مثل قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]؛ فيكون المعنى: تمنوا الموت عن طريق المباهلة؛ ورجح هذا ابن كثير؛ وضعف الأول بأنه لو كان المراد: تمنوا حصول الموت لكانوا يحتجون أيضًا علينا نحن، ويقولون: أنتم أيضًا إن كنتم تقولون: إن الدار الآخرة لكم فتمنوا الموت؛ لأن تحديكم إيانا بذلك ليس بأولى من تحدينا إياكم به؛ لأنكم أنتم أيضًا تقولون: إن الدار الآخرة لكم، وأن اليهود بعد بعثة الرسول ﷺ في النار؛ فتمنوا الموت أنتم أيضًا، والجواب عن ذلك: أنا لم ندَّع أن الدار الآخرة خالصة لنا من دون الناس؛ بل نؤمن بأن الدار الآخرة لكل من آمن وعمل صالحًا سواء كان من هذه الأمة أم من غيرها؛ وهذا المعنى الذي نحا إليه ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ مخالف لظاهر السياق؛ فلا يعوَّل عليه؛ وقد عرفت الانفكاك منه.

قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾؛ اللام في ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ موطئة للقسم، والنون للتوكيد؛ وعليه تكون الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، والنون؛ والضمير الهاء يعود على اليهود؛ و﴿أَحْرَصَ﴾ اسم تفضيل؛ و(الحرص): هو أن يكون الإنسان طامعًا في الشيء مشفقًا من فواته؛ والحرص يستلزم بذل المجهود؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِالله، وَلَا تَعْجِزْ»[1]؛ ونكَّر ﴿حَيَوٰةٍ﴾ ليفيد أنهم حريصون على أيِّ حياة كانت ـ وإن قلَّت؛ حتى لو لم يأتهم إلا لحظة فهم أحرص الناس عليها.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ أي: الشرك الأكبر؛ واختلف المفسرون فيها؛ فمنهم من قال: هو مسْتَأْنَف، والكلام منقطع عما قبله؛ والتقدير: ومن الذين أشركوا من يود أحدهم لو يعمر..؛ وهذا وإن كان محتملًا لفظًا، لكنه في المعنى بعيد جدًّا؛ ومنهم من قال: إنه معطوف على

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤)، وابن ماجه (٧٩)، وأحمد في «مسنده» (٨٧٧٧).

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّاسِ﴾ يعني: ولتجدنهم أحرص الناس، وأحرص من الذين أشركوا؛ يعني: اليهود أحرص من المشركين على الرغم من أن اليهود أهل كتاب يؤمنون بالبعث، وبالجنة والنار؛ والمشركون لا يؤمنون بذلك، والذي لا يؤمن بالبعث يصير أحرص الناس على حياة؛ لأنه يرى أنه إذا مات انتهى أمره، ولا يعود؛ فتجده يحرص على هذه الحياة التي يرى أنها هي رأس ماله؛ وهذا القول هو الصواب.

قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾؛ «الود» خالص المحبة؛ والضمير في ﴿أَحَدُهُمْ﴾ يعود على المشركين لا غير، على القول الأول أي: أن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ مُسْتَأْنَف؛ وعلى القول الثاني: يحتمل أن يكون الضمير عائدًا على اليهود؛ ويصير انقطاع الكلام عند قوله تعالى: ﴿أَشْرَكُوا۟﴾؛ ويحتمل أن يكون عائدًا على المشركين؛ ويرجحه أمران:

أحدهما: أن الضمير في الأصل يعود إلى أقرب مذكور؛ والمشركون هنا أقرب.

والثاني: أنه إذا كان المشرك يود أن يعمر ألف سنة، وكان اليهودي أحرص منه على الحياة، فيلزم أن يكون اليهودي يتمنى أن يعمر أكثر من ألف سنة.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ يُعَمَّرُ﴾ أي: لو يزاد في عمره؛ و**(العمر)** هو: الحياة؛ و﴿لَوْ﴾ هنا مصدرية؛ وكلما جاءت بعد «ود» فهي مصدرية، كما في قوله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩] وقوله تعالى: ﴿يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ [الأحزاب:٢٠]؛ ومعنى «**مصدرية**» أنها بمعنى «**أنْ**» تؤول وما بعدها بمصدر، فيقال في الآية: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: يود أحدهم تعميره ألف سنة؛ و **(السنة)** هي: العام؛ والمراد بها هنا السنة الهلالية لا الشمسية؛ لأن الكلمات إذا أطلقت تحمل على الاصطلاح الشرعي؛ وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦]؛ فالميقات الذي وضع الله للعباد إنما هو بالأشهر الهلالية، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وكما قال تعالى في القمر: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: بدافعه ومانعه؛ ﴿أَن يُعَمَّرَ﴾: ﴿أَن﴾ والفعل بعدها فاعل (زحزح)؛ والتقدير: وما هو بمزحزحه تعميره؛ لأن (مزحزح) اسم فاعل يعمل عمل فعله؛ والمعنى: أنه لو عُمِّر ألف سنة أو أكثر وهو مقيم على معصية الله تعالى فإن ذلك لن يزحزحه من العذاب؛ بل إن الإنسان إذا ازداد عمره، وهو في معصية الله ازداد عذابه؛ ولهذا جاء في الحديث: «**شرُّكُم مَنْ طَالَ عُمْرُه، وَسَاءَ عَمَلُه**»[1].

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٣٠)، وأحمد في «مسنده» (٢٠٤٣١)، والبغوى في «شرح السنة» (١٤/ ٢٨٧)، والبيهقي في «الكبرى» (٦٣١٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٢٩٧).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: ﴿بَصِيرٌ﴾ هنا بمعنى عليم؛ أي: إنَّه - جَلَّ وعلا - عليم بكل ما يعملونه في السر والعلانية من عمل صالح وعمل سيء.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآيات:** تكذيب اليهود الذين قالوا: «لنا الآخرة، ولكم الدنيا، لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة»؛ ووجهه: أن الله تعالى قال لهم: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾، وقد قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

٢ - **ومنها:** أنَّ الكافر يكره الموت؛ لما يعلم من سوء العاقبة؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾

٣ - **ومنها:** إثبات السببية، تؤخذ من الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

٤ - **منها:** إثبات علم الله تعالى للمستقبل لقوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾؛ فوقع الأمر كما أخبر به.

٥ - **ومنها:** جواز تخصيص العموم لغرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فخص علمه بالظالمين تهديدًا لهم.

٦ - **ومنها:** أن اليهود أحرص الناس على حياة.

٧ - **ومنها:** إبطال قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾، ثم يخرجون منها ويكونون في الجنة؛ لأن من كان كذلك لا يكره الموت.

٨ - **ومنها:** أن الناس يتفاوتون في الحرص على الحياة؛ لقوله تعالى: ﴿أَحْرَصَ﴾؛ و﴿أَحْرَصَ﴾ اسم تفضيل.

٩ - **ومنها:** أن المشركين من أحرص الناس على الحياة، وأنهم يكرهون الموت؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ مما يدل على أنهم في القمة في كراهة الموت ما عدا اليهود.

١٠ - **ومنها:** أن طول العمر لا يفيد المرء شيئًا إذا كان في معصية الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾

١١ - **ومنها:** غَوْرُ فهم السلف حين كرهوا أن يُدْعَى للإنسان بالبقاء؛ فإن الإمام أحمد كره أن يُقَال للإنسان: «**أطال الله بقاءك**»؛ لأن طول البقاء قد ينفع، وقد يضر؛ إذن الطريق السليم أن تقول: «**أطال الله بقاءك على طاعة الله**»، أو نحو ذلك.

١٢ - **ومنها:** أن الله سبحانه وتعالى محيط بأعمال هؤلاء كغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾؛ والبصر هنا بمعنى: العلم؛ ويمكن أن يكون بمعنى الرؤية؛ قال النبي ﷺ: «لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلقِهِ»[1]؛ فأثبت الله

---

(١) رواه مسلم (١٧٩)، وابن ماجه (١٩٥)، وأحمد في «مسنده» (١٩٦٠٢).

بصرًا؛ لكن تفسيره بالعلم أعم.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٧، ٩٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد؛ ويجوز أن يكون المراد: كل من يتوجه إليه الخطاب؛ ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ أي: معاديًا له؛ و«جبريل» هو الملَك الموكل بالوحي؛ وكان اليهود يعادونه ويقولون: «إنه ينْزل بالعذاب»؛ قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾: فيه إعرابان: الأول: أن الجملة جواب الشرط؛ ووجه ارتباطه بفعل الشرط من الناحية المعنوية: تأكيد ذم هؤلاء اليهود المعادين لجبريل، كأنه لم يكن فيه ما يوجب العداوة إلا إنَّه نزله على قلبك؛ وهذا يشبه تأكيد المدح بما يشبه الذم، كقول القائل:

وَلَا عَيْبَ فِيْهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوْفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُوْلٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

فالمعنى: من كان عدوًّا لجبريل فلا موجب لعداوته إلا إنَّه نزله. أي: القرآن ـ على قلبك؛ وهذا الوصف يقتضي ولايته ـ لا عداوته؛ وقيل: إن جواب الشرط محذوف؛ والتقدير: من كان عدوًّا لجبريل فليمت غيظًا؛ لكن الإعراب الأول أصح وأبلغ.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: قلب النبي ﷺ؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]؛ وإنما كان نزوله على قلبه؛ لأن القلب محل العقل والفهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بإذنه الكوني القدري؛ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: حال من الضمير (الهاء) في قوله تعالى: ﴿نَزَّلَهُۥ﴾؛ يعني: نَزَّلَهُ حال كونه مُصَدِّقًا لما بين يديه ـ أي: لما سبقه من الكتب، كالتوراة، والإنجيل، وغيرهما من الكتب التي أخبرت عن نزول القرآن؛ وسبق بيان معنى تصديق القرآن لما بين يديه.

قوله تعالى: ﴿وَهُدًى﴾ أي: دلالة؛ ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ أي: بشارة؛ و«البشارة» الإخبار بما يسر؛ وقد تأتي

في الإخبار بما يضر، مثل قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧]؛ و﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بـ﴿وَبُشْرَىٰ﴾؛ وإنما كان بشرى للمؤمنين خاصة؛ لأنهم الذين قبلوه وانتفعوا به؛ «المؤمنون» أي: الذين آمنوا بما يجب الإيمان به مع القبول والإذعان؛ لأن الإيمان يدل على أمن واستقرار؛ ولهذا قال بعض العلماء: إنه يكون في الأمور الغيبية دون الأمور المحسوسة.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ﴾ أي: معاديًا له مستكبرًا عن عبادته.

قوله تعالى: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ﴾ يعني: وعدوًا لملائكته؛ و«الملائكة» جمع مَلَك؛ وهم عالم غيبي خلقهم الله عزَّ وجلَّ من نور، وسخرهم لعبادته يسبحون الليل والنهار لا يفترون؛ ومنهم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل الذين كان النبي ﷺ يذكر أسماءهم في افتتاح صلاة الليل[1].

قوله تعالى: ﴿وَرُسُلِهِ﴾ جمع رسول؛ وهم الذين أوحى الله تعالى إليهم بشرع، وأمرهم بتبليغه؛ أولهم نوح، وآخرهم محمد ﷺ أجمعين.

قوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾: معطوف على قوله تعالى: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ وعطف الخاص على العام يدل على شرف الخاص؛ فجبريل موكل بالوحي من الله إلى الرسل؛ ﴿وَمِيكَالَ﴾ هو ميكائيل الموكل بالقطر والنبات؛ وخص هذين الملكين؛ لأن أحدهما: موكل بما تحيى به القلوب وهو جبريل؛ والثاني: موكل بما تحيى به الأرض وهو ميكائيل.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾: هذا جواب الشرط: من كان عدوًّا لله فالله عدو له؛ ومن كان عدوًّا للملائكة فإن الله عدو له؛ ومن كان عدوًّا لرسله فإن الله عدو له؛ ومن كان عدوًّا لجبريل فإن الله عدو له؛ ومن كان عدوًّا لميكائيل فإن الله عدو له؛ وهنا أظهر في موضع الإضمار لفائدتين؛ إحداهما: لفظية؛ والثانية: معنوية؛ أما الفائدة اللفظية: فمناسبة رؤوس الآي؛ وأما الفائدة المعنوية؛ فهي تتضمن ثلاثة أمور: **الأول**: الحكم على أن من كان عدوًّا لله ومن ذُكر بأنه يكون كافرًا؛ يعني: الحكم على هؤلاء بالكفر؛ **الثاني**: أن كل كافر سواء كان سبب كفره معاداة الله، أو لا، فالله عدو له، **الثالث**: بيان العلة؛ وهي في هذه الآية: الكفر.

الفوائد:

١ـ من فوائد الآيتين: أن من الناس من يكون عدوًّا لملائكة الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾؛ ووجه ذلك: أن مثل هذا الكلام لو لم يكن له أصل لكان لغوًا من القول؛ والقرآن مُنَزَّهٌ عن هذا اللغو.

---

(١) الحديث مسلم (٧٧٠) أن عبدالرحمن بن عوف قال: سألت عائشة أم المؤمنين، بأي شيء كان نبي الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل ؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم).

٢ ـ ومنها: فضيلة جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأن الله تعالى دافع عنه.

٣ ـ ومنها: ذكر الوصف الذي يستحق أن يكون به وليًّا لجبريل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يعني: ومن كان هذه وظيفته فإنه يستحق أن يكون وليًّا.

٤ ـ ومنها: إثبات علوِّ الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ﴾؛ وإنما نزل به من عند الله؛ والنزول لا يكون إلا من أعلى.

٥ ـ ومنها: أن النبي ﷺ قد وعى القرآن وعيًا كاملًا لا يتطرق إليه الشك؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾؛ لأن ما نفذ إلى القلب حلَّ في القلب؛ وإذا حلَّ في القلب فهو في حرز مكين.

٦ ـ ومنها: أن هذا القرآن إنما نزل بإذن الله؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ والإذن هنا كوني؛ وقد ذكر العلماء أن إذن الله تعالى نوعان:

كوني: وهو المتعلق بالخلق والتكوين، ولا بد من وقوع ما أَذِن الله تعالى فيه بهذا المعنى؛ مثاله: قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] وقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن: ١١].

والثاني شرعي: وهو ما يتعلق بالشرع والعبادة؛ مثاله: قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]؛ وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]؛ والفرق بينهما: أن المأذون به شرعًا قد يقع، وقد لا يقع؛ وأما المأذون به قدرًا فواقع لا محالة؛ ومن جهة أخرى: أن المأذون به شرعًا محبوب إلى الله عزَّ وجلَّ؛ والمأذون به قدرًا قد يكون محبوبًا، وقد يكون غير محبوب.

٧ ـ ومن فوائد الآيتين: أن القرآن بشرى للمؤمنين؛ وعلامة ذلك: أنك تنتفع به؛ فإذا وجدت نفسك منتفعًا به حريصًا عليه تاليًا له حق تلاوته فهذا دليل على الإيمان، فتناله البشرى؛ وكلما رأى الإنسان من نفسه كراهة القرآن، أو كراهة العمل به، أو التثاقل في تطبيقه، فليعلم أنه إنما فاقد للإيمان بالكلية، أو أن إيمانه ناقص.

٨ ـ ومنها: أن من عادى الله فهو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾، ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

٩ ـ ومنها: أن من كان عدًّا للملائكة أو للرسل فإنه عدو لله؛ لأن الملائكة رسل الله، كما قال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١]؛ والرسل البشريون أيضًا رسل لله؛ فمن عادى ملائكة الله من جبريل أو غيره، أو عادى الرسل من محمد أو غيره فقد عادى الله عزَّ وجلَّ.

فإن قيل: فهل من عادى المؤمنين يكون معاديًا لله ؟

فالجواب: هذا محل توقف في دلالة الآية عليه؛ اللَّهُمَّ إلا إذا عادى المؤمنين لكونهم تمسكوا

بشريعة الرسل؛ فهذا يظهر أن الله يكون عدوًّا لهم؛ لأن من عاداهم إنما فعل ذلك بسبب أنهم تمسكوا بما جاءت به الرسل؛ فكانت حقيقة معاداتهم أنهم عادوا رسل الله، كما قال أهل العلم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣] أي: مبغضك، ومبغض ما جئت به من السنة هو الأبتر؛ وفي الحديث الصحيح أن الله تعالى في الحديث القدسي قال: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ**»(١).

١٠ ـ ومن فوائد الآيتين: أن كل كافر فالله عدوّ له؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾

١١ ـ ومنها: إثبات صفة العداوة من الله؛ أي: أن الله يعادي؛ وهي صفة فعلية كالرضا، والغضب، والسخط، والكراهة؛ و(**المعاداة**): ضدها الموالاة الثابتة للمؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧].

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة:٩٩]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ﴾: سبق الكلام عليها؛ ﴿أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾: الإنزال إنما يكون من الأعلى إلى الأسفل؛ وذلك؛ لأن القرآن كلام الله؛ والله تعالى فوق عباده.

قوله تعالى: ﴿آيَاتٍ﴾ جمع آية؛ والآية في اللغة: العلامة، لكنها في الحقيقة أدق من مجرد العلامة؛ لأنها تتضمن العلامة والدليل؛ فكل آية علامة ـ ولا عكس؛ لكن العلماء ـ رحمهم الله ـ قد يفسرون الشيء بما يقاربه أو يلازمه ـ وإن كان بينهما فرق، كتفسيرهم (**الريب**): بالشك في قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] مع أن (**الريب**) أخص من مطلق الشك؛ لأنه شك مع قلق؛ وقد أشار إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة: (**أصول التفسير**).

قوله تعالى: ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ جمع بينة؛ وهُنَّ الواضحات في ذاتها ودلالتها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا﴾ أي: بهذه الآية البينات؛ ﴿إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن شريعة الله؛ فالمراد بـ (**الفسق**) هنا: الفسق الأكبر، كقوله تعالى في سورة السجدة: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠]

---

(١) رواه البخاري (٦١٣٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٤٧)، والبيهقي في «الكبرى» (٦١٨٨).

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: أن القرآن وحي من الله عزَّ وجلَّ.

٢ ـ ومنها: عظمة القرآن؛ لأن الله سبحانه وتعالى أضافه إليه، وجعله آية.

٣ ـ ومنها: ثبوت علوِّ الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾؛ والنُّزول لا يكون إلا من أعلى؛ وعلوّ الله سبحانه وتعالى من صفاته الذاتية اللازمة له التي لم يزل ولا يزال متصفًا بها؛ وأما استواؤه على العرش فإنه من الصفات الفعلية؛ لأنه يتعلق بمشيئته.

٤ ـ ومنها: وصف القرآن بأنه آيات بينات، ولا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]؛ لأن هذا التشابه يكون متشابهًا على بعض الناس دون بعض؛ ولأنه يُحمل على المحكم، فيكون الجميع محكمًا، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ..﴾ [آل عمران: ٧] الآية.

فالحاصل: أن القرآن ـ ولله الحمد ـ آيات بينات؛ ولكنه يحتاج إلى قلب ينفتح لهذا القرآن حتى يتبين؛ أما قلب يكره القرآن، ثم يأتي بما يُشتَبه فيه؛ ليضرب القرآن بعضه ببعض فهذا لا يتبين له أبدًا؛ إنما يتبين الهدى من القرآن لمن أراد الهدى؛ وأما من لم يرده فلا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

٥ ـ ومن فوائد الآية: أنه لا يكفر بالقرآن إلا الفاسق.

٦ ـ ومنها: أن من كفر به فهو فاسق.

٧ ـ ومنها: إطلاق الفاسق على الكافر؛ وعلى هذا يكون الفسق على نوعين:

فسق أكبر مُخرِج عن المِلَّة، كما في قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: ١٩، ٢٠] الآيات؛ ووجه الدلالة: إنَّه تعالى جعل الفسق هنا مقابلًا للإيمان.

والثاني: فسق أصغر لا يخرج من الإيمان؛ ولكنه ينافي العدالة، كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]: فعطف ﴿الفسوق﴾ على ﴿الكفر﴾؛ والعطف يقتضي المغايرة.

مسألة:

تنقسم آيات الله تعالى إلى قسمين: كونية، وشرعية؛ فالكونية: مخلوقاته، كالشمس، والقمر، والنجوم، والإنسان، وغير ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]؛ وأما الشرعية فهي: ما أنزله الله تعالى على رسله من

الشرائع، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ [الجمعة: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ [سبأ: ٤٣] الآية، وكذلك الآية التي نحن بصدد تفسيرها.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠، ١٠١]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا﴾: الهمزة هنا للاستفهام؛ والواو للعطف؛ ومثل هذه الصيغة متكررة في القرآن كثيرًا؛ وقد سبق الكلام عليها؛ أما ﴿كلما﴾ فإنها أداة شرط تفيد التكرار؛ أي: كثرة وقوع شرطها وجوابها؛ وكلما حصل الشرط حصل الجواب؛ فإذا قلت: «**كلما جاء زيد فأكرمه**» اقتضى تكرار إكرامه بتكرر مجيئه؛ قَلَّ أو كثر.

قوله تعالى: ﴿عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا﴾؛ «**العهد**»: الميثاق الذي يكون بين الطوائف؛ سواء كان ذلك بين أمة مسلمة وأمة كافرة؛ أو بين أمتين مسلمتين؛ أو بين أمتين كافرتين؛ والضمير في ﴿عَـٰهَدُوا۟﴾ يعود على اليهود؛ ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾: «**النبذ**»: الطرح والترك؛ أي: ترك هذا العهد جماعة منهم؛ أي: من اليهود، فطرحوه، ولم يفوا به؛ وهذا هو حال بني إسرائيل مع الله سبحانه وتعالى، ومع عباد الله؛ فالله تعالى أخذ عليهم العهد والميثاق؛ ومع ذلك نبذوا العهد والميثاق؛ والنبي ﷺ عاهدهم، ونبذوا عهده.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: هذا الإضراب للانتقال من وصف إلى وصف: من وصف نقض العهد ونبذه، إلى وصف عدم الإيمان؛ فعليه يكون هذا الإضراب إثباتًا لما قبله، وزيادة وصف ـ وهو انتفاء الإيمان عن أكثرهم؛ لأن المؤمن حقيقة لا بد أن يفي بالعهد، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، وأخبر النبي ﷺ أن «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ..**»[١]؛ ولو أنهم آمنوا ما نقضوا العهد الذي بينهم وبين

---

(١) رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

الله، أو الذي بينهم وبين عباد الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ ﴿لما﴾ هنا شرطية؛ وهي على أربعة أنحاء في اللغة العربية: شرطية؛ ونافية جازمة؛ وبمعنى (إلا)؛ وبمعنى (حين)؛ و﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ صفة لـ﴿رسول﴾ أي: رسول مرسل من عند الله ـ وهو محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي: للذي معهم من التوراة إن كانوا من اليهود، ومن الإنجيل إن كانوا من النصارى؛ والحديث في هذه الآية كلها عن اليهود؛ وتقدم معنى ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾؛ فكان على اليهود والنصارى أن يفرحوا بهذا القرآن؛ لأنه مؤيد لما معهم؛ ولكن الأمر كان بالعكس!!!.

قوله تعالى: ﴿نَبَذَ﴾ أي: طرح بشدة ﴿فَرِيقٌ﴾ أي: جماعة ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ﴾ أي: أُعطوا؛ و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول ثان لـ﴿أُوتُواْ﴾؛ ومفعولها الأول: الواو، وهي نائب الفاعل؛ و«أل» هنا للعهد الذهني؛ وهو بالنسبة لليهود التوراة؛ وبالنسبة للنصارى الإنجيل؛ و﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي: القرآن؛ وهو مفعول ﴿نَبَذَ﴾؛ وأضيف إلى الله؛ لأنه المتكلم به؛ فالقرآن الذي نقرؤه الآن هو كلام ربنا تبارك وتعالى تكلم به حقيقة بلفظه ومعناه، وسمعه منه جبريل، ثم أتى به إلى النبي ﷺ فنزل به على قلب النبي ﷺ حتى وعاه وأداه إلى الصحابة؛ والصحابة أدوه إلى التابعين، وهكذا حتى بقي إلى يومنا هذا ـ ولله الحمد؛ وسمي القرآن كتابًا؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ؛ وفي الصحف التي بأيدي الملائكة؛ وفي الصحف التي بأيدي البشر.

قوله تعالى: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي: رموه بشدة وراء الظهر؛ وهو عبارة عن الانصراف التام عنه؛ لأنهم لو نبذوه أمامهم، أو عن اليمين، أو عن الشمال لكان من الجائز أن يكونوا يأخذون به؛ لكن من ألقاه وراء ظهره كان ذلك أبلغ في التولي والإعراض عنه، وعدم الرجوع إليه؛ لأن الشيء إذا خُلِّف وراء الظهر فإنه لا يرجع إليه.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: «كأن» لها معنى، ولها عمل؛ عملها: عمل (إنّ): تنصب الاسم، وترفع الخبر؛ وأما معناها: فهو هنا التشبيه، يعني: كأنهم في نبذهم لكتاب الله وراء ظهورهم لا يعلمون أنه حق.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآيتين: أن اليهود لا يوثق منهم بعهد؛ لأنهم كلما عاهدوا عهدًا نبذه فريق منهم.

٢ ـ ومنها: أن نبذ فريق من الأمة يعتبر نبذًا من الأمة كلها ـ ما لم يتبرؤوا منه؛ فإن تبرؤوا منه فإنهم لا يلحقهم عاره؛ لكن إذا سكتوا فإن نبذ الفريق نبذ للأمة كلهم؛ وجه ذلك: أن الله وَبَّخ هؤلاء على نبذ فريق منهم مع أنهم لم يباشروه.

٣ ـ **ومنها:** أن من أهل الكتاب من لم ينبذ كتاب الله وراء ظهره؛ بل آمن به كالنجاشي من النصارى، وعبد الله بن سلام من اليهود.

٤ ـ **ومنها:** أن من نبذ العهد من هذه الأمة فقد ارتكب محظورين:

أحدهما: النفاق؛ لقول النبي ﷺ: «آيَةُ المنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[1]، وفي الحديث الآخر: «أَربَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَ فِيهِ خِصْلَةٌ مِنَ النِفَاقِ حَتَى يَدَعَهَا..»، وذكر منها: «إِذَا عَاهَدَ غَدَر»[2].

والمحظور الثاني: مشابهة اليهود.

٥ـ **ومنها:** أن رسالة النبي ﷺ حق؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٦ـ **ومنها:** أن الرسول ﷺ قد أخبرت به الكتب السابقة؛ لقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾

٧ ـ **ومنها:** أن رسالة النبي ﷺ تقرر ما سبق من رسالات الرسل، لقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾.

٨ ـ **ومنها:** أنه مع هذا البيان والوضوح، فإن فريقًا من الذين أوتوا الكتاب نبذوا هذا الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ.

٩ـ **ومنها:** أن نبذ من عنده كتاب وعلم أقبح ممن ليس عنده ذلك؛ ولهذا نص على قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ لإظهار شدة القبح من هؤلاء في نبذهم؛ لأن النبذ مع العلم أقبح من النبذ مع الجهل.

١٠ ـ **ومنها:** أن القرآن كلام الله؛ لأن الله تعالى أضافه إليه في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾.

١١ ـ **ومنها:** توكيد قبح ما صنع هؤلاء المكذبون؛ لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنهم في الواقع يعلمون؛ ولكن فعلهم كأنه فعل من لم يعلم؛ وكفر من علم أشد من كفر من لم يعلم.

١٢ ـ **ومنها:** أن هذا النبذ الذي كان منهم لا يرجى بعده قبول؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾؛ لأن النبذ لو كان أمامهم ربما يتلقونه بعد؛ كذلك لو كان عن اليمين والشمال، لكن إذا كان وراء الظهر فمعناه: استبعاد القبول منهم.

١٣ ـ **ومنها:** شدة كراهية اليهود للقرآن، واستهانتهم به؛ حيث نبذوه وراء ظهورهم.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

(٢) رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

❁ قال الله تعالى:

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ أي: اليهود؛ و﴿تَتْلُوا﴾ هنا ليست بمعنى (تقرأ)؛ لكنه من: تلاه يتلوه، بمعنى: «تبعه»؛ أي ما تتبعه الشياطين وتأخذ به؛ ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أي: في ملكه: في عهده؛ وإنما قال تعالى: ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾؛ لأن الله جمع له بين النبوةوالملك، ووهبه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده: فسخر له الرياح، والجن، والشياطين فإن سليمان عليه السلام كان ملكًا نبيًّا رسولًا؛ وكل من ذكر في القرآن من الأنبياء فهم أنبياء رسل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]؛ وعند اليهود - قاتلهم الله - أن سليمان مَلِكٌ فقط؛ وهو لا ريب مَلِكٌ ونَبِيٌّ وَرَسُولٌ؛ وسليمان كان بعد موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ..﴾ [البقرة: ٢٤٦] إلى قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١]؛ وسليمان هو ابن داود - عليهما السلام -.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ أي بتعلم السحر؛ أو تعليمه.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ بتشديد نون ﴿وَلَكِنَّ﴾، ونصب ﴿الشَّيَاطِينَ﴾؛ وفي قراءة سبعية بتخفيف نون ﴿لكن﴾ وإسكانها ثم كسرها تخلصًا من التقاء الساكنين؛ و﴿الشَّيَاطِينُ﴾ برفع النون؛ فعلى القراءة الأولى: تكون الواو حرف عطف، ﴿وَلَكِنَّ﴾ حرف استدراك يعمل عمل «إنّ» ينصب الاسم ويرفع الخبر، و﴿الشَّيَاطِينَ﴾ اسمها، وجملة: ﴿كفروا﴾ خبرها؛ وعلى قراءة التخفيف تكون الواو للعطف، ﴿وَلَكِنِ﴾ حرف استدراك، مبني على السكون حُرِّك بالكسر لالتقاء الساكنين، و﴿الشَّيَاطِينُ﴾ مبتدأ، وجملة: ﴿كَفَرُوا﴾ خبر المبتدأ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ جمع شيطان؛ وجاءت بالجمع؛ لأن الشياطين يوحي بعضهم إلى بعض، ويعلم بعضهم بعضًا؛ و﴿كَفَرُواْ﴾: فسَّر هذا بقوله تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾؛ و«السحر» في اللغة هو كل شيء خفيَ سببه ولطف؛ ومنه قول الرسول ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»[1]؛ لأن البيان - وهو الفصاحة - يجذب النفوس والأسماع، حتى إن الإنسان يجد من نفسه ما يشده إلى سماع هذا البيان والتأثر به، فيسحر الناس؛ لكن ليس هو السحر الذي ورد ذمه؛ وإنما المراد بالسحر المذموم: عُقَد ورُقى ينفث فيها الساحر، فيؤثر في بدن المسحور وعقله؛ وهو أنواع: منه ما يقتل؛ ومنه ما يمرض؛ ومنه ما يزيل العقل ويخدر الإنسان؛ ومنه ما يغير حواس المرء، بحيث يسمع ما لم يكن، أو يشاهد الساكن متحركًا، أو المتحرك ساكنًا؛ ومنه ما يجلب المودة؛ ومنه ما يوجب البغضاء؛ المهم أن السحر أنواع؛ وأهله يعرفون هذه الأنواع.

قوله تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ جملة حالية من الفاعل في ﴿كَفَرُواْ﴾ يعني: حال كونهم يعلمون الناس السحر؛ ويجوز أن تكون استئنافية لبيان نوع كفرهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ يعني واتبعوا أيضًا ما أنزل على الملكين؛ والجملة معطوفة على قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ﴾؛ و﴿ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ بفتح اللام تثنية ملَك؛ والفرق بين «ملَك» و«ملِك»: أن «الملَك» بفتح اللام: واحد الملائكة؛ و«الملِك» بكسر اللام: الحاكم الذي له سلطة؛ و«بابل» اسم لبلد في العراق؛ و﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ عطف بيان على ﴿ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ لبيان اسمها؛ وهما اسمان أعجميان؛ والمنزَّل عليهما شيء من أنواع السحر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ﴾ أي: الملكان هاروت وماروت ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ أي أحدًا؛ وزيدت ﴿مِنْ﴾ للتوكيد.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ أي: اختبار للناس؛ ليتبين من يريد السحر ممن لا يريده.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي: بتعلم السحر ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ أي الناس ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ﴾ أي سحرًا يفرقون به ﴿بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾؛ ويسمى هذا النوع من السحر «الصرف»؛ ويقابله سحر «العطف»؛ وهو من أشد أنواع السحر؛ لأنه يصل بصاحبه إلى الهيمان والخبل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ﴾ أي ما هؤلاء المتعلمون للسحر بضارين به أحدًا ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي إلا بإذنه القدري - وهو بمعنى المشيئة - و﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ زائدة للتوكيد.

قوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ﴾ أي: الناس من الملكين ﴿مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ أي: ما مضرته محضة لا نفع فيها.

---

(١) رواه البخاري (٤٨٥١)، ومسلم (٨٦٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾: الجملة مؤكدة بالقسم المقدر، واللام الواقعة في جوابه، و«قد»؛ و﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾: اللام لام الابتداء؛ وهي معلِّقة للفعل ﴿عَلِمُوا﴾ عن العمل؛ و«مَن» مبتدأ؛ وخبره جملة: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ أي نصيب؛ والجملة في محل نصب سدت مسد مفعولَي ﴿عَلِمُوا﴾ أي علم هؤلاء المتعلمون للسحر أن من ابتغاه بتعلمه ليس له نصيب في الآخرة؛ وعلموا ذلك من قول الملكين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾: اللام موطئة للقسم؛ والتقدير: والله لبئس ما شروا به أنفسهم؛ و«بئس» فعل ماضٍ لإنشاء الذم ـ وهو جامد ـ؛ ومثله: (نعم)، و(عسى)، و(ليس)؛ ويسمونها الأفعال الجامدة؛ لأنها لا تتغير عن صيغتها: فلا تكون مضارعًا، ولا أمرًا؛ و﴿مَا﴾ اسم موصول؛ وهي فاعل «بئس»؛ والمخصوص بالذم محذوف؛ و﴿شَرَوْا﴾ بمعنى باعوا في اللغة العربية؛ لأن الشراء بيع؛ و«الاشتراء» هو أخذ السلعة؛ فالمشتري: طالب؛ والشاري: جالب، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] يعني يبيعها؛ فقوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: باعوا به أنفسهم؛ لأنهم في الحقيقة لما اشتروا السحر، الثمن الذي بذلوه في هذا السحر: أنفسهم؛ لأنهم في الحقيقة خسروا أنفسهم؛ صارت الدنيا الآن ليس لهم فيها ربح إطلاقًا؛ والآخرة ليس لهم فيها ربح أيضًا؛ فخسروا الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: جملة شرطية؛ وجوابها محذوف تقديره: ما تعلَّموا السحر؛ يعني: لو كانوا من ذوي العلم المنتفعين بعلمهم ما تعلموا السحر؛ وهنا ينبغي للقارئ أن يبتدئ بـ﴿لَوْ﴾، وأن يقف على ﴿مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾؛ لأن الوصل يوهم أن محل الذم في حال علمهم؛ أما في حال عدم علمهم فليس مذمومًا! وهذا خلاف المعنى المراد؛ إذ المعنى المراد: توبيخهم، حيث عملوا عمل الجاهل؛ فقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ نداء عليهم بالجهل.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** أن اليهود أخذوا السحر عن الشياطين؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾؛ ويدل على هذا أن أحدهم ـ وهو لبيد بن الأعصم ـ سحر النبي ﷺ[1].

٢ ـ **ومنها:** أن السحر من أعمال الشياطين؛ لقوله تعالى: ﴿مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾.

٣ ـ **ومنها:** أن الشياطين كانوا يأتون السحر على عهد سليمان مع قوة سلطانه عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾.

---

(١) انظر «صحيح البخاري» (٥٤٣٠)، ومسلم (٢١٨٩).

٤ ـ **ومنها:** أن سليمان لا يقر ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾؛ إذ لو أقرهم على ذلك ـ وحاشاه ـ لكان مُقرًّا لهم على كفرهم.

٥ ـ **ومنها:** أن تعلم السحر وتعليمه كفر؛ وظاهر الآية: أنه كفر أكبر، مخرج عن الملة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾؛ وهذا فيما إذا كان السحر عن طريق الشياطين؛ أما إذا كان عن طريق الأدوية والأعشاب ونحوها، ففيه خلاف بين العلماء.

واختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ هل تقبل توبته، أو لا؟ والراجح :أنها تقبل فيما بينه وبين الله عزَّ وجلَّ؛ أما قتله فيرجع فيه إلى القواعد الشرعية، وما يقتضيه اجتهاد الحاكم.

٦ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الله تعالى قد ييسر أسباب المعصية فتنةً للناس ـ أي ابتلاءً ـ وامتحانًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾؛ فإياك إياك إذا تيسرت لك أسباب المعصية أن تفعلها؛ واذكر قصة بني إسرائيل حين حُرِّم عليهم الصيد يوم السبت ـ أعني: صيد البحر ـ؛ فلم يصبروا حتى تحيلوا على صيدها يوم السبت؛ فقال لهم الله تعالى: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥]؛ واذكر قصة أصحاب محمد ﷺ حين ابتلاهم الله عزَّ وجلَّ وهم محرِمون بالصيد تناله أيديهم ورماحهم؛ فلم يُقدم أحد منهم عليه حتى يتبين لك حكمة الله تبارك وتعالى في تيسير أسباب المعصية؛ ليبلوَ الصابر من غيره.

٧ ـ **ومن فوائد الآية:** أنه يجب على الإنسان أن ينصح للناس ـ وإن أوجب ذلك إعراضهم عنه ـ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾؛ فإذا كانت عندك سلعة رديئة وأراد أحد شراءها يجب عليك أن تُحذِّره.

٨ ـ **ومنها:** أنّ من عِظم السحر أن يكون أثره التفريق بين المرء وزوجه؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾؛ لأنه من أعظم الأمور المحبوبة إلى الشياطين، كما ثبت في الحديث الصحيح:« **إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الماءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَأَدْنَاهُم مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُم فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُم فَيَقُولُ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُم فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهُ، وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ**»[1]؛ وفيه سحر مقابل لهذا: وهو الربط بين المرء وزوجه؛ حتى إنه ـ والعياذ بالله ـ يُبتلى بالهيام؛ فلا يستطيع أن يعيش ـ ولا لحظة ـ إلا وزوجته أمامه؛ وبعضهم يقضي عليه هذا الأمر ـ نسأل الله العافية..

---

(١) كما روى مسلم (٢٨١٣) من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الماءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَأَدْنَاهُم مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُم فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُم فَيَقُولُ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُم فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهُ، وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ».

٩ - ومن فوائد الآية: أن الأسباب - وإن عظمت - لا تأثير لها إلا بإذن الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

١٠ - ومنها: أن قدرة الله عزَّ وجلَّ فوق الأسباب؛ وأنه مهما وجدت الأسباب - والله لم يأذن - فإن ذلك لا يؤثر؛ وهذا لا يوجب لنا أن لا نفعل الأسباب؛ لأن الأصل أن الأسباب مؤثرة بإذن الله.

١١ - ومنها: الإشارة إلى أنه ينبغي اللجوء إلى الله دائمًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ فإذا علمت أن كل شيء بإذن الله فإذنْ تلجأ إليه سبحانه وتعالى في جلب المنافع، ودفع المضار.

١٢ - ومنها: أنَّ تعلم السحر ضرر محض، ولا خير فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾؛ فأثبت ضرره، ونفى نفعه.

١٣ - ومنها: أن كفر الساحر كفر مخرج عن الملة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ يعني: من نصيب؛ وليس هناك أحد ليس له نصيب في الآخرة إلا الكفار؛ فالمؤمن مهما عذب فإن له نصيبًا من الآخرة.

١٤ - ومنها: أن هؤلاء اليهود تعلموا السحر عن علم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾.

١٥ - ومنها: إثبات الجزاء، وأنه من جنس العمل؛ فإن الكافر لما لم يجعل لله نصيبًا في دنياه لم يجعل الله له نصيبًا من الآخرة.

١٦ - ومنها: ذم هؤلاء اليهود بما اختاروه لأنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾

١٧ - ومنها: أن صاحب العلم الذي يَنتفِع بعلمه هو الذي يحذر مثل هذه الأمور؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: لو كانوا ذوي علم نافع ما اشتروا هذا العلم الذي يضرهم، ولا ينفعهم؛ والذي علموا: أنَّ من اشتراه ما له في الآخرة من خلاق.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ أي بقلوبهم ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ أي: بجوارحهم؛ فالإيمان بالقلب؛

والتقوى بالجوارح؛ هذا إذا جمع بينهما؛ وإن لم يجمع بينهما صار الإيمان شاملًا للتقوى، والتقوى شاملة للإيمان؛ لقول النبي ﷺ: «التَّقْوَى هَاهُنَا»[1] وأشار إلى قلبه؛ والإيمان عند أهل السنة والجماعة: «التصديق مع القبول والإذعان»؛ وإلا فليس بإيمان؛ و(التقوى) أصلها: وَقْوَى؛ وهي اتخاذ وقاية من عذاب الله؛ وذلك بفعل أوامر الله، واجتناب نواهيه؛ وهذا أجمع ما قيل في معناها؛ وإلا فبعضهم قال: (التقوى): أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله؛ وأن تترك معصية الله على نور من الله تخشى عقاب الله؛ وبعضهم قال في تعريف (التقوى):

خَلِّ الذُّنُوْبَ صَغِيْرَهَا ... وَكَبِيْرَهَا ذَاكَ التُّقَى

وَاعْمَلْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْ ... ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى

لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيْرَةً ... إِنَّ الجِبَالَ مِنَ الحَصَى

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾: (أن) هنا مفتوحة الهمزة؛ و(أن) من الحروف المصدرية التي تؤول وما بعدها بمصدر فاعل لفعل محذوف؛ والتقدير: لو ثبت أنهم آمنوا، أي: إيمانهم.

قوله تعالى: ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾؛ (المثوبة) و(الثواب) بمعنى: الجزاء؛ وسمي بذلك؛ لأنه من ثاب يثوب: إذا رجع؛ لأن الجزاء كأنه عملُ الإنسان رجع إليه وعاد إليه منفعته وثمرته.

قوله تعالى: ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أضافها الله إلى نفسه، وجعلها من عنده لأمرين:

الأول: أنها تكون أعظم مما يتصوره العبد؛ لأن العطاء من العظيم عظيم؛ فالعطية على حسب المعطي؛ عطية البخيل قليلة؛ وعطية الكريم كثيرة.

الثاني: اطمئنان العبد على حصولها؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد.

قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ﴾: الأولى أن نقول: هي خيرية مطلقة. خير من كل شيء.؛ واللام في قوله: ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ واقعة في جواب ﴿لَوْ﴾؛ ويوقف عند قوله: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾؛ ولا توصل بما بعدها؛ لأنها لو وصلت به لاختل المعنى؛ حيث تكون مع الوصل: المثوبة خير بشرط العلم؛ والأمر ليس كذلك؛ وعلى هذا فجواب ﴿لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ محذوف تقديره: لآمنوا واتقوا.

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: سعة حلم الله، حيث يعرض عليهم الإيمان والتقوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ يعني: فيما مضى وفيما يستقبل؛ وهذه من سنته سبحانه وتعالى أن يعرض التوبة على المذنبين؛ انظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٨٧٠٧)، والبيهقي في «الكبرى» (١١٢٧٦)، وأبويعلى في «مسنده» (٢٩٢٣)، وقال الشيخ شعيب رحمه الله تعالى: إسناده جيد على شرط مسلم.

عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠] فهم يحرِّقون أولياءه، ثم يعرض عليهم التوبة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾.

٢ - **ومنها**: أن الإيمان يُنال به ثواب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾.

٣ - **ومنها**: أن ثواب الله خير لمن آمن واتقى من الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ أي: خير من كل شيء؛ قال رسول الله ﷺ: «**لَمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا وَمَا فِيْهَا**»[1].

٤- **ويؤخذ منها**: ومن قوله تعالى عن الناصحين، لمن تمنوا أن يكون لهم مثل ما لقارون: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [القصص: ٨٠]، أنَّ التقوى هي العمل الصالح.

٥ - **ومنها**: أن فعل هؤلاء اليهود، واختيارهم لما فيه الكفر من تعلم السحر فعلُ الجاهل؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

❀ ❀ ❀

❀ قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَٰعِنَا وَقُولُوا ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤]

❀ التفسير ❀

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: تصدير الحكم بالنداء دليل على الاهتمام به؛ لأن النداء يوجب انتباه المنادَى؛ ثم النداء بوصف الإيمان دليل على أن تنفيذ هذا الحكم من مقتضيات الإيمان؛ وعلى أن فواته نقص في الإيمان؛ قال ابن مسعود رضي الله عنه: «**إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فأرعها سمعك؛ يعني: استمع لها؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه**»[2]. وهذه الآية من النهي: ﴿لَا تَقُولُوا رَٰعِنَا﴾ يعني: لا تقولوا عند مخاطبة النبي ﷺ - راعنا؛ و﴿رَٰعِنَا﴾ من المراعاة؛ وهي العناية بالشيء والمحافظة عليه؛ وكان الصحابة إذا أرادوا أن يتكلموا مع الرسول ﷺ قالوا: «**يا رسول الله، راعنا**»؛ وكان اليهود يقولون: «**يا محمد، راعنا**»؛ لكن اليهود يريدون بها سيئًا؛ فيريدون (راعنا) اسم فاعل من الرعونة؛ يعني: أن الرسول ﷺ راعن؛ ومعنى (الرعونة): الحمق والهوج؛ لكن لما كان اللفظ واحدًا، وهو محتمل للمعنيين نهى الله

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه ابن حنبل في «الزهد» (١١٥٨)، وابن المبارك في «الزهد» (١/ ١٣).

عزَّ وجلَّ المؤمنين أن يقولوه تأدبًا وابتعادًا عن سوء الظن؛ ولأن من الناس من يتظاهر بالإيمان - مثل المنافقين - فربما يقول: «راعنا» وهو يريد ما أرادت اليهود؛ فلهذا نُهي المسلمون عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ انظُرْنَا﴾ يعني: إذا أردتم من الرسول أن ينتظركم فلا تقولوا: ﴿رَاعِنَا﴾؛ ولكن قولوا: ﴿انظُرْنَا﴾: فعل طلب؛ و(النظر) هنا بمعنى: الانتظار؛ كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، أي: ما ينتظر هؤلاء.

قوله تعالى: ﴿وَاسْمَعُواْ﴾ فعل أمر من السمع بمعنى الاستجابة؛ أي: اسمعوا سماع استجابة وقبول، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١] يعني اسمعوا ما تؤمرون به فافعلوه، وما تنهون عنه فاتركوه.

قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ المراد بـ (الكافرين) هنا: اليهود؛ و﴿عَذَابٌ﴾ بمعنى: عقوبة؛ و﴿أَلِيمٌ﴾ بمعنى: مؤلم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أنه ينبغي استعمال الأدب في الألفاظ؛ يعني: أن يُتجنب الألفاظ التي توهم سبًّا وشتمًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا﴾

٢ - **ومنها:** أن الإيمان مقتضٍ لكل الأخلاق الفاضلة؛ لأن مراعاة الأدب في اللفظ من الأخلاق الفاضلة.

٣ - **ومنها:** أن مراعاة الأخلاق الفاضلة من الإيمان.

٤ - **ومنها:** أنه ينبغي لمن نهى عن شيء أن يدل الناس على بدله المباح؛ فلا ينهاهم، ويجعلهم في حيرة.

٥ - **ومنها:** وجوب الانقياد لأمر الله ورسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَاسْمَعُواْ﴾

٦ - **ومنها:** التحذير من مخالفة أمر الله، وأنها من أعمال الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾؛ ﴿مَّا﴾ نافية؛

و﴿يَوَدُّ﴾ بمعنى يحب؛ و«الود» خالص المحبة؛ و﴿مِنْ﴾ هنا لبيان الجنس؛ وليست للتبعيض؛ وعليه يصير المعنى أن أهل الكتاب كلهم كفار؛ ﴿وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ معطوفة على قوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: ما يود الذين كفروا من هؤلاء، ولا هؤلاء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾؛ لأنها لو كانت معطوفة على ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لكانت بالرفع؛ فعلى هذا تكون ﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس؛ أي: الذين كفروا من هذا الصنف. الذين هم أهل الكتاب؛ وكذلك من المشركين.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾: ﴿أَنْ يُنَزَّلَ﴾ مفعول ﴿يَوَدُّ﴾ يعني: ما يودون تنزيل خير؛ وقوله تعالى: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾: ﴿مِنْ﴾ زائدة إعرابًا؛ و«الخير» هنا: يشمل خير الدنيا والآخرة، القليل والكثير؛ لو حصل للكافرين من أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن المشركين أن يمنعوا القطر عن المسلمين لفعلوا؛ لأنهم ما يودون أن ينزل علينا أيَّ خير؛ ولو تمكنوا أن يمنعوا العلم النافع عنا لفعلوا؛ وهذا ليس خاصًّا بأهل الكتاب والمشركين في زمان الرسول ﷺ؛ بل هو عامٌّ؛ ولهذا جاء بصيغة المضارع: ﴿مَا يَوَدُّ﴾؛ وهو دال على الاستمرار.

وقوله تعالى: ﴿يُنَزَّلَ﴾ بتشديد الزاي؛ وفي قراءة بدون تشديد؛ والفرق بينهما أن «التنزيل»: هو إنزاله شيئًا فشيئًا؛ وأما (الإنزال): فهو إنزاله جملةً واحدةً؛ هذا هو الأصل؛ فهم لا يودون هذا ولا هذا: لا أن ينزل علينا الخير جملة واحدة؛ ولا أن ينزل شيئًا فشيئًا.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ (يختص) تستعمل لازمةً ومتعديةً؛ فإن كانت لازمة فإن ﴿مَنْ﴾ فاعل ﴿يَخْتَصُّ﴾؛ والمعنى على هذا: ينفرد برحمته من يشاء؛ كما تقول: اختصصت بهذا الشيء: أي: انفردت به؛ وإن كانت متعدية فهي بمعنى: يخص برحمته من يشاء؛ وعلى هذا فتكون ﴿مَنْ﴾ مفعولًا به لـ﴿يَخْتَصُّ﴾؛ وعلى كلا الوجهين المعنى واحد: أي: أن الله عزَّ وجلَّ يخص برحمته من يشاء؛ فيختص بها.

وقوله تعالى: ﴿بِرَحْمَتِهِ﴾ يشمل رحمة الدين والدنيا ومن ذلك: رحمة الله بإنزال هذا الوحي على محمد ﷺ؛ لأن هذا الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ هو من رحمة الله عليه، وعلينا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ هذا مقرون بالحكمة؛ يعني اختصاصه بالرحمة لمن يشاء مبني على حكمته سبحانه وتعالى؛ فمن اقتضت حكمته ألا يختصه بالرحمة لم يرحمه.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ﴾ أي: ذو العطاء الزائد عما تتعلق به الضرورة؛ و﴿الْعَظِيمِ﴾ أي: الواسع الكثير الكبير؛ فالعِظم هنا يعود إلى الكمية، وإلى الكيفية.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** بيان عداوة غير المسلمين للمسلمين؛ لأنه تعالى ذكر صنفين ينتظمان

جميع الأصناف: أهل الكتاب - وهم اليهود، والنصارى.؛ والمشركين - وهم كل أصحاب الأوثان؛ فكل هؤلاء أعداء للمسلمين؛ لأنهم لا يودون الخير للمسلمين.

٢ - **ومنها:** أنه يجب علينا أن نحذر من كل تصرف يصدر عن اليهود، والنصارى، والمشركين، ونتخذهم أعداءً، وأن نعلم أنهم بجميع تصرفاتهم يحاولون أن يمنعوا الخير عن المسلمين.

٣ - **ومنها:** أن هؤلاء الكفار يودون أن يمنعوا عن المسلمين التقدم.

٤ - **ومنها:** أنه يحرم على المسلمين أن يُوَلُّوا هؤلاء الكفار أيَّ قيادة؛ لأنهم ما داموا لا يودون لنا الخير فلن يقودونا لأيّ خير مهما كان الأمر؛ ولهذا يحرم أن يجعل لهم سلطة على المسلمين لا في تخطيط، ولا في نظام، ولا في أي شيء؛ بل يجب أن يكونوا تحت إمرة المسلمين، وتحت تدبيرهم ما أمكن؛ وإذا استعنا بهم فإنما نستعين بهم لإدراك مصالحنا وهم تحت سلطتنا؛ لأنهم لو استطاعوا أن يمنعوا القطر وينبوع الأرض عن المسلمين لفعلوا؛ إذن فيجب علينا الحذر من مخططاتهم، وأن نكون دائمًا على سوء ظن بهم؛ لأن إحسان الظن بهم في غير محله؛ وإنما يحمل عليه الذل، وضعف الشخصية، والخور، والجبن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ وهي شاملة لخير الدنيا والآخرة؛ فاليهود حسدوا المسلمين لما آمنوا بمحمد ﷺ، ونزل عليهم هذا الكتاب.

٥ - **ومن فوائد الآية:** أن خير الله لا يجلبه ودُّ وادٍّ، ولا يرده كراهة كاره؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾؛ فلا يمكن لهؤلاء اليهود والنصارى والمشركين أن يمنعوا فضل الله علينا؛ وعلى هذا جاء الحديث الصحيح: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ؛ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ»[1].

٦ - **ومنها:** أن الإنسان الذي لا يود الخير للمسلمين فيه شَبَهٌ باليهود والنصارى؛ لأن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

٧ - **ومنها:** إثبات المشيئة لله؛ لقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾؛ ومشيئته تعالى عامة في كل شيء سواء كان من أفعاله، أو من أفعال عباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]؛ وأما ما يتعلق بأفعاله تعالى فالأمثلة عليه كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [فاطر: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[آل عمران: ٤٠]، وغير ذلك من الآية.

٨ - **ومن فوائد الآية:** إثبات الرحمة لله؛ لقوله تعالى: ﴿بِرَحْمَتِهِۦ﴾.

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد في «مسنده» (٢٦٦٩)، وأبويعلى في «مسنده» (٢٥٥٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

٩ - ومنها: إثبات الإرادة لله؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ﴾؛ لأن التخصيص يدل على الإرادة.

١٠ - ومنها: إثبات الفضل لله؛ لقوله تعالى: ﴿ذُو الْفَضْلِ﴾.

١١ - ومنها: إثبات أن فضله ليس كفضل غيره؛ ففضل غيره محدود؛ وأما فضل الله ففضل عظيم لا حدود له؛ فإن الله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم؛ ومن فضله تبارك وتعالى: أنه خص هذه الأمة بخصائص عظيمة كثيرة ما جعلها لأحد سواها؛ منها ما جاء في حديث جابر في الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ؛ وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ؛ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي؛ وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ؛ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»[1].

تنبيه: لا يعارض هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]؛ لأن هذه الآية في صنف معين من النصارى: وهم الذين منهم القسيسون والرهبان الذين من صفاتهم أنهم لا يستكبرون؛ فإذا وجد هذا الصنف في عهد الرسول ﷺ، أو بعده انطبقت عليه الآية؛ لكن اختلفت حال النصارى منذ زمن بعيد؛ نسأل الله أن يعيد للمسلمين عزتهم وكرامتهم؛ حتى يعرفوا حقيقة عداوة النصارى، وغيرهم من أهل الكفر، فيعدوا لهم العدة.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾ فيها ثلاث قراءات؛ الأولى: بفتح النون الأولى في ﴿نَنْسَخْ﴾؛ وضمها في ﴿نُنْسِهَا﴾ بدون همز؛ والثانية: بفتح النون الأولى في ﴿نَنْسَخْ﴾؛ وفتحها في ﴿نَنسأها﴾ مع الهمز؛ والثالثة: بضم النون الأولى في ﴿نُنسخ﴾؛ وضمها في ﴿نُنسها﴾ بدون همز.

قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾؛ ﴿مَا﴾: شرطية؛ وهي اسم شرط جازم يجزم فعلين؛ الأول:

---

(١) رواه البخاري (٣٢٨)، ومسلم (٥٢١).

فعل الشرط: ﴿نَنسَخْ﴾؛ والثاني: جوابه: ﴿نَأْتِ﴾؛ وأما قوله تعالى: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ فهي معطوفة على ﴿نَنسَخْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ بضمير الجمع للتعظيم؛ وليس للتعدد؛ لأن الله واحد؛ و(النسخ) معناه في اللغة: الإزالة؛ أو ما يشبه النقل؛ فالأول كقولهم: (نسخت الشمس الظل) يعني أزالته؛ والثاني كقولهم: (نسخت الكتاب)؛ إذ ناسخ الكتاب لم يزله، ولم ينقله؛ وإنما نقش حروفه وكلماته؛ لأنه لو كان (نسخ الكتاب) يعني: نقله كان إذا نسخته انمحت حروفه من الأول؛ وليس الأمر كذلك؛ أما في الشرع: فإنه رفع حكم دليل شرعي، أو لفظه، بدليل شرعي؛ و﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس؛ لأن ﴿مَا﴾ اسم شرط جازم مبهم؛ والمراد بـ «الآية» الآية الشرعية؛ لأنها محل النسخ الذي به الأمر والنهي دون الآية الكونية.

وقوله: ﴿نُنسِهَا﴾ من النسيان؛ وهو ذهول القلب عن معلوم؛ وأما ﴿ننسأها﴾ فهو من «النسأ»؛ وهو التأخير؛ ومعناه: تأخير الحكم، أو تأخير الإنزال؛ أي: أن الله يؤخر إنزالها، فتكون الآية لم تنزل بعد؛ ولكن الله سبحانه وتعالى أبدلها بغيرها؛ وأما على قراءة ﴿ننسها﴾ فهو من النسيان؛ بمعنى نجعل الرسول ﷺ ينساها، كما في قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦. ٧]؛ والمراد به: هنا رفع الآية؛ وليس مجرد النسيان؛ لأن مجرد النسيان لا يقتضي النسخ؛ فالنبي ﷺ قد ينسى بعض الآية؛ وهي باقية كما في الحديث: أن النبي ﷺ قرأ في الصلاة فترك شيئًا لم يقرأه فقال له رجل: تركت آية كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: «هلَّا أَذْكَرْتَنِيهَا»[1].

قوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ هو جواب الشرط؛ والخيرية هنا بالنسبة للمكلف؛ ووجه الخيرية ـ كما يقول العلماء ـ أن النسخ إن كان إلى أشد فالخيرية بكثرة الثواب؛ وإن كان إلى أخف فالخيرية بالتسهيل على العباد مع تمام الأجر؛ وإن كان بالمماثل فالخيرية باستسلام العبد لأحكام الله عزَّ وجلَّ، وتمام انقياده لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

قوله تعالى: ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾ أي: نأتي بمثلها.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الهمزة هنا للاستفهام؛ والمراد به التقرير؛ وكلما جاءت على هذه الصيغة فالاستفهام فيها للتقرير، مثل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]؛ فقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يقرر الله المخاطَب، سواء قلنا: إنه الرسول ﷺ؛ أو كل من يتأتى خطابه بالاستفهام بأنه يعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ يعني: أنك قد علمت قدرة الله على كل شيء؛ ومنها القدرة على النسخ.

---

(١) حسن: رواه أبوداود (٩٠٧)، وابن حبان في صحيحه (٢٢٤١)، والبيهقي في الكبرى (٥٥٧٣)، وحسنه الألباني في تعليقه على السنن.

وقوله تعالى: ﴿قَدِيرٌ﴾: لما أريد بها الوصف جاءت على صيغة (فعيل)؛ لكن إذا أريد بها الفعل تكون بصيغة (الفاعل)، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]؛ و(القدرة): صفة تقوم بالقادر بحيث يفعل الفعل بلا عجز؛ و«القوة» صفة تقوم بالقوي بحيث يفعل الفعل بلا ضعف؛ إذنْ المقابل للقدرة: العجز؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]؛ والمقابل للقوة: الضعف، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: ٥٤]؛ والفرق الثاني بينهما: أن (القوة) يوصف بها من له إرادة، وما ليس له إرادة؛ فيقال: رجل قوي؛ وحديد قوي؛ وأما (القدرة) فلا يوصف بها إلا ذو إرادة؛ فلا يقال: حديد قادر.

تنبيه:

من هذا الموضع من السورة إلى ذكر تحويل القبلة في أول الجزء الثاني، تجد أن كل الآية توطئة لنسخ استقبال القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة؛ ولهذا تجد الآية بعدها كلها في التحدث مع أهل الكتاب الذين أنكروا غاية الإنكار تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** ثبوت النسخ، وأنه جائز عقلًا، وواقع شرعًا؛ وهذا ما اتفقت عليه الأمة إلا أبا مسلم الأصفهاني؛ فإنه زعم أن النسخ مستحيل؛ وأجاب عما ثبت نسخه بأن هذا من باب التخصيص؛ وليس من باب النسخ؛ وذلك لأن الأحكام النازلة ليس لها أمد تنتهي إليه؛ بل أمدها إلى يوم القيامة؛ فإذا نُسِخت فمعناه: أننا خصصنا الزمن الذي بعد النسخ، أي: أخرجناه من الحكم؛ فمثلًا: وجوب مصابرة الإنسان لعشرة حين نزل كان واجبًا إلى يوم القيامة شاملًا لجميع الأزمان؛ فلما نُسخ أخرج بعض الزمن الذي شمله الحكم، فصار هذا تخصيصًا؛ وعلى هذا فيكون الخلاف بين أبي مسلم وعامة الأمة خلافًا لفظيًّا؛ لأنهم متفقون على جواز هذا الأمر؛ إلا إنَّه يسميه تخصيصًا؛ وغيره يسمونه نسخًا؛ والصواب تسميته نسخًا؛ لأنه صريح القرآن: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾؛ ولأنه هو الذي جاء عن السلف.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أن الناسخ خير من المنسوخ؛ لقوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾؛ أو مماثل له عملًا - وإن كان خيرًا منه مآلًا -؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾

٣ - **ومنها:** أن أحكام الله سبحانه وتعالى تختلف في الخيرية من زمان إلى زمان؛ بمعنى: أنه قد يكون الحكم خيرًا للعباد في وقت؛ ويكون غيره خيرًا لهم في وقت آخر.

٤ - **ومنها:** عظمة الله عزَّ وجلَّ لقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ﴾: فإن الضمير هنا للتعظيم؛ وهو سبحانه وتعالى أهل العظمة.

٥ - **ومنها:** إثبات تمام قدرة الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛

ومن ذلك أنه قادر على أن ينسخ ما يشاء.

٦ ـ ومنها: أن قدرة الله عامة شاملة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٧ ـ ومنها: أن القادر على تغيير الأمور الحسية قادر على تغيير الأمور المعنوية؛ فالأمور القدرية الكونية الله قادر عليها؛ فإذا كان قادرًا عليها فكذلك الأمور الشرعية المعنوية؛ وهذه هي الحكمة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ بعد ذكر النسخ.

٨ ـ ومنها: أن الشريعة تابعة للمصالح؛ لأن النسخ لا يكون إلا لمصلحة؛ فإن الله لا يبدل حكمًا بحكم إلا لمصلحة.

قد يقول قائل: ما الفائدة إذن من النسخ إذا كانت مثلها، والله تعالى حكيم لا يفعل شيئًا إلا لحكمة؟

فالجواب: أن الفائدة اختبار المكلف بالامتثال؛ لأنه إذا امتثل الأمر أولًا وآخرًا دل على كمال عبوديته؛ وإذا لم يمتثل دل على أنه يعبد هواه، ولا يعبد مولاه.

مثال ذلك: تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة؛ هذا بالنسبة للمكلف ليس فيه فرق أن يتجه يمينًا أو شمالًا؛ إنما الحكمة من ذلك اختبار المرء بامتثاله أن يتجه حيثما وجه؛ أما المتجَه إليه، وكونه أولى بالاتجاه إليه، فلا ريب أن الاتجاه إلى الكعبة أولى من الاتجاه إلى بيت المقدس؛ ولهذا ضل من ضل، وارتد من ارتد بسبب تحويل القبلة: قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فالإنسان يبتلى بمثل هذا النسخ؛ إن كان مؤمنًا عابدًا لله قال: سمعت وأطعت؛ وإن كان سوى ذلك عاند وخالف: يقول: لماذا هذا التغيير! فيتبين بذلك العابد حقًّا، ومن ليس بعابد.

٩ ـ ومن فوائد الآية: أن الله تعالى وعد بأنه لا يمكن أن ينسخ شيئًا إلا أبدله بخير منه أو مثله؛ ووعده صدق.

١٠ ـ ومنها: ذكر ما يطمئن به العبد حين يخشى أن يقلق فكره؛ لقوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها﴾

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٠٧]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: أن الله وحده الذي له ملك

السموات والأرض فهو ملك الأعيان، والأوصاف، والتدبير؛ فأعيان السموات والأرض وأوصافها ملك لله؛ و(التدبير) يعني: أنه تعالى يملك التدبير فيها كما يشاء: لا معارض له، ولا ممانع؛ و﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جمع سماء؛ ويُطلق على العلو، وعلى السقف المحفوظ ـ وهو المراد هنا ـ وهي سبع سموات كما جاء في القرآن الكريم ـ والسنة النبوية؛ ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: جنس الأرضين، فيشمل السبع كلها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من سواه؛ ﴿مِن وَلِيٍّ﴾: فعيل بمعنى مفعل؛ أي: ما من أحد يتولاكم فيجلب لكم الخير؛ ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: ولا ناصر يدفع عنكم الشر؛ و﴿مِن﴾: حرف جر زائد إعرابًا؛ ولكنه أصلي المعنى؛ إذ إن الغرض منه التنصيص على العموم؛ يعني: ما لكم أيّ ولي.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** تقرير عموم ملك الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ ولا يَرِدُ على هذا إضافة الملك للإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ [النساء: ٣]؛ فإن هذه الإضافة ليست على سبيل الإطلاق؛ لأن ملك الإنسان للأشياء ملك محدود، وناقص، وقاصر؛ محدود من حين استيلائه عليه إلى أن يخرج عن ملكه ببيع، أو هبة، أو موت، أو غير ذلك؛ كذلك هو ناقص: فهو لا يملك التصرف فيه كما يشاء؛ بل تصرفه مقيد بما يباح له شرعًا؛ ولهذا لو أراد أن يحرق ملكه لم يملك ذلك؛ كذلك أيضًا ملك الإنسان قاصر؛ فهو لا يملك إلا ما تحت يده؛ فلا يشمل ملك الآخرين.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** اختصاص ملك السموات والأرض بالله؛ وهذا مأخوذ من تقديم الخبر، حيث إن تقديم الخبر يدل على الحصر؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

٣ ـ **ومنها:** أن من ملك الله أنه ينسخ ما يشاء، ويثبت؛ فكأن قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ تعليل لقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ﴾؛ فالمالك للسموات والأرض يتصرف فيهما كما شاء.

٤ ـ **ومنها:** أنه لا أحد يدفع عن أحد إذا أراد الله به سوءًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

٥ ـ ومنها: أنه يجب على المرء أن يلجأ إلى ربه في طلب الولاية والنصر.

فإذا قال قائل: إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]، ويقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠]؛ فأثبت نصرًا لغير الله.

فالجواب: أن إثبات النصر لغير الله إثبات للسبب فقط؛ وليس نصرًا مستقلًا؛ والنصر المستقل من عند الله؛ أما انتصار بعضنا ببعض؛ فإنه من باب الأخذ بالأسباب؛ وليس على وجه الاستقلال.

٦ ـ ومن فوائد الآية: أن ما يريده الإنسان فهو: إما جلب منفعة يحتاج إلى ولي يجلبها له؛ وإما دفع مضرة يحتاج إلى نصير يدفعها عنه.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [البقرة: ١٠٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا ﴾؛ ﴿ أَمْ ﴾ هنا منقطعة بمعنى (بل) مع همزة الاستفهام؛ أي: بل أتريدون؛ والإضراب هنا ليس للإبطال؛ لأن الأول ليس بباطل؛ بل هو باقٍ؛ فالإضراب هنا إضراب انتقال؛ و(الإرادة) هنا بمعنى المشيئة؛ وإن شئت فقل: بمعنى المحبة؛ والخطاب هنا قيل: إنه لليهود حينما سألوا النبي ﷺ آيات يأتي بها؛ وقيل: إنه للمشركين؛ لقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴾ [الإسراء: ٩٠]؛ وقيل: إنه للمسلمين؛ والآية صالحة للأقوال كلها؛ لأن محمدًا ﷺ رسول للجميع؛ لكن تخصيصها باليهود يبعده قوله تعالى: ﴿ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾؛ فمعنى الآية: أتريدون أن توردوا الأسئلة على رسولكم كما كانت بنو إسرائيل تورد الأسئلة على رسولها؛ ولا شك أن الاستفهام هنا يراد به الإنكار على من يكثرون السؤال على النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ رَسُولَكُمْ ﴾: أضافه سبحانه وتعالى إليهم، مع أنه في آيات كثيرة أضافه الله إلى نفسه كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ ﴾ [المائدة: ١٥]؛ والجمع بين ذلك: أن كل واحدة من الإضافتين تنزل على حال: فهو رسول الله باعتبار أنه أرسله؛ ورسولنا باعتبار أنه أرسل إلينا؛ والمراد به: محمد ﷺ بالإجماع.

قوله تعالى: ﴿ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ أي: كما سأل بنو إسرائيل موسى من قبل، كقولهم: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥]، وقولهم: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وغير ذلك؛ فبنو إسرائيل هم المشهورون بالأسئلة، والتعنت، والإعجاز؛ أما هذه الأمة قد أدّبها الله عزّ وجلّ فأحسن تأديبها: لا يسألون إلا عن أمر لهم فيه حاجة.

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ أي: يأخذ الكفر بديلًا عن الإيمان؛ ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ﴾ أي: تاه ﴿ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي: وسط الطريق؛ يعني: يخرج عن وسط الطريق إلى حافات الطريق، وإلى شعبها؛ وطريق الله واحد؛ وعليك أن تمشي في سواء الصراط أي: وسطه حتى لا تعرض نفسك للضلال.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** إنكار كثرة الأسئلة لرسول الله ﷺ؛ لأن الاستفهام: ﴿أَمۡ تُرِيدُونَ﴾ يقصد به الإنكار؛ وقد قال النبي ﷺ محذرًا من ذلك: «ذَرُوْنِي مَا تَرَكْتُكُم فَإِنَّمَا هَلَكَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُم بِكَثْرةِ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافِهِم عَلَى أَنْبِيَائِهِم»[1]؛ وصح عن النبي ﷺ: «إِنَّ أَعْظَمَ المسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ»[2]؛ فهذا نهي وإنكار على الذين يسألون رسول الله ﷺ مسائل؛ والمطلوب من المسلم في زمن الوحي أن يسكت حتى ينزل ما أراد الله عزَّ وجلَّ من أمر أو نهي.

٢ - **ومن فوائد الآية:** تأكيد ذم هذا النوع من الأسئلة؛ لقوله تعالى: ﴿رَسُولَكُمۡ﴾؛ فكأنه أراد أنه لما كان رسولكم، فالذي ينبغي منكم عدم إعناته بالأسئلة.

٣ - **ومنها:** أن إرسال محمد ﷺ من مصالحنا، ومنافعنا؛ لقوله تعالى: ﴿رَسُولَكُمۡ﴾.

٤ - **ومنها:** أن كثرة الأسئلة للنبي ﷺ فيها مشابهة لليهود؛ لقوله تعالى: ﴿كما سئل موسى من قبل﴾.

٥ - **ومنها:** أنه لا ينبغي إلقاء السؤال إلا لمصلحة: إما رجل وقعت له مسألة يسأل عن حكمها؛ أو طالب علم يتعلم ليستنتج المسائل من أصولها؛ أما الأسئلة لمجرد استظهار ما عند الإنسان فقط؛ أو أقبح من ذلك من يستظهر ما عند الإنسان ليضرب آراء العلماء بعضها ببعض، وما أشبه ذلك؛ أو لأجل إعنات المسئول وإحراجه؛ فكل هذا من الأشياء المذمومة التي لا تنبغي.

٦ - **ومن فوائد الآية:** ذم بني إسرائيل الذين أرسل إليهم موسى ﷺ؛ حيث إن الله سبحانه وتعالى ذكرهم في هذه الآية على سبيل الذم.

٧ - **ومنها:** أن اليهود قد سألوا موسى عن أشياء فكانت العاقبة فيها وخيمة: فقد سألوا عن أشياء بينت لهم؛ لكنهم لم يعملوا بها؛ فكانت نتيجة السؤال الخيبة.

٨ - **ومنها:** إثبات رسالة موسى ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُ﴾ يعني: وهو رسول.

٩ - **ومنها:** ذم من استبدل الكفر بالإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ وهذا يشمل من بقي على كفره بعد عرض الإيمان عليه، ومن ارتد بعد إيمانه؛ فإنه في الحقيقة تبديل؛ لأن كل مولود يولد على الفطرة؛ فإذا كفر فقد تبدل الكفر بالإيمان.

١٠ - **ومنها:** أن من اختار الكفر على الإيمان فهو ضال.

١١ - **ومنها:** عكس هذه المسألة: أن من يتبدل الإيمان بالكفر فقد هُدي إلى سواء السبيل.

١٢ - **ومنها:** الرد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان ليس له إرادة في عمله، وأنه مجبر

(١) رواه البخاري (٦٨٥٨)، ومسلم (١٣٣٧).

(٢) رواه البخاري (٦٨٥٩)، ومسلم (٢٣٥٨).

عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾.

١٣ ـ ومنها: أنه يجب على السائل أن يعمل بما أجيب به؛ لأنه إذا علم ولم يعمل فقد تبدل الكفر بالإيمان من بعد ما تبين له أنكر؛ فالواجب على المرء إذا سأل من يثق به أن يعمل بقوله؛ ولهذا قال العلماء: ومن سأل مفتيًا ملتزمًا بقوله حرم عليه أن يسأل غيره؛ لأنه حين سأله كان يعتقد أن الذي يقوله هو الشرع؛ فإذا كان يعتقد هذا فلا يسأل غيره؛ فإذا سأل إنسانًا يثق به بناءً على أن فتواه هو الشرع، وأفتاه، ولكنه سمع في مجلس عالم آخر حكمًا نقيض الذي أُفتي به مدعَّمًا بالأدلة، فحينئذٍ له أن ينتقل؛ بل يجب عليه؛ أو سأل عالمًا مقتنعًا بقوله للضرورة؛ لأنه ليس عنده في البلد أعلم منه على نية أنه إذا وجد أعلم منه سأله؛ فهذا - أيضًا - يجوز أن يسأل غيره إذا وجد أعلم منه.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:١٠٩]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾؛ ﴿وَدَّ﴾ بمعنى أحب؛ بل إن «الود» خالص المحبة؛ والمعنى: أن كثيرًا من أهل الكتاب يودون بكل قلوبهم أن يردوكم كفارًا؛ أي: يرجعوكم كفارًا؛ وعلى هذا فـ﴿يَرُدُّونَكُم﴾ تنصب مفعولين؛ الأول: الكاف في ﴿يَرُدُّونَكُم﴾؛ والثاني: ﴿كُفَّارًا﴾؛ و﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ هم اليهود والنصارى؛ والمراد بـ﴿الْكِتَابِ﴾: التوراة والإنجيل؛ و﴿لَوْ﴾ هنا مصدرية؛ وضابطها أن تقع بعد (ود) ونحوها؛ و﴿مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ﴾ أي: من بعد أن ثبت الإيمان في قلوبكم.

قوله تعالى: ﴿حَسَدًا﴾ مفعول لأجله عامله: ﴿وَدَّ﴾؛ أي: ودوا من أجل الحسد؛ يعني: هذا الود لا لشيء سوى الحسد؛ لأن ما أنتم عليه نعمة عظيمة؛ وهؤلاء الكفار أعداء؛ والعدو يحسد عدوه على ما حصل له من نعمة الله؛ و(الحسد): تمني زوال نعمة الله على الغير سواء تمنى أن تكون له، أو لغيره، أو لا لأحد؛ فمن تمنى ذلك فهو الحاسد؛ وقيل: (الحسد): كراهة نعمة الله على الغير.

قوله تعالى: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ أي: هذه المودة التي يودونها ليست لله، ولا من الله؛ ولكن من عند أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ أي: من بعد ما ظهر ﴿لَهُمُ﴾ أي: لهؤلاء الكثيرين؛ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ أي: ما أنتم عليه من الحق؛ و«الحق» هو الشيء الثابت؛ فإن وصف به الحكم فالمراد به العدل؛ وإن وصف به الخبر فالمراد به الصدق؛ فـ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام؛ ودين الإسلام على هذا؛ وما جاء به الرسول ﷺ على هذا؛ فإن أخباره صدق، وأحكامه عدل.

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾: الخطاب للمؤمنين عامةً؛ ويدخل فيهم الرسول ﷺ؛ و(**العفو**) بمعنى: ترك المؤاخذة على الذنب؛ كأنه من (**عفا الأثر**): إذا زال لتقادمه؛ و﴿وَٱصۡفَحُواْ﴾: قيل: إنه من باب عطف المترادفين، كقول الشاعر:

.... فَأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِبًا وَمَيْنًا

و(الكذب) و(المين) معناهما واحد؛ ولكن الصواب أن بين (**العفو**)، و(**الصفح**) فرقًا؛ فـ (**العفو**): ترك المؤاخذة على الذنب؛ و(**الصفح**) الإعراض عنه؛ مأخوذ من صفحة العنق؛ وهو أن الإنسان يلتفت، ولا كأن شيئًا صار يوليه صفحة عنقه؛ فـ (**الصفح**) معناه: الإعراض عن هذا بالكلية وكأنه لم يكن؛ فعلى هذا يكون بينهما فرق؛ فـ (**الصفح**) أكمل إذا اقترن بـ (**العفو**).

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ أي: بأمر سوى ذلك؛ وهو الأمر بالقتال.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي: لا يعتريه عجز في كل شيء فعله.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** بيان شدة عداوة اليهود، والنصارى للأمة الإسلامية؛ و وجه ذلك: أن كثيرًا منهم يودون أن يردُّوا المسلمين كفارًا حسدًا من عند أنفسهم.

٢ ـ **ومنها:** أن الكفر بعد الإسلام يسمى ردة؛ لقوله تعالى: ﴿لَوۡ يَرُدُّونَكُم﴾؛ ولهذا الذي يكفر بعد الإسلام لا يسمى باسم الدين الذي ارتد إليه؛ فلو ارتد عن الإسلام إلى اليهودية أو النصرانية لم يعط حكم اليهود والنصارى.

٣ ـ **ومنها:** أن الحسد من صفات اليهود والنصارى.

٤ ـ **ومنها:** تحريم الحسد؛ لأن مشابهة الكفار بأخلاقهم محرمة؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَومٍ فَهُو مِنْهُم»[1]؛ واعلم أن الواجب على المرء إذا رأى أن الله أنعم على غيره نعمة أن يسأل الله من فضله، ولا يكره ما أنعم الله به على الآخرين، أو يتمنى زواله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَ

---

(١) صحيح: رواه أبوداود (٤٠٣١)، وأحمد في «مسنده» (٥١١٤)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٣٩٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٨٣١).

﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢]؛ والحاسد لا يزداد بحسده إلا نارًا تتلظى في جوفه؛ وكلما ازدادت نعمة الله على عباده ازداد حسرة؛ فهو مع كونه كارهًا لنعمة الله على هذا الغير مضاد لله في حكمه؛ لأنه يكره أن ينعم الله على هذا المحسود؛ ثم إن الحاسد أو الحسود ـ مهما أعطاه الله من نعمة لا يرى لله فضلًا فيها؛ لأنه لابد أن يرى في غيره نعمة أكثر مما أنعم الله به عليه، فيحتقر النعمة؛ حتى لو فرضنا أنه تميز بأموال كثيرة، وجاء إنسان تاجر وكسب مكسبًا كبيرًا في سلعة معينة تجد هذا الحاسد يحسده على هذا المكسب، بينما هو عنده ملايين كثيرة؛ وكذلك أيضًا بالنسبة للعلم: بعض الحاسدين إذا برز أحد في مسألة من مسائل العلم تجده ـ وإن كان أعلم منه ـ يحسده على ما برز به؛ وهذا يستلزم أن يحتقر نعمة الله عليه؛ فالحسد أمره عظيم، وعاقبته وخيمة؛ والناس في خير، والحسود في شر: يتتبع نعم الله على العباد؛ وكلما رأى نعمة صارت جمرة في قلبه؛ ولو لم يكن من خُلُق الحسد إلا إنَّه من صفات اليهود لكان كافيًا في النفور منه.

٥ ـ **ومن فوائد الآية:** علم اليهود والنصارى أن الإسلام منقبة عظيمة لمتبعه؛ لقوله تعالى: ﴿حَسَدًا﴾؛ لأن الإنسان لا يحسد إلا على شيء يكون خيرًا ومنقبة؛ ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥].

٦ ـ **ومنها:** وجوب الحذر من اليهود و النصارى ما دام كثير منهم يودون لنا هذا، فإنه يجب علينا أن نحذر منهم.

٧ ـ **ومنها:** بيان خبث طوية هؤلاء الذين يودون لنا الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾؛ ليس من كتاب، ولا من إساءة المسلمين إليهم؛ ولكنه من عند أنفسهم: أنفس خبيثة تود الكفر للمسلمين حسدًا.

٨ ـ **ومنها:** أن هؤلاء الذين يودون الكفر للمسلمين قد تبين لهم الحق؛ فلو كانوا جاهلين بأن المسلمين على حق، وقالوا: «**لا نريد أن نكون على دين مشكوك فيه**» لكان لهم بعض العذر؛ ولكنهم قد تبين لهم الحق، وعلموا أن الرسول ﷺ حق، وأن دينه حق، وأن المؤمنين على حق؛ ومع ذلك فهم يودون هذه المودة، ويسعون بكل سبيل أن يصلوا إلى غايتهم؛ فمن أحب شيئًا سعى في تحصيله؛ فكثير من هؤلاء اليهود والنصارى يسعون بكل ما يستطيعون من قوة مادية، أو أخلاقية، أو غيرهما ليردوا المسلمين بعد الإيمان كفارًا.

٩ ـ **ومن فوائد الآية:** مراعاة الأحوال وتطور الشريعة؛ حيث قال تعالى: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

١٠ ـ **ومنها:** أن الذم إنما يقع على من تبين له الحق؛ وأما الجاهل فهو معذور بجهله إذا لم يقصر في طلب العلم.

١١- **ومنها:** جواز مهادنة الكفار إذا لم يكن للمسلمين قوة.

١٢- **ومنها:** إثبات الحكمة لله عزَّ وجلَّ، حيث أمر بالعفو والصفح إلى أن يأتي الله بأمره؛ لأن الأمر بالقتال قبل وجود أسبابه وتوفر شروطه من القوة المادية والبشرية ينافي الحكمة.

١٣- **ومنها:** الرد على منكري قيام الأفعال الاختيارية بالله عزَّ وجلَّ؛ والذي عليه أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه وتعالى فعال لما يريد؛ فعلًا يليق بجلاله وعظمته وما تقتضيه حكمته؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

١٤- **ومنها:** ثبوت القدرة لله عزَّ وجلَّ، وأنها شاملة لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

١٥- **ومنها:** الرد على المعتزلة القدرية؛ لأنهم يقولون: إن الإنسان مستقل بعمله؛ وإذا كان مستقلًّا بعمله لزم من ذلك أن الله لا يقدر على تغييره؛ لأنه إن قدر على تغييره صار العبد غير مستقل.

١٦- **ومنها:** بشارة المؤمنين بأن الله سبحانه وتعالى سيغير حالهم المقتضية للعفو والصفح، إلى قوة يستطيعون بها جهاد العدو.

١٧- **ومنها:** اتباع الحكمة في الدعوة إلى الله بالصبر، والمصابرة؛ حتى يتحقق النصر، وأنْ تعامَل كل حال بما يناسبها.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة:١١٠]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني: أدوا الصلاة على وجه الكمال؛ لأن إقامة الشيء: جعله قيمًا معتدلًا مستقيمًا؛ فمعنى ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: ائتوا بها كاملةً بشروطها، وواجباتها، وأركانها، ومكملاتها.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: أعطوها؛ وهنا حذف المفعول الثاني؛ والتقدير: وآتوا الزكاة مستحقيها؛ و﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفعول الأول؛ ومستحقوها قد بيَّنهم الله في سورة براءة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ إلخ [التوبة: ٦٠].

و(الزكاة) في اللغة: النماء والزيادة؛ ومنه قولهم: «زكا الزرع» إذا نما وزاد؛ وفي الشرع: هي دفع

مال مخصوص لطائفة مخصوصة تعبدًا لله عزَّ وجلَّ؛ وسميت زكاة؛ لأنها تزكي الإنسان، كما قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]؛ فهي تزكي الإنسان في أخلاقه وعقيدته، وتطهره من الرذائل؛ لأنها تخرجه من حظيرة البخلاء إلى حظيرة الأجواد والكرماء؛ وتكفِّر سيئاته.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم﴾؛ ﴿ما﴾ شرطية؛ لأنها جزمت فعل الشرط، وجوابه.

قوله تعالى: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ يشمل ما يقدمه من المال والأعمال؛ وهو بيان للمبهم في اسم الشرط.

قوله تعالى: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي:تلقونه عند الله يوم القيامة مُدَّخرًا لكم: الحسنة بعشر لا أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ هذه الجملة مؤكدة بـ﴿إِنَّ﴾ مع أن الخطاب ابتدائي؛ إذ إنه لم يوجه إلى متردد ولا منكر؛ والخطاب إذا لم يوجه لمنكر ولا متردد فإنه يسمى ابتدائيًا؛ والابتدائي لا يؤكد؛ لأنه لا حاجة لذلك؛ ولكنه قد يؤكد لا باعتبار حال المخاطب؛ لكن باعتبار أهمية مدلوله؛ فهنا له أهمية عظيمة: أن الله سبحانه وتعالى يخبرنا أنه بكل ما نعمل بصير؛ و﴿ما﴾ اسم موصول يفيد العموم؛ أي: بما نعمل قلبيًا، وبدنيًا؛ قوليًا، وفعليًا؛ لأن القلوب لها أعمال كالمحبة، والخوف، والرغبة، وما أشبه ذلك؛ و﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ متعلقة بـ﴿بَصِيرٌ﴾ وقدمت عليها لغرضين؛ الأول: مراعاة الفواصل؛ لأن التي قبلها فاصلة بالراء: ﴿قَدِيرٌ﴾، وبعدها: ﴿بَصِيرٌ﴾؛ والثاني: من أجل الحصر؛ والحصر هنا وإن كان يقلل من العموم لكنه يفيد الترهيب والترغيب؛ لأنه إذا قيل: أيها أعظم في التهديد أو الترغيب، أن نقول: إن الله بصير بكل شيء مما نعمل، ومما لا نعمل؛ أو أنه بصير بما نعمل فقط؟

فالجواب: أن الأول: أعم؛ والثاني: أبلغ في التهديد و الترغيب؛ وهو المناسب هنا؛ كأنه يقول: لو لم يكن الله بصيرًا إلا بأعمالكم فإنه كافٍ في ردعكم وامتثالكم؛ و﴿بَصِيرٌ﴾ ليس من البصر الذي هو الرؤية؛ لكن من البصر الذي بمعنى العلم؛ لأنه أشمل؛ حيث إنه يعم العمل القلبي والبدني؛ والعمل القلبي لا يدرك بالرؤية.

الفوائد:

١ - من فوائد الآية: وجوب إقامة الصلاة؛ والصلاة تشمل الفريضة والنافلة؛ ومن إقامة الفرائض كثرة النوافل؛ لأنه جاء في الحديث[1] أن النوافل تكمل بها الفرائض يوم القيامة؛ ما من

---

(١) كما عند النسائي (٤٦٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ صَلَاتُهُ فَإِنْ وُجِدَتْ تَامَّةً كُتِبَتْ تَامَّةً وَإِنْ كَانَ انْتَقَصَ مِنْهَا شَيْءٌ قَالَ انْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ لَهُ مِنْ تَطَوُّعٍ يُكَمِّلُ لَهُ مَا ضَيَّعَ مِنْ فَرِيضَةٍ مِنْ تَطَوُّعِهِ ثُمَّ سَائِرُ الأَعْمَالِ تَجْرِي عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ»، وصححه الألباني رحمه الله تعالى في صحيح أبي داود (٨١٠).

إنسان إلا وفي فريضته نقص؛ لكن هذه النوافل تكملها وترقعها.

٢ ـ **ومنها:** وجوب إيتاء الزكاة ـ يعني: لمستحقيها ـ.

٣ ـ **ومنها:** أن الصلاة أوكد من الزكاة؛ ولهذا يقدمها الله عليها في الذكر.

٤ ـ **ومنها:** أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من أسباب النصر؛ لأن الله ذكرها بعد قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: ١٠٩]؛ وقد جاء ذلك صريحًا في قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

٥ ـ **ومنها:** أنه ينبغي للإنسان أن يتشاغل بالأهم فالأهم مع الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ.

٦ ـ **ومنها:** أن كل خير يقدمه العبد لربه عزَّ وجلَّ فإنه سيجد ثوابه عنده.

٧ ـ **ومنها:** أن الثواب عام لجميع الأعمال صغيرها وكبيرها؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾؛ فإنها نكرة في سياق الشرط؛ فتفيد العموم؛ فأيّ خير قدمته، قليلًا كان أو كثيرًا، ستجد ثوابه؛ قال الرسول ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»[1].

٨ - **ومنها:** الترغيب في فعل الخير؛ حيث إن الإنسان يجد ثوابه عند ربه مدخرًا له ـ وهو أحوج ما يكون إليه ـ.

٩ - **ومنها:** أن الإنسان إذا قدم خيرًا فإنما يقدمه لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾؛ ولهذا ليس له من ماله إلا ما أنفق لله؛ وما أخره فلوارثه.

١٠ - **ومنها:** عموم علم الله سبحانه وتعالى بكل ما نعمل.

١١ - **ومنها:** التحذير من المخالفة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ أي: اليهود والنصارى؛ ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾: هذا قول اليهود؛ ﴿أَوْ نَصَارَىٰ﴾: هذا قول النصارى.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ أي: تلك المقالة؛ و﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾ جمع أمنية؛ وهي ما يتمناه

---

(١) رواه البخاري (١٣٤٧)، ومسلم (١٠١٦).

الإنسان بدون سبب يصل به إليه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد؛ ﴿هَاتُوا﴾: فعل أمر؛ لأن ما دل على الطلب ولحقته العلامة فهو فعل أمر؛ يقال: «هاتي» للمرأة؛ «هاتيا» للاثنين؛ والأمر هنا للتحدي، والتعجيز؛ ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: دليلكم؛ مِن (**برهن على الشيء**): إذا بينه؛ أو من (**بَرَه الشيء**): إذا وضح بالعلامة؛ فعلى الأول: تكون النون أصلية؛ وعلى الثاني: تكون النون زائدة؛ وعلى القولين جميعًا فـ (**البرهان**) هو الذي يتبين به حجة الخصم؛ يعني: ما نقبل كلامكم إلا إذا أقمتم عليه الدليل؛ فإذا أقمتم عليه الدليل فهو على العين، والرأس.

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني: أن هذا أمر لا يمكن وقوعه؛ فهو تحدٍّ، كقوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٩٤، ٩٥]؛ فإذا كانوا صادقين في زعمهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى فليأتوا بالبرهان؛ ولن يأتوا به؛ إذنْ: يكونون كاذبين.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: بيان ما كان عليه اليهود والنصارى من الإعجاب بما هم عليه من الدين.

٢ ـ ومنها: تعصب اليهود والنصارى؛ وتحجيرهم لفضل الله.

٣ ـ ومنها: أن ما ادعوه كذب؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾؛ فعلى قول هؤلاء اليهود يكون النصارى والمسلمون لن يدخلوا الجنة؛ وقد سبق أن قالوا: لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة ثم تخلفوننا فيها؛ وعلى قول النصارى لا يدخل اليهود ولا المسلمون الجنة؛ أما اليهود فصحيح: فإنهم كفروا بعيسى، وبمحمد؛ ومن كفر بهما فإنه لن يدخل الجنة؛ وأما بالنسبة للمسلمين فغير صحيح؛ بل المسلمون هم أهل الجنة؛ وأما اليهود والنصارى الذين لم يتبعوا رسول الله ﷺ فهم أهل النار؛ لقول النبي ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِمَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»(١)؛ فالحاصل: أن هذا القول ـ وهو قولهم: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى ـ كذب من الطرفين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾؛ وقال النبي ﷺ: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الموتِ، والعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى الله الأَمَانِيَّ**»(٢).

٤ ـ ومن فوائد الآية: أن من اغتر بالأماني، وطمع في المنازل العالية بدون عمل لها، ففيه شَبه من اليهود، والنصارى.

---

(١) رواه مسلم (١٥٣)، وأحمد في «مسنده» (٨١٨٨)، والبغوي في «شرح السنة» (١/ ١٠٤).

(٢) ضعيف: رواه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، وأحمد في «مسنده» (١٧١٦٤)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٣٠٥).

٥ - **ومنها:** عدل الله عزَّ وجلَّ في مخاطبة عباده؛ حيث قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾؛ لأن هذا من باب مراعاة الخصم، وأنه إن كان لكم بينة فهاتوها؛ وهذا لا شك من أبلغ ما يكون من العدل؛ وإلا فالحكم لله العلي الكبير.

٦ - **ومنها:** أن هؤلاء لا برهان لهم على ما ادعَوه؛ بدليل أنهم لم يأتوا به.

٧ - **ومنها:** أنهم كاذبون؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ ولو كان لهم أدنى حيلة بما يبرر قولهم، ويصدِّقه لأتوا بها.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾: هذا إبطال للنفي في قولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾ إلخ؛ وإن كان بعض المفسرين يقول: إن ﴿بَلَىٰ﴾ هنا بمعنى «بل»؛ ولكن نقول: ﴿بَلَىٰ﴾ هنا حرف جواب تفيد إبطال النفي؛ يعني: لما قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾ إلخ قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: يدخل الجنة من ليس هودًا أو نصارى؛ وبيَّنه بقوله تعالى: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ﴾؛ ﴿مَنْ﴾ شرطية؛ وهي مبتدأ؛ وجواب الشرط قوله تعالى: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾؛ والمراد بـ **(الوجه)** القصد، والنية، والإرادة؛ «أسلمه لله» أي: جعل اتجاهه، وقصده، وإرادته خالصًا لله عزَّ وجلَّ؛ وعبر بـ **(الوجه)**؛ لأنه الذي يدل على قصد الإنسان؛ ولهذا يقال: أين كان وجه فلان؟ يعني: أين كان قصده واتجاهه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: الجملة في محل نصب على الحال من فاعل ﴿أَسْلَمَ﴾؛ يعني: أسلم والحال أنه محسن أي: متبع لشريعة الله ظاهرًا وباطنًا.

قوله تعالى: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ أي: ثوابه؛ وشبَّهه بالأجر؛ لأن الله التزم به للعامل.

قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾: أضاف العندية إليه لفائدتين:.

الفائدة الأولى: أنه عظيم؛ لأن المضاف إلى العظيم عظيم؛ ولهذا جاء في حديث أبي بكر الذي علمه الرسول ﷺ إياه أنه قال: «فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ»[1].

والفائدة الثانية: أن هذا محفوظ غاية الحفظ، ولن يضيع؛ لأنك لا يمكن أن تجد أحدًا أحفظ

---

(١) رواه البخاري (٧٩٩)، ومسلم (٢٧٠٥).

من الله؛ إذنْ فلن يضيع هذا العمل؛ لأنه في أمان غاية الأمان.

وأضافه إلى وصف الربوبية ليبين كمال عناية الله بالعامل، وإثابته عليه؛ فالربوبية هنا: من الربوبية الخاصة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبل من أمرهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: فيما مضى من أمرهم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن أهل الجنة هم الذين جمعوا بين وصفين: الأول: الإخلاص لله؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾.

والثاني: اتباع شرعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

٢ - **ومنها:** أن إخلاص النية وحده لا يكفي في تبرير التعبد لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾؛ وعلى هذا فمن قال: إنه يحب الله، ويخلص له وهو منحرف في عبادته، فإنه لا يدخل في هذه الآية؛ لاختلال شرط الإحسان.

ويتفرع على هذه الفائدة : أن أهل البدع لا ثواب لهم على بدعهم - ولو مع حسن النية -؛ لعدم الإحسان الذي هو المتابعة؛ والأجر مشروط بأمرين: الأول: إسلام الوجه لله؛ والثاني: الإحسان.

٣ - **ومن فوائد الآية:** الدلالة على الشرطين الأساسيين في العبادة؛ وهما: الإخلاص؛ والمتابعة للرسول ﷺ.

٤ - **ومنها:** ثبوت الأجر في الآخرة، وأن العمل لن يضيع؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

٥ - **ومنها:** أن الجزاء من جنس العمل.

٦ - **ومنها:** عظم الثواب؛ لإضافته إلى الله في قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾

٧ - **ومنها:** انتفاء الخوف والحزن لمن تعبد لله سبحانه وتعالى بهذين الوصفين؛ وهما: الإخلاص والمتابعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]

٨ - **ومنها:** حسن عاقبة المؤمنين بانتفاء الخوف والحزن عنهم؛ وغير المؤمنين تُملأ قلوبهم رعبًا وحزنًا؛ قال تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ [مريم: ٣٩] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تحسر هؤلاء الذين لم يهتدوا إلى صراط الحميد.

٩ - **ومن فوائد الآية:** الحث على الإخلاص لله سبحانه وتعالى في العبادة، واتباع الشرع فيها؛ لأن الله إنما أخبرنا بهذا الثواب لمن أخلص واتبع الشريعة من أجل أن نقوم بذلك؛ وليس لمجرد

الخبر؛ وهكذا يقال في كل ما أخبر الله به من ثواب على طاعة، أو عقاب على معصية؛ فإنه إنما يراد به الحث على الطاعة، والزجر عن المعصية.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ يعني: على شيء من الدين.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ يعني: على شيء من الدين.

وإنما قالت اليهود ذلك؛ لأنهم يكفرون بعيسى، ولا يرون شريعته دينًا؛ وقالت النصارى: ﴿لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾؛ لأنهم يرون أن الدين الحق ما كانوا عليه، واليهود قد كفروا به؛ أما عن دعوى اليهود، فإنها باطلة على كل تقدير؛ لأن النصارى بلا شك على دين قبل بعثة النبي ﷺ؛ وأما دعوى النصارى في اليهود فحق؛ لأن دينهم نسخ بما جاء به عيسى؛ إذ إنهم يجب عليهم أن يؤمنوا بعيسى؛ فإذا كذبوه لم يكونوا على شيء من الدين؛ بل هم كفار.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: الجملة هذه حالية؛ والضمير ﴿هم﴾ يعود على اليهود والنصارى؛ يعني: والحال أن هؤلاء المدعين كلهم ﴿يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: يقرءونه؛ والمراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الجنس، فيشمل التوراة والإنجيل؛ و«كتاب» فعال بمعنى مفعول؛ لأن الكتب المنزلة من السماء تكتب وتُقرأ؛ ولا سيما أن التوراة كتبها الله بيده سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾؛ قال المعربون: إن الكاف في مثل هذا التعبير اسم بمعنى «مثل»، وأنها منصوبة على المفعولية المطلقة؛ وأن «ذلك» اسم إشارة يشير إلى المصدر؛ أي: مثلَ ذلك القول قال: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ يعني: الذين لم يقرؤوا كتابًا؛ وكلمة ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ تأكيد لـ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ قالوا: لأن العامل الواحد لا ينصب معمولين بمعنى واحد.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ قال بعض المفسرين: المراد بهم كفار قريش ـ أهل الجاهلية ـ؛ لأنهم قالوا: إن محمدًا ﷺ ليس على دين، وليس على شيء؛ وقال بعض المفسرين: إنهم أمم سابقة؛ وقال بعض المفسرين: إنهم طوائف من اليهود والنصارى؛ يعني: أن الذين يتلون الكتاب من اليهود، والنصارى، قالوا مثل قول الذين لا يعلمون منهم؛ فاستوى قول عالمهم وجاهلهم؛

والأحسن أن يقال: إن الآية عامة ـ مثل ما اختاره ابن جرير، وغيره ـ؛ لأن القاعدة تقول: إن النص من الكتاب والسنة إذا كان يحتمل معنيين لا منافاة بينهما، ولا يترجح أحدهما على الآخر فإنه يحمل على المعنيين جميعًا؛ لأنه أعم في المعنى؛ وهذا من سعة كلام الله عزَّ وجلَّ، وكلام رسوله ﷺ، وشمول معناهما؛ وهذه قاعدة مهمة ينبغي أن يحتفظ بها الإنسان.

قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ الفاء: حرف عطف؛ ولفظ الجلالة مبتدأ؛ وجملة: ﴿يَحۡكُمُ﴾ في محل رفع خبر المبتدأ؛ و﴿يَحۡكُمُ﴾ للمستقبل؛ و(الحكم) معناه: القضاء والفصل بين الشيئين؛ والله ـ تبارك وتعالى ـ يوم القيامة يقضي بين الناس فيما كانوا فيه يختلفون؛ فيبين لصاحب الحق حقه ويجزيه به؛ و﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ هو اليوم الذي يبعث فيه الناس؛ وسمي بذلك لأمور ثلاثة سبق ذكرها.

قوله تعالى: ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ أي: في الخلاف الواقع بينهم؛ ومعلوم أن هناك خلافًا بين اليهود والنصارى؛ بل النصارى الآن مختلفون في مللهم بعضهم مع بعض اختلافًا جوهريًا في الأصول؛ واليهود كذلك على خلاف؛ وكذلك المسلمون عامة مع الكفار؛ والذي يحكم بينهم هو الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: أن الأمم الكافرة يكفِّر بعضها بعضًا؛ فهم أعداء بعضهم لبعض من جهة؛ وأولياء بعضهم لبعض من جهة أخرى: بالنسبة لنا هم بعضهم لبعض وليّ؛ وبالنسبة لما بينهم بعضهم لبعض عدو؛ فالإسلام عدو مشترك لليهودية والنصرانية وسائر الكفار؛ فيجب أن يتولى بعضنا بعضًا.

٢ ـ ومنها: شدة قبح قول من خالف الحق وهو يعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ فهذه الجملة تفيد زيادة القبح فيما قالوه؛ حيث قالوا ذلك وهم يتلون الكتاب، ويعرفون الحق؛ فالنصارى تتلو التوراة وتعرف أن اليهود تدين بالتوراة ـ وهم على دين صحيح قبل بعثة عيسى ـ؛ واليهود أيضًا يتلون الإنجيل، ويعرفون أن عيسى حق؛ لكنهم كفروا استكبارًا؛ ولا ريب أن الذي ينكر الحق مع العلم به، أعظم قبحًا من الذي ينكر الحق مع الجهل به؛ لأن هذا معاند مكابر بخلاف الجاهل، فالجاهل ينكر الحق للجهل به؛ ثم إذا تبين له الحق اتبعه، إذا كان المانع له من اتباعه الجهل؛ لكن العالم لا عذر له.

٣ ـ ومن فوائد الآية: إثبات يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ والإيمان بيوم القيامة أحد أركان الإيمان الستة؛ ولأهميته يقرنه الله سبحانه وتعالى كثيرًا بالإيمان به عزَّ وجلَّ.

٤ ـ ومنها: إثبات الحكم لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾؛ وحكم الله سبحانه وتعالى ينقسم إلى ثلاثة أقسام: شرعي، وكوني، وجزائي.

فالشرعي: مثل قوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠].

والكوني: مثل قوله تعالى عن أخي يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠].

والجزائي: مثل هذه الآية: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ والحكم الجزائي هو ثمرة الحكم الشرعي؛ لأنه مبني عليه: فإن خيرًا فخير؛ وإن شرًّا فشر؛ و هذا الحكم يوم القيامة بين الناس إما بالعدل؛ أو بالفضل؛ ولا يمكن أن يكون بالظلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقوله تعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُم مُحَرَّمًا»[1]؛ هذا بالنسبة لحقوق الله؛ أما بالنسبة لحقوق الخلق فيما بينهم فيقضي بينهم بالعدل.

فإذا قال قائل: إذا كان الله تعالى يجزي المؤمنين بالفضل، فما الجواب عن قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ [يونس: ٤] ؟

فالجواب: أن هذا هو الذي أوجبه الله على نفسه؛ والفضل زيادة؛ والمقام مقام تحذير.

٥ - ومن فوائد الآية: أن هؤلاء الذين اختلفوا في الحق والباطل، سوف يكون القضاء بينهم يوم القيامة بين يدي الله عزَّ وجلَّ؛ فيجزي صاحب الحق بعمله، ويجزي صاحب الباطل بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾، وقوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]؛ ولهذا لا يوجد حكم يبين للخصم أن الحق له دون خصمه إلا في هذا؛ فالقاضي مثلًا لا يقول لأحد الخصمين: «لن يكون لخصمك سبيل عليك» حتى يتبين، ويأتي كلٌّ بحجته؛ لكن هنا بيّن الله أن الكافرين ليس لهم سبيل على المؤمنين؛ لأن الحجة واضحة للجميع.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾: ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام؛ وهي مبتدأ؛ و﴿أَظْلَمُ﴾ خبرها؛

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٦١٩)، والبيهقي في «الكبرى» (١١٢٨٣).

والاستفهام هنا: بمعنى النفي؛ يعني لا أحد أظلم؛ والميزان الذي يبيِّن أن الاستفهام بمعنى النفي أنك لو حذفت الاستفهام وأقمت النفي مقامه لصح؛ والفائدة من تحويل النفي إلى الاستفهام أنه أبلغ في النفي؛ إذ إن الاستفهام الذي بمعنى النفي مشرب معنى التحدي؛ كأنه يقول: بيِّنوا لي أيّ أحد أظلم من كذا وكذا.

وقوله تعالى: ﴿أَظْلَمُ﴾ اسم تفضيل من الظلم؛ وأصله في اللغة النقص؛ وهو أن يفرِّط الإنسان فيما يجب؛ أو يعتدي فيما يحرم؛ ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: لم تنقص؛ وهو في الشرع بهذا المعنى؛ لأن الظلم عبارة عن تفريط في واجب، أو انتهاك لمحرم - وهذا نقص -.

قوله تعالى: ﴿مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾: «مِن» حرف جر؛ و﴿مَن﴾ اسم موصول؛ أي: من الذي منع؛ وأضيفت المساجد إلى الله عز وجل؛ لأنها محل عبادته؛ فتكون الإضافة هنا من باب التشريف.

وقوله تعالى: ﴿مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ منصوب على أنه مفعول ﴿مَنَعَ﴾؛ و﴿أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ بدل منه.

قوله تعالى: ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ معطوف على ﴿مَنَعَ﴾؛ يعني: جمع وصفين: منع المساجد أن يذكر فيها اسمه؛ والسعي في خرابها؛ والخراب: هو الفساد، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [الحشر: ٢].

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ اسم إشارة، يعود إلى الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وسعوا في خرابها؛ قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ يحتمل ثلاثة معان:

الأول: ما كان ينبغي لهؤلاء أن يدخلوها إلا خائفين، فضلًا عن أن يمنعوا عباد الله؛ لأنهم كافرون بالله عز وجل؛ فليس لهم حق أن يدخلوا المساجد إلا خائفين.

الثاني: أن هذا خبر بمعنى النهي؛ يعني: لا تدعوهم يدخلوها - إذا ظهرتم عليهم - إلا خائفين.

الثالث: أنها بشارة من الله عز وجل أن هؤلاء الذين منعوا المساجد - ومنهم المشركون الذين منعوا النبي ﷺ المسجد الحرام - ستكون الدولة عليهم، ولا يدخلونها إلا وهم ترجف قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي: ذل وعار ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: عقوبة عظيمة.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: أن المعاصي تختلف قبحًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ و﴿أَظْلَمُ﴾ اسم تفضيل؛ واسم التفضيل يقتضي مفضَّلًا، ومفضَّلًا عليه؛ وكما أن المعاصي تختلف، فكذلك الطاعات تختلف: بعضها أفضل من بعض؛ وإذا كانت الأعمال تختلف، فالعامل نتيجة لها يختلف؛ فبعض الناس أقوى إيمانًا من بعض؛ وبهذا نعرف أن القول الصحيح قول أهل السنة والجماعة في

أن الإيمان يزيد وينقص، والناس يتفاوتون تفاوتًا عظيمًا، لا في الكسب القلبي، ولا في الكسب البدني: فإن الناس يتفاوتون في اليقين؛ ويتفاوتون في الأعمال الظاهرة من قول أو فعل.

يتفاوتون في اليقين: فإن الإنسان نفسه تتفاوت أحواله بين حين وآخر؛ في بعض الأحيان يصفو ذهنه وقلبه، حتى كأنما يشاهد الآخرة رأي عين؛ وفي بعض الأحيان تستولي عليه الغفلة، فيقِلُّ يقينه؛ ولهذا قال الله تعالى لإبراهيم: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ وتفاوت الناس في العلم واليقين أمر معلوم: فلو أتى رجل، وقال: «قدم فلان» - والرجل ثقة عندي - صار عندي علم بقدومه؛ فإذا جاء آخر وقال: «قدم فلان» ازداد علمي؛ فإذا جاء الثالث ازداد علمي أكثر؛ فإذا رأيتُه ازداد علمي؛ فالأمور العلمية تتفاوت في إدراك القلوب لها.

أيضًا يتفاوت الناس في الأقوال: فالذي يسبِّح الله عشر مرات أزيد إيمانًا ممن يسبِّحه خمس مرات؛ وهذه زيادة كمية الإيمان؛ كذلك يتفاوت الناس في الأعمال من حيث جنس العمل: فالمتعبد بالفريضة أزيد إيمانًا من المتعبد بالنافلة؛ لقوله تعالى في الحديث القدسي: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشْيءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيهِ»[1]؛ فبهذا يكون القول الصواب بلا ريب قول أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص[2].

٢ - **ومن فوائد الآية:** جواز منع دخول المساجد لمصلحة؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾؛ ومنع مساجد الله له أسباب؛ فتارةً تمنع المساجد من أن تمتهن فرشها، أو أرضها، أو كتبها، أو مصاحفها؛ فتغلَّق الأبواب حمايةً لها؛ وتارةً تغلق أبوابها خوفًا من الفتنة، كما لو اجتمع فيها قوم؛ لإثارة الفتن والتشويش على العامة؛ فتغلق منعًا لهؤلاء من الاجتماع؛ وتارةً تغلق لترميمها وإصلاحها؛ وتارةً تغلق خوفًا من سرقة ما فيها؛ ففي كل هذه الصور إغلاقها مباح أو مطلوب.

٣ - **ومنها:** تحريم منع المساجد من أن يذكر فيها اسم الله، سواء كان ذكر الله: صلاة، أو قراءة للقرآن، أو تعليمًا للعلم، أو غير ذلك.

وأخذ بعض العلماء من هذه الآية: تحريم التحجر؛ وهو أن يضع شيئًا في الصف، فيمنع غيره من الصلاة فيه، ويخرج من المسجد؛ قالوا: لأن هذا منع المكان الذي تحجره بالمسجد أن يذكر فيه اسم الله؛ لأن هذا المكان أحق الناس به أسبق الناس إليه؛ وهذا قد منع من هو أحق بالمكان منه أن يذكر فيه اسم الله؛ وهذا مأخذ قوي؛ ولا شك أن التحجر حرام: أن الإنسان يضع شيئًا، ويذهب، ويبيع، ويشتري، ويذهب إلى بيته يستمتع بأولاده وأهله؛ وأما إذا كان الإنسان في نفس المسجد

---

(١) رواه البخاري (٦١٣٧)، وأحمد في «مسنده» (٢٦٢٣٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٤٧).

(٢) روى ابن الجعد في «مسنده» (١٨٦١): (حدثنا بن زنجويه ثنا عبد الرزاق قال سمعت سفيان وابن جريج ومعمرًا يقولان: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص فقيل لعبد الرزاق: ما تقول أنت؟ قال: وما قولي؟ قال: ما لقيت به أحدا طرق إلا هذا قوله).

فلا حرج أن يضع ما يحجز به المكان بشرط ألا يتخطى الرقاب عند الوصول إليه، أو تصل إليه الصفوف؛ فيبقى في مكانه؛ لأنه حينئذٍ يكون قد شغل مكانين.

٤- **ومن فوائد الآية:** شرف المساجد؛ لإضافتها إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾؛ والمضاف إلى الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام: إما أن يكون أوصافًا؛ أو أعيانًا؛ أو ما يتعلق بأعيان مخلوقة؛ فإذا كان المضاف إلى الله وصفًا، فهو من صفاته غير مخلوق، مثل كلام الله، وعلم الله؛ وإذا كان المضاف إلى الله عينًا قائمة بنفسها فهو مخلوق وليس من صفاته، مثل مساجد الله، وناقة الله، وبيت الله؛ فهذه أعيان قائمة بنفسها إضافتها إلى الله من باب إضافة المخلوق لخالقه على وجه التشريف؛ ولا شيء من المخلوقات يضاف إلى الله عز وجل إلا لسبب خاص به؛ ولو لا هذا السبب ما خص بالإضافة؛ وإذا كان المضاف إلى الله ما يتعلق بأعيان مخلوقة فهو أيضًا مخلوق؛ وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]؛ فإن الروح هنا مخلوقة؛ لأنها تتعلق بعين مخلوقة.

٥- **ومن فوائد الآية:** أن المصلَّيات التي تكون في البيوت أو الدوائر الحكومية، لا يثبت لها هذا الحكم؛ لأنها مصلَّيات خاصة؛ فلا يثبت لها شيء من أحكام المساجد.

٦- **ومنها:** أنه لا يجوز أن يوضع في المساجد ما يكون سببًا للشرك؛ لأن ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ معناها: موضع السجود له؛ فإذا وضع فيها ما يكون سببًا للشرك فقد خرجت عن موضوعها، مثل أن نقبر فيها الموتى؛ فهذا محرم؛ لأن هذا وسيلة إلى الشرك.

٧- **ومنها:** وجوب تطهير المساجد؛ وهذا مأخوذ من إضافتها إلى الله تلك الإضافة القاضية بتشريفها وتعظيمها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥].

٨- **ومنها:** أن الناس فيها سواء؛ لأن الله تعالى أضافها إلى نفسه: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾؛ والناس عباد الله - بالنسبة إلى الله في المسجد سواء -؛ فكل من أتى إلى هذه المساجد لعبادة الله، فإنه لا فرق بينه وبين الآخرين.

وهنا نقول: إن للعالِم الحق أن يتخذ مكانًا يجعله لإلقاء الدرس وتعليم الناس؛ لكنه إذا أقيمت الصلاة لا يمنع الناس - هو وغيره سواء -.

٩- **ومنها:** أن ذكر الله لا بد أن يكون باسمه، فتقول: لا إله إلا الله؛ سبحان الله؛ سبحان ربك رب العزة عما يصفون؛ سبحان ربي العظيم؛ فالذكر باللسان لا يكون إلا باسم الله؛ أما ذكر القلب فيكون ذكرًا لله، وذكرًا لأسمائه؛ فقد يتأمل الإنسان في قلبه أسماء الله، ويتدبر فيها، ويكون ذكرًا للاسم؛ وقد يتأمل في أفعال الله عز وجل، ومخلوقاته، وأحكامه الشرعية.

أما ذكره بالضمير المفرد فبدعة، وليس بذكر، مثل طريقة الصوفية الذين يقولون: أفضل الذكر أن تقول: «هو»، «هو»؛ «هو»؛ «هو»، «هو»؛ قالوا: لأنك لا تشاهد إلا الله ـ والعياذ بالله؛ فهم يرون أن أكمل حال الإنسان هو الفناء ـ أي: يفنى عن مشاهدة ما سوى الله، بحيث إنه ما شاهد إلا الله؛

ويقولون: ليس بلازم أن تقول: «لا إله إلا الله»: تثبت إلهين: واحد منفي، والثاني مثبت! بل قل: «هو»، «هو»، «هو»؛ فهذا لا شك من البدع؛ وليس ذكرًا لله عز وجل؛ بل هو من المنكر.

١٠ ـ ومن فوائد الآية: تحريم تخريب المساجد؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾؛ ويشمل الخراب الحسي، والمعنوي؛ لأنه قد يتسلط بعض الناس ـ والعياذ بالله ـ على هدم المساجد حسًّا بالمعاول والقنابل؛ وقد يخربها معنًى؛ بحيث ينشر فيها البدع والخرافات المنافية لوظيفة المساجد.

١١ ـ ومنها: البشارة للمؤمنين بأن العاقبة لهم، وأن هؤلاء الذين منعوهم لن يدخلوها إلا وهم خائفون؛ وهذا على أحد الاحتمالات التي ذكرناها.

١٢ ـ ومنها: أن عقوبة من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها: الخزي والعار في الدنيا، والعذاب العظيم في الآخرة.

١٣ ـ ومنها: أن الذنب إذا كان فيه تعدٍّ على العباد، فإن الله قد يجمع لفاعله بين العقوبتين: عقوبة الدنيا، وعقوبة الآخرة؛ عقوبة الدنيا ليشفي قلب المظلوم المُعْتَدَىٰ عَلَيْهِ؛ ولا شك أن الإنسان إذا اعتدى عليك ثم رأيت عقوبة الله فيه، أنك تفرح بأن الله سبحانه وتعالى اقتص لك منه؛ أما إذا كان في حق الله، فإن الله تعالى لا يجمع عليه بين عقوبتين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

١٤ ـ ومن فوائد الآية: إثبات يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

١٥ ـ ومنها: أن عذاب الآخرة أعظم من عذاب الدنيا، كما أن نعيم الآخرة أكمل من نعيم الدنيا؛ ولكن الله سبحانه وتعالى يُري عباده نموذجًا من هذا ومن هذا؛ لأنه لا يستقيم فهم الوعيد ولا فهم الوعد إلا بمشاهدة نموذج من ذلك؛ لو كان الله توعد بالنار، ونحن لا ندري ما هي النار، فلا نخاف إلا خوفًا إجماليًّا عامًّا؛ وكذلك لو وعد بالنعيم والجنة، ولا نعرف نموذجًا من هذا النعيم لم يكن الوعد به حافزًا للعمل.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ١١٥]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ﴾؛ اللام للاختصاص؛ يعني: أن الله سبحانه وتعالى مختص بملك المشرق والمغرب؛ وأما من سواه فملكه محدود؛ و﴿ٱلۡمَشۡرِقُ﴾ مكان الشروق؛ و﴿ٱلۡمَغۡرِبُ﴾ مكان الغروب؛ وقد وردت المشرق والمغرب في القرآن على ثلاثة أوجه: مفردة، ومثناة، وجمع؛

فجاءت مفردة هنا فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾؛ وجاءت مثناة في قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧]، وجمعًا في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]؛ والجمع بين هذه الأوجه الثلاثة أن نقول: أما «المشرق» فلا ينافي «المشارق»، ولا «المشرقين»؛ لأنه مفرد محلى بـ «أل»؛ فهو للجنس الشامل للواحد والمتعدد؛ وأما ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾، و﴿رَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ فالجمع بينهما أن يقال: إن جمع ﴿الْمَشَارِقِ﴾، و﴿الْمَغَارِبِ﴾ باعتبار الشارق والغارب؛ لأن الشارق والغارب كثير: الشمس، والقمر، والنجوم؛ كله له مشرق ومغرب؛ فمن يحصي النجوم! أو باعتبار مشرق كل يوم ومغربه؛ لأن كل يوم للشمس مشرق ومغرب؛ وللقمر مشرق ومغرب؛ وثنّى باعتبار مشرق الشتاء ومشرق الصيف؛ فمشرق الشتاء: تكون الشمس في أقصى الجنوب؛ ومشرق الصيف: في أقصى الشمال؛ وبينهما مسافات عظيمة لا يعلمها إلا الله؛ و(سورة الرحمن) أكثر ما فيها بصيغة التثنية؛ فلذلك كان من المناسب اللفظي أن يذكر المشرق والمغرب بصيغة التثنية؛ أما عند العظمة فذكرت بالجمع: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤٠، ٤١]؛ فقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي: مشرق كل شارق؛ ومغرب كل غارب؛ ويحتمل أن المراد له كل شيء؛ لأن المشرق والمغرب يعني: الإحاطة والشمول.

قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾؛ «أين» شرطية؛ و«ما» زائدة للتوكيد؛ و﴿تُوَلُّوا﴾ فعل الشرط: مضارع مجزوم بأداة الشرط؛ وعلامة جزمه حذف النون؛ وقوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾: الفاء: رابطة لجواب الشرط؛ و﴿ثَمَّ﴾ اسم إشارة يشار به للبعيد؛ وهو ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم؛ ﴿وَجْهُ﴾ مبتدأ مؤخر؛ والجملة من المبتدأ وخبره في محل جزم جواب الشرط.

قوله تعالى: ﴿تُوَلُّوا﴾ أي: تتجهوا؛ ﴿فَثَمَّ﴾ أي: فهناك؛ والإشارة: إلى الجهة التي تولوا إليها؛ و﴿وَجْهُ اللَّهِ﴾: اختلف فيه المفسرون من السلف والخلف، فقال بعضهم: المراد به: وجه الله الحقيقي؛ وقال بعضهم: المراد به الجهة: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ يعني: في المكان الذي اتجهتم إليه جهة الله عز وجل؛ وذلك؛ لأن الله محيط بكل شيء؛ ولكن الراجح: أن المراد به الوجه الحقيقي؛ لأن ذلك هو الأصل؛ وليس هناك ما يمنعه؛ وقد أخبر النبي ﷺ «إِنَّ اللهَ تَعَالَى قِبَلَ وَجْهِ الْمُصَلِي»(١)؛ والمصلُّون حسب مكانهم يتجهون؛ فأهل اليمن يتجهون إلى الشمال؛ وأهل الشام إلى الجنوب؛ وأهل المشرق إلى المغرب؛ وأهل المغرب إلى الشرق؛ وكل يتجه جهة؛ لكن الاتجاه الذي يجمعهم الكعبة؛ وكل يتجه إلى وجه الله؛ وعلى هذا يكون معنى الآية: أنكم مهما توجهتم في صلاتكم فإنكم تتجهون إلى الله سواء إلى المشرق، أو إلى المغرب، أو إلى الشمال، أو إلى الجنوب.

---

(١) وذلك للحديث الذى رواه البخاري في «صحيحه» (٣٩٧): (عن أنس: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى نُخَامَةً فِي القِبْلَةِ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى رُئِيَ فِي وَجْهِهِ فَقَامَ فَحَكَّهُ بِيَدِهِ فَقَالَ: «إِنَّ أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه أو إن ربه بينه وبين القبلة فلا يبزقن أحدكم قبل قبلته ولكن عن يساره أو تحت قدميه» . ثم أخذ طرف ردائه فبصق فيه ثم رد بعضه على بعض فقال (أو يفعل هكذا) .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ «الواسع» يعني: واسع الإحاطة، وواسع الصفات؛ فهو واسع في علمه، وفي قدرته، وسمعه، وبصره، وغير ذلك من صفاته؛ و﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو علم؛ وعلمه محيط بكل شيء.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** انفراد الله بالملك؛ لتقديم الخبر في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾.

٢ - **ومنها:** عموم ملك الله؛ لأن المشرق والمغرب يحتويان كل شيء.

٣ - **ومنها:** إحاطة الله تعالى بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾.

٤ - **ومنها:** عموم ملك الله تعالى للمشرق والمغرب خلقًا وتقديرًا؛ وله أن يوجه عباده إلى ما شاء منهما من مشرق ومغرب؛ فله ملك المشرق والمغرب توجيهًا؛ وقد سبق أن قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ...﴾ [البقرة: ١٠٦] إلى آيات نسخ القبلة كله تمهيد لتحويل القبلة؛ فكأن الله تعالى يقول: لله المشرق والمغرب، فإذا شاء جعل اتجاه القبلة إلى المشرق؛ وإذا شاء جعله إلى المغرب؛ فأينما تولوا فثم وجه الله.

٥ - **ومنها:** إثبات الوجه لله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾.

٦ - **ومنها:** أن الله تعالى له مكان لقوله تعالى: ﴿فَثَمَّ﴾؛ لأن «ثم» إشارة إلى المكان؛ ولكن مكانه في العلو لا يحيط به شيء من مخلوقاته؛ قال النبي ﷺ للجارية: «أَيْنَ اللهُ؟» قالت: في السماء[1].

٧ - **ومنها:** إبطال بدعتين ضالتين:

إحداهما: بدعة الحلولية؛ القائلين بأن الله تعالى في كل مكان بذاته؛ فإن قول هؤلاء باطل يبطله السمع، والعقل، والفطرة أيضًا.

الثانية: قول النفاة المعطلة الذين يقولون: إن الله لا داخل العالم، ولا خارجه؛ ولا فوق العالم، ولا تحته؛ ولا يمين العالم، ولا شمال العالم، ولا متصل بالعالم، ولا منفصل عن العالم؛ وهذا القول قال بعض أهل العلم: لو قيل لنا: صفوا لنا العدم ما وجدنا وصفًا أدق من هذا.

٨ - **ومن فوائد الآية:** إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: ﴿وَٰسِعٌ﴾، و﴿عَلِيمٌ﴾.

٩ - **ومنها:** إثبات سعة الله وعلمه؛ ونستفيد صفة ثالثة من جمع السعة والعلم؛ للإشارة إلى: أن علم الله واسع؛ بمعنى: أنه لا يفوته شيء من كل معلوم لا في الأرض ولا في السماء.

❁ ❁ ❁

(١) رواه مسلم (٥٣٧)، والنسائي (١٢١٨)، وأبو داود (٩٣٠).

❁ قال الله تعالى:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٦، ١١٧]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ أي: قالت النصارى، واليهود، والمشركون اتخذ الله ولدًا؛ فاليهود قالت: عُزير ابن الله؛ والنصارى قالت: المسيح ابن الله؛ والمشركون قالوا: الملائكة بنات الله؛ فنزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن ذلك بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنزيهًا له أن يكون له ولد؛ لأنه الغني بذاته عن جميع مخلوقاته؛ وهو سبحانه وتعالى مالك لجميع المخلوقات، كما قال تعالى مبطلًا هذه الدعوى: ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ ومن له ملك السموات والأرض لا يحتاج إلى ولد؛ ولأنه لو كان له ولد لكان الولد مماثلًا له؛ والله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء.

قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ أي: كل له خاشع ذليل؛ لأنه مملوك؛ والله ـ تبارك وتعالى ـ هو المالك؛ وهذا من الاستدلال بالعقل على كذب دعوى هؤلاء أن له سبحانه وتعالى ولدًا.

قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ﴾: على وزن فعيل بمعنى مُفعل؛ أي: مبدع؛ ولها نظير في اللغة العربية، مثل قول الشاعر:

أم الريحانةَ الداعي السميع ... يؤرقني وأصحابي هجوع

فـ«السميع» بمعنى: المسمِع؛ ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: موجدهما على غير مثال سابق.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: إذا أراد أن يقضي أمرًا؛ والفعل يأتي بمعنى: إرادته المقارنة له، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] أي: إذا أردت قراءته؛ والدليل على تأويل ﴿قَضَىٰ﴾ بمعنى: (أراد أن يقضي) هو قوله تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]؛ على أنه يصلح أن يكون ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا..﴾ بمعنى إذا فعل شيئًا فإنما يقول تعالى له عند فعله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾؛ يعني أن فعله سبحانه وتعالى للشيء يكون بعد قوله عز وجل: ﴿كُن﴾ من غير تأخر؛ لأنه ليس أمرًا شاقًّا عليه؛ و﴿أَمْرًا﴾ واحد الأمور؛ يعني الشئون؛ أي: إذا قضى شأنًا من شئونه سبحانه وتعالى فإن ذلك لا يصعب عليه: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن﴾؛ أي: لا يقول له إلا: (كن) مرة واحدة بدون تكرار؛ و﴿كُن﴾ هنا تامة من (كان) بمعنى حدث؛ ﴿فَيَكُونُ﴾

أي: فيحدث كما أمره الله سبحانه وتعالى على ما أراد الله عز وجل.

وفي قوله تعالى: ﴿فَيَكُونُ﴾ قراءتان؛ هما: النصب، والرفع؛ فعلى قراءة النصب تكون جوابًا للأمر: ﴿كُن﴾ أي: فبسبب ذلك يكون؛ وتكون الفاء للسببية؛ وعلى قراءة الرفع تكون للاستئناف؛ أي: فهو يكون.

الفوائد:

١ - من فوائد الآيتين: بيان عتوّ الإنسان وطغيانه، حيث سبَّ الله سبحانه وتعالى هذه المسبَّة العظيمة، فقال: إن الله اتخذ ولدًا!!!؛ وفي الحديث الصحيح القدسي: «**كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: إِنَّهُ لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي. وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا. وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفْؤًا أَحَدٌ**»[1]؛ فهذا من أعظم العدوان؛ وهو يشير كما تقدم في التفسير إلى ثلاث طوائف: اليهود، والنصارى، والمشركين؛ وقد أبطل الله هذه الدعوى الكاذبة من ستة أوجه:

الوجه الأول: في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾؛ فإن تنزهه عن النقص يقتضي أن يكون منزهًا عن اتخاذ الولد؛ لأن اتخاذ الولد يقصد به: الإعانة ودفع الحاجة، أو بقاء العنصر؛ والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك؛ ومنزه أيضًا عن المماثلة؛ ولو كان له ولد لكان مثيلًا له.

الوجه الثاني: في قوله تعالى: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ وعموم ملكه يستلزم استغناءه عن الولد.

الوجه الثالث: في قوله تعالى: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، والمملوك لا يكون ولدًا للمالك؛ حتى إنه شرعًا إذا ملك الإنسان ولده يعتق عليه؛ فالمملوك لا يمكن أن يكون ولدًا للمالك؛ فالله خالق؛ وما سواه مخلوق؛ فكيف يكون المخلوق ولدًا للخالق!

الوجه الرابع: في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾؛ ووجهه: أن العباد كلهم خاضعون ذليلون؛ وهذا يقتضي أنهم مربوبون لله عابدون له؛ والعبد لا يكون ولدًا لربه.

الوجه الخامس: في قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ ووجهه: أنه سبحانه وتعالى مبدع السموات والأرض؛ فالقادر على خلق السموات والأرض، قادر على أن يخلق إنسانًا بلا أب، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

الوجه السادس: في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؛ ومن كان هذه قدرته فلا يستحيل عليه أن يوجد ولدًا بدون أب.

فبطلت شبهتهم التي يحتجون بها على أن لله ولدًا.

---

(١) رواه البخاري (٤٦٩٠)، والنسائي (٢٠٧٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٦٧).

٢ ـ **ومن فوائد الآيتين**: امتناع أن يكون لله ولد؛ لهذه الوجوه الستة.

٣ـ **ومنها**: عموم ملك الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٤ـ **ومنها**: أن الله لا شريك له في ملكه؛ لتقديم الخبر في قوله تعالى: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ وتقديم الخبر يفيد الاختصاص.

٥ـ **ومنها**: أن كل من في السموات والأرض قانت لله؛ والمراد: القنوت العام؛ وهو الخضوع للأمر الكوني؛ والقنوت يطلق على معنيين؛ معنى عام وخاص؛ (المعنى الخاص): هو قنوت العبادة والطاعة، كما في قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [الزمر: ٩]، وكما في قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]، وكما في قوله تعالى: ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٣]؛ و(المعنى العام): هو قنوت الذل العام؛ وهذا شامل لكل من في السموات والأرض، كما في هذه الآية: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾؛ حتى الكفار بهذا المعنى، قانتون لله سبحانه وتعالى؛ لا يخرجون عن حكمه الكوني.

٦ ـ **ومن فوائد الآيتين**: عظم قدرة الله عز وجل بإبداع السموات والأرض؛ فلأنها مخلوقات عظيمة.

٧ـ **ومنها**: حكمة الله – سبحانه وتعالى – لأن هذه السموات والأرض على نظام بديع عجيب؛ قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]؛ فهذا النظام الواسع الكبير العظيم لا يختل، ولا يتغير على مر السنين والأعوام؛ فيدل ذلك على قدرة باهرة بالغة، وحكمة عظيمة بالغة، فكل شيء منظم تنظيمًا بديعًا متناسبًا، فلا يصطدم شيء بشيء فيفسده؛ ولا يغير شيء شيئًا؛ بل كل سائر حسب ما أمره الله به؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢]؛ إذنْ ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يستفاد منها: القوة، والقدرة، والحكمة.

٨ ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن السموات عدد؛ لأن الجمع يدل على العدد؛ وقد بيَّن الله في القرآن، وثبتت السنة، وأجمع المسلمون على أن السماء جرم محسوس؛ وليس كما قال أهل الإلحاد: إن الذي فوقنا فضاء لا نهاية له؛ وأما الأرض فلم تأت في القرآن إلا مفردة؛ لكن أشار الله سبحانه وتعالى إلى أنها سبع في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]؛ وصرحت السنة بذلك في قوله ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ الله إِيَّاهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَاضِين»(١).

٩ـ **ومن فوائد الآيتين**: أن الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عن أمره شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

١٠ـ **ومنها**: إثبات القول لله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٢٣٢٠)، و مسلم (١٢٣٠).

١١ـ ومنها: أن قول الله بصوت مسموع؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؛ و﴿لَهُۥ﴾ صريحة في توجيه القول للمقول له؛ ولولا أنه يسمعه لما صار في توجيهه له فائدة؛ ولهذا يسمعه الموجه إليه الأمر، فيمتثل ويكون.

١٢ـ ومنها: أن قول الله بحروف؛ لقوله تعالى: ﴿كُن﴾؛ وهي كلمة بحرفين.

فإن قال قائل: كيف يمكن أن نتصور هذا ونحن نقول: ليس كمثله شيء؛ وأنتم تقولون: إنه بحروف؟

قلنا: نعم؛ الحروف هي الحروف؛ لكن كيفية الكلام وحقيقة النطق بها ـ أو القول ـ لا يماثل نطق المخلوق وقوله؛ ومن هنا نعرف أننا لا نكون ممثِّلة إذا قلنا: إنه بحرف وصوت مسموع؛ لأننا نقول: صوت ليس كأصوات المخلوقين؛ بل هو حسب ما يليق بعظمته وجلاله.

١٣ـ ومن فوائد الآيتين: أن الجماد خاضع لله سبحانه وتعالى؛ وذلك لأن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ يشمل الأمور المتعلقة بالحيوان، والمتعلقة بالجماد؛ فالجماد إذا قال الله تعالى له: ﴿كُن﴾ كان.

١٤ـ ومنها: أنه ليس بين أمر الله بالتكوين، وتكونه تراخٍ؛ بل يكون على الفورية؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿فَيَكُونُ﴾: بالفاء؛ والفاء تدل على الترتيب والتعقيب.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[البقرة:١١٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ليسوا من ذوي العلم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: هلَّا يكلمنا الله بتصديق الرسل ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ أي: علامة على صدقهم؛ وهذا منهم على سبيل التعنت والعناد؛ فالتعنت قولهم: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾؛ والعناد قولهم: ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾؛ لأن الرسل أتوا بالآيات التي يؤمن على مثلها البشر؛ وأعظمها القرآن الكريم؛ الذي نزل على محمد ﷺ؛ وقد تحداهم الله أن يأتوا بمثله فعجزوا.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾؛ أي مثلَ هذا القول قال الذين من قبلهم؛ وعلى هذا يكون ﴿مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ توكيدًا لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل هذا القول

الذي اقترحوه قد اقترحه من قبلهم: قوم موسى قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]؛ فهذا دأب المكذبين للرسل ينكرون، ويقترحون؛ وقد أُتوا من الآيات بأعظم مما اقترحوه.

قوله تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: الأولون والآخرون قلوبهم متشابهة في رد الحق، والعناد، والتعنت، والجحود؛ من أول ما بعثت الرسل إلى خاتمهم محمد ﷺ - بل وإلى يوم القيامة - فقلوب أهل الكفر، والعناد متشابهة؛ إنما يختلف الأسلوب؛ قد يقترح هؤلاء شيئًا؛ وهؤلاء شيئًا آخر؛ لكن الكلام على جنس الاقتراح، وعدم قبولهم للحق.

قوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا﴾ أي: أظهرنا؛ لأن (بان) بمعنى: ظهر؛ و(بيَّن) بمعنى: أظهر؛ و﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ جمع آية؛ وهي العلامة المعيِّنة لمدلولها؛ فكل علامة تعين مدلولها تسمى آية؛ فآيات الله هي: العلامات الدالة عليه.

قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ متعلقة بقوله تعالى: ﴿بَيَّنَّا﴾؛ و(الإيقان): هو العلم الذي لا يخالجه شك.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن أهل الباطل يجادلون بالباطل؛ لأن طلبهم الآيات التي يعينونها ما هو إلا تعنت واستكبار؛ ففي الآيات التي جاءت بها الرسل ما يؤمن على مثلها البشر؛ ثم إنهم لو جاءت الآيات على ما اقترحوا لم يؤمنوا إذا حقت عليهم كلمة ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

٢ - **ومنها:** وصف من لم يَنقَدْ للحق بالجهل؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ فكل إنسان يكابر الحق، وينابذه فإنه أجهل الناس.

٣ - **ومنها:** أن المشركين يقرون بأن الله يتكلم بحرف وصوت مسموع؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ فهم خير في هذا ممن يدعون أن كلام الله هو المعنى القائم في نفسه.

٤ - **ومنها:** أنه ما من رسول إلا وله آية؛ لأن قولهم: ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ هذا مدَّعى غيرهم؛ إذ إن من لم يأت بآية لا يلام من لم يصدقه؛ مثلًا: إذا جاء رجل يقول: «**أنا رسول الله؛ آمنوا بي وإلا قتلتكم، واستحللت نساءكم، وأموالكم**» فلا نطيعه؛ ولو أننا أنكرناه لكنا غير ملومين؛ لكن الرسل تأتي بالآيات؛ ما من رسول إلا وأعطاه الله تعالى من الآيات ما يؤمن على مثلها البشر؛ فالله تعالى لا يرسل الرسل ويتركهم بدون تأييد.

٥ - **ومن فوائد الآية:** أن أقوال أهل الباطل تتشابه؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]؛ وأنت لو تأملت الدعاوى الباطلة التي رد

بها المشركون رسالة الرسول ﷺ من زمنه إلى اليوم، لوجدت أنها متشابهة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٣٢]؛ واليوم يقولون للمتمسكين بالقرآن والسنة: هؤلاء رجعيون؛ هؤلاء دراويش لا يعرفون شيئًا.

٦ ـ ومن فوائد الآية: أن الأقوال تابعة لما في القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾؛ فلتشابه القلوب تشابهت الأقوال؛ ويؤيد هذا قول النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[1].

٧ـ ومنها: تشابه قلوب الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾.

٨ـ ومنها: تسلية الرسول ﷺ؛ لأن الإنسان المصاب إذا رأى أن غيره أصيب فإنه يتسلى بذلك، وتخف عليه المصيبة، كما قال تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ [الزُّخرُف:٣٩]؛ فالله تعالى يسلي رسوله ﷺ بأن هذا القول الذي قيل له قد قيل لمن قبله.

٩ ـ ومنها: إبطال دعوى قولهم: ﴿أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا﴾.

١٠ ـ ومنها: أنه لا ينتفع بالآيات إلا الموقنون؛ لقوله تعالى: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾؛ وأما غير الموقنين: فلا تتبين لهم الآيات لما في قلوبهم من الريب والشك.

١١ ـ ومنها: أن الموقن قد يتبين له من الآيات ما لم يتبين لغيره؛ ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد:١٧].

١٢ ـ ومنها: أن الآيات تنقسم إلى قسمين: آيات شرعية، وآيات كونية:

القسم الأول: الآيات الشرعية: وهي ما جاءت به الرسل من الوحي.

والقسم الثاني: آيات كونية: وهي مخلوقات الله الدالة عليه، وعلى ما تقتضيه أسماؤه وصفاته: كالشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، وغيرها، كما قال الشاعر:

وَفِي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدلّ عَلَىٰ أَنَّهُ الوَاحِدُ

١٣ ـ ومنها: زيادة العلم باليقين؛ لأن من آيات الله هذا الوحي الذي جاء به الرسول ﷺ؛ فكلما ازداد يقينك تبين لك من آيات الله ما لم يتبين لغيرك، فيزداد علمك؛ فباليقين يزداد العلم؛ قال تعالى: ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ [المدّثر:٣١]؛ فكلما كان الإنسان أقوى يقينًا كان أكثر علمًا؛ وكلما ازداد علمه ازداد يقينه؛ فهما متلازمان.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

قال الله تعالى:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [البقرة:١١٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾؛ «إن» للتوكيد؛ اسمها (نا) لكن حذفت النون لتوالي الأمثال؛ مع أن الأصل أنها لا تحذف: (إننا)؛ لكن لا نقول: اسمها الألف؛ إذ إن الألف لا تكون ضميرًا إلا إذا اتصلت بفعل، مثل: قالا، قاما، وما أشبه ذلك؛ وحذف المرسل إليه لإفادة العموم؛ لأن النبي ﷺ مرسل إلى العالمين؛ وغيره من الرسل إلى قومهم خاصة.

قوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ الباء هنا للمصاحبة أو الملابسة؛ يعني: أرسلناك متلبسًا بالحق؛ أو أن المعنى: حاملًا الحق في هذه الرسالة؛ والآية تحتمل المعنيين؛ أحدهما: أن إرسالك حق؛ والثاني: أن ما أُرسلت به حق؛ والمعنيان كلاهما صحيح؛ فتحمل الآية عليهما؛ فالرسول ﷺ رسالته حق؛ وعليه فالباء للملابسة؛ والرسول ﷺ ما أرسل به فهو حق؛ وعلى هذا فالباء للمصاحبة، يعني: أن رسالتك مصحوبة بالحق؛ لأن ما جئت به حق؛ والحق هو الثابت المستقر؛ وهو ضد الباطل؛ والحق بالنسبة للأخبار الصدق؛ وبالنسبة للأحكام العدل.

قوله تعالى: ﴿بَشِيرًا﴾ من البشارة؛ وهي الإخبار بما يسر؛ وقد تقع فيما يسوء، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران:٢١].

قوله تعالى: ﴿وَنَذِيرًا﴾ من الإنذار؛ وهو الإعلام بالمكروه؛ أي: بما يخاف منه.

والرسول ﷺ لا شك أنه مبشر بما يسر؛ وهو الجنة؛ ومنذر بما يخاف منه؛ وهو النار و﴿بَشِيرًا﴾ حال من الكاف في ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾؛ و﴿نَذِيرًا﴾ حال أخرى بواسطة حرف العطف؛ فجمع الله له بين كونه مبشرًا ومنذرًا؛ لأن ما جاء به أمرٌ ونهي؛ والمناسب للأمر: البشارة؛ وللنهي: الإنذار؛ فعليه تكون رسالة النبي ﷺ جامعة بين البشرى وبين الإنذار؛ والأمر والنهي؛ إذنْ فالرسول مبشر للمتقين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنًا ماكثين فيه أبدًا؛ ومنذر للكافرين أن لهم نارًا كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ في ﴿تُسْـَٔلُ﴾ قراءتان؛ إحداهما بالرفع على أن ﴿لَا﴾ نافية؛ والفعل مبني لما لم يسم فاعله؛ يعني: ولا تُسأل أنت عن أصحاب الجحيم؛ أي: لا يسألك الله عنهم؛ لأنك بلّغت؛ والحساب على الله؛ والقراءة الثانية: بالجزم على أن ﴿لَا﴾ ناهية؛ و«تَسأل»: فعل مضارع مبني لما لم يُسم فاعله مجزوم بها؛ والمعنى: لا تَسأل عن أصحاب الجحيم بما

هم عليه من العذاب؛ فإنهم في حال لا يتصورها الإنسان؛ وهذا غاية ما يكون من الإنذار لهؤلاء المكذبين المخالفين الذين هم أصحاب الجحيم؛ فالنهي هنا للتهويل؛ والقراءتان سبعيتان جامعتان للمعنيين؛ و﴿أَصْحَٰبِ﴾ جمع صاحب؛ وهو الملازم؛ و﴿ٱلْجَحِيمِ﴾ النار العظيمة؛ وهي لها أسماء كثيرة منها: النار، والسعير، وجهنم، والجحيم؛ كل ذلك لاختلاف أوصافها؛ وإلا فهي واحدة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** الرد على هؤلاء الذين قالوا: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٢ـ **ومنها:** ثبوت رسالة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾.

٣ـ **ومنها:** أن النبي ﷺ رسول صادق؛ وليس برب؛ لأن الرسول لا يمكن أن يكون له مقام المرسِل.

٤ ـ **ومنها:** أن رسالة النبي ﷺ متضمنة لأمر، ونهي، وتبشير، وإنذار؛ لقوله تعالى: ﴿بشيرًا ونذيرًا﴾؛ والحكمة من ذلك ظاهرة؛ وذلك لأن الإنسان قد يهون عليه فعل الأوامر، ويشق عليه ترك المنهيات؛ أو بالعكس؛ فلو كانت الشريعة كلها أوامر ما تبين الابتلاء في كفّ الإنسان نفسه عن المحارم، ولو كانت كلها نواهٍ ما تبين ابتلاء الإنسان بحمل نفسه على الأوامر؛ فكان الابتلاء بالأمر والنهي غاية الحكمة؛ فالشيخ الكبير يهون عليه ترك الزنى؛ ولذلك كانت عقوبته على الزنى أشد من عقوبة الشاب؛ المهم أن الابتلاء لا يتم إلا بتنويع التكليف؛ فمثلًا: الصلاة تكليف بدني؛ والزكاة بذل للمحبوب؛ والصيام ترك محبوب؛ والحج تكليف بدني ومالي.

٥ ـ **ومن فوائد الآية:** أن وظيفة الرسل الإبلاغ؛ وليسوا مكلفين بعمل الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

وعلى القراءة الثانية نستفيد فائدة ثانية؛ وهي: شدة عذاب أصحاب الجحيم ـ والعياذ بالله ـ؛ لقوله تعالى: ﴿ولا تَسأل عن أصحاب الجحيم﴾.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ : كان النبي ﷺ يحب أن يتألف

اليهود والنصارى؛ والذي يجب أن يتألفهم يجب أن يرضوا عنه؛ فبين الله عزَّ وجلَّ أن هؤلاء اليهود والنصارى قوم ذوو عناد؛ لا يمكن أن يرضوا عنك مهما تألفتهم؛ ومهما ركنت إليهم بالتألف ـ لا بالمودة ـ فإنهم لن يرضوا عنك حتى تتبع ملتهم؛ ولهذا كان النبي ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يُنهَ عنه؛ ثم بعد ذلك كان يأمر بمخالفتهم؛ و﴿وَلَا﴾ هنا للتوكيد؛ وليست مستقلة؛ فإنها لو حذفت وقيل: «**ولن ترضى عنك اليهود والنصارى**» لاستقام الكلام؛ لكنها زيدت للتوكيد؛ لأجل ألا يظن الظان أن المراد أن الجميع لا يرضون مجتمعين؛ مع أن الواقع أن كل طائفة لن ترضى؛ ونظير ذلك في زيادة (لا): قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[الفاتحة:٧]: فإنها تفيد ما أفادته «**لا**» في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾؛ و﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية؛ وهي تنصب المضارع بنفسها عند الكوفيين؛ وبـ(أن) المقدرة عند البصريين؛ و﴿مِلَّتَهُمْ﴾ أي: دينهم الذي كانوا عليه؛ فاليهود لن يرضوا عنك حتى تكون يهوديًّا، والنصارى لن ترضى عنك حتى تكون نصرانيًّا؛ ولكن الجواب الوحيد لهؤلاء الذين يقولون: «**لا نرضى عنك حتى تتبع ملتنا**»: قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: مجيبًا لهم في عدم اتباعك لملتهم ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: ليس الهدى ما أنتم عليه؛ بل إن هدى الله وحده هو الهدى؛ و﴿هُوَ﴾ ضمير فصل لا محل له من الإعراب؛ وقوله تعالى: ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾؛ أما اسمها فهو قوله تعالى: ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾: الخطاب للرسول ﷺ؛ أو لكل من يتأتى خطابه؛ ولكن الأقرب أنه للرسول ﷺ؛ و﴿لئن اتبعت﴾ جملة فيها شرط وقسم؛ وإذا اجتمعا ـ أي: الشرط والقسم – فإنه يحذف جواب المؤخر منهما؛ قال ابن مالك في الألفية:

وَاحْذِفْ لَدَىٰ اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ ... جَوَابُ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

والقسَم دلت عليه اللام في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ﴾؛ إذ إن التقدير: «**والله لئن اتبعت**»؛ والشرط «**إن**». والجواب: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ...﴾؛ وهو جواب القسم بناءً على القاعدة التي أشار إليها ابن مالك؛ ولأنه لو كان جواب الشرط لوجب اقترانه بالفاء؛ لأنه نُفي بـ﴿مَا﴾؛ وجواب الشرط قيل: إنه محذوف دل عليه جواب القسم؛ وقيل: إنه لا يحتاج إليه لتمام الكلام بدونه؛ وهذا القول هو الراجح ـ أنه لا يحتاج إليه لتمام الكلام بدونه ـ؛ والدليل على ذلك؛ أنه لم يأت ذكره في أي أسلوب من أساليب اللغة العربية؛ فإذا لم يأت في أي أسلوب من أساليب اللغة العربية دل على أن الكلام مستغن عنه.

قوله تعالى: ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ يشير إلى الوحي الذي جاء إلى النبي ﷺ سواء كان القرآن أو السنة؛ فالذي جاء إلى الرسول ﷺ عِلم.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: ﴿مَا﴾ نافية؛ و﴿لَكَ﴾ جار ومجرور خبر مقدم؛ و﴿وَلِىٍّ﴾ مجرور لفظًا مرفوع محلًا؛ على أنه مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها

اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد إعرابًا؛ وأصلها: «ما لك من الله وليٌّ»؛ وجملة: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ لا محل لها من الإعراب؛ لأنها جواب القسم؛ و(الولي): هو الذي يتولى غيره بحفظه وصيانته؛ فالمعنى: ما أحد يتولى حفظك سوى الله عزَّ وجلَّ؛ و(النصير): هو الذي يدفع الشر؛ أي: ولا أحد يتولى نصرك فيدفع عنك الشر سوى الله عزَّ وجلَّ.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** بيان عناد اليهود والنصارى؛ حيث لا يرضون عن أحد إلا إذا اتبع دينهم.

٢- **ومنها:** أن من كان لا يرضى إلا بذلك؛ فسيحاول إدخال غير اليهود والنصارى في اليهودية والنصرانية.

٣ - **ومنها:** الحذر من اليهود والنصارى؛ إذ لا يرضون لأحد حتى يكون يهوديًّا؛ أو نصرانيًّا.

٤ - **ومنها:** أن الكفر ملة واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿مِلَّتَهُمْ﴾؛ وهو باعتبار مضادة الإسلام ملة واحدة؛ أما باعتبار أنواعه فإنه مِلَلٌ: اليهودية ملة؛ والنصرانية ملة؛ والبوذية ملة؛ وهكذا بقية الملل؛ ولكن كل هذه الملل باعتبار مضادة الإسلام تعتبر ملة واحدة؛ لأنه يصدق عليها اسم الكفر؛ فتكون جنسًا، والملل أنواعًا.

٥- **ومنها:** الرد على أهل الكفر بهذه الكلمة: ﴿هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ والمعنى: إن كان معكم هدى الله فأنتم مهتدون؛ وإلا فأنتم ضالون.

٦ - **ومنها:** أن ما عدا هدى الله ضلال؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: ٣٢]؛ فكل ما لا يوافق هدى الله فإنه ضلال؛ وليس ثمة واسطة بين هدى الله والضلال.

٧ - **ومنها:** أن البدع ضلالة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]؛ فليس بعد الهدى إلا الضلال؛ ولقول النبي ﷺ: «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[1].

٨ - **ومنها:** تحريم اتباع أهواء اليهود، والنصارى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

٩ - **ومنها:** أن ما عليه اليهود والنصارى ليس دينًا؛ بل هو هوى؛ لقوله تعالى: ﴿أَهْوَآءَهُم﴾؛ ولم يقل «ملتهم» كما في الأول؛ ففي الأول قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾؛ لأنهم يعتقدون أنهم على ملة، ودين؛ ولكن بيَّن الله تعالى أن هذا ليس بدين، ولا ملة؛ بل هوى؛ وليسوا على هدًى؛ إذ لو كانوا على هدى لوجب على اليهود أن يؤمنوا بالمسيح عيسى بن

(١) سبق تخريجه.

مريم؛ ولوجب عليهم جميعًا أن يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ لكن دينهم هوى، وليس هدًى؛ وهكذا كل إنسان يتبع غير ما جاءت به الرسل - عليهم الصلوات والسلام - ويتعصب له؛ فإن ملته هوى، وليست هدًى.

١٠- ومن فوائد الآية: أن من اتبع الهوى بعد العلم فهو أشد ضلالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الآية.

١١- ومنها: أن ما جاء إلى الرسول ﷺ سواء كان القرآن، أو السنة فهو علم؛ فالنبي ﷺ كان أميًّا؛ لا يقرأ ولا يكتب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾[العنكبوت:٤٨]؛ ولكن الله تعالى أنزل عليه هذا الكتاب حتى صار بذلك نبيًّا جاء بالعلم النافع والعمل الصالح.

١٢- ومنها: أن من أراد الله به سوءًا فلا مرد له؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

١٣- ومنها: أنك إذا اتبعت غير شريعة الله فلا أحد يحفظك من الله؛ ولا أحد ينصرك من دونه - حتى لو كثر الجنود عندك؛ ولو كثرت الشُّرَط؛ ولو اشتدت القوة -؛ لأن النصر والولاية تكون بالهداية باتباع هدى الله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢] فالأمن إنما يكون بالإيمان وعدم الظلم.

١٤- ومنها: أنه يجب تعلق القلب بالله خوفًا ورجاءً؛ لأنك متى علمت أنه ليس لك وليّ ولا نصير، فلا تتعلق إلا بالله؛ فلا تعلق قلبك أيها المسلم إلا بربك.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة:١٢١]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ مبتدأ؛ وجملة ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قيل: إنها خبر المبتدأ؛ وعلى هذا فتكون الجملة الثانية: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ استئنافية؛ وقيل: إن قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ جملة حالية، وأن جملة: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ خبر المبتدأ؛ والأقرب الإعراب الثاني؛ لأن الكلام هنا عن الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ أي: لا يؤمنون به إلا من يتلو الكتاب حق تلاوته سواء التوراة، أو الإنجيل، أو القرآن؛ وعلى هذا فقيد الذي آتيناه الكتاب بكونهم يتلونه حق التلاوة أحسن؛ يعني: أن من أوتي الكتاب وصار على هذا الوصف، يتلوه حق

تلاوته ـ فهو الذي يؤمن به ـ.

وقوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: أعطيناهم الكتاب؛ والإيتاء هنا: إيتاء شرعي، وكوني؛ لأن الله تعالى قدر أن يعطيهم الكتاب، فأعطاهم إياه؛ وهو أيضًا إيتاء شرعي؛ لأنه فيه الشرائع والبيان؛ والمراد بمن آتاهم الكتاب: إما هذه الأمة؛ أو هي وغيرها؛ وهذا هو الأرجح ـ أنه شامل لكل من آتاه الله الكتاب ـ؛ و﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ المراد به: الجنس؛ فيشمل القرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وغيرها من كتب الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾؛ **(التلاوة)** تطلق على تلاوة اللفظ؛ وهي القراءة؛ وعلى تلاوة المعنى؛ وهي التفسير؛ وعلى تلاوة الحكم؛ وهي الاتِّباع؛ هذه المعاني الثلاثة للتلاوة داخلة في قوله تعالى: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾؛ فـ **(التلاوة اللفظية)**: قراءة القرآن باللفظ الذي يجب أن يكون عليه معربًا كما جاء لا يغير؛ و**(التلاوة المعنوية)**: أن يفسره على ما أراد الله؛ ونحن نعلم مراد الله بهذا القرآن؛ لأنه جاء باللغة العربية، كما قال الله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾[الشعراء:١٩٥]؛ وهذا المعنى في اللغة العربية هو ما يقتضيه هذا اللفظ؛ فنكون بذلك قد علمنا معنى كلام الله عزَّ وجلَّ؛ و**(تلاوة الحكم)**: هي امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، وتصديق الأخبار.

وقوله تعالى: ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ هذا من باب إضافة الوصف إلى موصوفه؛ يعني: التلاوة الحق؛ أي: التلاوة الجِد، والثبات، وعدم الانحراف يمينًا أو شمالًا؛ وهو من حيث الإعراب: مفعول مطلق؛ لأنه مضاف إلى مصدر، كما قال ابن مالك في الألفية:

.... كجِدَّ كل الجِدِّ

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ ﴿مَنۡ﴾ شرطية جازمة؛ ﴿يَكۡفُرۡ﴾ مجزوم على أنه فعل الشرط؛ ﴿بِهِۦ﴾ أي: بالكتاب؛ وجملة: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ هي جواب الشرط؛ واقترنت بالفاء؛ لأنها جملة اسمية؛ والجملة الاسمية إذا كانت جوابًا للشرط وجب اقترانها بالفاء؛ وأتى بالجملة الاسمية المفيدة للثبوت والاستمرار؛ وأتى بضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ لإفادة الحصر والتوكيد؛ يعني: فأولئك الذين كفروا به هم الخاسرون لا غيرهم؛ وأصل (الخسران): النقص؛ ولهذا يقال: ربح؛ ويقال في مقابله: خسر؛ فهؤلاء هم الذي حصل عليهم النقص لا غيرهم؛ لأنهم مهما أوتوا من الدنيا فإنها زائلة وفانية، فلا تنفعهم.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** منة الله عزَّ وجلَّ على من آتاه الله تعالى الكتاب فتلاه حق تلاوته.

٢ـ **ومنها:** أنه ليس مجرد إتيان الكتاب فضيلة للإنسان؛ بل الفضيلة بتلاوته حق تلاوته.

٣ـ **ومنها:** أن للإيمان علامة؛ وعلامته العمل؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ بعد قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾.

٤- ومنها: أن من خالف القرآن في شيء كان ذلك دليلًا على نقص إيمانه؛ لقوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ فمعنى ذلك: إذا لم يتلوه حق تلاوته فإنهم لم يؤمنوا به؛ بل نقص من إيمانهم بقدر ما نقص من تلاوتهم له.

٥- ومنها: أن تلاوة القرآن نوعان؛ تلاوة حق؛ وتلاوة ناقصة ليست تامة؛ فالتلاوة الحق: أن يكون الإنسان تاليًا للفظه ولمعناه، عاملًا بأحكامه مصدقًا بأخباره؛ فمن استكبر أو جحد فإنه لم يتله حق تلاوته.

٦- ومنها: أن الكافر بالقرآن مهما أصاب من الدنيا فهو خاسر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ يكون خاسرًا؛ ولو نال من الدنيا من أموال، وبنين، ومراكب فخمة، وقصور مشيدة؛ لأن هذه كلها سوف تذهب وتزول؛ أو هو يزول عنها، ولا تنفعه؛ واذكر قصة قارون، واتل قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[الزُّمَر:١٥]؛ فإذنْ يصدق عليهم أنهم هم الخاسرون، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:٩]؛ ولما كان الذي يتلهى بذلك عن ذكر الله يظن أنه يربح قال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩] يعني: ولو ربحوا في دنياهم.

٧- ومن فوائد الآية: علوّ مرتبة من يتلون الكتاب حق تلاوته؛ للإشارة إليهم بلفظ البعيد: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٢، ١٢٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ...﴾ الآية؛ سبق الكلام على نظيرها وفوائدها.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾: سبق الكلام على نظيرها.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تغني نفس عن نفس شيئًا؛ فليس تفضيل آبائكم على العالمين بمغنٍ عنكم شيئًا؛ فلا تقولوا: لنا آباء مفضلون على العالمين، وسَنَسْلَم بهم من النار، ومن عذاب هذا اليوم؛ و﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي، فتعم أيَّ شيء؛ ولا يرد على هذا

الشفاعة الشرعية التي ثبتت بها السُّنة؛ فإن هذه الآية مخصوصة بها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ أي من النفس؛ والذي يَقبل أو يَردُّ هو الله سبحانه وتعالى؛ و﴿عَدْلٌ﴾ أي ما يعدل به العذاب عن نفسه، وهو الفداء؛ فـ «**العدل**» معناه: الشيء المعادِل، كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾[المائدة:٩٥] أي ما يعادله من الصيام؛ وهنا: لو أتت بالفداء لا يقبل.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾؛ «**الشفاعة**» هي: التوسط للغير بدفع مضرة أو جلب منفعة؛ سميت بذلك؛ لأن الشافع إذا انضم إلى المشفوع له صار شِفعًا بعد أن كان وترًا؛ فالشفاعة لأهل النار أن يخرجوا منها: شفاعة لدفع مضرة؛ والشفاعة لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة: شفاعة في جلب منفعة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: مع أن السياق يرجع إلى مفرد في قوله تعالى: ﴿نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُهَا﴾؛ جاء الكلام هنا بصيغة الجمع باعتبار المعنى؛ لأن قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ﴾ للعموم؛ والعموم يدل على الجمع والكثرة؛ ثم إن هنا مناسبة لفظية؛ وهي مراعاة فواصل الآيات؛ ومراعاة الفواصل أمر ورد به القرآن - حتى إنه من أجل المراعاة يقدم المفضول على الفاضل ـ كما في قوله تعالى في سورة طه؛ ﴿... قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ سورة طه؛ لأن سورة طه كلها على فاصلة ألف إلا بعض الآيات القليلة؛ فمراعاة الفواصل إذنْ، من بلاغة القرآن.

الفوائد:

١ـ من فوائد الآية: إثبات يوم القيامة، وأن هذا اليوم شديد يجب اتقاؤه والحذر منه.

٢ـ ومنها: أن ذلك اليوم لا تغني نفس عن نفس شيئًا؛ حتى الوالد لا يجزي عن ولده شيئًا؛ ولا المولود يجزي عن والده شيئًا، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [لقمان:٣٣].

٣ـ ومنها: أن من استحق العذاب ذلك اليوم لا يُقبل منه عدل؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:٣٦].

٤ـ ومنها: ثبوت أصل الشفاعة في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾؛ وثبت أن النبي ﷺ يشفع في أهل الموقف أن يُقضى بينهم، وأنه ﷺ يشفع في أهل الكبائر ألا يدخلوا النار؛ وفيمن دخل النار أن يخرج منها؛ فعلى هذا يكون العموم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ مخصوصًا بما ثبتت به السنة من الشفاعة.

٥ـ **ومنها:** أن الكافرين لا تنفعهم الشفاعة؛ لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدّثر:٤٨].

٦ـ **ومنها:** أنه لا ينصر أحد أحدًا من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾؛ ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ مفعول مقدم؛ و﴿رَبُّهُۥ﴾ فاعل مؤخر؛ فالمُبْتَلِي: هو الله؛ والمُبْتَلَى: هو إبراهيم؛ والابتلاء: هو الاختبار والامتحان؛ و﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ بكسر الهاء وياء بعدها؛ وفيها قراءة: ﴿إبراهَام﴾ بفتح الهاء وألف بعدها؛ وهنا أضاف الربوبية إلى إبراهيم: وهي من الربوبية الخاصة؛ فالربوبية بإزاء العبودية؛ فكما أن العبودية نوعان: خاصة، وعامة؛ فالربوبية أيضًا نوعان: خاصة، وعامة؛ وقد اجتمعا في قول السحرة: ﴿... ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:١٢١]: هذه عامة؛ ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء:٤٨]: هذه خاصة؛ ولا شك أن ربوبية الله سبحانه وتعالى للرسل، ولاسيما أولو العزم منهم؛ وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام أخص الربوبيات.

قوله تعالى: ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾؛ هذه الكلمات ـ التي هي محل الابتلاء والاختبار ـ أطلقها الله سبحانه وتعالى عامة؛ فهي كلمات كونية؛ وشرعية؛ أو جامعة بينهما؛ واختلف المفسرون في هذه الكلمات؛ وأصح الأقوال فيها: أن كل ما أمره به شرعًا، أو قضاه عليه قدرًا، فهو كلمات؛ فمن ذلك أنه ابتلي بالأمر بذبح ابنه فامتثل؛ لكن الله سبحانه وتعالى رفع ذلك عنه حين استسلم لربه؛ وهذا من الكلمات الشرعية؛ وهذا امتحان من أعظم الامتحانات؛ ومن ذلك أن الله امتحنه بأن أوقدت له النار، وأُلقي فيها؛ وهذا من الكلمات الكونية؛ وصبر واحتسب؛ فأنجاه الله منها، وقال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]؛ وكل ما قدره الله عليه مما يحتاج إلى صبر ومصابرة، أو أمره به فهو داخل في قوله تعالى: ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ﴾ أي: مُصيرك؛ وهي تنصب مفعولين؛ لأنها مشتقة من (جعل) التي بمعنى (صيّر)؛ والمفعول الأول: الكاف التي في محل جر بالإضافة؛ والمفعول الثاني: ﴿إِمَامًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ عامة فيمن أتى بعده: فإنه صار إمامًا؛ حتى لخاتم الرسل محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣]؛

و«**الإمام**»: مَن يُقتدى به سواء في الخير أو في الشر؛ لكن لا ريب أن المراد هنا: إمامة الخير.

فإذا قال قائل: اذكروا لنا دليلًا على أن الإمامة في الشر تسمى إمامة؟

قلنا: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص:٤١]، وقول النبي ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِم شَيْءٌ**»[1]؛ وهذا لأنه إمام.

قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي واجعل من ذريتي إمامًا؛ وهنا ﴿مِن﴾ يحتمل أنها لبيان الجنس؛ وبناءً على ذلك تصلح ﴿ذُرِّيَّتِي﴾ لجميع الذرية؛ يعني: واجعل ذريتي كلهم أئمة؛ ويحتمل أنها للتبعيض؛ وعليه فيكون المقصود: اجعل بعض الذرية إمامًا؛ والكلام يحتمل هذا وهذا؛ ولكن سواء قلنا: إنها لبيان الجنس؛ أو للتبعيض؛ فالله تعالى أعطاه ذلك مقيدًا، فقال تعالى: ﴿لَا يَنَالُ﴾ أي: لا يصيب ﴿عَهْدِي﴾ أي: تعهدي لك بهذا ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، و﴿عَهْدِي﴾ فاعل؛ و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مفعول به؛ أي: سأجعل من ذريتك إمامًا؛ ولكن الظالم من ذريتك لا يدخل في ذلك.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: أن الله قد يبتلي بعض العباد بتكليفات خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ﴾؛ وكما أنه يبتلي بعض العباد بتكليفات خاصة شرعية، فإنه قد يبتليهم بأحكام كونية، مثل: مرض، مصائب في المال أو في الأهل؛ وما أشبه ذلك.

٢- ومنها: فضيلة إبراهيم ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّهُۥ﴾؛ حيث أضاف ربوبيته إلى إبراهيم - وهي ربوبية خاصة -؛ ولقوله تعالى: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾؛ ولقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

٣- ومنها: أن من أتم ما كلفه الله به كان من الأئمة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾؛ فإنه لما أتمهن جوزي على ذلك بأن جُعل للناس إمامًا.

٤- ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يدعو لذريته بالإمامة والصلاح؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾؛ وإبراهيم طلب أن يكون من ذريته أئمة، وطلب أن يكون من ذريته من يقيم الصلاة: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم:٤٠].

٥- ومنها: أن الظالم لا يستحق أن يكون إمامًا؛ والمراد: الظلم الأكبر - الذي هو الكفر -؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٦- ومنها: أن الظلم ينزل بأهله إلى أسفل سافلين؛ لا يجعلهم في قمة؛ بل ينزلهم إما في الدنيا؛ وإما في الآخرة.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥)، والنسائي (٢٥٥٤).

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾؛ ﴿وَإِذْ﴾ للظرفية؛ وهي متعلقة بمحذوف تقديره: «اذكر»؛ يعني: اذكر يا محمد للناس هذا الأمر الذي صيرناه للناس؛ و﴿جَعَلْنَا﴾ أي صيرنا؛ و﴿الْبَيْتَ﴾: «أل» هنا للعهد الذهني؛ والمراد به: الكعبة؛ لأنها بيت الله عزَّ وجلَّ؛ وأتى هنا بـ «أل»: للتفخيم والتعظيم؛ يعني: البيت المعهود الذي لا يُجهل ولا يُنسى جعلناه مثابة..؛ و«المثابة» بمعنى: المرجع؛ أي: يثوب الناس إليه، ويرجعون إليه من كل أقطار الدنيا، سواء ثابوا إليه بأبدانهم أو بقلوبهم، فالذين يأتون إليه حجاجًا أو معتمرين يثوبون إليه بأبدانهم؛ والذين يتجهون إليه كل يوم بصلواتهم يثوبون إليه بقلوبهم؛ فإنهم لا يزالون يتذكرون هذا البيت في كل يوم وليلة؛ بل استقباله من شروط صحة صلاتنا.

وقوله تعالى: ﴿أمنًا﴾ أي: وجعلناه أمنًا للناس؛ أي: مكان أمن يأمن الناس فيه على دمائهم وأموالهم؛ حتى أشجار الحرم وحشيشه آمن من القطع.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ أي صيِّروا واجعلوا؛ وفيها قراءتان؛ إحداهما: بفعل الأمر: ﴿وَاتَّخِذُوا﴾؛ والثانية: بفعل الماضي: ﴿اتخَذوا﴾ أي: واتخذ الناس؛ وعلى الأولى: اتخذوا أنتم من مقام إبراهيم مصلًّى؛ و﴿مِن﴾ هنا لبيان الجنس؛ ويجوز أن تُضمَّن «في»؛ يعني: واتخذوا في هذا المقام مكانًا للصلاة؛ و(المقام): مكان القيام؛ ويطلق إطلاقين: إطلاقًا عامًّا؛ وهو مكان قيام إبراهيم للعبادة؛ وإطلاقًا خاصًّا؛ وهو مقامه لبناء الكعبة؛ فعلى الإطلاق الأول: يكون جميع مواقف الحج ومشاعر الحج من مقام إبراهيم: عرفة؛ مزدلفة؛ الجمرات؛ الصفا، والمروة.. إلخ؛ وعلى الإطلاق الثاني الخاص: يكون المراد: الحجر المعين الذي قام عليه إبراهيم ﷺ ليرفع قواعد البيت؛ وهو هذا المقام المشهور المعروف للجميع.

وقوله: ﴿مُصَلًّى﴾ مفعول أول لـ﴿اتخذوا﴾ وهو منصوب بالفتحة المقدرة على آخره منع من ظهورها التعذر؛ والتنوين الذي فيه عوض عن الألف المحذوفة؛ والمفعول الثاني: هو الجار والمجرور المقدم؛ و(المصلى): مكان الصلاة؛ وهل المراد بالصلاة الصلاة اللغوية؛ أو الصلاة الشرعية المعروفة؟ يحتمل هذا وهذا؛ فإن قلنا بالأول: شمل جميع مناسك الحج؛ لأنها كلها محل

للدعاء؛ وإن قلنا بالثاني: اختص بالركعتين بعد الطواف خلف المقام؛ ويؤيده أن النبي ﷺ حين فرغ من طوافه تقدم إلى مقام إبراهيم، وقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وصلى ركعتين[1]؛ والقول بالعموم أشمل؛ ويجاب عن فعل النبي ﷺ بأنه فسر المعنى ببعض أفراده؛ وهذا لا يقتضي التخصيص عند أهل التحقيق من الأصوليين.

قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾؛ (العهد): الوصية بما هو هام؛ وليست مجرد الوصية؛ بل لا تكون عهدًا إلا إذا كان الأمر هامًّا؛ ومنه عهْد أبي بكر بالخلافة إلى عمر؛ ومعلوم أن أهم ما يكون من أمور المسلمين العامة الخلافة.

قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾: هو ابن إبراهيم؛ وهو أبو العرب؛ وهو الذبيح على القول الصحيح؛ يعني: هو الذي أمر الله إبراهيم أن يذبحه؛ وهو الذي قال لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[الصافات:١٠٢]؛ وقول من قال: **«إنه إسحاق»** بعيد؛ وقد قال بعض أهل العلم: إن هذا منقول عن بني إسرائيل؛ لأن بني إسرائيل يودون أن الذبيح إسحاق؛ لأنه أبوهم دون إسماعيل؛ لأنه أبو العرب عمهم؛ ولكن من تأمل آيات **«الصافات»** تبين له ضعف هذا القول.

قوله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾؛ ﴿أَن﴾ تفسيرية؛ لأنَّ ﴿عهدنا﴾ فيه معنى القول دون حروفه؛ أي: إنّ العهد هو قوله تعالى: ﴿طَهِّرَا بَيْتِىَ...﴾؛ و﴿طَهِّرَا﴾ فعل أمر؛ و﴿بَيْتِىَ﴾ المراد به: الكعبة؛ وأضافها الله سبحانه وتعالى إلى نفسه إضافة تشريف؛ والمراد: تطهير البيت من الأرجاس الحسية والمعنوية.

قوله تعالى: ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ أي: للذين يطوفون بالبيت؛ فاللام هذه للتعليل؛ أي: لأجلهم، والثاني: ﴿العاكفين﴾ أي: الذين يقيمون فيه للعبادة؛ والثالث: ﴿الركع السجود﴾ أي: الذين يصلون فيه؛ وعبر عن الصلاة بالركوع والسجود؛ لأنهما ركنان فيها؛ فإذا أطلق جزء العبادة عليها كان ذلك دليلًا على أن هذا الجزء ركن فيها لا تصح بدونه؛ و﴿الركع﴾ جمع راكع؛ و﴿ٱلسُّجُودِ﴾ جمع ساجد؛ وهنا بدأ بـ﴿الطائفين﴾؛ لأن عبادتهم خاصة بهذا المسجد؛ ثم بـ﴿العاكفين﴾؛ لأن عبادتهم خاصة بالمساجد؛ لكنها أعم من الطائفين؛ وثلّث بـ﴿الركع السجود﴾؛ لأن ذلك يصح بكل مكان بالأرض؛ لقوله ﷺ: **«جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»**[2]؛ فإذنْ يكون الله سبحانه وتعالى بدأ بالأخص فالأخص.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: فضيلة البيت الحرام من وجهين: أنه مثابة؛ وأمن.

---

(١) راجع «صحيح مسلم» (١٢١٨).

(٢) رواه البخاري (٣٢٨)، والترمذي (١٥٥٣)، والنسائي (٤٣٢).

٢ـ ومنها: ظهور رحمة الله؛ فإنه لما جعل هذا البيت مثابة - والناس لابد أن يرجعوا إليه - رحمهم بأن جعله أمنًا؛ وإنما أحلها الله لرسوله ﷺ ساعة من نهار للضرورة؛ وهي ساعة الفتح؛ ثم قال ﷺ: «**وَقَد عَادَتْ حُرْمَتُهَا اليَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ**»؛ ثم أورد ﷺ سؤالًا قال فيه: «**فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ الله فَقُولُوا: إِنَّ اللهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُم**»[١]؛ والحكم لله العلي الكبير: أذِن للرسول ﷺ في تلكَ الساعة؛ ولكنه لم يأذن لأحد بعده كما لم يأذن لأحد قبله؛ ولهذا نُهي عن حمل السلاح في الحرم؛ حتى يبقى كل إنسان آمنًا؛ ولما طعن ابن عمر رضي الله عنهما وهو على راحلته في منى طعنه أحد الخوارج بسنان الرمح في أخمص قدمه حتى لزقت قدمه بالركاب جاءه الحَجَّاجُ يعوده، فقال الحَجَّاجُ: لو نعلم من أصابك؟! فقال ابن عمر: أنت أصبتني! قال: وكيف؟ قال: «**حملت السلاح في يوم لم يكن يحمل فيه، وأدخلت السلاح الحرم ولم يكن السلاح يدخل الحرم**»[٢]؛ وبهذا تعرف عظم جرم أولئك الذين يوقعون المخاوف بين المسلمين في مواسم الحج، وأنهم - والعياذ بالله - من أعظم الناس جرمًا؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعل هذا البلد آمنًا في كل وقت؛ فكيف في وقت أداء مناسك الحج التي ما أُمِّن - والله أعلم - إلا لأجلها.

٣ـ ومن فوائد الآية: أنه ينبغي أن يكون كل مكان مثابة للناس أمنًا؛ ولهذا كره أهل العلم أن يحمل السلاح في المساجد؛ لأن المساجد محل أمن؛ لكن إذا كان المراد من حمل السلاح حفظ الأمن كان مأمورًا به.

٤ـ ومنها: وجوب اتخاذ المصلى من مقام إبراهيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾؛ لأن الأصل في الأمر الوجوب؛ فإن قلنا بأن المراد بالمقام: جميع مناسك الحج فلا إشكال؛ لأن فيه ما لا يتم الحج إلا به كالوقوف بعرفة، والطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة؛ ومنه ما يصح الحج بدونه مع وجوبه كالمبيت بمزدلفة، ورمي الجمرات؛ ومنه ما يصح الحج بدونه وليس بواجب؛ كصلاة الركعتين بعد الطواف على المشهور؛ وإذا قلنا: «**المراد به: الركعتان بعد الطواف**» صار فيه إشكال: فإن جمهور العلماء على أنهما سنة؛ وذهب الإمام مالك إلى أنهما واجبتان؛ والذي ينبغي للإنسان: أن لا يدعهما؛ لأن الرسول ﷺ فسر الآية بهما؛ حيث تقدم إلى مقام إبراهيم بعد الطواف فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

٥ ـ ومنها: أن الله سبحانه وتعالى يثيب العامل بأكثر من عمله؛ فإبراهيم ﷺ لما أتم الكلمات جعله الله تعالى إمامًا للناس، وأمر الناس أن يتخذوا من مقامه مصلًّى؛ وهذا بعض من إمامته.

٦ـ ومنها: وجوب تطهير البيت من الأرجاس الحسية والمعنوية؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا﴾؛ والعهد هو: الوصية بالأمر الهام؛ ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

---

(١) رواه البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤).

(٢) انظر صحيح البخاري (٩٢٣).

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة:٢٨]؛ ولهذا لا يجوز للمشركين وغيرهم من أهل الكفر أن يدخلوا أميال الحرم؛ لأنهم إذا دخلوها قربوا من المسجد الحرام؛ والله تعالى يقول: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة:٢٨].

٧- ومن فوائد الآية: اشتراط طهارة مكان الطواف؛ لقوله تعالى: ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾.

٨- ومنها: اشتراط طهارة لباس الطائفين من باب أولى، وأنه لا يجوز أن يطوف بثوب نجس؛ لأن ملابسة الإنسان للثياب ألصق من ملابسته للمكان.

٩- ومنها: أن الطواف لا يكون إلا حول الكعبة؛ لقوله تعالى: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾؛ ولهذا قال العلماء: يشترط لصحة الطواف أن يكون في المسجد الحرام، وأنه لو طاف خارج المسجد ما أجزأه؛ فلو أراد الإنسان - مثلًا - أن يطوف حول المسجد الحرام من خارجه فإنه لا يجزئ؛ لأنه يكون حينئذٍ طائفًا بالمسجد لا بالكعبة؛ أما الذين يطوفون في نفس المسجد سواء فوق أو تحت: فهؤلاء يجزئهم الطواف؛ وعلى هذا يجب الحذر من الطواف في المسعى أو فوقه؛ لأن المسعى ليس من المسجد؛ إذ لو كان من المسجد لكانت المرأة إذا حاضت بعد الطواف لا تسعى؛ لأنه يلزم من سعيها أن تمكث في المسجد.

١٠- ومن فوائد الآية: فضيلة هذه العبادات الأربع: الطواف، والاعتكاف، والركوع، والسجود؛ وأن الركوع والسجود أفضل هيئة في الصلاة؛ فالركوع أفضل هيئة من القيام؛ والسجود أفضل منه؛ والقيام أفضل من الركوع، والسجود بما يُقرأ فيه؛ ولهذا نُهي المصلي أن يقرأ القرآن راكعًا أو ساجدًا؛ فإنَّ ذِكْر القيام كلام الله؛ وهو أفضل من كل شيء؛ وذكر الركوع والسجود هو التسبيح؛ وهو أقل حرمة من القرآن؛ ولذلك حل الذكر للجنب دون قراءة القرآن، ويجوز مس الورقات التي فيها الذكر بغير وضوء دون مس المصحف؛ فالله سبحانه وتعالى حكيم: جعل لكل ركن من أركان الصلاة ميزة يختص بها؛ فالقيام اختصه بفضل ذكره؛ والركوع والسجود بفضل هيئتها.

تنبيه:

اختلف المؤرخون: هل كان الحجر الذي كان يرفع عليه إبراهيم ﷺ بناءَ الكعبة لاصقًا بالكعبة، أو كان منفصلًا عنها في مكانه الآن؟

فأكثر المؤرخين على أنه كان ملصقًا بالكعبة، وأن الذي أخره إلى هذا الموضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ وبناءً على ذلك يكون للخليفة حق النظر في إزاحته عن مكانه إذا رأى في ذلك المصلحة؛ أما إذا قلنا: «**إن هذا مكانه على عهد النبي ﷺ**» فالظاهر أنه لا يجوز أن يغير؛ لأن النبي ﷺ أقره؛ وإذا أقره النبي ﷺ فليس لنا أن نؤخره عنه؛ وقد كتب أحد طلبة العلم رسالة في هذا الموضوع،

وقرَّظها الشيخ عبد العزيز بن باز، ورأى أنه يجوز إزاحته عن مكانه من أجل المصلحة والتوسعة بناءً على المشهور عند المؤرخين أنه كان لاصقًا بالكعبة ثم أُخِّر؛ وهذا لا شك أنه لو أُخِّر عن مكانه فيه دفع مفسدة؛ وهي مفسدة هؤلاء الذين يتجمعون عنده في المواسم، وفيه نوع مفسدة؛ وهي أنه يبعد عن الطائفين في غير أيام المواسم؛ فهذه المصالح متعارضة هنا: هل الأولى بقاؤه في مكانه؟ أو الأولى تأخيره عن مكانه؟ فإذا كانت المصالح متكافئة؛ فالأولى أن يبقى ما كان على ما كان، وحذرًا من التشويش واختلاف الآراء في هذه المسألة؛ ومسألة تضييق المصلين على الطائفين هذا يمكن زواله بالتوعية إذا أفادت؛ أو بالمنع بالقهر إذا لم تفد؛ وفي ظني أنها قلّت في السنوات الأخيرة بعض الشيء؛ لأن الناس صار عندهم وعي.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:١٢٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ أي: اذكر إذ قال إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ﴾ أي صيِّر ﴿هَٰذَا﴾ أي مكة ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾؛ «البلد» اسم لكل مكان مسكون سواء كان ذلك مدينة كبيرة أو مدينة صغيرة؛ كله يسمى بلدًا؛ وقد سمى الله سبحانه وتعالى مكة بلدًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾[التين:٣]؛ وسماها الله تعالى قرية، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد:١٣].

وقوله تعالى: ﴿ءَامِنًا﴾: قال بعض المفسرين: أي: آمنًا مَن فيه؛ لأن البلد نفسه لا يوصف بالأمن والخوف؛ لأن (البلد): هي أرض وبناء؛ وإنما الذي يكون آمنًا: أهلُه؛ أما هو فيكون أمْنًا؛ والذي ينبغي هو أن يبقى على ظاهره، وأن يكون البلد نفسه آمنًا؛ وإذا أَمِنَ البلد أَمِن مَن فيه - وهو أبلغ -؛ لأنه: مثلًا لو جاء أحد وهدم البناء ما كان البناء آمنًا، وصار البناء عرضة لأن يتسلط عليه من يُتلفه؛ فكون البلد آمنًا أبلغ من أن نفسره بـ«آمنًا أهله»؛ لأنه يشمل البلد ومن فيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ﴾؛ لأن البلد لا يرزق.

قوله تعالى: ﴿ارزق﴾ فعل دعاء؛ ومعناه: أعطِ؛ و﴿أَهْلَهُۥ﴾ مفعول أول؛ و﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مفعول ثانٍ؛ و﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ بدل من قوله: ﴿أَهْلَهُۥ﴾، بدل بعض من كل؛

و«الإيمان» في اللغة: التصديق؛ وفي الشرع: التصديق المستلزم للقبول والإذعان؛ والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته؛ و﴿اليوم الآخر﴾ هو يوم القيامة؛ وسمي آخرًا؛ لأنه لا يوم بعده؛ وسبق بيان ذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾؛ القائل هو الله سبحانه وتعالى؛ فأجاب الله تعالى دعاءه؛ يعني: وارزق من كفر أيضًا؛ فهي معطوفة على قوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾؛ ولكنه تعالى قال في الكافر: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾ فيها قراءتان؛ الأولى: بفتح الميم وتشديد التاء؛ والثانية: بإسكان الميم وتخفيف التاء؛ و(**الإمتاع**) و(**التمتيع**) معناهما واحد؛ وهو أن يعطيه ما يتمتع به؛ و(**المتعة**): البلغة التي تلائم الإنسان.

قوله تعالى: ﴿قليلًا﴾: القلة هنا تتناول الزمان، وتتناول عين الممتَّع به؛ فالزمن قصير، مهما طال بالإنسان العمر فهو قليل؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾[الأحقاف:٣٥]؛ كذلك عين الممتع به قليل؛ كل ما يحصل للإنسان من هذه الدنيا من اللذة والمتاع قليل بالنسبة للآخرة، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنيَا وَمَا فِيهَا**»(١)؛ ومع قلته فهو مشوب بكدر سابق ولاحق، كما قال الشاعر:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا ... وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

ويقول الآخر:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً ... لَذَّاتُهُ بِادِّكَارِ المَوْتِ وَالهَرَمِ

وإذا شئت أن تعرف حقيقة الأمر فقس ما بقي من حياتك بما مضى؛ فستعرف أننا خلفنا أيامًا كثيرة؛ وما خلفنا بالأمس كأنه لا شيء؛ فنحن الآن في الوقت الذي نحن فيه؛ وأما ما مضى فكأنه لم يكن؛ ولهذا قال النبي ﷺ واصفًا الدنيا: «**إِنَّمَا مِثْلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رَاكِبٍ قَالَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»(٢): إنسان اطمأن قليلًا تحت ظل شجرة، ثم ارتحل! هذه الدنيا كلها.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ أي: أُلجئه إلى عذاب النار؛ وإنما جعل الله ذلك إلجاءً؛ لأن كل إنسان يفر من عذاب النار؛ لكنه لابد له منه إن كان من أهل النار؛ لأنه هو الذي فعل الأسباب التي توجبه؛ و«**العذاب**»: العقوبة التي يتألم بها المرء؛ و﴿ٱلنَّارِ﴾ اسم معروف.

قوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ ﴿بئس﴾ فعل ماضٍ جامد إنشائي يراد به الذم؛ و﴿ٱلْمَصِيرُ﴾

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، وأحمد في «مسنده» (٤٢٠٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٣٥٢)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٣٩).

فاعل ﴿بئس﴾؛ والمخصوص بالذم محذوف تقديره: هي؛ أي: وبئس المصير هي؛ لأنه لو لم تقدر هذا لم تكن الجملة عائدة على ما سبق؛ و﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ بمعنى: مكان الصيرورة؛ أي: المرجع الذي يصير إليه الإنسان.

الفوائد:

١ـ **من فوائد الآية:** التنويه بفضل إبراهيم؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ سبق أنها على تقدير: واذكر إذ قال؛ ولولا أن هذا أمر يستحق التنويه والإعلام ما أمر به.

٢ـ **ومنها:** أنه لا غنى للإنسان عن دعاء الله مهما كانت مرتبته؛ فلا أحد يستغني عن الدعاء أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ...﴾ إلخ.

٣ـ **ومنها:** أن للدعاء أثرًا في حصول المقصود سواء كان دفع مكروه، أو جلب محبوب؛ لأنه لولا أن للدعاء أثرًا لكان الدعاء عبثًا؛ وقول من يقول: «**لا حاجة للدعاء: إن كان الله كتب هذا فهو حاصل، دعوت أو لم أدعُ؛ وإن كان الله لم يكتبه فلن يحصل، دعوت أو لم أدعُ**»، فإن جوابنا عن هذا أن نقول: إن الله قد كتبه بناءً على دعائك؛ فإذا لم تدع لم يحصل، كما أنه لو قال: «**لن آكل الطعام؛ فإن أراد الله لي الحياة فسوف أحيا ـ ولو لم آكل؛ وإن كان يريد أن أموت فسوف أموت ـ ولو ملأت بطني إلى حلقومي**»؛ نقول: لكن الأكل سبب للحياة؛ فإنكار أن يكون الدعاء سببًا إنكار أمور بديهيات؛ لأننا نعلم علم اليقين فيما أُخبرنا به، وفيما شاهدناه، وفيما جرى علينا أن الله سبحانه وتعالى يقدِّر الأشياء بالدعاء؛ فالله تعالى قص علينا في القرآن قصصًا كثيرة فيها إجابة للدعاء؛ كذلك يجري للإنسان نفسه أشياء يدعو الله بها فيشاهدها رأي العين أنها جاءت نتيجة لدعائه؛ فإذنْ الشرع والواقع كلاهما يبطل دعوى من أنكر تأثير الدعاء.

٤ـ **ومن فوائد الآية:** رأفة إبراهيم ﷺ بمن يؤم هذا البيت؛ لأن جعل البيت آمنًا يتضمن الإرفاق بمن أمَّه من الناس.

٥ـ **ومنها:** رأفة إبراهيم ﷺ أيضًا؛ حيث سأل الله أن يرزق أهله من الثمرات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

٦ـ **ومنها:** أدب إبراهيم ﷺ؛ حيث لم يعمم في هذا الدعاء؛ فقال: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ﴾ خوفًا من أن يقول الله له: «من آمن فأرزقه»، كما قال تعالى حين سأله إبراهيم أن يجعل من ذريته أئمة: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة:١٢٤]؛ فتأدب في طلب الرزق: أن يكون للمؤمنين فقط من أهل هذا البلد؛ لكن المسألة صارت على عكس الأولى: الأولى خصص الله دعاءه؛ وهذا بالعكس: عمم.

٧ـ **ومنها:** أن رزق الله شامل للمؤمن والكافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾؛ فالرزق عام شامل للمؤمن والكافر؛ بل للإنسان والحيوان، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾[هود:٦]؛ وأنت ترى بعض الخشاش في الأرض ما حوله شيء، ولكن ييسر الله له الرزق يُجلب إليه من حيث لا يشعر ولا يحتسب؛ ويُذكر في هذه الأمور قصص غريبة، ويشاهَد بعض الحيوانات الصغيرة الصماء العمياء يَجلب الله لها رزقًا كلما احتاجت إلى ذلك فتأكله؛ والله على كل شيء قدير.

٨ـ **ومن فوائد الآية:** أنه يجب علينا أن نتخذ من هذا الوقت القصير عملًا كثيرًا ينفعنا في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾؛ والعمل اليسير ـ ولله الحمد ـ يثمر ثمرات كثيرة في الآخرة يضاعف بعشرة أضعاف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

٩ـ **ومنها:** إثبات عذاب النار.

١٠ـ **ومنها:** إثبات كلام الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ﴾؛ وأنه بحرف وصوت مسموع؛ والدليل على أنه بحرف أن قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ مثلًا مكوَّن من حروف؛ والدليل على أنه بصوت مسموع: المحاورة مع إبراهيم؛ فلولا أن إبراهيم يسمع صوتًا لم تكن محاورة.

١١ـ **ومنها:** إثبات سمع الله؛ لأنه يسمع إبراهيم وهو يكلمه سبحانه وتعالى.

١٢ ـ **ومنها:** إثبات اليوم الآخر.

١٣ـ **ومنها:** الثناء على النار بهذا الذم، وأنها بئس المصير؛ فكل إنسان يسمع هذا من كلام الله عزَّ وجلَّ سوف ينفر من هذه النار، ولا يعمل عمل أهلها.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[البقرة:١٢٧]

❁ التفسير ❁

لما ذكر الله سبحانه وتعالى أنه جعل هذا البيت مثابة للناس؛ بيَّن الله تعالى كيف نشأ هذا البيت، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ﴾؛ ﴿وَإِذْ﴾ ظرف عاملها محذوف؛ والتقدير: واذكر إذ يرفع؛ و﴿يَرْفَعُ﴾ فعل مضارع؛ والمضارع للحاضر أو للمستقبل؛ ورفع البيت ماضٍ؛ لكنه يعبَّر بالمضارع عن الماضي على حكاية الحال كأن إبراهيم يرفع الآن، يعني: ذكِّرهم بهذه الحال التي كأنها الآن مشاهدة أمامهم.

قوله تعالى: ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ فيها قراءتان؛ إحداهما: بكسر الهاء بعدها ياء؛ والثانية: بفتح الهاء

بعدها ألف: (إبراهام).

قوله تعالى: ﴿ٱلْقَوَاعِدَ﴾ مفعول ﴿يَرْفَعُ﴾؛ وجمع قاعدة؛ وقاعدة الشيء أساسه.

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ بيان للقواعد؛ وهي في محل نصب على الحال؛ والمراد بـ﴿ٱلْبَيْتِ﴾ الكعبة، كما سبق.

قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ عطفًا على قوله تعالى: ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾؛ فهو مشارك لأبيه في رفع القواعد؛ وأَخَّر ذكر إسماعيل؛ لأن الأصل: إبراهيم؛ وإسماعيل مُعِين؛ هذا الظاهر ـ والله أعلم ـ.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾؛ (رب): منادى حذفت منه «يا» النداء؛ وأصله: يا ربنا؛ حذفت «يا» النداء للبداءة بالمدعو المنادى، وهو الله؛ وجملة: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ عاملها محذوف تقديره: (يقولان)؛ وجملة: (يقولان) في موضع نصب على الحال؛ ودعَوَا الله سبحانه وتعالى باسم «الرب»؛ لأن إجابة الدعاء من شأن الربوبية؛ لأنها خلق وإيجاد.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ يعني: كل واحد يقول بلسانه: ربنا تقبل منا؛ هذا ظاهر اللفظ؛ و(القبول): أخذ الشيء والرضا به؛ ومنه ما يذكره الفقهاء في قولهم: ينعقد البيع بالإيجاب والقبول؛ فتقبُّل الله سبحانه وتعالى للعمل أن يتلقاه بالرضا، فيرضى عن فاعله؛ وإذا رضي الله تعالى عن فاعله فلا بد أن يثيبه الثواب الذي وعده إياه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾: هذه الجملة تعليل لطلب القبول؛ يعني: نسألك أن تقْبل لأنك أنت السميع العليم: تسمع أقوالنا، وتعلم أحوالنا؛ وهذه الجملة مؤكدة بمؤكدين؛ أحدهما: «إنَّ»؛ والثاني: ﴿أَنتَ﴾؛ ومن المعلوم أن ضمير الفصل يفيد التوكيد؛ وضمير الفصل لا محل له من الإعراب؛ و﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ خبر «إن»؛ وقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: ذو العلم.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: فضل عمارة الكعبة؛ لأن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يذكر هذه الحادثة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ ...﴾ إلخ.

٢ـ ومنها: فضل إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام؛ حيث قاما برفع هذه القواعد.

٣ـ ومنها: أن من إحكام البناء أن يؤسس على قواعد؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ﴾؛ وإذا بني على غير قاعدة فإنه ينهار.

٤ـ ومنها: جواز المعاونة في أفعال الخير.

٥ـ ومنها: أهمية القبول، وأن المدار في الحقيقة عليه؛ وليس على العمل؛ فكم من إنسان عمل أعمالًا كثيرة، وليس له من عمله إلا التعب، فلم تنفعه؛ وكم من إنسان عمل أعمالًا قليلة قبلت فنفعه الله بها؛ ولهذا جاء في الحديث: «**رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ والظَّمأُ؛ وَرُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ**

مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ»[1].

٦- ومنها: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾، و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾؛ وكل اسم من أسماء الله يدل على صفة من صفاته؛ بل على صفتين أحيانًا، أو أكثر - ما يلزم من إثبات الصفة التي يدل عليها الاسم -؛ مثال ذلك: «الخالق»: دل على صفة الخلق؛ وصفة الخلق تستلزم ثبوت صفة العلم والقدرة؛ وقد يدل الاسم على الأثر إذا كان ذلك الاسم متعديًا؛ مثاله: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ يدل على صفة السمع، ويدل على أن الله يسمع كل صوت يحدث.

٧- ومن فوائد الآية: إثبات السمع لله عزَّ وجلَّ؛ وينقسم السمع إلى قسمين: سمع بمعنى: سماع الأصوات؛ وسمع بمعنى: الإجابة؛ فمثال الأول: قوله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ﴾ [الزُّخرُف:٨٠]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾[المجادلة:١]؛ ومثال الثاني: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] أي مستجيب الدعاء؛ وكذلك قول المصلي: «سمع الله لمن حمده» - يعني: استجاب لمن حمده -؛ والسمع الذي هو بمعنى سماع الأصوات من صفاته الذاتية؛ والسمع بمعنى الاستجابة من صفاته الفعلية؛ لأن الاستجابة تتعلق بمشيئته: إن شاء استجاب لمن حمده؛ وإن شاء لم يستجب؛ وأما سماع الأصوات فإنه ملازم لذاته - لم يزل ولا يزال سميعًا -؛ إذ إن خلاف السمع الصمم؛ والصمم نقص؛ والله سبحانه وتعالى منزه عن كل نقص؛ وكلا المعنيين يناسب الدعاء: فهو سبحانه وتعالى يسمع صوت الداعي، ويستجيب دعاءه.

والسمع - أعني سماع الأصوات - تارةً يفيد تهديدًا؛ وتارةً يفيد إقرارًا وإحاطة؛ وتارةً يفيد تأييدًا. يفيد تهديدًا: كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ ...﴾[آل عمران:١٨١] الآية، وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ﴾ [الزُّخرُف:٨٠] ويفيد إقرارًا وإحاطة: كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾[المجادلة:١]؛ ويفيد تأييدًا: كما في قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

٨ - ومن فوائد الآية: إثبات العلم لله - تبارك وتعالى - جملةً وتفصيلًا؛ موجودًا أو معدومًا؛ ممكنًا أو واجبًا، أو مستحيلًا؛ مثال علمه بالجملة: قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾[طه:٩٨]، ومثال علمه بالتفصيل: قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (١٦٩٠)، وأحمد في «مسنده» (٨٨٤٣)، وابن خزيمة في «صحيحه» (١٩٩٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٤٨١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٤٨٨).

يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]؛ ومثال علمه بالموجود: ما أخبر الله به عن علمه بما كان، مثل قول الله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧]؛ ومثال علمه بالمعدوم الذي قد وجِد: ما علمه الله من أحوال الماضين؛ ومثال علمه بالمعدوم الذي لم يوجد بعد: ما علمه الله عزَّ وجلَّ من أحوال القيامة، ومآل الخلق؛ ومثال علمه بالممكن: ما علمه الله عزَّ وجلَّ من الحوادث الواقعة من الإنسان؛ ومثال علمه بالواجب: ما علمه الله عزَّ وجلَّ من كمال صفاته؛ ومثال علمه بالمستحيل: قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[المؤمنون:٩١]، وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢].

واعلم؛أن من أنكر علم الله فهو كافر سواء أنكره فيما يتعلق بفعله، أو فيما يتعلق بخلقه؛ فلو قال: إن الله تعالى لا يعلم ما يفعله العبد فهو كافر، كما لو قال: إن الله لا يعلم ما يفعله بنفسه؛ ولهذا كفَّر أهل السنة والجماعة غلاة القدرية الذين قالوا: إن الله سبحانه وتعالى لا يعلم أفعال العباد؛ فالذي ينكر علم الله بأفعال العباد لا شك أنه كافر؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٨٠]؛ فالذي يقول: إن الله لا يعلم أفعال العباد فإنه كافر بهذه الآيات؛ ولهذا قال الشافعي في القدرية: «**ناظروهم بالعلم فإن أقروا به خُصِموا؛ وإن أنكروه كفروا**»؛ وإيمانك بهذا يوجب لك مراقبته، والخوف منه، وامتثال أمره، واجتناب نهيه؛ لأنك متى علمت أنه عالم بك فإنك تخشاه؛ تستحيي منه عند المخالفة؛ وترغب فيما عنده عند الموافقة.

٩ـ ومن فوائد الآية: التوسل إلى الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته المناسبة لما يدعو به؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

١٠ـ ومنها: أن الدعاء يكون باسم «**الرب**»؛ لأن إجابة الدعاء من شأن الربوبية؛ لأنها خَلق، وإيجاد.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٢٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ﴾: أتى بالواو عطفًا على قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ يعني ربنا واجعلنا مع قبولك مسلمين لك؛ و﴿وَٱجْعَلْنَا﴾ أي: صيِّرنا.

قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ يعني: واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك؛ فأتى بـ﴿مِن﴾ التي للتبعيض؛ والمراد بـ﴿ذُرِّيَّتِنَآ﴾ من تفرعوا منهما؛ فذرية الإنسان من تفرعوا منه.

قوله تعالى: ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ هذه الأمة هي: أمة محمد ﷺ؛ لأنه لا يصدق على أحد أنه من ذرية إبراهيم وإسماعيل إلا أمة محمد ﷺ؛ لأن اليهود والنصارى ليسوا من بني إسماعيل؛ بل من بني يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي: بيِّنها لنا حتى نراها؛ و**(المناسك)**: جمع منسك؛ وهو هنا مكان العبادة.

قوله تعالى: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ أي: وفقنا للتوبة فنتوب؛ والتوبة من العبد: هي الرجوع من المعصية إلى الطاعة؛ ومن الله عزَّ وجلَّ: هي توفيق العبد للتوبة، ثم قبولها منه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾: هذا من باب التوسل بأسماء الله عزَّ وجلَّ المناسبة للمطلوب؛ و﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ صيغة مبالغة لكثرة من يتوب الله عليهم، وكثرة توبته على العبد نفسه؛ و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: الموصوف بالرحمة التي يرحم بها من يشاء من عباده.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: شدة افتقار الإنسان إلى ربه؛ حيث كرر كلمة: ﴿رَبَّنَا﴾؛ وأنه بحاجة إلى ربوبية الله الخاصة التي تقتضي عناية خاصة.

٢- ومنها: أن الإنسان مفتقر إلى تثبيت الله؛ وإلا هلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ﴾؛ فإنهما مسلمان بلا شك: فهما نبيَّان؛ ولكن لا يدوم هذا الإسلام إلا بتوفيق الله؛ قال الله سبحانه وتعالى للرسول ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾[الإسراء: ٧٤، ٧٥].

٣- ومنها: أهمية الإخلاص؛ لقوله تعالى: ﴿مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾: ﴿لَكَ﴾ تدل على إخلاص الإسلام لله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾[البقرة: ١١٢].

٤- ومنها: أن الإسلام يشمل كل استسلام لله سبحانه وتعالى، ظاهرًا وباطنًا.

٥- ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يشمل ذريته في الدعاء؛ لأن الذرية الصالحة من آثار الإنسان الصالحة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾؛ وقال إبراهيم ﷺ في آية أخرى: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥]؛ فالذرية صلاحها لها شأن كبير بالنسبة للإنسان.

٦- ومنها: أن الأصل في الإنسان الجهل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ يعني: أعلمنا بها.

٧- ومنها: أن الأصل في العبادات أنها توقيفية - يعني: الإنسان لا يتعبد لله بشيء إلا بما شرع -؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾.

٨ـ ومنها: تحريم التعبد لله بما لم يشرعه؛ لأنهما دعَوَا الله عزَّ وجلَّ أن يريهما مناسكهما؛ فلولا أن العبادة تتوقف على ذلك لتَعبدا بدون هذا السؤال.

٩ـ ومنها: افتقار كل إنسان إلى توبة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾؛ إذ لا يخلو الإنسان من تقصير.

١٠ـ ومنها: إثبات ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ اسمين من أسماء الله سبحانه وتعالى وما تضمناه من صفة.

١١ـ ومنها: مشروعية التوسل إلى الله عزَّ وجلَّ بأسمائه وصفاته؛ لأن قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تعليل للطلب السابق؛ فهو وسيلة يتوصل بها الداعي إلى حصول مطلوبه.

١٢ـ ومنها: أن التوسل بأسماء الله يكون باسم مطابق لما دعا به؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، ولقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

تنبيه:

إن قال قائل: كيف يستقيم أن يسأل إبراهيم وإسماعيل ربهما أن يجعلهما مُسْلِمَيْن له مع أنهما كانا كذلك؟

فالجواب: أن المراد بذلك تثبيتهما على الإسلام؛ لأن الإنسان من حيث هو إنسان لا يأمن العاقبة؛ أو يقال: إن المراد تقوية إسلامهما بالإخلاص لله عزَّ وجلَّ، والانقياد لطاعته؛ أو يقال: إنهما قالا ذلك توطئة لما بعدها في قولهما: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾؛ والأول أقوى الاحتمالات.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾، أي: أرسل فيهم رسولًا مرسَلًا من عندك يقرأ عليهم آياتك، ويبينها لهم، كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن، وما فيه من أخبار صادقة نافعة، وأحكام عادلة؛ و﴿الحكمة﴾ قيل: هي السنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[النساء:١١٣]؛ ويحتمل أن يكون المراد بها: معرفة أسرار الشريعة المطهرة، وأنها شريعة كاملة صالحة لكل زمان ومكان.

قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: ينمي أخلاقهم، ويطهرها من الرذائل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ ﴿أَنتَ﴾: ضمير فصل لا محل له من الإعراب؛ و﴿الْعَزِيزُ﴾ خبر ﴿إن﴾؛ و﴿الْحَكِيمُ﴾ خبر ثان؛ والكاف اسم ﴿إن﴾؛ و﴿الْعَزِيزُ﴾ أي: ذو العزة؛ و«**العزة**» بمعنى: القهر والغلبة؛ فهو سبحانه وتعالى ذو قوة؛ وذو الغلبة: لا يغلبه شيء، ولا يعجزه شيء؛ و﴿الْحَكِيمُ﴾ أي ذو الحُكم والحكمة.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: ضرورة الناس إلى بعث الرسل؛ ولذلك دعا إبراهيمُ وإسماعيلُ الله سبحانه وتعالى أن يبعث فيهم الرسول.

٢- ومنها: أن كون الرسول منهم أقرب إلى قبول دعوته؛ لقوله تعالى: ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾؛ لأنهم يعرفونه، كما قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾[النجم:٢]؛ فتأمل قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾[النجم:٢]؛ حيث أضافه إليهم؛ يعني: صاحبكم الذي تعرفونه، وتعرفون رجاحة عقله، وتعرفون أمانته، ما ضل، وما غوى.

٣- ومنها: أن الرسول ﷺ جعل الله سبحانه وتعالى فيه من الخير أنه يتلو الآيات، ويعلم الكتاب، ويعلم الحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾.

٤- ومنها: أن رسالة النبي ﷺ تتضمن ذكر آيات الله الكونية والشرعية، وتتضمن تعليم الكتاب تلاوةً، ومعنًى، وتتضمن أيضًا الحكمة؛ وهي معرفة أسرار الشريعة وتتضمن تزكية الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

٥- ومنها: أن ما جاء به النبي ﷺ يزكي الأخلاق، ويطهرها من كل رذيلة، كما قال ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ**»(١)؛ وهكذا كانت شريعة الرسول ﷺ: تنمية للأخلاق الفاضلة، وتطهيرًا من كل رذيلة؛ فهو يأمر بالبر، ويأمر بالمعروف، ويأمر بالإحسان، ويأمر بالصلة، ويأمر بالصدق، ويأمر بكل خير؛ كل ما فيه خير للإنسان في دينه ودنياه فإن الإسلام يأمر به - وهذه تزكية -؛ وينهى عن ضد ذلك؛ فينهى عن الإثم، والقطيعة، والعدوان، والعقوق، والكذب، والغش، وغير ذلك من مساوئ الأخلاق - وهذه أيضًا تزكية -.

وحال الناس قبل الإسلام بالنسبة للعبادة لا تَسأل! شرك، وكفر؛ وبالنسبة للأحوال الاجتماعية لا تَسأل أيضًا عن حالهم! القوي يأكل الضعيف؛ والغني يأكل الفقير؛ ويأكلون الربا أضعافًا مضاعفة؛ يُغير بعضهم على بعض؛ يتعايرون بالأنساب؛ يدعون بدعوى الجاهلية.. إلخ.

جاء الإسلام وهدم كل هذا؛ ومن تدبر التاريخ قبل بعثته ﷺ وبعده علم الفرق العظيم بين

---

(١) روى الإمام أحمد في «مسنده» (٨٩٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)، ورواه البيهقي (٢٠٥٧٢)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٧٧٣).

حال الناس قبل البعثة وحالهم بعدها؛ وظهر له معنى قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

٦- **ومنها:** أن هذه الشريعة كاملة؛ لتضمن رسالة النبي ﷺ لهذه المعاني الجليلة مما يدل على كمال شريعته.

٧- **ومنها:** إثبات العزة والحكمة لله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

٨- **ومنها:** إثبات هذين الاسمين لله: ﴿الْعَزِيزُ﴾، و﴿الْحَكِيمُ﴾.

٩- **ومنها:** مناسبة العزة والحكمة لبعث الرسول ﷺ؛ وهي ظاهرة جدًّا؛ لأن ما يجيء به الرسول ﷺ كله حكمة، وفيه العزة: قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]؛ للمؤمنين عربًا كانوا أو عجمًا؛ من كان مؤمنًا بالله عزَّ وجلَّ قائمًا بأمر الله فإن له العزة؛ ومن لم يكن كذلك فاته من العزة بقدر ما أخل به من الإيمان والعمل الصالح؛ ولهذا يجب أن تكون رابطة الإيمان أقوى الروابط بين المؤمنين؛ لأنه لا يمكن أن تكون هناك عزة واجتماع على الخير برابطة أقوى من هذه الرابطة.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة:١٣٠]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾؛ ﴿مَن﴾ اسم استفهام يراد به النفي؛ وهو مبتدأ؛ وجملة: ﴿يَرْغَبُ﴾ خبره؛ ولا نقول: ﴿مَن﴾ هنا شرطية؛ لأنه لو كانت الآية: «ومن يرغب عن ملة إبراهيم فقد سفه نفسه» صارت شرطية؛ لكن الأول أبلغ.

قوله تعالى: ﴿يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾: يقال: رغب فيه؛ ورغب عنه؛ والفرق أن «رغب فيه» يعني: طلبه؛ و«رغب عنه» يعني: تركه واجتنبه؛ وهنا: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني تركها؛ و«الملة» بمعنى الدين - أي دين إبراهيم -؛ ودين إبراهيم ﷺ أنه كان حنيفًا مسلمًا لله، ولم يكن من المشركين؛ و﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ هو الخليل ﷺ وهو أبو الأنبياء، وأشرفهم بعد رسول الله ﷺ، وجعله الله إمامًا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ [النحل: ١٢٠]، وجعل ملته هي الملة الحنيفية؛ فإذا كان كذلك فلا أحد يرغب عن الملة الحنيفية القويمة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي: أوقعها في سفه؛ و«السفه» ضد الرشد؛ وقيل: معناه: جهل نفسه - أي: جهل ما يجب لها - فضيعها؛ ولنا أن نقول: إن التعبير بـ ﴿مَا﴾ يحتمل الوجهين وبذلك

يكون فيه نكتة عظيمة؛ وهي: أن يكون التعبير صالحًا للأمرين؛ فكأنه ناب عن جملتين؛ فهو في الحقيقة جاهل إن لم يتعمد المخالفة؛ وسفيه إن تعمد المخالفة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾: الجملة هنا مؤكدة بمؤكدات ثلاثة؛ وهي: القسم المقدر؛ واللام؛ و«قد»؛ لأن اللام هنا موطئة للقسم؛ والتقدير: والله لقد.

وقوله تعالى: ﴿اصْطَفَيْنَاهُ﴾ افتعال من الصفوة؛ فأصل هذه المادة من صفا يصفو؛ ومعنى ﴿اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ اخترناه، وجعلناه صفيًّا من الخلق: اصطفاه الله سبحانه وتعالى في الدنيا على كل الأنبياء ما عدا محمدًا ﷺ؛ واتخذه الله سبحانه وتعالى خليلًا.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾: ﴿إنه﴾: «إنّ» واسمها؛ و﴿لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾: خبرها؛ وهذه الجملة مؤكدة بـ «إن» واللام فقط؛ و﴿في الآخرة﴾: في موضع نصب على الحال؛ أي: إنه في حال كونه في الآخرة لمن الصالحين؛ واصطفاه الله واختاره؛ وفي الآخرة يكون من الصالحين الذين أدوا ما أوجب الله عليهم لنفسه ولخلقه.

مسألة: ذكر الله تعالى هنا الاصطفاء في الدنيا، والصلاح في الآخرة؛ فهل هنا نكتة لتغاير الحالين، أو لا؟

الجواب: يبدو لي ـ والله أعلم ـ أن هناك نكتة؛ وهي: أن الدنيا دار شهوات وابتلاء؛ فلا يصبر على هذه الشهوات ولا على هذا الابتلاء إلا واحد دون الآخر؛ فإذا أخلص الإنسان نفسه لله صار صفوة من عباد الله؛ والآخرة ليست هكذا؛ ففي الآخرة حتى الكفار يؤمنون؛ ولكن الفرق بين من يكون من الصالحين وغير الصالحين؛ لأنهم إذا عرضوا على النار قيل لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ [الأنعام:٣٠]، وقيل لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [غافر:٥٠]؛ وقالوا: ﴿يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾[يس:٥٢].. وهكذا ما يدل على أنهم مؤمنون؛ لكنهم ليسوا من الصالحين؛ فإن كانت هذه هي النكتة فذلك من فضل الله؛ وإن لم تكن إياها فالعلم عند الله؛ ولا بد أن يكون هناك نكتة جهلناها.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** أن الرشد في اتباع ملة إبراهيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾.

٢ـ **ومنها:** أن مخالفة هذه الملة سفه؛ مهما كان الإنسان حكيمًا في قوله فإنه يعتبر سفيهًا إذا لم يلتزم بشريعة الله.

٣ـ **ومنها:** فضيلة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، حيث اصطفاه الله واختاره على العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾.

٤ـ **ومنها:** إثبات الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ﴾.

٥ـ **ومنها**: أن الصلاح وصف للأنبياء ومن دونهم؛ فيوصف النبي بأنه صالح، ويوصف متبع الرسول بأنه صالح؛ ولهذا كانت الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يحيُّون الرسول ﷺ ليلة المعراج بقولهم: «مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِي الصَّالِحِ»[1]؛ فوصفوه بالصلاح.

٦ـ **ومنها**: أن المخالفين للرسل سفهاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾، وقوله في المنافقين: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾[البقرة:١٣]، وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا﴾[البقرة:١٤٢]؛ فإنهم ـ وإن كانوا أذكياء وعندهم علم بالصناعة والسياسة ـ هم في الحقيقة سفهاء؛ لأن العاقل هو الذي يتبع ما جاءت به الرسل فقط.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾؛ هذا من الثناء على إبراهيم؛ ﴿إِذْ﴾: يحتمل أن تكون متعلقة بقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾ أي: ولقد اصطفيناه إذ قال له ربه؛ ويحتمل أن تكون متعلقة بمحذوف، والتقدير: اذكر إذ قال له ربه؛ فيكون أمرًا للرسول ﷺ أن ينوه بهذه الحال التي كان إبراهيم ﷺ عليها.

قوله تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ﴾ يشمل إسلام الباطن والظاهر.

قوله تعالى: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يتضمن توحيد الربوبية، والأسماء والصفات؛ وما أكثر الذين أُمروا بالإسلام ولم يسلموا: تسعمائة وتسعة وتسعون من الألف من بني آدم كلهم في النار، وواحد من ألف في الجنة؛ لأنهم أُمروا بالإسلام ولم يسلموا.

الفوائد:

١ـ **من فوائد الآية**: فضيلة إبراهيم ﷺ؛ حيث لم يتوانَ ولم يستكبر؛ فبادَر بقوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حين قال له ربه عزَّ وجلَّ: ﴿أَسْلِمْ﴾ ولم يستكبر؛ بل أقر؛ لأنه مربوب لرب العالمين.

٢ـ **ومنها**: إثبات ربوبية الله سبحانه وتعالى العامة لكل أحد؛ لقوله تعالى: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٣ـ **ومنها**: الإشارة إلى أن الخلق من آيات الله؛ لأنهم سُمّوا: (عالمين)؛ حيث إنهم عَلَم على خالقهم.

٤ـ **ومنها**: المناسبة بين قوله تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ﴾، و﴿رب﴾؛ كأن هذا علة لقوله تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ﴾؛ فإن الرب هو الذي يستحق أن يُسْلَم له؛ الرب: الخالق؛ ولهذا أنكر الله سبحانه

---

(١) رواه البخاري (٣٤٢)، وأحمد في «مسنده» (١٧٨٦٩)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٣٠١).

وتعالى عبادة الأصنام، وبيَّن علة ذلك بأنهم لا يخلقون؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[النحل: ٢٠، ٢١]؛ فتبين بهذا مناسبة ذكر الإسلام مقرونًا بالربوبية.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾؛ ﴿وَصَّىٰ﴾ فيها قراءتان؛ إحداهما بهمزة مفتوحة مع تخفيف الصاد: ﴿أوصَى﴾، والثانية: بحذف الهمزة مع تشديد الصاد: ﴿وَصَّى﴾؛ أما ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ ففيها قراءتان؛ إحداهما بكسر الهاء بعدها ياء: ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾؛ والثانية بفتح الهاء بعدها ألف: ﴿إبراهام﴾؛ وقراءة: ﴿أوصَى﴾ لا تنطبق عليها الشروط الثلاثة في القراءة، والمجموعة في البيتين، وهما:

وَكُــلُّ مَــا وَافَــقَ وَجْــهَ نَحْــوِ وَكَــانَ لِلرَّسْـمِ احْتِمَــالًا يَحْـوِي

وَصَــحَّ نَقْــلًا فَهْــوَ القُــرَانُ فَهَــذِهِ الثَّلَاثَــةُ الأَرْكَــانُ

فقوله تعالى: ﴿وَصَّى﴾، و﴿أوصَى﴾ لم تتفق في الرسم؛ إذنْ الشروط أو الأركان التي ذكرت بناءً على الأغلب.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾: الضمير (ها): يعود على هذه الكلمة العظيمة؛ وهي ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]؛ ويجوز أن يكون الضمير يعود على الملة ـ أي: وصى بهذه الملة ـ؛ والمعنى واحد؛ لأن ﴿مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ [البقرة: ١٣٠] هي ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]؛ و(**التوصية**): العهد المؤكَّد في الأمر الهام.

قوله تعالى: ﴿بَنِيهِ﴾ مفعول ﴿وَصَّى﴾؛ ولهذا نُصبت بالياء؛ لأنها ملحق بجمع المذكر السالم.

- **قوله تعالى:** ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ معطوفة على ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ فهي مرفوعة؛ يعني: وكذلك وصى بها يعقوب بنيه؛ وسمي يعقوب: قيل: لأنه عقب إسحاق؛ وقيل: إنه اسم غير عربي، ومثله لا يطلب له اشتقاق.

قال يعقوب: ﴿يَٰبَنِيَّ﴾ أي: يا أبنائي؛ وإنما ناداهم بوصف البنوة ترفقًا؛ معهم ليكون أدعى إلى القبول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ﴾ أي: اختار ﴿لَكُمُ﴾ أي: لأجلكم ﴿ٱلدِّينَ﴾ أي: العبادة والعمل الصالح؛ ويطلق على الجزاء؛ ففي قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[الفاتحة:٤] المراد بـ ﴿ٱلدِّينَ﴾ الجزاء؛ وفي قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣]؛ «الدين»: العبادة؛ فالدين يطلق على هذا وعلى هذا؛ - على العمل، وعلى الجزاء عليه -؛ ومنه قولهم: كما تدين تدان، يعني: كما تعمل تُجازى.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾ الفاء للتفريع؛ أي: فعلى هذا الاختيار تمسكوا بهذا الدين؛ و«لا» ناهية؛ و﴿تَمُوتُنَّ﴾ مجزوم بحذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة؛ والنون هنا التي فيها للتوكيد؛ وأصلها: «تموتونَنَّ»: حذفت النون للجزم فصارت «تموتونَّ»؛ ثم حذفت الواو لالتقاء الساكنين؛ لأن الحرف المشدد أوله ساكن؛ والواو ساكنة؛ فحذفت الواو؛ قال ابن مالك:

إِنْ سَاكِنَانِ التَقَيَا اكْسَرْ مَا سَبَقْ ... وَإِنْ يَكُنْ لِيْنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقْ

قوله تعالى: ﴿إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ جملة حالية يراد بها استمرارهم على الإسلام إلى الممات.

الفوائد:

١ـ **من فوائد الآية:** أهمية هذه الوصية؛ لأنه اعتنى بها إبراهيم ويعقوب؛ فإبراهيم أبو العرب والإسرائيليين؛ ويعقوب أبو الإسرائيليين؛ فهذان الرسولان الكريمان اعتنيا بها؛ حيث جعلاها مما يوصى به.

٢ـ **ومنها:** أنه ينبغي العناية بهذه الوصية اقتداءً بإبراهيم ويعقوب.

٣ـ **ومنها:** أن الله سبحانه وتعالى اختار لعباده من الدين ما هو أقوم بمصالحهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾؛ فلولا أنه أقوم ما يقوم بمصالح العباد ما اختاره الله سبحانه وتعالى لعباده.

٤ـ **ومنها:** أنه ينبغي التلطف في الخطاب؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ﴾؛ فإن نداءهم بالبنوة يقتضي قبول ما يلقى إليهم.

٥ـ **ومنها:** أنه ينبغي للإنسان أن يتعاهد نفسه دائمًا؛ حتى لا يأتيه الموت وهو غافل؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

٦ـ **ومنها:** أن الأعمال بالخواتيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

❁ ❁ ❁

قال الله تعالى:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٣]

التفسير

قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾؛ ﴿أَمْ﴾ هنا: منقطعة؛ و«**المنقطعة**» يقول المعربون: إنها بمعنى (بل) وهمزة الاستفهام؛ فمعنى ﴿أَمْ كُنتُمْ﴾: بل أكنتم؛ والضمير في ﴿كُنتُمْ﴾ يعود على اليهود الذين ادعوا أنهم على الحق، وأنَّ هذه وصية أبيهم يعقوب، فالتزموا ما هم عليه؛ ويحتمل أن يكون عائدًا على جميع المخاطبين، ويكون المقصود بذلك الإعلام بما حصل من يعقوب حين حضره الموت؛ وهذا الاحتمال أولى؛ لأنه لا يوجد هنا دليل على أنه يعود على اليهود؛ بل الآية كلها عامة؛ وهي أيضًا منقطعة عن اليهود بآيات سابقة كثيرة؛ فالمعنى: تقرير ما وصى به يعقوب حين موته؛ و﴿شُهَدَآءَ﴾ جمع شهيد، أو شاهد، بمعنى: حاضر.

قوله تعالى: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾؛ ﴿إِذْ﴾ ظرف مبنية على السكون في محل نصب ـ أي: وقت حضور يعقوب الموت؛ و﴿يَعْقُوبَ﴾ منصوبة؛ لأنها مفعول به مقدم؛ و﴿ٱلْمَوْتُ﴾ فاعل مؤخر؛ لأن الحاضر الموت؛ والمحضور يعقوب.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾؛ ﴿إِذْ﴾ بدل من ﴿إِذْ﴾ الأولى، يعني: إذ حضر إذ قال؛ يعني: أم كنتم شهداء إذ قال لبنيه: «**ما تعبدون من بعدي**» حين حضره الموت وبنو يعقوب هم يوسف، وإخوته: أحد عشر رجلًا؛ حضر يعقوب الموت فكان أولاده حاضرون، فقال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ أي: من بعد موتي ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ﴾: بدءوا به؛ لأنهم يخاطبونه؛ ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ جمع أب؛ ثم بينوا الآباء بقولهم: ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾؛ ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ بالنسبة إلى يعقوب جدٌّ؛ و﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ بالنسبة إليه عم؛ و﴿وَإِسْحَٰقَ﴾ بالنسبة إليه أب مباشر؛ أما إطلاق الأبوة على إبراهيم، وعلى إسحاق فالأمر فيه ظاهر؛ لأن إسحاق أبوه، وإبراهيم جده؛ والجد أب؛ بل قال الله عزَّ وجلَّ لهذه الأمة: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج:٧٨]؛ وهي بينها وبين إبراهيم عالَم؛ لكن الإشكال في عدِّهم إسماعيل من آبائه مع أنه عمهم؛ فيقال كما قال النبي ﷺ لعمر رضي الله عنه: «**أَمَا شَعُرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ**»[1]؛ و(**الصنو**) الغصنان أصلهما واحد؛ فذُكر مع الآباء؛ لأن العم صنو الأب؛ وكما قال

(١) رواه مسلم (٩٨٣)، والترمذي (٣٧٥٨)، وأبوداود (١٦٢٣).

الرسول ﷺ: «**الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ**»[1]؛ كذلك نقول: العم بمنزلة الأب؛ وقيل: إن هذا من باب التغليب، وأن الأب لا يطلق حقيقة على العم إلا مقرونًا بالأب الحقيقي؛ وعلى هذا فلا يكون فيها إشكال إطلاقًا؛ لأن التغليب سائغ في اللغة العربية، فيقال: «**القمران**»؛ والمراد بهما: الشمس والقمر؛ ويقال: «**العُمَرانِ**»؛ وهما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ بدل من ﴿ءَابَآئِكَ﴾؛ أو عطف بيان؛ وفيها قراءة أخرى: ﴿إبراهام﴾ بفتح الهاء بعدها ألف.

قوله تعالى: ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي: نعبده؛ و﴿إِلَٰهًا﴾ هذه حال؛ يسمونها حال موطئة؛ ولكنها بناءً على أن «إله» و«الله» غير مشتق؛ والصحيح: أنه مشتق، وأنه بمعنى مألوه؛ وعليه فتكون حالًا مؤسسة حقيقية؛ وليست موطئة؛ لأن الحال الموطئة التي تكون تمهيدًا لمشتق، مثل: ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[يوسف:٢] فإن «قرآن» غير مشتقة؛ والحال ـ كما تقدم ـ تكون مشتقة و﴿وَٰحِدًا﴾ حال أخرى مكررة.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾؛ ﴿نَحنُ﴾ مبتدأ؛ و﴿مُسْلِمُونَ﴾ خبره؛ و﴿لَهُۥ﴾ جار ومجرور متعلقة بـ﴿مُسْلِمُونَ﴾ قدمت عليها لإفادة الحصر ـ من حيث المعنى؛ ولمراعاة فواصل الآيات ـ من حيث اللفظ – و﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي: منقادون لأمر هذا الإله الواحد سبحانه وتعالى وشرعه.

الفوائد:

١ـ من فوائد الآية: أن التوحيد وصية الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾.

٢ـ ومنها: أن الموت حق حتى على الأنبياء؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران:١٤٤].

٣ـ ومنها: جواز الوصية عند حضور الأجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ﴾؛ وهذا كالوصية لهم؛ ولكنه يشترط أن يكون الموصي يعي ما يقول؛ فإن كان لا يعي ما يقول؛ فإنه لا تصح وصيته.

٤ـ ومنها: رجحان القول الصحيح بأن الجدَّ أب في الميراث؛ لقوله تعالى: ﴿ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾.

٥ـ ومنها: أنه يجوز إطلاق اسم الأب على العم تغليبًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾.

٦ـ ومنها: أن أبناء يعقوب كانوا على التوحيد؛ حيث قالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾؛

(١) رواه البخاري (٢٥٥٢)، والترمذي (١٩٠٤)، وأبو داود (٢٢٨٠).

وهذا لا شك توحيد منهم.

٧ـ ومنها: أن النفوس مجبولة على اتباع الآباء؛ لكن إن كان على حق فهو حق؛ وإن كان على باطل فهو باطل؛ لقولهم: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾؛ ولهذا الذين حضروا وفاة أبي طالب قالوا له: أترغب عن ملة عبد المطلب.

٨ ـ ومنها: أهمية التوحيد والعناية به؛ لقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾.

٩ـ ومنها: أن العبادة والألوهية معناهما واحد؛ لكن العبادة باعتبار العابد؛ والألوهية باعتبار المعبود؛ ولهذا كان أهل العلم يسمون التوحيد توحيد العبادة؛ وبعضهم يقول: توحيد الألوهية.

١٠ـ ومنها: إخلاص الإسلام لله؛ حيث قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾؛ وجه الإخلاص: تقديم المعمول في ﴿لَهُۥ﴾؛ لأنه متعلق بـ﴿مُسْلِمُونَ﴾؛ فهو معمول له؛ وقد عُلم أن تقديم المعمول يفيد الحصر.

١١ـ ومنها: إثبات الوحدانية لله سبحانه وتعالى في قوله تعالى: ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٣٤]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾: المشار: إليه إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ومن سبق؛ وكان اليهود يجادلون النبي ﷺ في هؤلاء؛ فبين الله تعالى أن هذه أمة قد مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ فلا تنالون مما كسبوا شيئًا؛ ولا ينالون مما كسبتم شيئًا.

و«**الأمة**» هنا بمعنى: طائفة؛ وتطلق في القرآن على عدة معانٍ؛ المعنى الأول: الطائفة، كما هنا؛ المعنى الثاني: الحقبة من الزمن، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف:٤٥] يعني: بعد حقبة من الزمن؛ والمعنى الثالث: الإمام، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[النحل:١٢٠]؛ والمعنى الرابع: الطريق، والملة، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزُّخرُف:٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا تُسألون عن أعمال من سبقكم؛ لأن لهم ما كسبوا، ولكم ما كسبتم.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: أن الاعتماد على أعمال الآباء لا يجدي شيئًا؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ...﴾ الآية؛ يعني هم مضوا وأسلموا لله؛ وأنتم أيها اليهود الموجودون في عهد الرسول ﷺ عليكم أن تنظروا ماذا كسبتم لأنفسكم.

٢- ومنها: الإشارة إلى أنه ينبغي لنا أن نسكت عما جرى بين الصحابة؛ لأنا نقول كما قال الله لهؤلاء: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾، فنحن معنيُّون الآن بأنفسنا؛ ويُذكر عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ أنه سئل عما جرى بين الصحابة، فقال لهم: «**هذه دماء طهر الله سيوفنا منها؛ فنحن نطهر ألسنتنا منها**»؛ هذه كلمة عظيمة؛ فعلى هذا النزاع فيما جرى بين معاوية، وعلي بن أبي طالب، وعائشة، وما أشبه ذلك لا محل له؛ لكن الذي يجب أن نعتني به حاضر الأمة؛ هذا الذي يجب أن يبين فيه الحق ويبطَل فيه الباطل؛ ونقول: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠].

٣- ومن فوائد الآية: أن الإنسان وعملَه؛ لقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾؛ فلا أحد يعطى من عمل أحد، ولا يؤخذ منه؛ قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدَّثر:٣٨].

٤- ومنها: أن الآخِر لا يُسأل عن عمل الأول؛ ولكن الأول قد يُسأل عن عمل الآخر، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾[القصص:٤١]؛ فقد يكون الأول صاحب بدعة، ويُتَّبع على بدعته؛ فيكون دالاً على ضلالة؛ فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة؛ لكن الآخر لا يسأل عن عمل الأول؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا**»[1]؛ وفي لفظ: «**فَتُؤْذُوا الْأَحْيَاءَ**»[2].

٥- ومن فوائد الآية: إثبات عدل الله سبحانه وتعالى، وأنه لا يؤاخذ أحدًا بما لم يعمله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

٦- ومنها: إثبات السؤال، وأن الإنسان سيُسأل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ منطوق الآية: نفي السؤال عن عمل الغير؛ ومفهومها: ثبوت السؤال عن عمل العامل، وأنه مسئول عن العمل.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه البخاري (١٣٢٩)، والنسائي (١٩٣٦)، وأحمد في «مسنده» (٢٥٥٠٩).

(٢) صحيح: رواه «الترمذي» (١٩٨٢)، وأحمد في «مسنده» (١٨٢٣٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٠٢٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٣١٢).

❁ قال الله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة:١٣٥]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟﴾ الضمير يعود على اليهود والنصارى، يخاطبون المسلمين: ﴿هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ يعني: من اليهود أي: على ملتهم؛ و«هود» جمع هائد، مثل «عود» جمع عائد؛ والذين يقولون: ﴿كُونُوا۟ هُودًا﴾ هم اليهود؛ وقوله تعالى: ﴿أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ يقوله النصارى؛ أي: كونوا نصارى، أي: على ملتهم.

قوله تعالى: ﴿تَهْتَدُوا۟﴾ مجزوم على أنه جواب الأمر؛ أي: تكونوا مهتدين.

قال الله تعالى في جواب من يدعو إلى اليهودية من اليهود، أو النصرانية من النصارى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾؛ ﴿بَلْ﴾ هنا: للإضراب الإبطالي؛ لأنها تبطل ما سبق؛ يعني: بل لا نتبع، ولا نكون هودًا ولا نصارى؛ بل ملة إبراهيم؛ وبهذا التقدير يتبين لنا على أيّ وجه نصب ﴿مِلَّةَ﴾؛ فهي مفعول لفعل محذوف تقديره: بل نتبع ملة إبراهيم؛ و«الملة» بمعنى: الدين كما سبق؛ وملة إبراهيم هي التوحيد؛ يعني: نتبع توحيد الله عزَّ وجلَّ، والإسلام له؛ لأن إبراهيم لما قال له ربه: عزَّ وجلَّ: ﴿أَسْلِمْ﴾[البقرة:١٣١]؛ قال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١].

وقوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾ منصوب على الحال من إبراهيم؛ وهي حال لازمة بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: هذا توكيد لقوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾؛ لأن «الحنيف» المائل عما سوى التوحيد؛ مأخوذ من حنف الذئب،: أي ميله؛ فهو مائل عن كل ما سوى التوحيد؛ إذنْ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يكون توكيدًا لهذه الحال توكيدًا معنوياً لا إعرابيًّا؛ يعني: أنه ﷺ ما كان فيما مضى من المشركين، ولا فيما يستقبل؛ لأن «كان» لا تدل على الحدث؛ تدل على اتصاف اسمها بخبرها، مثل: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء:٩٦]؛ فقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ﴾ يعني أن هذا الوصف منتف عنه؛ وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يعم انتفاء الشرك الأصغر والأكبر عنه؛ هذه هي الملة التي يتبعها الرسول ﷺ، ونتبعها نحن ـ إن شاء الله سبحانه وتعالى ـ؛ ونرجو الله عزَّ وجلَّ أن نموت عليها؛ هذه هي الملة الحنيفية الحقيقية التي توصل العبد إلى ربه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ

عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

الفوائد:

١ـ من فوائد الآية: أن أهل الباطل يدْعون إلى ضلالهم ويدَّعون فيه الخير؛ ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ هذه دعوة إلى ضلال؛ ﴿تَهْتَدُواْ﴾: ادعاء أن ذلك خير؛ وهكذا أيضًا قد ورَّث هؤلاء اليهود من ضل من هذه الأمة، كأهل البدع في العقيدة والقدر والإيمان ـ الذين ادعوا أنهم على حق، وأن من سلك طريقهم فقد اهتدى؛ قال النبي ﷺ: «لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم»(١).

٢ـ ومن فوائد الآية: أن كل داع إلى ضلال ففيه شبه من اليهود والنصارى؛ كدُعاة السفور الآن الذين يقولون: اتركوا المرأة تتحرر؛ اتركوها تبتهج في الحياة؛ لا تقيدوها بالغطاءِ وتركِ التبرج، ونحو ذلك؛ أعطوها الحرية؛ وهكذا كل داعٍ إلى ضلالة، سوف يطلي هذه الضلالة بما يغرُّ البليد فهو شبيه باليهود والنصارى.

٣ـ ومنها: مقابلة الباطل بالحق؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾؛ إذ لابد للإنسان من أن يسير على طريق؛ لكن هل هو حق أو باطل؟! بَيَّنَ الله أن كل ما خالف الحق فهو باطل في قوله تعالى: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾.

٤ـ ومنها: الثناء على إبراهيم عليه السلام من وجوه ثلاثة:

أولًا: إمامته؛ ووجهها: أننا أمرنا باتباعه؛ والمتبوع: هو الإمام.

ثانيًا: أنه حنيف؛ والحنيف: هو المائل عن كل دين سوى الإسلام.

ثالثًا: أنه ليس فيه شرك في عمله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٥ـ ومن فوائد الآية: أن الشرك ممتنع في حق الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٦ـ ومنها: أن ملة إبراهيم ﷺ أفضل الملل؛ وهي التوحيد والحنيفية السمحة؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾.

٧ـ ومنها: أن اليهودية والنصرانية نوع من الشرك؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في مقابل دعوتهم إلى اليهودية والنصرانية يدل على أنهما نوع من الشرك؛ كل من كفر بالله ففيه نوع من الشرك؛ لكن إن اتخذ إلهًا فهو شرك حقيقة وواقعًا؛ وإلا فإنه شرك باعتبار اتباع الهوى.

❊ ❊ ❊

(١) رواه البخاري (٦٨٨٩)، ومسلم (٢٦٦٩).

قال الله تعالى:

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾: الخطاب للرسول ﷺ وأمته جميعًا؛ والمراد بالقول هنا: القول باللسان وبالقلب؛ فالقول باللسان: نطقه؛ والقول بالقلب: اعتقاده؛ و«**الإيمان**» - كما سبق - هو التصديق المستلزم للقبول والإذعان؛ والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور: الإيمان بوجوده؛ والإيمان بانفراده بالربوبية؛ والألوهية؛ والأسماء والصفات.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ يعني: وآمنا بما أنزل إلينا؛ فـ﴿ما﴾ اسم موصول مبني على السكون في محل جر عطفًا على لفظ الجلالة: ﴿الله﴾؛ وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ يشمل القرآن - وهو منزل -؛ ويشمل السنة أيضًا؛ لقوله تعالى: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ [النساء: ١١٣]: فإن ﴿الحكمة﴾ [البقرة: ٢٦٩] هي السنة.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾؛ ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ منزل إليه؛ لأنه نبي رسول؛ والذي أنزل إليه هي الصحف التي ذكرها الله تعالى في موضعين من القرآن: ﴿صحف إبراهيم وموسى﴾ [الأعلى: ١٩]، ﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى * وإبراهيم الذي وفى﴾ [النجم: ٣٦، ٣٧]؛ و﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾ نبي منزل إليه قطعًا؛ ولم نعلم ما الذي أنزل إليه بالتحديد؛ و﴿إسحاق ويعقوب﴾ أيضًا منزل إليهما؛ لكن لم يذكر لنا ما الذي أنزل إليهما؛ و﴿الأسباط﴾ جمع سِبْط؛ قيل: إنهم أولاد يعقوب، ومنهم يوسف؛ وقيل: هم الأنبياء الذين بعثوا في أسباط بني إسرائيل الذين لم يذكروا بأسمائهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ يعني: وما أعطوا من الآيات الشرعية والكونية؛ «**الشرعية**»: كالتوراة لموسى، والإنجيل لعيسى؛ (**والكونية**): كاليد والعصا لموسى؛ وكإخراج الموتى من قبورهم بإذن الله، وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله لعيسى؛ ونص على موسى وعيسى؛ لأنهما أفضل أنبياء بني إسرائيل.

هنا قد يسأل سائل: لِمَ عبر الله تعالى بقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾، وفي موسى وعيسى قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾؛ فهل هناك حكمة في اختلاف التعبير؟

فالجواب: أن نقول بحسب ما يظهر لنا - والعلم عند الله -: إن هناك حكمة لفظية،

وحكمة معنوية:

الحكمة اللفظية: لئلا تتكرر المعاني بلفظ واحد؛ لو قال: «**ما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وما أنزل إلى موسى.. وما أنزل إلى النبيين**» تكررت أربع مرات؛ ومعلوم أن من أساليب البلاغة الاختصار في تكرار الألفاظ بقدر الإمكان.

أما الحكمة المعنوية: فلأن موسى وعيسى دينهما باقٍ إلى زمن الوحي، وكان أتباعهما يفتخرون بما أوتوا من الآيات؛ فالنصارى يقولون: عيسى ابن مريم يُحيي الموتى، ويفعل كذا، ويفعل كذا؛ وهؤلاء يقولون: إن موسى فلق الله له البحر، وأنجاه، وأغرق عدوه، وما أشبه ذلك؛ فبين الله سبحانه وتعالى في هذا أن هذه الأمة تؤمن بما أوتوا من وحيٍ وآيات.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ من باب عطف العام على الخاص؛ والمراد بما أوتوه: ما أظهره الله على أيديهم من الآيات الكونية وما أوحاه إليهم من الآيات الشرعية؛ و﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾: ﴿مِن﴾ للابتداء؛ لأن هذا الإيتاء من الله؛ وإضافة الربوبية إليهم على وجه الخصوص؛ وإلا فالله سبحانه وتعالى رب كل شيء؛ لكن هذه ربوبية خاصة.

قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ هذه الجملة داخلة في مقول القول؛ يعني: قولوا آمنا على هذا الوجه؛ ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: في الإيمان؛ وليس في الاتباع؛ والضمير في ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ يعود على الأنبياء.

قوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾؛ ﴿لَهُۥ﴾ الضمير يعود على الله سبحانه وتعالى - يعني: ونحن لله -؛ وقدمه على عامله لإفادة الحصر ومناسبة رءوس الآي؛ و(**الإسلام**) هنا هو: الاستسلام لله ظاهرًا وباطنًا.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية**: وجوب الإيمان بالله، وما أنزل إلينا.. إلى آخر ما ذكر في هذه الآية؛ لقوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ...﴾ الآية.

٢- **ومنها**: أن الذين يؤمنون بوجود الله لكن يشركون معه غيره في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته لم يكونوا مؤمنين.

٣- **ومنها**: أن الذين يؤمنون بالله وبربوبيته، وأنه الرب الفَعَّال الخَلَّاق الذي لا يشاركه أحد في هذا، لكنهم يعبدون معه غيره ليسوا بمؤمنين.

٤- **ومنها**: أن الذين يؤمنون بوجود الله، وربوبيته، وألوهيته لكن في الأسماء والصفات لا يؤمنون ـ إما أن ينكروا الأسماء والصفات؛ وإما أن ينكروا الأسماء دون الصفات؛ وإما أن ينكروا بعض الصفات ـ هؤلاء لم يؤمنوا بالله حق الإيمان، وإيمانهم ناقص.

٥ ـ **ومنها**: أن الكتب التي أوتيها الرسل قد نزلت من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، ولقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥].

٦ـ **ومنها**: الإشارة إلى البداءة بالأهم ـ وإن كان متأخرًا – لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ مع أن ما أنزل إلينا متأخر عما سبق.

٧ـ **ومنها**: الإيمان بما أوتي النبيون من الآيات الكونية والآيات الشرعية.

٨ ـ **ومنها**: أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والرسل على حد سواء في أصل الإيمان؛ وأما الشرائع فلكلٍّ منهم جعل الله شرعة ومنهاجًا، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة:٤٨]؛ فنحن مأمورون باتِّباع شريعة محمد ﷺ التي نسخت جميع الأديان؛ أما في الإيمان بأنهم رسل من عند الله، وأنهم صادقون بما جاءوا به فإنا لا نفرق بين أحد منهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥].

٩ـ **ومن فوائد الآية**: وجوب الإخلاص لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

١٠ـ **ومنها**: أن الرسل ليسوا مستقلين بهذه الآيات؛ فلا يملكون أن يأتوا بهذه الآيات، أو بهذا الوحي؛ فهم يتلقون من الله؛ حتى الرسول ﷺ إذا طُلب منه الآيات لا يستطيع أن يأتي بها؛ ولهذا لما اقترح المكذبون عدة آيات قال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[الإسراء:٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[العنكبوت:٥٠]، أي: فلا أملك أن آتي بالآيات.

١١ـ **ومنها**: أنه ينبغي للمؤمن أن يشعر أنه هو وإخوانه كنفس واحدة، كما قال النبي ﷺ: «المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»[1] وشبَّك ﷺ بين أصابعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾: فأتى بضمير الجمع: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ... وَنَحْنُ ...﴾.

١٢ـ **ومنها**: أن الإسلام لابد أن يكون بالقلب، واللسان، والجوارح؛ لإطلاقه في قوله تعالى: ﴿مُسْلِمُونَ﴾؛ فيستسلم قلب المرء لله ـ تبارك وتعالى ـ محبة، وتعظيمًا، وإجلالًا؛ ويستسلم لسانه لما أمره الله سبحانه وتعالى أن يقول؛ وتستسلم جوارحه لما أمره الله تعالى أن يفعل.

❁ ❁ ❁

(١) رواه البخاري (٤٦٧)، ومسلم (٢٥٨٥).

قال الله تعالى:

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟﴾ أي: اليهود والنصارى؛ لأن هذه الآيات كلها متتابعة: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ... قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ... فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ ...﴾ [البقرة:١٣٧].

قوله تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾: اختلف المعربون في الباء، وفي «مثل» أيهما الزائد؟ فقيل: إن (مثل) هي الزائدة، وأن التقدير: فإن آمنوا بما آمنتم به فقد اهتدوا؛ وأن (مثل): زائدة إعرابًا لا معنًى؛ وأن المعنى: أنهم إن آمنوا بما آمنتم به إيمانًا مماثلًا لإيمانكم؛ فعلى هذا تكون الزيادة في كلمة «مثل»؛ وقيل: إن الزائد هو الباء، حرف الجر؛ وأن التقدير: فإن آمنوا مثل ما آمنتم، أي: مثل إيمانكم؛ والباء الثانية أيضًا زائدة؛ فصار قولان: الأول: أن الزائد «مثل»؛ والثاني: أن الزائد الباء؛ والجميع اتفقوا على أن المراد: الزيادة الإعرابية؛ وليست الزيادة المعنوية؛ لأنه ليس في القرآن ما هو زائد معنى، أي: لا فائدة فيه؛ والمعروف أن الأسماء لا تزاد؛ وأما الزيادة في الحروف فكثيرة؛ لأن الاسم كلمة جاءت لمعنى في نفسها؛ والحرف كلمة جاءت لمعنى في غيرها؛ ومعلوم أننا لو وزنا بالميزان المستقيم، لكان ما يجيء لمعنى في غيره أولى بالزيادة مما يجيء لمعنى في نفسه؛ ولهذا أنكر بعض النحويين زيادة الأسماء، وقالوا: لا يمكن أن تزاد الأسماء؛ لأنها جاءت لمعنى في ذاتها؛ بخلاف الحرف؛ فعلى هذا تكون الزيادة في الباء، أي: فإن آمنوا مثل ما آمنتم؛ أي مثل إيمانكم؛ وعلى كلا الاحتمالين من حيث الإعراب فالمعنى واحد، أي: إن آمنوا إيمانًا مطابقًا لإيمانكم مماثلًا له من كل الوجوه فقد اهتدوا.

قوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ أي: سلكوا سبيل الهداية؛ و«الهداية» هنا: هداية العلم والتوفيق؛ لأنهم آمنوا عن علم فوفِّقوا واهتدوا؛ والهداية هنا مطلقة كما أن المسلمين الذين آمنوا على الوصف المذكور مهتدون هداية مطلقة.

قوله تعالى: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾: «التولي» الإعراض؛ أي: عن الإيمان بمثل ما آمنتم به.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ جملة اسمية للدلالة على الاستمرار والثبوت؛ وأتت بـ «إنما» الدالة على الحصر؛ أي: فما حالهم إلا الشقاق؛ و﴿فِى﴾ للظرفية ـ كأن الشقاق محيط بهم من كل جانب منغمسون فيه؛ و«الشقاق» بمعنى: الخلاف؛ وهو في كل معانيه يدور على هذا، حتى في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الحج:٥٣]: فبعضهم قال: «الشقاق» هنا بمعنى

الضلال؛ ولكن الصحيح أن معناه: الخلاف؛ فكلما جاءت في القرآن فمآلها إلى الخلاف؛ ولكنها أشد؛ حيث تفيد الاختلاف مع طلب المشقة على الخصم؛ ويدل لهذا أن أصل معنى **(الشقاق)**: أن يكون أحد الطرفين في شق والثاني في شق آخر؛ وبهذا يكون الخلاف.

وكأن الإنسان إذا سمع ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ قد يهاب ويخاف؛ فطمأن الله تعالى المؤمنين بقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾؛ هذه الجملة فيها فعل، وفاعل، ومفعولان؛ الفاعل: لفظ الجلالة؛ والفعل: ﴿يكفي﴾؛ والمفعول الأول: الكاف؛ والمفعول الثاني: الهاء؛ والسين هنا يقول العلماء: إنها للتنفيس، وتفيد شيئين هما: تحقق الوقوع، وقرب الوقوع؛ بخلاف **«سوف»**؛ فإنها تفيد التحقق؛ ولكن مع مهلة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾؛ ﴿السَّمِيعُ﴾ من أسماء الله؛ و﴿الْعَلِيمُ﴾ أيضًا من أسمائه - تبارك وتعالى -؛ وسبق تفسيرهما.

قد يقول قائل: يبدو لنا أن المناسب أن يقول: **«وهو القوي العزيز»** لأنه قال: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ فما هو الجواب عن ختمها بالسمع والعلم؟

فالظاهر لي - والله أعلم -: أنه لما كان تدبير الكيد للرسول ﷺ من هؤلاء قد يكون بالأقوال، وقد يكون بالأفعال؛ والتدبير أمر خفي ليس هو حربًا يعلن حتى نقول: ينبغي أن يقابل بقوة وعزة؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: حتى الأمور التي لا يُدرى عنها، ولا يبرزونها، ولا يظهرون الحرابة للرسول ﷺ فإن الله سميع عليم بها؛ هذا ما ظهر لي - والله أعلم -.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: أنه لابد أن يكون إيمان اليهود والنصارى مثل إيمان النبي ﷺ وأمته حقيقةً ووصفًا.

٢- ومنها: أن ما خالف ما عليه النبي ﷺ فهو ضلال؛ لأن الله سبحانه وتعالى علق الاهتداء بأن يؤمنوا بمثل ما آمن به الرسول ﷺ وأمته.

٣- ومنها: أنه لا حجة لمن تولى عن شريعة النبي ﷺ إلا الشقاق والمجادلة بالباطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾.

٤- ومنها: وقوع الشقاق بين أهل الكتاب والمسلمين؛ وعليه فلا يمكن أن يتفق المسلمون وأهل الكتاب؛ فتبطل دعوة أهل الضلال الذين يدعون إلى توحيد الأديان؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾؛ فاليهود والنصارى لما لم يؤمنوا صاروا معنا في شقاق؛ وهذا الشقاق لابد أن يؤدي إلى عداوة وبغضاء؛ وبالتالي إلى قتال؛ وهكذا وقع: فالمسلمون قاتلوا اليهود، وقاتلوا النصارى - الروم كلهم نصارى -؛ ومن بعد ذلك قاتلوا النصارى في الحروب الصليبية؛ وسيقاتلونهم أيضًا مرة أخرى؛ حتى يدخل الإسلام عاصمتهم الروم؛ ولا بد من هذا في

المستقبل بإذن الله؛ وسنقاتل اليهود حتى يختبئ اليهودي بالحجر والشجر فينادي: «يَا عَبْدَ اللهِ، هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي فَاقْتُلْهُ إِلَّا الغَرْقَد؛ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ اليَهُودِ»[1] فلا يبلغ عنهم.

٥ـ ومن فوائد الآية: الوعيد الشديد لهؤلاء المتولين عن شريعة النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

٦ـ ومنها: تكفل الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد ﷺ أنهم إذا لم يؤمنوا بمثل ما آمن المؤمنون وتولوا فإن الله سبحانه وتعالى سيكفيه إياهم عن قرب؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ والحمد لله أنه صار ذلك عن قرب؛ فإن الرسول ﷺ لم يُتوفَّ حتى أجلى اليهود عن المدينة، وفتح حصونهم في خيبر، وأبقاهم فيها عمالًا؛ وفي خلافة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أجلاهم من خيبر؛ فكفى الله المؤمنين شرهم ـ ولله الحمد ـ.

٧ـ ومن فوائد الآية: الإشارة إلى التوكل على الله ـ تبارك وتعالى ـ في الدعوة إليه، وفي سائر الأمور؛ لأنه إذا كان وحده سبحانه وتعالى هو الكافي فيجب أن يكون التوكل والاعتماد عليه وحده؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ [الطلاق: ٣].

٨ ـ ومنها: إثبات الاسمين الكريمين ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ وما يتضمناه من الصفات والمعاني العظيمة.

٩ـ ومنها: أنه يجب على المرء مراقبة الله سبحانه وتعالى في جميع أقواله؛ لأن الله سبحانه وتعالى سامع لها لا يخفى عليه الصوت مهما خفي؛ بل هو يعلم عزَّ وجلَّ ما توسوس به نفس الإنسان – وإن لم يتكلم به.

١٠ـ ومنها: مراقبة الله سبحانه وتعالى في السر، والعلن؛ وذلك؛ لأن مقتضى اسمه الكريم: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ أنه يعلم كل شيء.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾؛ «**الصبغة**» معناها: اللون؛ وقالوا: المراد بـ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ دين الله؛ وسمي «**الدين**» صبغة؛ لظهور أثره على العامل به؛ فإن المُتَدَيِّن يظهر أثر الدين عليه:

---

(١) رواه مسلم (٢٩٢٢)، وأحمد في «مسنده» (٩٣٨٧).

يظهر على صفحات وجهه، ويظهر على مسلكه، ويظهر على خشوعه، وعلى سمته، وعلى هيئته كلها؛ فهو بمنزلة الصبغ للثوب يظهر أثره عليه؛ وقيل: سمي صبغة للزومه كلزوم الصبغ للثوب؛ ولا يمنع أن نقول: إنه سمي بذلك للوجهين جميعًا: فهو صبغة للزومه؛ وهو صبغة أيضًا لظهور أثره على العامل به.

ووجه نصب ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾: قيل: إنها مصدر معنوي؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾[البقرة:١٣٦]؛ فإن ﴿ءَامَنَّا﴾معناها: الدين، وأن التقدير: تدينا دين الله؛ ولا ريب أن هذا بعيد؛ لأن ﴿ءَامَنَّا﴾ في آية أخرى قبلها؛ ويبعد أن يكون هذا متعلقًا بها؛ ولأنه فُصِل بينهما بفواصل كثيرة؛ إذنْ هو منصوب على الإغراء، يعني: الزموا صبغة الله، ولا يصدنكم هؤلاء عن دينكم؛ وأضيفت «**الصبغة**» إلى الله؛ لأنها منه: فإن الشريعة جاءت من الله؛ ولا أحد يشرع للخلق إلا خالقهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾: الاستفهام هنا بمعنى النفي؛ أي: لا أحد أحسن من الله صبغة؛ وذلك لأن دين الله عزَّ وجلَّ مشتمل على المصالح، ودرء المفاسد؛ ولا يوجد دين يشتمل على هذا إلا ما جاء من عند الله، سواء كان الدين الإسلامي الذي جاء به محمد ﷺ، أو الأديان الأخرى ما دامت قائمة لم تنسخ؛ ومجيء الاستفهام بمعنى النفي أبلغ من النفي المجرد؛ لأنه يتضمن التحدي؛ فإن القائل إذا قال: «**ليس مثل زيد بشر**» ليس كقوله: «**مَنْ مثل زيد مِن البشر؟!**»؛ الثاني أبلغ: كأنه يتحدى المخاطَب أن يأتي بأحد مثله.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾: الضمير ﴿نَحْنُ﴾ يعود على النبي ﷺ، وأصحابه؛ وتقديم المعمول في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ على عامله هنا له فائدتان؛ أولهما: لفظية؛ وهي مراعاة فواصل الآيات؛ والثانية: معنوية؛ وهي الحصر، والاختصاص؛ فهو كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[الفاتحة:٥]؛ و(**العبادة**): التذلل لله عزَّ وجلَّ بفعل أوامره محبة له، واجتناب نواهيه تعظيمًا له مع شعور الإنسان بمنزلته، وأن منزلته أن يكون عبدًا لله عزَّ وجلَّ.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: وجوب الالتزام بدين الله؛ لأن المعنى: الزموا صبغة الله عزَّ وجلَّ.

٢- ومنها: أن هذا الدين حق؛ لأن الله سبحانه وتعالى أضافه إلى نفسه؛ وكل ما يضاف إلى الله عزَّ وجلَّ فإنه حق.

٣- ومنها: أن دين الله سبحانه وتعالى أحسن الأديان، وأكملها، وأشملها، وأقومها بمصالح العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾.

٤- ومنها: وجوب إخلاص العبادة لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾؛ فقدم المعمول لإفادة الحصر؛ وعبادة الله فخر، وشرف للعبد؛ ولهذا جاء وصف العبودية في المقامات العليا

لرسول الله ﷺ، فجاءت في مقام الدفاع عنه في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[البقرة:٢٣]؛ وفي مقام تكريمه بالإسراء في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾[الإسراء:١]، وفي مقام رسالته، مثل قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف:١]؛ ويقول الشاعر في معشوقته:

لَا تَدْعُنِي إِلَّا بِيَا عَبْدَهَا ... فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي

٥ـ ومن فوائد الآية: أن العقل يقضي بالتزام الدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾؛ فإن العقل يهدي إلى التزام الأحسن؛ كل إنسان له عقل سليم فإن عقله يأمره بالتزام الأحسن.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة:١٣٩]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾: الخطاب في قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ موجه إلى رسول الله ﷺ؛ و﴿أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ موجه للذين يحاجون الرسول ﷺ من اليهود والنصارى؛ و(**المحاجة**): هي أن يدلي كل خصم بحجته لينقض حجة الخصم الآخر.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي: أننا لا نسأل عنكم، ولا تُسألون عنا؛ كل له عمله؛ وسيجازيه الله به يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ أي: لله عزَّ وجلَّ مخلصون؛ و(**الإخلاص**): تنقية الشيء من كل الشوائب التي قد تَعْلَق به؛ فالمعنى: أننا مخلصون لله الدينَ لا نشرك به شيئًا.

الفوائد:

١ـ من فوائد الآية: الإنكار على اليهود والنصارى الذين يحاجون المسلمين في الله مع إقرارهم بأنه ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾.

٢ـ ومنها: وجوب البراءة من أعمال الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾؛ فإن المراد بذلك: البراءة مما هم عليه.

٣ـ ومنها: أنه ينبغي للمرء أن يفتخر بما هو عليه من الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا﴾ أي فنحن مفتخرون بها بريئون من أعمالكم.

٤ـ **ومنها:** أنه لا يجوز التشبه بأعداء الله؛ لأن المشابهة موافقة في العمل؛ لهذا قال النبي ﷺ: «مَنْ تَشَبَّه بِقَوْمٍ فهُو مِنْهُم»؛ وهنا قال تعالى: ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾: فنحن متميزون عنكم، وأنتم متميزون عنا.

٥ـ **ومنها:** وجوب الإخلاص لله؛ لتقديم المعمول في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠، ١٤١]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ...﴾؛ ﴿أَمْ﴾ هنا: للإضراب؛ والمعنى: بل أتقولون؛ وهو إضراب انتقال؛ وليس إضراب إبطال؛ والمعنى: أنه انتقل من توبيخ هؤلاء الذين يحاجون في الله إلى توبيخ آخر؛ وهو دعواهم أن هؤلاء الرسل الكرام كانوا هودًا أو نصارى؛ وهذه دعوى كاذبة؛ فليس هؤلاء هودًا ولا نصارى؛ بل إن الله سبحانه وتعالى قال موبخًا لهؤلاء مبينًا ضلالهم ـ الذين ادعوا أن إبراهيم كان يهوديًا، أو نصرانيًا ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[آل عمران:٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[آل عمران:٦٥]؛ فكيف يكون يهوديًا أو نصرانيًا وكتاب اليهود والنصارى لم ينزل إلا من بعد إبراهيم؟!!!

قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾: هو أكبر أولاد إبراهيم؛ وهو الذي أمر الله أباه أن يذبحه؛ والقصة مبسوطة في «سورة الصافات».

قوله تعالى: ﴿وَإِسْحَٰقَ﴾: هو أخو إسماعيل؛ وهو الولد الثاني لإبراهيم ﷺ؛ ﴿وَيَعْقُوبَ﴾: هو ابن إسحاق؛ وهو الذي ينتمي إليه بنو إسرائيل؛ ﴿وَٱلْأَسْبَاطَ﴾ سبق الكلام على بيانهم.

قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ يعني: كانوا على ملة اليهودية والنصرانية؛ وهذا من سفه

هؤلاء اليهود الذين يدعون ذلك؛ لأن أصل اليهودية والنصرانية حدثت بعد هؤلاء؛ فكيف يكون هؤلاء هودًا أو نصارى؟!!!

ثم أبطل الله تعالى دعواهم بطريق أُخرى فقال: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾؛ ومن المعلوم أنه لا أحد أعلم من الله عزَّ وجلَّ؛ ولكن الله سبحانه وتعالى قال ذلك إلزامًا للخصم؛ حتى يتبين بطلان ما ادعاه؛ وهو كقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[النمل:٥٩]؛ ومن المعلوم أن الله خير مما يشركون؛ لكن من أجل إفحام الخصم وإلزامه بما هو ظاهر لا إشكال فيه.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يعني: لا أحد أظلم في كتمان الشهادة ممن كتم شهادة عنده من الله؛ وهؤلاء اليهود والنصارى كتموا الشهادة عندهم من الله؛ لأن الله - تبارك وتعالى - أخبر عن نبيه محمد ﷺ، وذكر أوصافه في التوراة والإنجيل، كما قال الله - تبارك وتعالى - في سورة الأعراف: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧]؛ فهذه أوصاف النبي ﷺ في التوراة والإنجيل معلومة لبني إسرائيل؛ ولكنهم يكتمون هذه الشهادة؛ ولا أحد أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله تعالى في كتمان الشهادة؛ وإن كان المشرك أظلم الظالمين؛ لكن اسم التفضيل يختص بالشيء المعين الذي يشترك فيه المفضل والمفضل عليه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يعني: أن الله عزَّ وجلَّ لا يغفل عما يعمل هؤلاء؛ بل هو جل وعلا عالم به، وسوف يحاسبهم عليه.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ ...﴾ الآية: قد سبق الكلام على نظيرها، وفوائدها.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: إبطال دعوى هؤلاء اليهود والنصارى أن: إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، كانوا هودًا أو نصارى؛ فهذه الدعوى باطلة؛ بل وصفُ هؤلاء الإسلام؛ فإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط ليسوا هودًا، ولا نصارى؛ بل هم مسلمون لله سبحانه وتعالى.

٢- ومنها: رد علم هذه الأشياء إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾.

٣- ومنها: الرد على أهل التحريف في أسماء الله وصفاته الذين يقولون: «إن هذا جائز عقلًا على الله؛ فنقر به؛ وهذا يمتنع عقلًا على الله؛ فلا نقر به» كالمعتزلة، والأشاعرة، ونحوهم؛ نقول لهم كلهم في الجواب: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾: أأنتم أعلم بما يجوز على الله، ويمتنع عليه، ويجب له، أم الله

أعلم بما يمتنع عليه، ويجب له، ويجوز له؟!!! وهذه في الحقيقة حجة ملزمة مفحمة مقحمة لهؤلاء الذين يتحكمون في صفات الله تعالى بعقولهم، فيقولون: «يجب لله كذا؛ ويمتنع عليه كذا»؛ فنرد عليهم ونقول: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾.

٤- ومن فوائد الآية: عظم كتم العلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ فإن العالم بشريعة الله عنده شهادة من الله بهذه الشريعة، كما قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟﴾[آل عمران:١٨]؛ فكل إنسان يكتم علمًا فقد كتم شهادة عنده من الله؛ ثم إن في هذا عظم إثمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٥- ومنها: كمال علم الله، ومراقبته لعباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

٦- ومنها: ثبوت الصفات المنفية؛ وهي ما نفاه الله سبحانه وتعالى عن نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ فإن هذه صفة منفية، وليست ثبوتية؛ والصفات المنفية متضمنة لإثبات كمال ضدها؛ فلكمال مراقبته وعلمه سبحانه وتعالى ليس بغافل عما نعمل.

٧- ومنها: تخويف الإنسان، وإنذاره من المخالفة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ فإياك والمخالفة؛ مثلما تهدد إنسانًا بشيء تقول: لست بغافل عنك.

٨- ومنها: إضافة العمل إلى العامل؛ ففيه رد على الجبرية الذين يقولون: «إن الإنسان مجبر على عمله»؛ لقوله تعالى: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:١٤٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ ﴿سَيَقُولُ﴾: السين: للتنفيس؛ وإذا دخلت على المضارع أخلصته للمستقبل؛ المضارع إذا دخلت عليه «لم» أخلصته للماضي؛ وإذا دخلت عليه السين أخلصته للمستقبل؛ وإذا كان مجردًا فهو صالح للحاضر والمستقبل؛ و﴿سَيَقُولُ﴾ تفيد أيضًا مع الاستقبال تحقيق وقوع هذا الشيء، وتفيد أيضًا: قرب هذا الشيء؛ بخلاف (**سوف**) فإنها تدل على المستقبل البعيد؛ و﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ جمع سفيه؛ وهو الذي لا يحسن التصرف لنفسه؛ وكل من خالف الحكمة في تصرفه فهو سفيه؛ فهؤلاء السفهاء سفهاء في دينهم؛ وقد يكونون في المال جيدين؛ وسفه الدين بينه الله سبحانه وتعالى بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ

نَفۡسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠].

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ بيان للسفهاء؛ وهي في موضع نصب على الحال، يعني: حال كونهم من الناس.

قوله تعالى: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَا﴾ في موضع نصب على أنها مقول القول؛ و﴿مَا﴾ اسم استفهام؛ يعني: أيّ شيء صرفهم ﴿عَن قِبۡلَتِهِمُ﴾ أي: ما يستقبلون؛ فقبلة الإنسان ما يستقبله؛ والمراد بها بيت المقدس؛ لأن الرسول ﷺ أول ما قدم المدينة صار متجهًا إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا؛ أو سبعة عشر شهرًا [1] - يعني: إما سنة وأربعة أشهر؛ أو سنة وخمسة أشهر؛ إذا كان مستقبلًا لبيت المقدس تكون الكعبة خلفه تمامًا؛ لهذا يقول ابن عمر: «**رأيت النبي ﷺ يقضي حاجته مستدبر القبلة مستقبل الشأم**» [2].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَا﴾ أي: قبل أن يتجهوا إلى الكعبة؛ فأخبر الله عزَّ وجلَّ بما سيقول هؤلاء السفهاء، وأعلمه بالرد عليهم.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ﴾؛ ﴿لِّلَّهِ﴾: خبر مقدم؛ و﴿ٱلۡمَشۡرِقُ﴾: مبتدأ مؤخر؛ وتقديم الخبر - وهو حقه التأخير - يفيد الحصر؛ يعني: لله وحده المشرق والمغرب؛ فهو الذي يوجه إن شاء إلى المشرق؛ وإن شاء إلى المغرب؛ وإن شاء إلى الشمال؛ وإن شاء إلى الجنوب؛ وخَصَّ المشرق والمغرب؛ لأن منهما تطلع الشمس وتغرب؛ و﴿ٱلۡمَشۡرِقُ﴾: مكان شروق الشمس، والقمر، والنجوم؛ و﴿وَٱلۡمَغۡرِبُ﴾: محل غروبها.

قوله تعالى: ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ أي: يدلُّ ويوفق؛ و﴿مَن يَشَآءُ﴾: مفعول ﴿يَهۡدِي﴾؛ وهي عامة؛ ولكن كل شيء قيد بمشيئة الله فهو مقرون بالحكمة: يهدي من يشاء ممن هو أهل للهداية؛ و«المشيئة»: هي الإرادة الكونية: فما شاء الله كان؛ وما لم يشأ لم يكن.

قوله تعالى: ﴿إلى صراط مستقيم﴾؛ «**الصراط**»: الطريق الواسع الذي يسهل سلوكه؛ والمراد به هنا شريعة الله التي شرعها لعباده، و«المستقيم»: الذي لا اعوجاج فيه.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية:** علم الله تعالى بما سيكون؛ لقوله تعالى: ﴿سيقول السفهاء﴾.

٢- **ومنها:** تحقق وقوع خبر الله عزَّ وجلَّ؛ لأنهم قالوا ذلك.

٣- **ومنها:** من اعترض على حكم الله فهو سفيه.

٤- **ومنها:** تسلية النبي ﷺ وأصحابه، حيث أخبر الله تعالى أنه لا يعترض عليه في ذلك إلا سفيه.

---

(١) انظر البخاري (٤٠)، ومسلم (٥٢٥).

(٢) رواه البخاري (١٤٧)، ومسلم (٢٦٦).

٥- **ومنها:** إعلام المرء بما يتوقع أن يكون ليستعد له؛ ومن ذلك أن النبي ﷺ لما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ**»؛ ليكون مستعدًّا.

٦- **ومنها:** جواز تعليل الأحكام الشرعية بمقتضى الربوبية؛ لإسكات الناس، حتى لا يحصل منازعة؛ إذا قال أحد: لماذا كذا؟ قلت: الله ربك يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد؛ «**لماذا أحل كذا، وحرم كذا؟**» تقول: لأنه ربك؛ «**لماذا توجه الناس من المشرق إلى المغرب؛ من المغرب إلى المشرق؛ من بيت المقدس إلى الكعبة؟**» قلت: لأن ذلك بمقتضى ربوبية الله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾.

٧- **من فوائد الآية:** أن العدو يحتج على عدوه بما يثير نعرته ويلزمه؛ لقوله تعالى: ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ﴾؛ لم يقولوا: عن القبلة؛ كأنهم يقولون: كنتم تتولون ذلك فما الذي صرفكم عنه؟!! وهكذا قد يثير شعور الإنسان؛ حتى يبقى على ما هو عليه، وكأنهم قالوا: بالأمس تختارونها، واليوم تنكرونها وتنبذونها؛ فالخصم دائمًا يُهيج خصمه بما يثير نعرته؛ ليوافقه فيما ذهب إليه.

٨ - **من فوائد الآية:** عموم ملك الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾؛ فهو المالك سبحانه وتعالى للجهات يُصرِّف إليها العباد كيف يشاء؛ ونحن ليس علينا إلا السمع والطاعة؛ أينما وجهنا توجهنا؛ هذا المهم؛ لا أن نتجه إلى كذا، أو إلى كذا؛ فالسجود لغير الله شرك؛ وكان بالنسبة للملائكة حين أمرهم الله بالسجود لآدم طاعة وعبادة؛ وقتل النفس بغير حق؛ ولاسيما قتل الولد فهو من أكبر الكبائر؛ وحين أمر الله تعالى إبراهيم أن يذبح ابنه كان قربة وعبادة؛ فالاعتبار بطاعة الله سبحانه وتعالى.

٩- **من فوائد الآية:** إثبات مشيئة الله؛ لقوله تعالى: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

فإن قال قائل: هل في ذلك حجة للجبرية في قولهم: إن العبد مجبر على عمله؟

فالجواب: أنه لا حجة لهم في ذلك؛ لأن الاحتجاج ببعض القرآن دون بعض كفر به؛ فالقرآن من متكلم واحد؛ فمطلقه في موضع يقيد في موضع آخر؛ بل إن سنة الرسول ﷺ تقيد القرآن، وتبينه، وتخصصه؛ فإذنْ لا دليل في هذه الآية للجبرية إلا من نظر بعين أعور؛ لأن الأعور ينظر من جانب العين الصحيحة؛ لكن من جانب العين العوراء لا يرى؛ والواجب أن ينظر الإنسان إلى النصوص بعينين ثاقبتين؛ وليس بعين واحدة؛ وقد دلت النصوص من الكتاب والسنة على أن الإنسان له إرادة، واختيار، وقدرة، وأضافت أعماله إليه؛ وحينئذٍ لا يمكن أن يكون مجبرًا.

١٠- **من فوائد الآية:** أن الهداية بيد الله؛ لقوله تعالى: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، ومنها: أنْ هدَى هذه الأمة إلى القبلة التي يرضاها الرسول ﷺ.

١١- **ومنها:** الثناء على هذه الأمة؛ لأنها التي على صراط مستقيم؛ لأن أول من يدخل في قوله تعالى: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هؤلاء الذين تولوا عن بيت المقدس إلى الكعبة.

١٢- **ومنها:** أن معارضة الشرع كما أنه سفه فهو أيضًا ضلال؛ لأن الشرع هو الصراط المستقيم،

وهو الهداية؛ وما سواه ضلال، واعوجاج.

١٣ـ ومنها: فضيلة هذه الأمة؛ حيث هداها الله إلى استقبال بيته، الذي هو أول بيت وضع الناس.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾؛ الكاف هنا: اسم بمعنى: (مثل) في محل نصب على المفعولية المطلقة ـ أي: مثلَ ذلك؛ والمشار إليه ما سبق؛ وهو جعل القبلة إلى الكعبة؛ أي: مثلَ هذا الجعل الذي جعلنا لكم ـ وهو اتجاهكم إلى القبلة ـ جعلناكم أُمَّةً وسطًا.

وقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَٰكُمْ﴾ أي: صيرناكم؛ والكاف: مفعوله الأول؛ و﴿أُمَّةً﴾: مفعوله الثاني؛ و﴿أُمَّةً﴾ هنا: بمعنى جماعة؛ وتطلق في القرآن على أربعة معانٍ، وسبق بيانها؛ و﴿وَسَطًا﴾ أي: عدلًا خيارًا.

قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ اللام في قوله: ﴿لِّتَكُونُوا۟﴾ للتعليل؛ وليست للعاقبة؛ والفرق بين لام العاقبة ولام التعليل: أن لام العاقبة تدخل على أمر غير مراد، لكن النتيجة آلت إليه؛ ولام التعليل تدخل على أمر مراد ليكون علة للحكم؛ و﴿شُهَدَآءَ﴾ جمع شهيد؛ أي: تشهدون على الناس بأن الرسل قد بلغتهم؛ فمنهم من آمن، ومنهم من كفر.

قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾: النبي ﷺ يشهد على أمته بأنه بلغ البلاغ المبين.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ وهي استقبال بيت المقدس ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾: المراد علم ظهور، أو علم يترتب عليه الجزاء؛ لأن علم الله الكائن في الأزل لا يترتب عليه الجزاء، حتى يُمتحن العبد ويُنظر؛ أو علم ظهور ـ أي: علم بأن الشيء حصل، فيعلمه أنه حاصل؛ وأما العلم به قبل وقوعه فهو علم بأنه سيحصل؛ وفرق بين العلم بالشيء أنه سيحصل والعلم بأنه قد حصل؛ وقد قال بعض أهل المعاني: إن ﴿لِنَعْلَمَ﴾ هنا

بمعنى الماضي - أي: إلا لعلمنا؛ والمعنى: وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لعلمنا من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه؛ وهذا - وإن كان له وجه من حيث اللفظ؛ وهو أن يعبر بالمضارع عن الماضي أحيانًا - لكنه ضعيف هنا من حيث المعنى؛ إذ لا حكمة من ذلك؛ لأنه يكون معنى الآية: وما جعلنا هذا إلا لأننا قد علمنا من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه؛ وحينئذٍ يقال: إذنْ ما الفائدة؟! لأنه لا يناسب أن الله ما جعل هذه القبلة إلا لأنه قد علم من يبقى على دينه، ومن لا يبقى؛ فالصواب الوجهان الأولان؛ وأحسنهما: أن يكون المراد بالعلم هنا: الذي يترتب عليه الجزاء؛ لأنه الواضح وليس فيه تكلف.

وذكر بعض المعربين أن «نعلم» هنا ضمن معنى: (نَمِيْزُ) بدليل قوله تعالى: ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ﴾؛ مثل: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[الأنفال:٣٧]؛ فقالوا: إن مثل هذا التقييد يدل على أن هذا الفعل للتمييز - أي: لنميز من يتبع ممن ينقلب على عقبيه؛ وليس هذا ببعيد أن يكون الفعل ضمن معنى (نَمِيْزُ) مع أنه دال على العلم؛ إذ لا تمييز إلا بعد العلم؛ والفعل إذا ضمن معنى فعل آخر فإنه يدل على معناه الأصلي وعلى معناه المضمن.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾: ﴿مَا﴾ نافية؛ و﴿جَعَلْنَا﴾ يحتمل أن تكون بمعنى (صَيَّرْنَا)؛ أو بمعنى: «(شَرَّعْنَا)؛ فعلى الاحتمال الأول: تحتاج إلى مفعولين؛ وعلى الثاني: لا تحتاج إلى مفعولين؛ و«الجَعْلُ» يأتي بمعنى الشرع في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾[المائدة:١٠٣] أي: ما شرع؛ وعلى هذا المعنى لا يبقى في الآية أيّ إشكال؛ يعني: ما شرعنا القبلة التي كنت عليها - وهي اتجاهك إلى بيت المقدس - إلا لنعلم من يتبع الرسول إذا صرفناك عنها ممن ينقلب على عقبيه؛ أما على احتمال أن تكون بمعنى «صيرنا» فإنها تحتاج إلى مفعولين؛ الأول: ﴿ٱلْقِبْلَةَ﴾؛ والتقدير: وما صيرنا القبلة التي كنت عليها قبلةً.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾؛ ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر؛ وهذا الاستثناء من أعم الأحوال؛ إذا كان الاستثناء مُفَرَّغًا يقولون: إنه استثناء من أعم الأحوال - يعني: ما جعلنا بأي حال من الأحوال هذه القبلة إلا لهذه الحال فقط لنعلم من يتبع؛ والمراد بـ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ محمد ﷺ؛ وأظهر وصفه في موضع الإضمار تنويهًا بصدقه، وحثًّا على اتباعه؛ إذ مقتضى السياق؛ لولا ذلك، أن يقال: إلا لنعلم من يتبعه.

والأصل في «الاتِّبَاع» المشي خلف الإنسان؛ وهو يختلف باختلاف السياق: إن تعلق بأمور حسية فمعناه: أنك تمشي خلفه في الشارع، وما أشبه ذلك؛ وإن تعلق بأمور معنوية يكون المراد به: التأسي بأفعاله وأقواله؛ وهنا عُلِّق بأمور معنوية؛ فيكون المراد به: التأسي بأقواله وأفعاله.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أشد مما لو قال: ممن لم يتبع الرسول؛ لأن الانقلاب على العقب أشد نفورًا واستنكارًا ممن وقف.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾؛ الضمير يعود على الواقعة؛ يعني: وإن كانت هذه الواقعة؛ وهي تحويل القبلة، لَكَبِيْرَة؛ و﴿إن﴾ هنا مخففة من الثقيلة؛ واسمها ضمير الشأن؛ والتقدير: وإنها كانت لَكَبِيْرَة؛ واللام هنا: للتوكيد؛ ويجوز أن نقول: إنها للفصل بين «إنْ» النافية و«إنْ» المخففة؛ و﴿كبيرة﴾ أي: عظيمة شاقة؛ فالكبَر يراد به: الشيء الشاق العظيم؛ ومنه قوله ﷺ في صاحبي القبرين: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ»[1]، أي: في أمر شاق عليهما.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾؛ ﴿الَّذِينَ﴾ اسم موصول؛ والعائد ضمير منصوب محذوف؛ والتقدير: إلا على الذين هداهم الله؛ والمراد بالهداية هنا: هداية العلم وهداية التوفيق؛ أما كونها هداية العلم فلأن الذين يخشون الله هم العلماء، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر:٢٨] أي: العلماء به، وبأسمائه، وصفاته، وبأحكامه؛ هذه هي هداية العلم؛ لأنهم إذا علموا خشوا الله سبحانه وتعالى، ولم يكرهوا شريعته، ولم يكبر ذلك عليهم، ولم يشق؛ كذلك هداية التوفيق - وهي المهمة: إذا وفق العبد للانقياد لله سبحانه وتعالى سهل عليه دينه، وصار أيسر عليه من كل شيء، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥، ٧].

قوله تعالى: ﴿هَدَى اللَّهُ﴾: أضاف الفعل إلى نفسه؛ لأن كل شيء بقضاء الله وقدره.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾؛ اللام في قوله تعالى: ﴿لِيُضِيعَ﴾ يسمونها لام الجحود؛ و(الجحود): يعني النفي؛ وهذه اللام لها ضابط؛ وهو أن تقع بعد «كون» منفي؛ فاللام التي تأتي بعد «كون» منفي تسمى لام الجحود؛ هذا من جهة الإعراب؛ أما من جهة المعنى فكلما جاءت «ما كان الله..» في القرآن فهي الأمر الممتنع غاية الامتناع؛ مثل: «لا ينبغي»، أو «ما ينبغي» فالمراد: أنه ممتنع مستحيل، كقوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾[يس:٤٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾ [مريم:٩٢] أي ممتنع مستحيل؛ وقوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ»[2]، المعنى: أنه مستحيل.

قوله تعالى: ﴿لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾؛ «يضيع» بمعنى: يتركه سدًى بدون مجازاة عليه؛ والمراد بـ﴿إِيمَانَكُمْ﴾ صلاتهم إلى بيت المقدس؛ وهذا عام للذين ماتوا قبل تحويل القبلة ومن بقوا حتى حولت؛ وقد ذكر بعض المفسرين أن سبب نزول هذه الآية: أن اليهود صاروا يقولون للمسلمين الذين صلوا منكم قبل تحويل القبلة: ضاعت صلاتهم، وليس لهم فيها ثواب؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾؛ ﴿لَرَءُوفٌ﴾ فيها قراءتان: «لرؤف» بحذف الواو بعد الهمزة؛ و«لرؤوف» بإثبات الواو بعد الهمزة؛ وكلتاهما قراءتان سبعيتان؛ هذه الجملة

---

(١) رواه البخاري (٢١٣)، ومسلم (٢٩٢).

(٢) رواه مسلم (١٧٩)، وابن ماجه (١٩٥)، وأحمد في «مسنده» (١٩٦٤٩).

مؤكدة بمؤكدين؛ أحدهما: «إنّ»؛ والثاني: اللام، و«لرؤوف» قال العلماء: إن الرأفة أشد الرحمة؛ فهي رحمة خاصة؛ و﴿رَّحِيمٌ﴾ أي متصف بالرحمة؛ وقالوا: إنه قدمت «لرؤوف» على ﴿رَّحِيمٌ﴾؛ مع أن «الرؤوف»، أبلغ من أجل مراعاة الفواصل؛ وقال تعالى: ﴿رَّحِيمٌ﴾؛ لأن هذا يتعلق بفعله، أي: برحمته الخلق.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: فضيلة هذه الأمة؛ حيث هداها الله إلى استقبال بيته الذي هو أول بيت وضع للناس؛ وروى الإمام أحمد في «مُسنده» أن مما يحسدنا عليه اليهود: القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها؛ فهم يحسدوننا على هذه الخصلة؛ وكذلك على يوم الجمعة، وعلى قولنا خلف الإمام: «آمين»؛ المهم أن استقبال القبلة مما حسدونا عليه؛ لأن الكعبة أول بيت وضع للناس، وأعظم بيت في الأرض؛ ولا يوجد بيت قصده ركن من أركان الإسلام للحج إلا الكعبة؛ ولذلك حسدنا اليهود عليها، وأثاروا ضجةً عظيمةً على التولي عن قبلتهم إلى الكعبة، وصاروا مع من يناصرهم من المشركين؛ أحدثوا أمرًا عظيمًا حتى إن بعض المسلمين ارتد - والعياذ بالله - عن الإسلام لما سمع من زخرف القول من هؤلاء اليهود، وغيرهم.

٢- ومن فوائد الآية: فضل هذه الأمة على جميع الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَطًا﴾.

٣- ومنها: عدالة هذه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ والشهيد قوله مقبول؛ والمراد بـ «الأمة» هنا: أمة الإجابة؛ ومن هنا نعرف حذق أهل الفقه؛ حيث قالوا: إن «العدل» من استقام على دين الله؛ يعني: هذه الأمة أمة وسط، إذا كانت على دين الرسول ﷺ فتكون شهيدةً، وتُقبل شهادتها إذا استقامت على دين الله، وكانت أمة حقيقية؛ فعلية يؤخذ من هذا حدّ «العدل»: أن العدل من استقام على دين الله.

٤- من فوائد الآية: أن هذه الأمة تشهد على الأمم يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ والشهادة تكون في الدنيا والآخرة؛ فإذا حشر الناس، وسئل الرسل: هل بلغتم؟ فيقولون: نعم؛ ثم تسأل الأمم: هل بُلِّغتم؟ فيقولون: ما جاءنا من بشير ولا نذير؛ ما جاءنا من أحد؛ فيقال للرسول: من يشهد لك؟ فيقول: «محمد، وأمته»؛ يُستشهدون يوم القيامة، ويَشهدون؛ فيكونون شهداء على الناس.

فإذا قال قائل: كيف تشهد وهي لم تر؟ نقول: لكنها سمعت عمن خبره أصدق من المعاينة صلوات الله وسلامه عليه.

٥- من فوائد الآية: أن نبينا ﷺ يكون شهيدًا علينا يوم القيامة، شهيدًا علينا بالعدالة؛ وقيل: شهيدًا علينا بأنه بلغ البلاغ المبين؛ وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال يوم عرفة في أعظم مجمع حصل له مع الصحابة: «أَلا هَلْ بَلَّغْتُ»؟ قالوا: نعم؛ قال: «اللَّهُم اشْهَد؛ أَلا هَلْ بَلَّغْتُ»؟ قالوا: نعم؛ قال:

«اللَّهُمَّ اشْهَدْ»؛ «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ»؟ قالوا: نعم؛ قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»[1]؛ فأشهد النبي ﷺ ربه على إقرار أمته بالبلاغ؛ نعم؛ لقد بَلَّغَ ﷺ البلاغ المبين، فترك أمته على المحجة البيضاء؛ وما مات حتى أكمل الله به الدين؛ وما بقي شيء يحتاج الناس إليه في دينهم، صغيرًا كان أو كبيرًا إلا بينه ﷺ بيانًا واضحًا - والحمد لله -، فالرسول ﷺ شهيد على هذه الأمة؛ قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١]، يعني: كيف تكون الحال في ذلك اليوم عظيم؛ ولهذا لما قرأ ابن مسعود على النبي ﷺ ووصل إلى هذه الآية قال له النبي ﷺ: «حَسْبُكَ» يعني: قف؛ قال: «فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ»[2]؛ لأن الأمر العظيم؛ فالنبي ﷺ شهيد علينا؛ يشهد بأننا بُلِّغنا، وأقيمت علينا الحجة، وما بقي لنا عذر بأيِّ وجه من الوجوه؛ ولهذا لا عذر لأحد بعد أن يتبين له الهدى أن يشاق الله ورسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[النساء:١١٥].

٦- ومن فوائد الآية: إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

٧- ومنها: أنه لا رسول بعده؛ لأن «أل» هنا: للعهد، وهو يخاطب هذه الأمة؛ فالرسول المعهود فيها واحد؛ وهو محمد ﷺ؛ ويلزم من ذلك أن لا يكون بعده رسول.

٨ - ومنها: أن الله سبحانه وتعالى قد يمتحن العباد بالأحكام الشرعية إيجابًا، أو تحريمًا، أو نسخًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾؛ فليتنبه الإنسان لهذا؛ فإن الله قد يبتليه بالمال بأن يعطيه مالًا؛ ليبلوه أيقوم بواجبه، أم لا؛ وهذه محنة؛ لأن غالب من ابتلي بالمال طغى من وجه، وشح من وجه آخر؛ ثم اعتدى في تمول المال؛ فضَلَّ في تموله، والتصرف فيه، وتصريفه؛ وقد يبتليه بالعلم؛ فيرزقه علمًا ليبلوه أيعمل به، أم لا؛ ثم هل يعلمه الناس، أم لا؛ ثم هل يدعو به إلى سبيل الله، أم لا؛ فليحذر من آتاه الله علمًا أن يخل بواحد من هذه الأمور.

وكذلك قد يمتحن العباد بالأحكام الكونية؛ ومنها ما يجري على العبد من المصائب.

ومن امتحانه بهما أن الله حرم الصيد على المحرِم، ثم أرسله على الصحابة وهم محرِمون حتى تناله أيديهم ورماحهم.

٩- ومن فوائد الآية: وجوب اتباع الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾، فالله امتحن العباد؛ ليعلم هل يتبعون الرسول ﷺ؛ والصحابة ﷺ اتبعوا الرسول ﷺ في ذلك أشد

---

(١) رواه البخاري (١٦٥٤)، ومسلم (١٢١٨).

(٢) رواه البخاري (٤٣٠٦)، والترمذي (٩٨٩)، والنسائي في «الكبرى» (٨٠٧٨).

الاتباع: جاءهم رجل وهم يصلون الفجر في قباء وهم ركوع، فقال: «**إن النبي ﷺ قد أُنزل عليه الليلة القرآن، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشأم؛ فاستداروا إلى الكعبة**»[1]؛ هذا هو الاتباع العظيم؛ وكذلك فعل بنو سلمة في مسجد القبلتين؛ إذنْ فاتباع الرسول ﷺ واجب؛ وإلا لما احتيج إلى محنة الناس عليه.

١٠ـ ومن فوائد الآية: إثبات علم الله؛ لقوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ﴾؛ وعلم الله سبحانه وتعالى محيط بكل شيء، كما قال تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢].

١١ـ ومنها: أن الردة عن الإسلام انقلاب؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾؛ فإن بعض الذين أسلموا ارتدوا حينما تحولت القبلة إلى الكعبة؛ وقالوا: «**إن محمدًا ليس على يقين من أمره: بالأمس له قبلة؛ واليوم له قبلة**»؛ وما علموا أن ذلك مما يؤيد رسالته؛ لأن الإنسان الكذاب يحرص على أن لا يتراجع؛ لأن التراجع وصمة فيه؛ لكن الإنسان الصدوق لا يهتم أن يقول ما أوحي إليه، سواء وافق ما كان عليه أولًا، أو خالف.

١٢ ـ ومنها: أن التقدم حقيقة إنما يكون بالإسلام، وأن الرجعية حقيقة إنما تكون بمخالفة الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾؛ فإن هذا حقيقة الرجوع على غير هدًى؛ لأن الذي ينقلب على عقبيه لا يبصر ما وراءه؛ فمن قال للمتمسكين بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ رجعيون، قلنا له: بل أنت الرجعي حقيقة؛ لأن الله سَمَّى مخالفة الرسول ﷺ انقلابًا على العقب؛ ولا أبلغ من هذا الرجوع أن الإنسان يرجع على عقبيه رجوعًا أعمى ـ والعياذ بالله ـ لا يدري ما وراءه.

١٣ـ ومن فوائد الآية: أن تغيير القبلة شاق إلا على طائفة معينة من الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾؛ وهذا يقع كثيرًا للإنسان: تشق عليه بعض الأوامر الشرعية، واجتناب بعض النواهي الشرعية؛ لكن بتمام الإيمان تزول هذه المشقة، وتكون سهلة؛ والعلماء اختلفوا: أيهما أفضل رجل يفعل العبادة بمشقة، ويترك المعصية بمشقة؛ وآخر يفعل العبادة بيسر، ويترك المعصية بيسر؟ قال بعض العلماء: الأول أفضل؛ لأنه مجاهد يجاهد نفسه فيتعب؛ وقال آخرون: بل الثاني أفضل؛ لأن العبادة كأنها امتزجت بدمه ولحمه، حتى صارت سَجِيَّةً له، ويسيرة عليه لا ينشرح صدره إلا بها؛ والصحيح أن يقال: أما الذي يفعلها بسهولة، ويسر، وانقياد فهذا أكمل حالًا بلا شك؛ لأنه مطمئن بالإيمان فرح بالطاعة؛ أما الثاني: فحاله أدنى؛ ولكنه يؤجر على مجاهدة نفسه على الطاعة؛ وعلى ترك المعصية؛ على أن هذا الثاني الذي قلنا: إنه مفضول، وله أجر المشقة ربما يمن الله عزَّ وجلَّ عليه ـ وهو أكرم الأكرمين ـ حتى تكون العبادة في نفسه سهلة، ويفعلها

---

(١) رواه البخاري (٣٩٥)، ومسلم (٥٢٦).

بارتياح؛ وهذا هو معنى قول بعض أهل العلم: طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله؛ فالإنسان قد يفعل العبادة في البداية بمشقة، ويكون عنده نوع من التعب في تنفيذها؛ لكن إذا علم الله من نيته صدق القصد والطلب يسر الله له الطاعة حتى كانت سَجِيَّةً له.

١٤ـ ومن فوائد الآية: إظهار منة الله عزَّ وجلَّ على من هداه الله؛ لأنه نسب الهداية إليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾؛ وهذه أعظم منة منَّ الله بها عليه أن هداه للإسلام؛ فيجب أن يشعر بها الإنسان؛ فلا يَمُنَّ بدينه على ربه؛ بل يعتقد أن المنة لله عليه، كما قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[الحُجُرات:١٧]؛ فكم من أناس ضلوا عن الحق مع بيانه ووضوحه؛ وهم كثيرون؛ بل هم الأكثر، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[الأنعام:١١٦]؛ وانظر إلى الفضل، والكرم: هو الذي منَّ علينا بالهداية، ثم يقول في سورة الرحمن: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾[الرحمن:٦٠]؛ فكأننا نحن الذين أَحْسَنَّا؛ فأحسن إلينا بالجزاء مع أن له الإحسان أولًا وآخرًا؛ هو الذي أحسن إلينا أولًا، وأحسن إلينا آخرًا؛ ولكن هذه مِن منَّته سبحانه وتعالى، ومِن شكره لسعي عبده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان:٢٢].

١٥ـ ومن فوائد الآية: أن الله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر عمل عامل إذا كان مبنيًّا على الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾؛ كل عمل تعمله صادر عن إيمان فإنه لن يضيع؛ ستجده مسجلًا ـ قولًا كان، أو فعلًا، أو همًّا بالقلب، كما قال النبي ﷺ: «**مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً**»[١].

١٦ـ ومنها: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: «**الرؤوف**» و«**الرحيم**»، وما تضمناه من الصفة؛ وهي الرأفة والرحمة.

١٧ـ ومنها: إثبات عموم الرحمة لكل الناس؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ وهذه هي الرحمة العامة: التي بها يعيش الناس في دنياهم برزق الله من طعام، وشراب، وكسوة، وغيرها؛ وأما الرحمة الخاصة: فهي للمؤمنين خاصة؛ وبها يحصل سعادة الدنيا والآخرة، كالعلم والإيمان المثمرَين لطاعة الله، ورسوله ﷺ.

١٨ـ ومنها: أن العمل من الإيمان، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾؛ فإنها فسرت بالصلاة إلى بيت المقدس؛ وهذا مذهب أهل السنة والجماعة: أن العمل داخل في الإيمان؛ وهذا أحد أدلتهم؛ ومن الدليل على ذلك قوله ﷺ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**»[٢]؛ فقول:

---

(١) رواه البخاري (٦١٢٦)، ومسلم (١٣١).
(٢) رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

«لا إله إلا الله» من أعمال اللسان؛ و«إماطة الأذى عن الطريق» من أعمال الجوارح وقوله ﷺ: «الحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ» من أعمال القلوب؛ كما أن الإيمان أيضًا يطلق على الاعتقاد؛ لقوله ﷺ: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ»(١)؛ فقوله ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ» هذا اعتقاد القلب؛ فالإيمان عند أهل السنة والجماعة يشمل: اعتقاد القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح؛ ووجه كون الأعمال من الإيمان أنها صادرة عن إيمان؛ الإيمان هو الذي حمل عليها، ولهذا لا يعد عمل المنافق من الإيمان؛ عمل المنافق ـ صلاته، وذكره لله؛ ونفقاته ـ لا يُعَدّ من الإيمان؛ لأنه صادر عن غير إيمان.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤٤]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ ﴿قَدْ﴾ هنا للتحقيق؛ و﴿نَرَىٰ﴾ فعل مضارع عَبَّرَ به عن الماضي؛ لأن النبي ﷺ كان يكرر تقلب وجهه في السماء؛ فأتى بالفعل المضارع للدلالة على استمرار رؤية الله له كما استمر تقلب وجه النبي ﷺ في السماء ترقبًا لنزول جبريل بتحويل القِبْلَة إلى الكعبة؛ وقيل: إنه فعل مضارع على بابه، فيكون إخبارًا بأن الله سيرى تقلب وجهه، ثم يحوله إلى القبلة التي يرضاها؛ وهذا أقرب إلى ظاهر اللفظ.

قوله تعالى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ الفاء للتفريع؛ لأن ما بعدها مُفَرَّعٌ على ما قبلها؛ واللام موطئة للقسم؛ فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات؛ وهي: القسم المقدر، واللام، والنون؛ وقوله: ﴿فلنولينك﴾ أي: فلنوجهنَّك؛ وقيل: فلنحولنَّك إلى ﴿قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾؛ نُكِّرت ﴿قِبْلَةً﴾ للتعظيم؛ و﴿تَرْضَىٰهَا﴾ أي: تطمئن إليها، وتحبها، وتقبلها؛ والرسول ﷺ قَبِل القبلة الأولى، ورضيها قبل أن يحول إلى الكعبة؛ لكنه يحب أن يحول إلى الكعبة.

قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ أي: استقبل بوجهك؛ و«وجه» مفعول أول؛ و﴿شَطْرَ﴾

---

(١) رواه مسلم (٨)، والترمذي (٢٦١٠)، والنسائي (٤٩٩٠).

مفعول ثان؛ والمراد بـ «الشطر» هنا بمعنى الجهة؛ يعني: جهة المسجد الحرام؛ والمراد بـ «الوجه» جميع البدن؛ لأن البدن بهيئته وطبيعته إذا استقبل الوجه جهة صار جميع البدن مستقبلًا لها.

قوله تعالى: ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ «المسجد» في الأصل مكان السجود؛ وقيل: إن «المسجَد» بفتح الجيم: مكان السجود؛ و«المسجِد» بكسر الجيم: المكان المعد للسجود؛ فيكون بينهما فرق: هو أن المكان المبني المعَدّ للسجود يسمى مسجِدًا ـ بالكسر ـ وأما المكان الذي سجدت فيه بالفعل فيسمى مسجَدًا ـ بالفتح.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَرَامِ﴾ صفة مشبهة من الحُرم؛ وهو المنع؛ وسمي «حرامًا»؛ لأنه يمنع فيه من أشياء لا تمنع في غيره، ولأنه محترم معظم؛ والمراد به: الكعبة وما حولها من البناء المعروف.

قوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾؛ عدل عن الخطاب للنبي ﷺ إلى الخطاب لأمته؛ لأن الخطاب الموجه للنبي ﷺ خطاب له وللأمة؛ إذ إنه الإمام؛ والخطاب إذا وجه للإمام فهو خطاب له، ولمن اتبعه؛ ونظير ذلك أن الوزير مثلًا يقول للقائد: اتجه إلى كذا؛ المعنى: اتجه، ومن يتبعك من الجنود؛ فهكذا الخطاب الموجه للرسول ﷺ يكون له وللأمة؛ ونظير هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[الطلاق:١]؛ فخاطب النبي ﷺ أولًا، ثم قال تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾؛ لأن الحكم له، ولأمته.

قوله تعالى: «حيث» ظرف مكان لكنها شرطية زِيْدَتْ عليها ﴿مَا﴾ لفظًا لا معنًى للتوكيد؛ و﴿كُنتُمْ﴾ فعل الشرط؛ وجواب الشرط قوله تعالى: ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ المراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الجنس؛ وهو التوراة، والإنجيل؛ و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ [البقرة:٢١٣] هم اليهود والنصارى.

قوله تعالى: ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ اللام للتوكيد؛ فالجملة إذنْ مؤكدة بـ﴿إن﴾ واللام؛ و«العِلم» إدراك الشيء إدراكًا جازمًا مطابقًا للواقع.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: استقبالك المسجد الحرام الحق؛ و﴿ٱلْحَقُّ﴾ معناه: الشيء الثابت؛ فإن أضيف إلى الخبر فهو الصدق؛ وإن أضيف إلى الحكم فهو العدل؛ قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥].

قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ (الرب): الخالق المالك الكامل السلطان المدبر لجميع الأمور.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾؛ ﴿ما﴾ هنا حجازية؛ لأن القرآن بلغة قريش؛ والدليل على هذا قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف:٣١]؛ ولم يقل: «بشر»؛ فالقرآن بلغة قريش؛ وقريش حجازيون؛ و﴿مَا﴾ عندهم تعمل عمل «ليس».

وقوله تعالى: ﴿بِغَٰفِلٍ﴾: الباء زائدة إعرابًا مفيدة معنًى ـ وهو التوكيد؛ و﴿غافل﴾ خبر ﴿مَا﴾ منصوب بها؛ وعلامة نصبه: فتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف

الجر الزائد؛ و(**الغفلة**): اللهو والسهو عن الشيء.

وقوله تعالى: ﴿**عَمَّا يَعْمَلُونَ**﴾: (ما): اسم موصول تفيد العموم؛ يعني: عن أيِّ عمل يعملونه سواء كان يتعلق بالجوارح، أو يتعلق بالقلوب؛ فيشمل الاعتقاد، ويشمل القول والفعل.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية:** إثبات رؤية الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

٢- **ومنها:** أن النظر إلى السماء ليس سوء أدب مع الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لكن في الصلاة لا يرفع بصره إلى السماء؛ لورود الوعيد الشديد به.

٣- **ومنها:** إثبات علو الله؛ لأن الرسول ﷺ يقلب وجهه في السماء؛ لأن الوحي يأتيه من السماء.

٤- **ومنها:** كمال عبودية الرسول ﷺ لربه، حيث كان يحب أن يتوجه إلى الكعبة؛ لكنه لم يفعل حتى أُمر بذلك.

٥- **ومنها:** إثبات عظمة الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً﴾؛ فإن ضمير الجمع للتعظيم.

٦- **ومنها:** أن النبي ﷺ كان يحب أن يتوجه إلى الكعبة؛ لقوله تعالى: ﴿تَرْضَىٰهَا﴾ مع قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾.

٧- **ومنها:** وجوب الاتجاه نحو المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

٨- **ومنها:** أن الوجه أشرف الأعضاء حيث عَبَّرَ به عن سائر الجسم.

٩- **ومنها:** ما استدل به المالكية على أنه ينبغي للمُصَلِّي أن ينظر تلقاء وجهه؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ فإذا ولَّى الإنسان وجهه شطر المسجد الحرام فسيكون نظره تلقاء وجهه غالبًا؛ وهذه المسألة اختلف فيها أهل العلم: ماذا ينظر إليه المصلي حال القيام؟ فالمشهور عن المالكية: أن المُصَلِّي ينظر تلقاء وجهه؛ وعند الإمام أحمد: أنه ينظر إلى موضع سجوده، وهو مذهب الشافعي، وأبي حنيفة؛ واستدلوا لذلك بأثر مرسل عن محمد بن سيرين أن النبي ﷺ كان يُطَأْطِئُ رَأْسَهُ، وينظر إلى موضع سجوده؛ ولأنه أظهر في الخشوع؛ وقال بعض العلماء: إن الإمام والمنفرد ينظران إلى موضع السجود؛ وأما المأموم فينظر إلى إِمَامِهِ - بكسر الهمزة؛ واستدلوا لذلك بأحاديث في «**البخاري**»؛ وهي أن الرسول ﷺ حينما صلى صلاة الكسوف، وأخبر أصحابه بأنه عرضت عليه الجنة والنار قال لهم: «**وَذَلِكَ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَقَدَّمْتُ وَتَأَخَّرْتُ**»[1]؛ وهذا دليل على أنهم ينظرون إليه؛ ومنها: أنه لما صُنِعَ له المنبر قام يصلي عليه، فكان

---

(١) انظر البخاري (١١٥٤)، ومسلم (٩٠٤).

يقوم ويركع؛ فإذا أراد السجود نزل وسجد على الأرض؛ وقال: «**إنَّمَا فَعَلْتُ هَذَا لِتَأْتَمُّوا بِي، وَلِيَتَعَلَّمُوا صَلَاتِي**»(١)؛ وهذا دليل على أنهم ينظرون إليه؛ ومنها أيضًا: أنهم لما أخبروا أن الرسول ﷺ كان يقرأ في صلاة السر؛ قيل لهم: بم تعرفون ذلك؟ قالوا: «**بِاضْطِرَابِ لِحْيَتِهِ**»(٢)؛ وهذه كلها في« **الصحيح**»؛ فهذا دليل على أن المأموم ينظر إلى إمامه؛ ولأنه أبلغ في الائتمام به؛ لأن الإمام قد يقوم، وقد يجلس ساهيًا مثلًا؛ فإذا كان المأموم ينظر إلى الإمام كان ذلك أبلغ في الاقتداء به؛ أما الإمام والمنفرد فإنهما ينظران إلى موضع السجود؛ وهذا القول أقرب؛ ولا سيما إذا كان المأموم محتاجًا إلى ذلك، كما لو كان لا يسمع، فيريد أن ينظر إلى الإمام ليقتدي به، أو نحو ذلك.

لكن يستثنى من ذلك إذا كان جالسًا؛ فإنه ينظر إلى موضع إشارته؛ لقول عبد الله بن الزبير: «**كان النبي ﷺ لا يجاوز بصره إشارته**»(٣)؛ ومما يستثنى من ذلك عند بعضهم: إذا كنت في المسجد الحرام ويمكنك مشاهدة الكعبة؛ فإنك تنظر إلى الكعبة؛ ومنها إذا كنت في خوف وحولك العدو؛ فإنك تنظر إلى جهة العدو؛ فهذه المسائل الثلاث تستثنى؛ والراجح في مسألة الكعبة: أن المصلي لا ينظر إليها حال صلاته؛ لعدم الدليل على ذلك؛ ولأنه ربما ينشغل به عن صلاته، لاسيما إذا كان الناس يطوفون حولها؛ وأما استثناء الصلاة حال الخوف فصحيح؛ لدخوله في عموم قوله تعالى: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء:١٠٢]؛ وقد ورد عن النبي ﷺ أنه بعث طليعة؛ فكان يصلي وهو يلتفت إلى الشعب هل جاءت الطليعة أم لا؟(٤).

١٠ـ ومن فوائد الآية: عظمة هذا المسجد لوصفه بالحرام؛ أي: ذي الحرمة والتعظيم، ولهذا كان من يدخله آمنًا، ولا يدخله أحد إلا بإحرام وجوبًا إن كان لم يؤد الفرض؛ أو استحبابًا إن كان قد أداه – بخلاف غيره؛ فكل شيء فيه حياة فهو آمن داخل الحرم – حتى الجماد: فالشجر آمن لا يجوز قطعه في الحرم؛ والصيد آمن لا يقتل في الحرم؛ بل ولا ينفر من مكانه.

١١ـ ومنها: وجوب الاتجاه إلى القبلة في أيِّ مكان كان الإنسان: من بَرٍ، أو بَحْرٍ، أو جَوٍ؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾؛ ويشمل من كان في مكة، ومن كان بعيدًا عنها، ومن كان في جوف الكعبة؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾؛ إذنْ إذا كان في جوف الكعبة يستقبل أمام وجهه من أيِّ الجهات كان؛ إلا إن بعض أهل العلم يقول: لا يستقبل الباب إذا كان مفتوحًا ما لم يكن له عتبة؛ لأنه لابد من شاخص يكون بين يديه حتى يصح أن يقال: إنه ولَّى وجهه شطره؛ وإذا كنا خارج الكعبة ـ ولكن في المسجد ـ فإنا ندور حوله؛ لأننا لو استقمنا في صف مستقيم لم نوَلِّ وجوهنا

---

(١) رواه البخاري (٨٧٥)، ومسلم (٥٤٤).

(٢) رواه البخاري (٧١٣)، وأبوداود (٨٠١)، وابن ماجه (٨٢٦).

(٣) رواه النسائي (١٢٧٥)، وأبوداود (٩٩٠)، والنسائي في «الكبرى» (١١٩٨)، وصحح إسناده الألباني في تعليقه على السنن.

(٤) **صحيح:** رواه أبوداود (٩١٦)، والنسائي في «الكبرى» (٨٨٧٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٧٨).

شطره؛ ويكون من خرج عن مسامتته ولَّى وجهه جهة غيره؛ لأنه محصور الآن؛ وإذا ابتعدنا فإن بعض العلماء يقول: إن كنت في مكة فاستقبل المسجد؛ وإن كنت خارج مكة فاستقبل مكة؛ لكن هذا تقريبي؛ إنما الصواب في هذه المسألة أن من أمكنه مشاهدة عين الكعبة وجب عليه استقبال العين - لا يخرج عن مسامتتها؛ ومن لا يمكن مشاهدتها لبعد أو حيلولة شيء دونها استكفى بالجهة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

ويسقط استقبال القبلة في مواضع؛ منها:

أ - عند صلاة النفل في سفر؛ فيصلي حيث كان وجهه.

ب - عند الخوف الشديد إذا كان لا يمكن استقبال القبلة.

ج - إذا كان عاجزًا عن استقبال القبلة لمرض - أو صلب - يعني: لو صلب إلى غير القبلة أو نحو ذلك.

أما إذا اشتبهت عليه القِبْلَةَ فعليه أن يجتهد إن كان بمكان يصح فيه الاجتهاد؛ فإن أصاب فذاك؛ وإن أخطأ فهو معذور؛ إذنْ فالاشتباه لا يُستثنى؛ لأن حقيقة الأمر أنه لا يجوز أن يصلي إلا وهو يعتقد أنه إلى القبلة؛ بخلاف الذي ذكرنا؛ فالعاجز يعرف أن القبلة خلفه، فيصلي إلى غير القبلة؛ وكذلك في شدة الخوف؛ وكذلك المتنفل في السفر.

١٢ - **ومن فوائد الآية:** مراعاة الشريعة اجتماع المسلمين على جهة واحدة؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾؛ فالمسلمون في أقطار الدنيا كلها يتجهون إلى قبلة واحدة؛ هذا توحيد؛ ولاسيما أنهم يتجهون هذا الاتجاه، ويتحدون هذا الإتحاد في أعظم مشعر عملي، أو في أعظم فريضة عملية - وهي الصلاة؛ فيدل هذا على أن الشرع يراعي مراعاة تامة توحيد المسلمين في دينهم، وتوحيدهم في الاتجاه البدني، وكذلك في الاتجاه القلبي الفكري.

١٣ - **ومنها:** بيان عناد اليهود والنصارى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ ولكن مع ذلك شَنَّعُوْا على النبي ﷺ تشنيعًا عظيمًا حين توجه إلى الكعبة بأمر ربه.

١٤ - **ومنها:** أن ما كان من عند الله فهو حق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ مضافًا إلى الله: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾.

١٥ - **ومنها:** أن هؤلاء المعاندين من أهل الكتاب يعاندون مع علمهم التام، ومع إقرارهم بربوبية الله سبحانه وتعالى؛ فهم يعلمون أن الرسول ﷺ سيستقبل الكعبة؛ وهم علموا ذلك مما جاء في كتبهم من وصف الرسول ﷺ بأن هذا النبي الأمي سوف يتجه إلى الكعبة؛ وكان عليهم حيث أقروا بربوبية الله لهم، وعلموا الحق أن ينقادوا له، وأن يكونوا أولى الناس باتباعه؛ لأن من أقر بربوبية الله سبحانه وتعالى لزم أن يقر بأحكامه، ويلتزم بها؛ لأن الرب له الملك المطلق يتصرف كيف يشاء؛ ولهذا أضاف الربوبية هنا إليهم: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ لإقامة الحجة عليهم؛ حيث يعترفون بربوبيته.

١٦ـ ومن فوائد الآية: انتفاء غفلة الله عزَّ وجلَّ عن أعمالهم المتضمن لكمال علمه، وإحاطته بهم؛ ولا يكفي أن نقول: انتفاء الغفلة فقط؛ بل نقول: المتضمن لكمال العلم، والإحاطة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾.

١٧ـ ومنها: صحة تقسيم الصفات إلى: ثبوتية ومنفية؛ والتي في الآية هنا منفية ـ وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ فالصفات المنفية: كل صفة صُدِّرت بما يدل على النفي بأيِّ أداةٍ كانت، مثل قوله تعالى: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾[البقرة:٢٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾[الفرقان:٥٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾[ق:٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ﴾[الأحقاف:٣٣]؛ واعلم أن الصفات المنفية لا يراد بها مجرد النفي؛ وإنما يراد بها مع النفي: إثبات ضدها؛ فإذا قال الله تعالى عن نفسه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾[ق:٣٨] فالمراد: نفي اللغوب، وإثبات كمال قوته وقدرته.

١٨ـ ومن فوائد الآية: تهديد هؤلاء المعاندين الذين أوتوا الكتاب، وعلموا الحق، ولم يَتَّبِعُوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾؛ ويشبه هؤلاء من بعض الوجوه من يتعصب لمذهبه ـ ولو علم أن الحق في خلافه ـ إحسانًا للظن بمن قلدهم؛ ولو أتيتهم بكلام من كلام مشايخهم قالوا: على العين والرأس! ولهذا أكثر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «**الفتوى الحموية**» النقول عن العلماء من الأشاعرة، وغيرهم؛ وقال: «**إنه ليس كل من نقلنا قوله فإننا نقول به؛ ولكن لما كان بعض الطوائف منتحلًا إلى إمام أو مذهب، صار لو أُتي بكل آية ما تبعها حتى يؤتى بشيءٍ من كلامهم**»، وهذا من الدعوة بالحكمة، فإنه يقنع المعارض بما لا يمكن نفيه ومعارضته؛ إذا أتى إليه بشيءٍ من كلام مُقلِّده لا يمكنه أن يَحِيْدَ عنه، وهؤلاء المتعصبون للمذاهب إذا قلنا لهم: هذا الإمام الشافعي، والإمام مالك، والإمام أحمد، والإمام أبو حنيفة كلهم ينكرون تقليدهم مع مخالفة الكتاب والسنة، ويقولون: «**اضربوا بأقوالنا عُرض الحائط إذا خالفت الكتاب والسنة**»؛ ولهم عبارات في هذا المعنى كثيرة؛ وإذا كانوا يقولون هكذا فإن الذين يتعصبون لهم مع مخالفة الدليل لم يقلدوهم حقيقة؛ ولو قلدوهم حقيقة لكانوا إذا بَيَّنَ لهم الدليل أخذوا به كما أمر به هؤلاء الأئمة؛ لكنهم لم يقلدوهم حقيقة؛ بل تَعَصَّبُوا تَعَصُّبًا لا يحمدون عليه ما دام قام الدليل على خلافه؛ أما إذا لم يقم الدليل عند الإنسان ـ سواء كان ممن يطلب الدليل، ويستطيع أن يعرف الحكم بالأدلة؛ أو لم يكن كذلك ـ فهذا على كل حال يعذر إذا قلد من يرى أنه أقرب إلى الحق؛ أما مع وضوح الدليل وبيانه فإن التقليد حرام؛ ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن التقليد بمنزلة أكل الميتة يحل للضرورة، أما مع وجود لحم مذكًّى فلا تأكل الميتة؛ فمع وجود الدليل من الكتاب والسنة وتبينه للإنسان فإنه لا يحل له أن يقلد؛ ولهذا لم يأمر الله بسؤال أهل العلم إلا عند عدم

العلم فقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾[النحل: ٤٣، ٤٤]؛ أما إذا كنا نعلم بالبينات والزبر فلا نسألهم؛ ونأخذ من البينات، والزبر.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ١٤٥]

❁ التفسير ❁

في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾ أمران متنازعان: قسَم، وشرط؛ قَسَم: مدلول عليه باللام؛ لأن اللام واقعة في جواب القسم المقدر ـ أي: والله لئن؛ والثاني المنازع للقسَم: «إن» الشرطية؛ وكل من القسم والشرط يحتاج إلى جواب؛ فجواب القسم: ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾؛ والمحذوف جواب الشرط؛ لأن الشرط مؤخر؛ فاستغنى عن جوابه بجواب القسم؛ يقول ابن مالك:

وَاحْذِفْ لَدَىْ اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ ... جَوَابُ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

وقوله تعالى: ﴿أَتَيْتَ﴾ بمعنى: جئت؛ و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: اليهود والنصارى؛ و﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾ الباء للمصاحبة؛ والمعنى: مصطحبًا كل آية؛ ويحتمل أن تكون الباء للتقوية ـ أي: تعدية الفعل؛ و«الآية»: العلامة على صدق ما أتيت به إليهم؛ يعني: إن أتيتهم بكل آية تدل على صدق ما أتيت به ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾ أي: الكعبة؛ لعنادهم واستكبارهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾: الواو هنا استئنافية؛ لأننا لو جعلناها عاطفة على قوله تعالى: ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾ لصار المعنى: وما أنت بتابع قبلتهم في حال إتيانك بالآيات التي تدل على صدق ما جئت به؛ ومعلوم أن الرسول ﷺ لا يمكن أن يتبع قبلتهم مطلقًا؛ وهذا هو السر في التعبير - والله أعلم - بالجملة الاسمية في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ﴾، وفي الكلام عنهم أتى بالجملة الفعلية في قوله تعالى: ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا بَعْضُهُم﴾ أي: الذين أوتوا الكتاب ﴿بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾: أي: أن اليهود لا تتبع قبلة النصارى؛ والنصارى لا تتبع قبلة اليهود؛ لأن النصارى يقولون: إن اليهود كفار؛ واليهود يقولون: إن النصارى كفار ليسوا على حق؛ ولهذا يكذبون عيسى ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾: نقول فيها مثلما قلنا في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ﴾؛ ففيها قَسَم وشرط؛ والجواب للقسم ـ وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِذًا ...﴾؛ والخطاب للنبي ﷺ؛ و«إن» الشرطية لا تستلزم وقوع شرطها؛ وإنما قلنا ذلك لِئَلّا يقول قائل: هل من الممكن أن الرسول ﷺ يَتَّبع أهواءهم من بعد ما جاءه من العلم؟ الجواب: لا يمكن؛ و«إن» الشرطية لا تستلزم وقوع جواب شرطها: ألم يقل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[الزُّمَر:٦٥]؛ وإشراك النبي ﷺ لا يمكن أبدًا وقوعه؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾[الزُّخرُف:٨١]؛ ووجود الولد لله لا يمكن.

وقوله تعالى: ﴿أَهْوَاءَهُم﴾ جمع هوى؛ وهو الميل؛ ومنه يقال للنجم: (هوى) إذا مال وسقط؛ ويطلق «الهوى» في الغالب على الميل عن الحق؛ ويقابله «الهدى»؛ فيقال: اتبعَ الهوى بعد الهدى؛ وإن صَحَّ الحديث وهو قول الرسول ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»[1]، فهو دليل على أن الهوى يكون في الخير كما يكون في الشر.

قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ متعلق بـ﴿اتَّبَعْتَ﴾؛ يعني: إذا وقع هذا الاتباع بعد العلم فإنه يكون الظالم؛ وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ﴾ وردت في القرآن على ثلاثة أوجه؛ هذا أحدها؛ والثاني: ﴿بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾[الرعد:٣٧]؛ والثالث: ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾[البقرة:١٢٠] أما ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ و﴿بَعْدَ الَّذِي...﴾ فلا فرق بينهما إلا إنَّه عبر بـ﴿مَا﴾ عن ﴿الَّذِي﴾؛ وأما ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ﴾ فهي أبلغ من قوله تعالى: ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ﴾؛ لأن ﴿مِنَ﴾ تدل على أنه جاءه العلم، وتمهل، وحصل هذا الأمر بعد مجيء العلم؛ نظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[فُصِّلَت:٥]؛ فهو أشد مما لو قالوا: «بيننا وبينك حجاب»؛ لأن ﴿مِنَ﴾ تدل على مسافة قبل الحجاب، ثم حجاب، والمراد بـ«العلم»: الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾: أكدت بـ﴿إن﴾ واللام؛ وهذه الجملة جواب القسم؛ و﴿إِذًا﴾ ظرف؛ وهنا أدوات ثلاث: إذ، وإذا، وإذًا؛ وهذه الأدوات الثلاثة تنازعت الأزمنة: «إذ» للماضي؛ و«إذا» للمستقبل؛ و«إذًا» للحاضر؛ فمعنى ﴿إِنَّكَ إِذًا﴾ أي: إنك في حال اتباعك أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم ﴿لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: المعتدين الذين نقصوا الواجب عليهم من اتِّباعِ الحق دون الأهواء.

الفوائد:

١ـ من فوائد الآية: أن الرسول ﷺ كان حريصًا على هداية الخلق؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ

(١) سنده ضعيف: البغوي في «شرح السنة» (١/ ٢١٣)، وانظر «المشكاة» (١٦٧).

أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾ دليل على أنه ﷺ كان يعرض الآيات، ويبين الحقائق؛ ولكن لا ينتفعون بها.

٢ـ **ومنها:** شدة عناد هؤلاء الذين أوتوا الكتاب؛ وأنهم مهما أوتوا من الآيات فإنهم لن ينصاعوا لها، ولن يتبعوها.

٣ـ **ومنها:** أن الذين أوتوا الكتاب لن يتبعوا قبلة الرسول ﷺ؛ وإذا كان كذلك فلن يتبعوا دينه؛ لأن القبلة بعض الدين؛ فمتى كفروا بها فهو كفرٌ بالدين كله.

٤ـ **ومنها:** أن الكعبة قبلة للمسلمين خاصة؛ لأنه تعالى أضاف استقبالها إليهم؛ ولكن الظاهر ـ والله أعلم ـ أن الكعبة قبلة لكل الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران:٩٦]؛ وهكذا قال شيخ الإسلام: إن المسجد الحرام قبلة لكل الأنبياء؛ لكن أتباعهم من اليهود والنصارى هم الذين بدلوا هذه القبلة.

٥ـ **ومنها:** وجوب الانقياد للحق إذا ظهرت آياته؛ لأن هذه الآية سِيقَتْ مساق الذم؛ فدل هذا على وجوب اتباع الحق إذا تبينت الآيات.

٦ـ **ومنها:** أن النبي ﷺ مستحيل أن يكون تابعًا لقبلتهم؛ لأن قبلتهم التي يدعونها لم تثبت شرعًا؛ ثم لو فرض أنها جاءت في شرائعهم فإنها نُسِخت بقبلة الإسلام.

٧ـ **ومنها:** إنَّه يستحيل شرعًا أن يتبع المسلم طريقة اليهود والنصارى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾؛ وجه الاستحالة: أن الجملة جاءت بالاسمية المؤكدة بحرف الجر في سياق النفي؛ فالمؤمن حقيقة لا يمكن أن يتابع أعداء الله، ولا أن يأخذ بآرائهم، وأفكارهم، واتجاهاتهم؛ وقد حمى النبي ﷺ ذلك غاية الحماية، حيث قال: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»(١)، حتى نحذر ونبعد عن التشبه بأعداء الله والتقليد لهم سواء في أمور العبادة، أو في أمور العادة؛ فإن التشبه بأعداء الله حرام: وقد يؤدي إلى الكفر والشرك ـ والعياذ بالله.

٨ ـ **ومن فوائد الآية:** أن اليهود والنصارى لا يتبع بعضهم بعضًا؛ بل يُضَلِّلُ بعضهم بعضًا؛ فاليهود يرون النصارى ليسوا على شيء من الدين؛ والنصارى يرون اليهود ليسوا على شيء من الدين أيضًا؛ فَكُلٌّ منهم يضلل الآخر فيما بينهم؛ كل واحد منهم يرى أن الآخر ليس على ملة صحيحة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾؛ فقبلة اليهود إلى بيت المقدس ـ إلى الصخرة؛ وقبلة النصارى إلى المشرق يتجهون نحو الشمس؛ لكنهم على الإسلام يد واحدة بعضهم لبعض وليّ، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة:٥١]؛ لأنهم كلهم أعداء للإسلام.

---

(١) سبق تخريجه.

٩ـ ومن فوائد الآية: أن اتِّباعَ اليهود والنصارى اتِّباعٌ للهوى لا للهدى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾.

١٠ـ ومنها: أن اليهود والنصارى ليسوا على هدى؛ حيث جعل الله سبحانه وتعالى ما هم عليه هوى، وليس بهدى.

١١ـ ومنها: أن الإنسان لا يُؤَاخَذُ بالمخالفة إلا بعد قيام الحجة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾؛ فالإنسان قد يتابع غيره جهلًا؛ فلا يؤاخذ به ـ وإن كان يسمى ضالًّا؛ لكنه ليس بظالم؛ لأنه لم يتعمد المخالفة؛ لا يتحقق الظلم إلا لمن عرف الحق وخالفه.

١٢ـ ومنها: التلطف في الخطاب للرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ لأنك لو قلت لرجل: «**أنت رجل ظالم**» لكان أشد وقعًا من قولك له: أنت من الظالمين؛ ونظيره قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عبس:١] عندما تقرؤها تظن أن العابس والمتولي غير الرسول ﷺ؛ تظن أنه رجل آخر؛ ولكن المراد به الرسول ﷺ.

١٣ـ ومنها: بيان أن العلم حقيقة هو علم الشريعة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾: أتى بـ «أل» المفيدة للكمال؛ ولا شك أن العلم الكامل؛ الذي هو محل الحمد والثناء: هو العلم بالشريعة؛ ولذلك نقول: إن عصر النبوة هو عصر العلم؛ وليس عصرنا الآن هو عصر العلم الذي يمدح على الإطلاق؛ لكن ما كان منه نافعًا في الدين فإنه يمدح عليه لهذا.

١٤ـ ومنها: أن الظلم والعدل وغير ذلك مقرون بالأعمال؛ لا بالأشخاص؛ بمعنى: إنَّه ليس بين الله تعالى وأحد من الخلق شيء يحابيه ويراعيه به؛ فكل من خالفه فهو ظالم؛ فلا نقول مثلًا: هذا قريب من الرسول ﷺ تكفر سيئاته لقربه من الرسول ﷺ؛ أو نقول: هذا إنسان من قريش من سلالة الأشراف ـ من سلالة بني هاشم ـ تُكَفَّر عنه سيئاته؛ فإذا كان الرسول ﷺ يقول الله سبحانه وتعالى له: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ فما بالك بمن دون الرسول ﷺ!!! فلا أحد يحابى من قِبل الله عزَّ وجلَّ من أجل نسبه، أو حسبه، أو جاهه بين الناس؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

١٥ـ ومن فوائد الآية: قد يرد التعليق على شرط لا يمكن تحققه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ فهذا الشرط لا يمكن أن يقع من رسول الله ﷺ.

١٦ـ ومنها: تحذير الأمة من اتباع أهواء غير المؤمنين؛ وجه ذلك: إنَّه إذا كان هذا الوصف يكون للرسول ﷺ لو اتبع أهواءهم فالذي دونه من باب أولى؛ فعلينا أن نحذر غاية الحذر من اتباع أهواء أعداء الله؛ فالواجب على علماء الأمة أن يحذِّروها مما وقعت فيها الآن من اتباع أهواء

أعداء الله، ويبينوا لهم أن اتباع أهوائهم هو الظلم؛ والظلم ظلمات يوم القيامة؛ والظلم مَرْتَعٌ مُبْتَغِيه وَخِيم.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾؛ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ؛ والخبر جملة: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾؛ والضمير الهاء المفعول يعود إلى النبي ﷺ؛ و﴿كَمَا﴾؛ الكاف للتشبيه؛ و«ما» مصدرية، أي: كمعرفة أبنائهم.

قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ أي أعطيناهم؛ والمراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة والإنجيل؛ والذين أوتوهما اليهود والنصارى؛ وإنما كانوا يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم؛ لأنهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، إلى آخر ما ذكر من أوصافه التي عرفوه بها كما يعرفون أبناءهم؛ وعبَّر بقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ بالفعل المضارع؛ لأن معرفتهم به تتجدد كلما تأملوا آياته وصفاته؛ وعَبَّر بقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾؛ لأن الغالب أن «**العلم**» يُعَبَّر به عن الأمور المعقولة التي تدرك بالحس الباطن، و«**المعرفة**» يُعَبَّر بها عن الأمور المحسوسة المدركة بالحس الظاهر؛ فأنا أقول لك: «**أعرفت فلانًا؟**» ولا أقول لك: «**أعلمت فلانًا؟**» لكن أقول: «**أعرفت فلانًا فعلمت ما فعل؟**»؛ فهنا جعلنا العلم في الفعل؛ و﴿أَبْنَآءَهُمْ﴾ جمع ابن؛ وَخَصَّهُ دون البنت؛ لأن تعلق الإنسان بالذَّكَر أقوى من تعلقه بالأنثى؛ فهو به أعرف.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: طائفة منهم تكتم الحق، أي يخفونه، فلا يبينونه؛ ولهذا ذكر الله في سورة «**آل عمران**» أن بعضهم يقول لبعض: كيف تبينون الهدى لمحمد وأصحابه؟! إذا بينتموه يحاجوكم به عند الله أفلا تعقلون! فهم يتواصون بالكتمان ـ والعياذ بالله.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ في موضع نصب على الحال من فاعل يكتمون ـ وهو الواو؛ يعني: يكتمون والحال أنهم يعلمون أنه الحق؛ وهذا أبلغ في الذم، وأقبح في الفعل أن يكونوا كاتمين للحق وهم يعلمون.

الفوائد:

١ـ **من فوائد الآية:** أن النبي ﷺ معروف عند أهل الكتاب معرفة تامة؛ وذلك كما جاء في

كتبهم، كما قال الله ـ تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

٢ـ **ومنها:** أنه لا عذر ولا حجة لأهل الكتاب في إنكارهم رسالة النبي ﷺ؛ لأنهم أوتوا من وصفه ما يعرفونه به كما يعرفون أبناءهم.

٣ـ **ومنها:** بيان أن تَعَلُّقَ الإنسان بالابن أقوى من تعلقه بالبنت؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾؛ فهو يعرف الابن أكثر مما يعرف البنت لقوة تعلقه به.

٤ ـ **ومنها:** الاحتراس في القرآن الكريم؛ حيث قال تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾؛ لأن كتمان الحق لم يكن من جميعهم؛ بل من فريق منهم؛ وطائفة أخرى لا تكتم الحق؛ فإن من النصارى من آمن، كالنجاشي؛ ومن اليهود ـ كعبد الله بن سلام ـ مَن آمن ولم يكتم الحق.

٥ـ **ومنها:** شدة اللوم والذم لهؤلاء الذين يكتمون الحق؛ لأنهم يكتمونه مع العلم به؛ فهم عامدون ظالمون؛ وهذا أشد قبحًا من كتمان الإنسان ما يكون متَرَدِّدًا فيه.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾؛ ﴿ٱلْحَقُّ﴾: مبتدأ؛ و﴿مِن رَّبِّكَ﴾: خبره؛ وهنا الجملة لتقرير ما سبق؛ يعني: أن الحق ثابت وحاصل من ربك؛ وقيل: إن ﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ والتقدير: هذا الحق من ربك.

وهنا الربوبيَّة خاصة؛ لأن الله سبحانه وتعالى رب العالمين؛ لكن أضافها إلى النبي ﷺ؛ لأن المقام يقتضيه؛ حيث هو مقام التثبيت والنصرة؛ فلولا أن الله سبحانه وتعالى ثبَّت الرسول ﷺ لكان كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥]؛ و«الرب»: هو الخالق المالك المدبِّر: فهو الذي خلق الخلق كله؛ وهو مالك الخلق كله؛ وهو سبحانه وتعالى المدبر للخلق كله.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾؛ ﴿لَا﴾ ناهية؛ والفعل بعدها مبني على الفتح في محل جزم؛ وإنما بني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد؛ لأن الفعل المضارع إذا اتصل بنون التوكيد صار مبنيًّا على الفتح دائمًا؛ والخطاب هنا للرسول ﷺ؛ وهذا النهي يراد به التثبيت إذ لا يمكن وقوع الامتراء من النبي ﷺ؛ كما أن أمر المؤمن بالإيمان يراد به: الثبوت والاستمرار عليه، كما

في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾[النساء:١٣٦]، كما أن الشرط قد يعلق بما لا يمكن وقوعه كما سبق في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٤٥].

قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾: معنى «الامتراء»: الشك.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** أن ما جاء من عند الله فهو حق؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾.

٢- **ومنها:** أنه ما دام الحق من الله، فإنه يجب أن يؤمن الإنسان به، وأن لا يلحقه في ذلك شك ولا مرية.

٣- **ومنها:** أن كل شيء خالف ما جاء عن الله فهو باطل؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ۝٣٢﴾ [يونس:٣٢].

٤- **ومنها:** تقوية الرسول ﷺ على ما هو عليه من الحق؛ وإن كتمه أهل الكتاب؛ لأن الإنسان بشر؛ لما أنكر هؤلاء الذين أوتوا الكتاب الحق قد يعتري الإنسان شيء من الشبهة ـ وإن كان بعيدًا؛ فبين الله سبحانه وتعالى أن ما جاء به هو الحق؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾.

٥- **ومنها:** عناية الله سبحانه وتعالى بالنبي بذكره بالربوبية الخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾.

٦- **ومنها:** أن الشك ينافي الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

٧- **ومنها:** أنه قد ينهى عن الشيء مع استحالة وقوعه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾؛ فإن النبي ﷺ لا يمكن أن يكون من الممترين.

٨ - **ومنها:** عناية الله سبحانه وتعالى بالرسول ﷺ بالتثبيت؛ لأن قوله تعالى له: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ يقتضي ثباته عليه؛ وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ يقتضي استمراره على هذا الثبات؛ ولا شك أن في هذا من تأييد الرسول ﷺ، وتثبيته ما هو ظاهر.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:١٤٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾؛ الوجهة، والجهة، والوجه، معناها متقارب؛ أي: لكل

واحد من الناس جهة يتولاها؛ وهذا شامل للجهة الحسية والمعنوية؛ مثال الحسية: اختلاف الناس إلى أين يتجهون في صلاتهم: فمنهم من يتجه نحو المشرق؛ ومنهم من يتجه نحو بيت المقدس؛ ومنهم من يتجه إلى الكعبة؛ واختلاف الناس كذلك في اتجاههم في العمل: فمنهم من يتجه للتجارة؛ ومنهم من يتجه للحدادة؛ ومنهم من يتجه للنجارة.. وهكذا؛ ومثال المعنوية: اختلاف الناس في المِلَل وَالنِحَل، وما أشبه ذلك.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ فيها قراءتان؛ الأولى: بكسر اللام، وياء ساكنة بعدها - ﴿مُوَلِّيهَا﴾ - على أنها اسم فاعل؛ والقراءة الثانية: بفتح اللام، وألف بعدها - «مولَّاها» - على أنها اسم مفعول؛ فالمعنى على القراءة الأولى: هو متجه إليها؛ والمعنى على القراءة الثانية: هو موجَّه إليها إما شرعًا؛ وإما قدرًا؛ وإما شرعًا وقدرًا؛ وجملة: ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾، أو هو «مولاها» في محل رفع صفة لـ ﴿وِجْهَةٌ﴾؛ وليس المراد بهذه الجملة إقرار أهل الكفر على كفرهم؛ وإنما المراد - والله أعلم - تسلية المؤمنين وتثبيتهم على ما هم عليه من الحق؛ لأن لكل أحد وجهة ولَّاه الله إياها حسب ما تقتضيه حكمته.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أمر من الاستباق؛ والمراد به: التسابق إلى الخيرات؛ وتعدّى بنفسه دون حرف الجر كأنه ضُمِّن معنى: «افعلوا» على وجه المسابقة؛ وفائدة تضمين الفعل فعلًا آخر لأجل أن يدل التضمين على المعنيين، كقوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان:٦].

قوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾؛ «أين» شرطية؛ و«ما» زائدة للتوكيد؛ و﴿تَكُونُوا﴾ فعل الشرط مجزوم بحذف النون؛ والواو فاعل؛ لأن (كان) هنا تامة؛ وليست ناقصة؛ يعني: أينما توجدوا يأت بكم الله؛ و﴿يَأْتِ﴾ جواب الشرط مجزوم بحذف الياء؛ والكسرة قبلها دليل عليها.

وقوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾ في برٍّ، أو بحرٍ، أو جوٍّ؛ فإن الله يأتي بكم جميعًا، وذلك يوم القيامة؛ حيث يحشر الله الأولين والآخرين في مقام واحد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: هذه جملة خبرية مُؤَكَّدة بـ ﴿إِنَّ﴾؛ عامة في كل شيء من موجود أو معدوم؛ و(القدرة): صفة تقوم بالقادر بحيث يفعل الفعل بلا عجز.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: أن الأمم قد تختلف مناهجها - وإن اتفقت على أصل واحد؛ وهو الإسلام؛ ونعني بـ«**الإسلام**» المعنى العام؛ وهو الاستسلام لله بشرائعه القائمة التي لم تُنسَخ.

٢- ومنها: أن الإنسان يجب عليه أن يتبع الحق أينما كان؛ ولا ينظر إلى كثرة المخالفين؛ لا يقل: الناس على كذا فكيف أشذ عنهم! بل يجب عليه أن يتبع الحق؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ يشمل الوجهة الشرعية، والوجهة القدرية؛ والوجهة القدرية: يعني: ما وجه الله العباد إليه شرعًا، وما وجههم إليه قدرًا؛ الوجهة القدرية معروفة: فمن الناس من يهديه الله تعالى فيكون اتجاهه إلى

الحق؛ ومن الناس من يُخذَل فيَضل، ويكون اتجاهه إلى الباطل؛ فالوجهة التي يتبعها المشركون، واليهود، والنصارى، وما أشبه ذلك هذه وجهة قدرية؛ أما شرعية فلا؛ لأن الله ما شرع الكفر أبدًا؛ ولا شرع شيئًا من خصال الكفر؛ والوجهة الشرعية: اختلاف الشرائع بين الناس؛ فلا تظن أن اختلاف الشريعة الإسلامية عن غيرها معناه: أنها ليست حقًّا؛ فإنها الحق من الله.

٣- ومن فوائد الآية: وجوب المسابقة إلى الخير؛ لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

٤- ومنها: أن الأمر يقتضي الفورية؛ لأن الاستباق إلى الخير لا يكون إلا بالمبادرة إلى فعله؛ فهذه الآية مما يستدل به على أن الأمر المطلق للفورية.

٥- ومنها: البلاغة التامة في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ دون «**استبقوا إلى الخيرات**» - وإن كان بعض الناس يقولون: إنها نُزِع منها حرف الجر؛ وليس بصحيح؛ لأن ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ يشمل: الاستباق إليها والاستباق فيها؛ فليس معناه: إذا وصلت إلى الخير فإنك تقف؛ بل حتى في نفس فعلك الخير كن مسابقًا؛ وهذا يشبهه قوله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]؛ فالمطلوب أن يصل الإنسان إلى الصراط ويستمر فيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦].

٦- ومن فوائد الآية: إحاطة الله تعالى بالخلق أينما كانوا؛ لقوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾.

٧- ومنها: الإشارة إلى البعث؛ لأن الإتيان بالجميع يكون يوم القيامة.

٨ - ومنها: إثبات عموم قدرة الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

وهناك كلمة يقولها بعض الناس فيقول: «**إن الله على ما يشاء قدير**»؛ وهذا لا ينبغي:

أولًا: لأنه خلاف إطلاق النص؛ فالنص مطلق.

ثانيًا: لأنه قد يفهم منه تخصيص القدرة بما يشاء الله دون ما لم يشأ؛ والله قادر على ما يشاء، وعلى ما لا يشاء.

ثالثًا: إنَّهُ قد يفهم منه مذهب المعتزلة القدرية الذين قالوا: «**إن الله عزَّ وجلَّ لا يشاء أفعال العبد؛ فهو غير قادر عليها**».

ولهذا ينبغي أن نطلق ما أطلقه الله لنفسه، فنقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أما إذا جاءت القدرة مضافة إلى فعل معين فلا بأس أن تقيد بالمشيئة، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٢٩]؛ فإن ﴿إِذَا يَشَاءُ﴾ عائدة على «**الجمع**»؛ لا على «**القدرة**»؛ فهو قدير على الشيء شاءه أم لم يشأه؛ لكن جمعه لا يقع إلا بالمشيئة؛ ومنه الحديث في قصة الرجل الذي أكرمه الله

سبحانه وتعالى، فقال: «**ولكني على ما أشاء قادر**»[1]؛ لأنه يتكلم عن فعل معين؛ ولهذا قال: «**قادر**»: أتى باسم الفاعل الدال على وقوع الفعل دون الصفة المشبهة - «**قدير**» - الدالة على الاتصاف بالقدرة.

۞ ۞ ۞

۞ قال الله تعالى:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤٩]

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ ما أعظم هذا الحدث؛ ولهذا أكده الله عدة مرات؛ «مِن» حرف جر؛ و﴿حَيْثُ﴾ مبنية على الضم؛ قال ابن مالك في عدّ المبنيات:

«**كأينَ أمسِ حيثُ والساكن كمْ**»

و﴿خَرَجْتَ﴾: الخطاب هنا إما أن يكون للرسول ﷺ؛ وإما أن يكون لكل من يتأتى خطابه؛ أي: من حيث خرجت أيها الإنسان ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي مستقبلًا له؛ وذلك عند الصلاة؛ و﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ﴾ أي جهة المسجد؛ و﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ هو المسجد الذي فيه الكعبة؛ لقول النبي ﷺ: «**لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدُ الحَرَامِ..**»[2]؛ بل لقوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ [الفتح:٢٥]؛ ووصف بالحرام لاحترامه وتعظيمه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: توليك شطر المسجد الحرام ﴿لَلْحَقُّ﴾ اللام هنا للتوكيد؛ فالجملة هنا مؤكدة بمؤكدين؛ أحدهما: «إن»؛ والثاني: اللام؛ و«الحق» هو الشيء الثابت؛ لأنه محقوق - أي مثبت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:٩٦]: ﴿حَقَّتْ﴾ بمعنى: ثبتت ووجبت.

قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ تقدم الكلام عليها، وأنها ربوبية خاصة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ﴾: الباء حرف جر زائد للتوكيد؛ والأولى أن نقول: «**الباء للتوكيد**» فقط؛ ولا نقول: «**زائد**»؛ لئلا يفهم أحد أن في القرآن ما ليس له معنى؛ و«**غافل**» خبر ﴿مَا﴾ منصوب بفتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر؛ و«**الغفلة**» الذهول.

---

(١) رواه مسلم (١٨٧)، وابن حبان في صحيحه (٧٤٣٠)، وأبويعلى في مسنده (٤٩٨٠).

(٢) رواه البخاري (١١٣٢)، ومسلم (١٣٩٧).

قوله تعالى: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء: خطاب للمسلمين؛ وفي قراءة: ﴿عما يعملون﴾ بالياء: خطاب لهؤلاء الذين اعترضوا على النبي ﷺ؛ فإن الله تعالى ليس بغافل عنهم؛ بل سوف يجازيهم بما يستحقون.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: وجوب التوجه إلى المسجد الحرام أينما كان الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ وسبق ذكر ما يستثنى من ذلك عند قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ...﴾ [البقرة:١٤٤] الآية.

٢- ومنها: تكرار الأمر الهام لتثبيته، والثبات عليه، ودفع المعارضة فيه؛ لأنه كلما كرّر كان مقتضاه أن الأمر ثابت محكم يجب الثبوت عليه؛ وكون المسلمين ينقلون من وجهة إلى وجهة في القبلة أمر هام له شأن عظيم؛ ولهذا ارتد من الناس حين حوِّلت القبلة.

٣- ومنها: إثبات حرمة المسجد الحرام، وتعظيمه؛ لقوله تعالى: ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ فالمسجد محترم معظم؛ حتى ما حوله صار محترمًا معظمًا؛ فالبلد كله آمن حتى الأشجار التي لا إحساس لها آمنة في هذا المكان؛ ولهذا حرم النبي ﷺ أن يختلى خلاها، أو يُعضَّد شوكها، أو يقطع شجرها[1]، كل هذا لاحترام هذا المكان وتعظيمه.

٤- ومنها: أن التوجه إلى الكعبة هو الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فأثبت فيه الحقية مؤكدًا بـ﴿إن﴾ واللام.

٥ - ومنها: كمال علم الله سبحانه وتعالى، ومراقبته لخلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

٦- ومنها: إضافة العمل إلى الإنسان، فيكون فيه رد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ ولا شك أن الإنسان يضاف إليه عمله؛ وعمله: كسبه - إن كان في الخير - واكتسابه - إن كان في الشر - كما قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦].

والناس في هذه المسألة - أعني مسألة أعمال العباد - ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من يرون أن الإنسان مجبر على العمل؛ لا يفعل شيئًا باختيار أبدًا؛ وما فعله الاختياري إلا كفعله الاضطراري: فمن نزل من السطح على الدرج درجة درجة، هو كمن سقط بدون علمه من أعلى السطح؛ وهذا مذهب الجبرية من الجهمية؛ وهو مذهب باطل ترده الأدلة السمعية والعقلية.

القسم الثاني: من يرون أن الإنسان مستقل بعمله، وأن الله سبحانه وتعالى لا يصرِّف العبد

(١) رواه البخاري (٤٠٥٩)، وأحمد في مسنده (٢٩٢٣)، والبيهقي في الكبرى (٩٧٢٤).

إطلاقًا؛ فالعبد له الحرية الكاملة في عمله، ولا تعلق لمشيئة الله به، ولا تعلق لتقدير الله، وخلقه بعمل الإنسان، وهذا مذهب المعتزلة القدرية؛ وهو مذهب باطل للأدلة السمعية والعقلية.

وكلا القسمين لبطلانهما يلزم عليهما لوازم باطلة.

القسم الثالث: يرون أن فعل العبد باختياره؛ وله تعلق بمشيئة الله؛ فمتى فعل العبد الفعل علمنا أن الله تعالى قد شاءه وقدره؛ وأنه لا يمكن أن يقع في ملك الله ما لا يريد؛ بل كل ما وقع فهو مراد لله مخلوق له؛ ووجه كونه فعل العبد مخلوقًا لله: أن الإنسان مخلوق لله؛ وفعله كائن بأمرين: بعزيمة صادقة؛ وقدرة؛ والله عزَّ وجلَّ هو الذي خلق العزيمة الصادقة والقدرة؛ فالإنسان بصفاته وأجزائه وجميع ما فيه كله مخلوق لله عزَّ وجلَّ.

هذا القول الوسط هو الذي تجتمع فيه الأدلة جميعًا؛ لأن الذين قالوا: «إن الإنسان مجبر» أخذوا بدليل واحد، وأطلقوا من أيديهم الدليل الآخر؛ والذين قالوا: «إنه مستقل» أخذوا بدليل واحد، وأطلقوا الدليل الثاني من أيديهم؛ لكن أهل السنة والجماعة - والحمد لله - أخذوا بأيديهم بالدليلين؛ وقالوا: الإنسان يفعل باختياره؛ ولكن تصرفه تحت مشيئة الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا إذا وقع الأمر بغير اختياره رُفع عنه حكمه: فالنائم لا حكم لفعله، ولا لقوله؛ والمُكرَه على الشيء لا حكم لفعله، ولا لقوله؛ بل أبلغ من ذلك: الجاهل بالشيء لا حكم لفعله مع أنه قد قصد الفعل؛ لكنه لجهله يعفى عنه؛ كل ذلك يدل على أن الله سبحانه وتعالى رحيم بعباده.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ هذه الجملة تقدم الكلام عليها؛ وكررت للتوكيد، وبيان الأهمية، والتوطئة لما بعدها؛ وهو قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾؛ ﴿لِئَلَّا﴾ اللام هنا للتعليل اقترنت بها «أن» المصدرية، و«لا» النافية؛ و﴿يَكُونَ﴾ فعل مضارع منصوب بـ«أن» المصدرية؛ ولا يضر الحيلولة بين الناصب والمنصوب بـ«لا» النافية؛ و﴿حُجَّةٌ﴾ اسم ﴿يَكُونَ﴾ إن كانت ناقصة؛ أو فاعل إن كانت تامة؛ والمراد بـ(الناس): كل من احتج على المسلمين بتحولهم من بيت المقدس إلى الكعبة؛ وقد احتج على المسلمين في هذه المسألة

اليهود والمشركون والمنافقون؛ فالحجة التي احتج بها اليهود لها جهتان:

الأولى: أنهم قالوا: إن الرجل ترك ملتنا إلى ملة آبائه.

والجهة الثانية: إنَّه لو بقي على استقبال بيت المقدس لقالوا: ليس هذا النبي هو الذي جاء وصفه في التوراة.

وأما حجة المشركين فقالوا: إنه متبع هواه؛ فقد داهن اليهود أول أمره، ثم عاد واستقبل الكعبة؛ وقالوا: «**هذا الرجل خالفنا في عقيدتنا وخالفنا في ملتنا حين هاجر إلى المدينة، ثم رجع إلى قبلتنا؛ فسيرجع إلى ديننا**».

وأما حجة المنافقين فقالوا: إن هذا الرجل لا يثبت على دينه؛ ولو كان نبيًّا حقًّا لثبت على دينه.

وهذه عادة أهل الباطل يموِّهون، ويقلبون الحق باطلًا؛ لأنهم يريدون غرضًا سيئًا؛ بل إن تحوله إلى استقبال الكعبة مع هذه الاعتراضات والمضايقات دليل على أنه رسول الله حقًّا فاعل ما يؤمر به.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ﴾: الضمير يعود على الرسول ﷺ والمؤمنين؛ لأن كل حجة يُحتج بها على الرسول للتلبيس وإبطال الدعوة فهي في الحقيقة حجة على جميع أتباعه؛ لأن أتباعه إنما تبعوه لأنه على الحق؛ فإذا جاء من يُلَبِّس صار ذلك تلبيسًا على جميعهم ـ التابع والمتبوع.

وقوله تعالى: ﴿حُجَّةٌ﴾ أي: حجة باطلة؛ ولا يلزم من الاحتجاج قبوله، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[الشورى:١٦] أي: باطلة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾؛ المراد بهم المعاندون المكابرون الذين لا يَرْعَوون للحق مهما تبين؛ واختلف في الاستثناء أهو متصل، أم منقطع؟ فمنهم من قال: إنه متصل؛ ومنهم من قال: إنه منقطع، و﴿إِلَّا﴾ بمعنى «لكن»؛ يعني: لئلا يكون للناس عليكم حجة؛ لكن الذين ظلموا منهم لن تنجوا من محاجتهم ومخاصمتهم؛ ومن قال: «**إنه متصل**» قال: يكون ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ مستثنى من «**الناس**»؛ لأن الناس منهم ظالم؛ ومنهم من ليس بظالم؛ والأقرب عندي ـ والله أعلم ـ أن الاستثناء منقطع؛ لأن قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ هذا عام شامل؛ لكن من ظلَم من اليهود أو المشركين فإنه لن يرعوي بهذه الحكمة التي أبانها الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ يعني: مهما قال الذين ظلموا من كلام، ومهما قالوا من زخارف القول، ومهما ضايقوا من المضايقات فلا تخشوهم؛ و«الخشية»، و«الخوف» متقاربان؛ إلا إنَّ أهل العلم يقولون: إن الفرق أن «الخشية» لا تكون إلا عن علم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر:٢٨] بخلاف (الخوف): فقد يخاف الإنسان من المخوف وهو لا يعلم عن حاله؛ والفرق الثاني: أن (الخشية) تكون لعظم المخشِيِّ؛ و(الخوف) لضعف الخائف ـ وإن كان المخوف ليس بعظيم، كما تقول مثلًا: الجبان يخاف من الجبان ـ يخاف أن يكون شجاعًا؛ وعلى كل حال إن صح هذا

الفرق فهو ظاهر؛ لكن الفرق الأول واضح؛ وهو أن (الخشية) إنما تكون عن علم.

وأتى بالأمر ﴿وَٱخْشَوْنِي﴾ بعد النهي؛ لأنه كما يقال: التخلية قبل التحلية؛ أزِل الموانع أولًا، ثم أثبت؛ فأولًا فرِّغ قلبك من كل خشية لغير الله، ثم مكن خشية الله من قلبك؛ فأنت أزل الشوائب حتى يكون المحل قابلًا؛ فإذا كان المحل قابلًا؛ فحينئذٍ يكون الوارد عليه واردًا على شيء لا ممانعة فيه؛ والأمر هنا للوجوب بلا شك؛ الواجب على المرء أن يخشى الله وحده.

قوله تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ معطوفة على قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ﴾؛ وإتمام الشيء: بلوغ غايته؛ والغالب أنه يكون في الكمال؛ و(النعمة): هي ما ينعَم به الإنسان؛ ويقال: «نِعمة» بكسر النون؛ ويقال: «نَعمة» بالفتح؛ لكن الغالب في نعمة الخير أن تكون بالكسر؛ و«النَّعمة» بالفتح: التنعم من غير شكر، كما قال تعالى: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾[الدخان:٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل:١١].

ونزلت هذه الآية في أول الهجرة عند تحويل القبلة - يعني في السنة الثانية - ولا يعارضها قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾[المائدة:٣]؛ وقد نزلت في يوم عرفة في حجة الوداع؛ لأن المراد في آية المائدة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة:٣] الإتمام العام في كل الشريعة؛ أما هنا: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾: في هذه الشريعة الخاصة؛ وهي استقبال الكعبة بدلًا عن بيت المقدس؛ لأنه سبق أن الرسول ﷺ كان يقلب وجهه في السماء ينتظر متى يؤمر بالتوجه إلى الكعبة؛ فلا شك أنه من نعمة الله عزَّ وجلَّ أن أنعم على المسلمين بأن يتجهوا إلى هذا البيت؛ الذي هو أول بيت وضع للناس، والذي - كما قال بعض أهل العلم - هو قبلة جميع الأنبياء، كما ذكره شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ويحتمل وجهًا آخر في الجمع بين الآيتين: بأن هذه الآية جاءت بصيغة المضارع الدال على الاستمرار؛ وآية المائدة بصيغة الماضي الدال على الانتهاء.

وأضاف الله سبحانه وتعالى النعمة إليه؛ لأنه عزَّ وجلَّ صاحبها: هو الذي يسديها، ويوليها على عباده؛ ولولا نعم الله العظيمة ما بقي الناس طرفة عين؛ وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾[الفاتحة: ٦، ٧]؛ في النعمة قال: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأن النعمة من الله وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[النحل:٥٣]؛ وأما الغضب على المخالف في دين الله فيكون من الله، ومن أولياء الله من الرسل، وأتباعهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾؛ «لعل» هنا للتعليل؛ أي: تكتسبون علمًا وعملًا؛ وهذه هي العلة الثانية؛ العلة الأولى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾؛ والعلة الثانية: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ والعلة الثالثة: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾؛ وسيأتي بيان أنواع الهداية.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: تكرار الأمر الهام؛ وذلك لتثبيته، وتُسَرُّ به النفوس، وبيان أهميته.

٢- ومنها: وجوب استقبال الكعبة أينما كان الإنسان؛ قال أهل العلم: من أمكنه مشاهدة الكعبة فالواجب إصابة عينها؛ ومن لم تمكنه كفى استقبال جهتها؛ لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن:١٦]؛ وسبق ذكر ما يستثنى من ذلك عند قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة:١٤٤] الآية.

٣- ومنها: دفع ملامة اللائمين ما أمكن؛ تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾.

٤- ومنها: أن الظالم لا يدفع ملامته شيء؛ بمعنى أنه سيلوم وإن لم يكن محل لوم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾.

٥- ومنها: أن أهل الباطل يحاجون في الحق لإبطاله؛ ولكن حججهم باطلة.

ويتفرع على هذه الفائدة: أنه ينبغي للإنسان أن يعرف شبه المخالفين التي يدعونها حججًا لِيَنْقَضَّ عليهم منها، فيبطلها؛ قال الله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[الأنبياء:١٨].

٦- ومن فوائد الآية: وجوب تنفيذ شريعة الله عزَّ وجلَّ، وألا يخشى الإنسان لومة لائم.

٧- ومنها: وجوب خشية الله تعالى؛ لأنه هو الذي بيده النفع، والضرر.

٨ - ومنها: نعمة الله - تبارك وتعالى - على هذه الأمة، وفضله، وإحسانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾.

٩- ومنها: إثبات حكمة الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ ... وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

١٠- ومنها: أن تنفيذ أوامر الله، وخشيته سبب للهداية؛ والهداية نوعان: هداية علمية؛ وهداية عملية؛ ويقال: هداية الإرشاد؛ وهداية التوفيق.

فـ**(الهداية العلمية)** معناها: أن الله يفتح على الإنسان من العلم ما يحتاج إليه لأمور دينه ودنياه.

و**«الهداية العملية»** أن يوفق للعمل بهذا العلم.

الأولى: وسيلة، والثانية: غاية؛ ولهذا لا خير في علم بدون عمل؛ بل إن العلم بدون عمل يكون وبالًا على صاحبه؛ والهداية هنا شاملة للعلمية والعملية؛ ووجه كونها شاملة: أنهم لم يعلموا أن مرضاة الله بالتوجه إلى الكعبة إلا بما علمهم الله؛ ثم إن الله وفقهم للعمل به؛ فلم يمانعوا أبدًا؛ بل إن أهل قباء أتاهم الخبر وهم يصلون صلاة الفجر، وكانوا متجهين إلى بيت المقدس، فاستداروا إلى الكعبة؛ فصار الإمام نحو الجنوب، والمأمومون نحو الشمال؛ هذه هداية عملية عظيمة؛ لأن انتقال الإنسان إلى ما أمره الله به بهذه السهولة مع توقع المعارضات والمضايقات يدل على قوة إيمانهم، وثقتهم بربهم سبحانه وتعالى؛ وهكذا يجب على كل مؤمن إذا جاء أمر الله أن يمتثل الأمر؛ وسيجعل

الله له من أمره يسرًا؛ لأن تقوى الله فيها تيسير الأمور؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤].

١١- ومنها: إثبات الحكمة في أفعال الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾؛ هذه أيضًا منَّةٌ رابعة وُجهت إلى المؤمنين؛ والثلاث قبلها هي: قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة: ١٥٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠]؛ يعني: أن نعمة الله عزَّ وجلَّ علينا بالتوجه إلى الكعبة بدلًا عن بيت المقدس عظيمة، كما أن نعمته علينا بالرسول ﷺ عظيمة؛ و«الإرسال» بمعنى: البعث؛ يعني أنه مرسل من الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ يعني: يقرأ عليكم آياتنا؛ فيأتي بها كما سمع.

قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ أي: ويطهركم، وينمي أخلاقكم ودينكم.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن؛ وكان العرب أُميين لا يقرؤون ولا يكتبون إلا النادر منهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: هي أسرار الشريعة، وحسن التصرف بوضع كل شيء في موضعه اللائق به - بعد أن كانوا في الجاهلية يتصرفون تصرفًا أهوج من عبادة الأصنام، وقتل الأولاد، والبغي على العباد.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ أي: من أمور الدين والدنيا؛ وهذه الجملة لتقرير ما سبق من تعليمهم الكتاب، والحكمة.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: بيان نعمة الله تعالى علينا بإرسال الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا﴾؛ لأن هذه الآية متعلقة بقوله تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠]؛

فإن هذا من تمام النعمة؛ وذلك أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليُعبَد بما شرع؛ ولا يمكن أن نعرف أن هذا مما يرضاه الله أن نتعبده به، وهذا مما لا يرضاه إلا بواسطة الرسل؛ ولو أن الإنسان وكِل إلى عقله في العبادة ما عرف كيف يعبد الله؛ ولو وكِل إلى عقله في العبادة ما اجتمع الناس على عبادة الله: لكان كل واحد يقول: هذا هو الصواب؛ ولو أن الإنسان وكل إلى عقله في العبادة ما كانت أمتنا أمة واحدة؛ فعلى كل حال لا يمكن لنا بمجرد عقولنا أن ندرك كيف نعبد الله؛ ومَثَل يسير يبين ذلك: لو أُمرنا بالتطهر للصلاة ـ ولم يبين لنا الكيفية ـ لتنازع الناس في ذلك؛ وأخذ كلٌّ برأيه؛ فافترقت الأمة؛ فلولا أن الله أبان لنا كيف نعبده ما عرفنا كيف نعبده، فهذا من نعمة الله علينا من إرسال هذا الرسول محمدًا ﷺ الذي بين لنا كل شيء؛ ولهذا قال أبو ذر رضي الله عنه: «**تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا عندنا منه علم**»[1]؛ حتى الطيور في السماء علمنا عنها الرسول ﷺ.

٢ـ **ومن فوائد الآية:** أن كون الرسول ﷺ مِنَّا يقتضي أن تكون قريش أول من يصدق به؛ لأنهم يعرفونه، ويعرفون نسبه، ويعرفون أمانته؛ ولهذا وبخهم الله تعالى على الكفر به، ووصْفِه بالضلال والجنون، فقال جل وعلا: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾[النجم:٢]، وقال جل وعلا: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير:٢٢].

٣ـ **ومنها:** أن النبي ﷺ بلغ جميع ما أوحي إليه على وجه الكمال؛ لقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾؛ فإن هذا يدل على أن جميع الآيات التي أوحاها الله إليه قد تلاها؛ ولهذا القرآن ـ والحمد لله ـ مبين لفظه ومعناه؛ ليس فيه شيء يشتبه على الناس إلا اشتباهًا نسبيًّا بحيث يشتبه على شخص دون الآخر، أو في حال دون الأخرى؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[القيامة: ١٧ – ١٩].

٤ـ **ومنها:** أن من فوائد رسالة النبي ﷺ حصول العلم؛ لأن هذه الآيات كلها علم؛ لقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾.

٥ـ **ومنها:** أن ما جاء به النبي ﷺ فهو من آيات الله الدالة على كمال ربوبيته، وسلطانه، ورحمته، وحكمته سواء كان من الآيات الكونية، أو الشرعية؛ لكن منها ما هو بيِّن ظاهر؛ ومنها ما يخفى على كثير من الناس إلا الراسخين في العلم؛ ومنها ما هو بيْن ذلك.

٦ـ **ومنها:** أن الشريعة التي جاء بها النبي ﷺ كلها تزكية للأمة، وتنمية لأخلاقها، ودعوة إلى الأخلاق الفاضلة؛ ولهذا كان من القواعد المقررة في الشريعة؛ أنها تأتي بالمصالح الخالصة أو الراجحة، وتنهى عن المفاسد الخالصة أو الراجحة؛ فالخمر فيه مصالح ومفاسد؛ لكن مفاسده راجحة؛ ولهذا حرم؛ الحجر على السفيه فيه مصالح وفيه مفاسد؛ لكن مصالحه راجحة؛ فلذلك

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في «معجمه الكبير» (١٦٤٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٨٠٣).

قدمت المصالح؛ أو مصالح خالصة - فليس فيها مفاسد، كعبادة الله مثلًا؛ هذه قاعدة الشريعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾.

٧- ومن فوائد الآية: أن كل ما فيه تزكية للنفوس، فإن الشريعة قد جاءت به؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾.

٨ - ومنها: أن وظيفة الرسول ﷺ ومهمته التي جاء بها: أنه يعلمنا الكتاب والحكمة.

٩- ومنها: الرد على أهل التأويل وأهل التجهيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ - أهل التأويل الذين يؤولون آيات الصفات - لأنه لو كان هذا التأويل من العلم لَعَلَّمَنَا إياه النبي ﷺ؛ فلما لم يعلمنا إياه علمنا أنه ليس من العلم الذي جاء به الرسول ﷺ؛ وأهل التجهيل - وهم طائفة يقولون: «**إن الرسول ﷺ وأصحابه والأمة كلها لا تعلم معاني آيات الصفات وأحاديثها؛ فلا يدرون ما معناها؛ حتى النبي ﷺ يتكلم بالحديث من صفات الله ولا يدري معناها**»!!!

١٠- ومن فوائد الآية: أن الرسول ﷺ علم الأمة لفظ القرآن ومعناه؛ ولهذا إذا استشكل الصحابة شيئًا من المعنى سألوه فعلمهم؛ ولكن الغالب أنهم لا يستشكلون؛ لأنه نزل بلغتهم وفي عصرهم، يعرفون معناه، ومغزاه، وأسبابه.

١١- ومنها: اشتمال الشريعة على الحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾؛ فالشريعة متضمنة للحكمة تضمنًا كاملًا؛ فما من شيء من مأموراتها ولا منهياتها إلا وهو مشتمل على الحكمة؛ لكن هنا حكمة لازمة لكل حكم؛ وهو طاعة الله ورسوله ﷺ فإن هذه أعظم حكمة؛ وهي ثابتة فيما نعقل حكمته، وفيما لا نعقلها؛ ولهذا لما قالت المرأة لعائشة رضي الله عنها: «**ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ قالت: كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة**»[1]؛ فبينت الحكمة من ذلك؛ وهو طاعة الله ورسوله ﷺ؛ وهذه حكمة لازمة في كل حكم سواء عقل معناه أو لم يُعقَل.

١٢- ومن فوائد الآية: أن الأصل في الإنسان الجهل؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾؛ وهو مما يدل على نقص الإنسان، حيث كان الأصل فيه الجهل؛ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل:٧٨]؛ ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [النحل:٧٨]؛ فبين طرق العلم: ﴿السمع والبصر﴾؛ وبهما الإدراك؛ و﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾؛ وبها الوعي والحفظ.

١٣- ومنها: فضل الله عزَّ وجلَّ، حيث علمنا ما لم نكن نعلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾؛ وهذا عام في كل ما نحتاج إلى العلم به من أمور الدنيا والآخرة.

---

(١) رواه مسلم (٣٣٥)، والنسائي (٢٣١٨)، وأبو داود (٢٦٣).

إذا قال قائل: «اضربوا لنا مثلًا» فماذا نقول؟

فالجواب: أن كل الشريعة مثال؛ فإننا لا نعرف كيف نصلي إلا بتعليم الرسول ﷺ؛ ولا كيف نتوضأ، ولا مقدار الواجب في الأموال من الزكاة، ولا مَن تُصرف إليهم الزكاة، ولا غير ذلك من أمور الشريعة إلا بتعليم الرسول ﷺ؛ وهناك أحكام قدرية لا نعرفها أيضًا علمنا الله سبحانه وتعالى إياها، كابتداء الكون ونهايته: كخلق السموات، والأرض؛ واليوم الآخر؛ إذنْ فعلومنا الشرعية والقدرية متلقاة من الرسول ﷺ؛ وليس لنا علم بها قبل تعليم النبي ﷺ.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾؛ «اذكروني» فعل أمر؛ فيه نون الوقاية؛ والياء مفعول به؛ والواو فاعل؛ وجواب فعل الأمر: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾.

فقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ عمل وجزاء؛ العمل: ما أفاده قوله تعالى: ﴿اذكروني﴾؛ والجزاء: ما أفاده قوله تعالى: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾؛ وذِكر الله يكون بالقلب، واللسان، والجوارح.

وقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ فيها قراءة بفتح الياء؛ وقراءة بإسكانها؛ لأن ياء المتكلم من حيث اللغة العربية يجوز إسكانها وفتحها، وحذفها تخفيفًا؛ لكنها في القرآن تتوقف على السماع.

قوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾؛ ﴿وَاشْكُرُوا﴾ فعل أمر من «شكر»؛ أي: قوموا بالشكر؛ و﴿لِي﴾ اللام للاختصاص؛ و(الشكر) هو: القيام بطاعة المنعم؛ وقد اختلف علماء العربية هل: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ بمعنى «اشكروني»؛ أي: إنَّ الفعل يتعدى بنفسه تارة، وباللام أخرى؛ أو أن بينهما فرقًا؟ فقال بعضهم: هي بمعناها، فيقال: شكره؛ ويقال: شكر له؛ وقال بعضهم: إنها ليست بمعناها؛ وأن «شكر» تتعدى بنفسها دائمًا، وأن المفعول هنا في نحو ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ محذوف؛ يعني: اشكروا لي ما أنعمت عليكم، أو نعمتي، أو ما أشبه ذلك؛ والخلاف في هذا قريب؛ لأن الجميع متفقون على أن المراد شكر الله عزَّ وجلَّ على نعمته.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾؛ ﴿لا﴾ ناهية؛ والنون هنا نون الوقاية، وليست نون الإعراب؛ ومثله قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الذاريات: ٥٩]؛ ولهذا كانت مكسورة فيهما؛ و﴿لا تكفرون﴾ أي لا تجحدوني، أو تجحدوا نعمتي؛ بل قوموا بشكرها، وإعلانها، وإظهارها.

الفوائد:

١ـ من فوائد الآية: وجوب ذكر الله؛ للأمر به؛ فمطلق الذكر واجب: أي: يجب على كل إنسان أن يذكر ربه؛ بل كل مجلس يجلسه الإنسان ولا يذكر الله فيه، ولا يصلي على النبي ﷺ إلا كان عليه ترة ـ أي خسارة، وحسرة يوم القيامة ـ؛ فالعبد مأمور بذكر الله؛ لكن ذكر الله ينقسم إلى فريضة من فرائض الإسلام؛ وإلى واجب من واجباته؛ وإلى سنة من سننه ـ بحسب ما تقتضيه الأدلة؛ إنما مطلق الذكر حكمه: أنه واجب.

٢ـ ومنها: أن مَنْ ذَكر الله ذكره الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾؛ وكون الله يذكرك أعظم من كونك تذكره؛ ولهذا قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي؛ وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُ**»[1]؛ وذكر الله يكون بالقلب، وباللسان، وبالجوارح؛ فالأصل ذكر القلب كما قال ﷺ: «**أَلا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الجَسَدُ كُلُّهُ؛ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**»[2] فالمدار على ذكر القلب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الكهف:٢٨] وذكر الله باللسان أو بالجوارح بدون ذكر القلب قاصر جدًّا، كجسد بلا روح؛ وصفة الذكر بالقلب: هي التفكر في آيات الله، ومحبته، وتعظيمه، والإنابة إليه، والخوف منه، والتوكل عليه، وما إلى ذلك من أعمال القلوب؛ وأما ذكر الله باللسان: فهو النطق بكل قول يقرب إلى الله؛ وأعلاه قول: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»؛ وأما ذكر الله بالجوارح فبكل فعل يقرب إلى الله: القيام في الصلاة، والركوع، والسجود، والجهاد، والزكاة، كلها ذكر لله؛ لأنك عندما تفعلها تكون طائعًا لله؛ وحينئذٍ تكون ذاكرًا لله بهذا الفعل؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]؛ قال بعض العلماء: أي: لما تضمنته من ذكر الله أكبر؛ وهذا أحد القولين في هذه الآية.

٣ـ ومن فوائد الآية: فضيلة الذكر؛ لأن به يحصل ذكر الله للعبد؛ وذكر الله للعبد أمر له شأن كبير عظيم؛ فليس الشأن بأن تذكر الله أو أن تحب الله؛ ولكن الشأن أن يذكرك الله عزَّ وجلَّ، وأن يحبك الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[آل عمران:٣١]؛ فقال تعالى: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ لأن هذا هو الغاية المطلوبة.

٤ـ ومنها: وجوب الشكر؛ لقوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾؛ و«**الشكر**» يكون بالقلب، وباللسان، وبالجوارح؛ ولا يكون إلا في مقابلة نعمة؛ فسببه أخص من سبب «**الحمد**»؛ ومتعلَّقه أعم من متعلق «**الحمد**»؛ فيختلفان إذنْ من حيث السبب؛ ويختلفان من حيث المتعلق؛ فسبب «**الحمد**» كمال المحمود وإنعامه المحمود؛ فإذا كان سببه إنعام المحمود كان (**الحمد**) من (**الشكر**)؛

---

(١) رواه البخاري (٦٩٧٠)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) سبق تخريجه.

أما (الشكر) فسببه واحد؛ وهو نعمة المشكور؛ وأما متعلق «الحمد» فيكون باللسان فقط؛ وأما متعلق «الشكر» فثلاثة: يكون باللسان، والقلب، والجوارح؛ وعليه قول الشاعر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً يَدِيْ وَلِسَانِي وَالضَّمِيْرَ المُحَجَّبَا

قوله: - «يدي»: هذا الشكر بالجوارح؛ و«لساني»: هذا الشكر باللسان - يعني القول؛ و«الضمير المحجبا» يعني: القلب.

والشكر بالقلب: أن يعتقد الإنسان بقلبه أن هذه النعمة من الله عزَّ وجلَّ وحده؛ فيحب الله سبحانه وتعالى لهذا الإنعام؛ ولهذا ورد في الحديث: «أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ»(١)؛ فإن الإنسان إذا شعر بأن هذه النعمة من الله أحب الله سبحانه وتعالى؛ لأن النفوس مجبولة على محبة من يحسن إليها.

وأما الشكر باللسان: بأن يتحدث الإنسان بنعمه لا افتخارًا؛ بل شكرًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]؛ وقال رسول الله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ»(٢).

وأما الشكر بالجوارح: بأن يقوم الإنسان بطاعة الله، ويصرف هذه النعمة لما جعلت له؛ فإن هذا من شكر النعمة.

٥- ومن فوائد الآية: وجوب ملاحظة الإخلاص؛ لقوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ يعني: مخلصين لله عزَّ وجلَّ؛ لأن الشكر طاعة؛ والطاعة لابد فيها من الإخلاص، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠].

٦- ومنها: تحريم كفر النعمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ ولهذا إذا أنعم الله على عبده نعمة فإنه يحب أن يرى أثر نعمته عليه؛ فإذا أنعم الله عليه بعلم فإن الله يحب من هذا العالم أن يظهر أثر هذه النعمة عليه:

أولًا: على سلوكه هو بنفسه؛ بحيث يكون معروفًا بعلمه وعمله به.

ثانيًا: بنشر علمه ما استطاع، سواء كان ذلك على وجه العموم أو الخصوص.

ثالثًا: أن يدعو إلى الله على بصيرة؛ بحيث إنه في كل مجال يمكنه أن يتكلم في الدعوة إلى الله بقدر ما يستطيع حتى في المجالس الخاصة فيما إذا دعي إلى وليمة مثلًا، ورأى من المصلحة أن يتكلم فليتكلم؛ وبعض أهل العلم يكون معه كتاب، فيقرأ الكتاب على الحاضرين، فيستفيد، ويفيد؛ وهذا طيب إذا علم من الناس قبول هذا الشيء بأن يكون قد عوَّدهم على هذا،

---

(١) ضعيف: رواه الترمذي (٣٧٨٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٠٨)، والحاكم في «المستدرك» (٤٧١٦)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٧٦).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٣١٤٨)، وابن ماجه (٤٣٠٨)، وأحمد في «مسنده» (١٥)، وصححه الألباني في تعليقه على السنن.

فصاروا يرقبونه منه؛ أما إذا لم يعوِّدهم فإنه قد يثقل عليهم بهذا، ولكن من الممكن أن يفتح المجال بإيراد يورده ـ سؤالًا مثلًا ـ حتى ينفتح المجال للناس، ويسألون، وينتفعون؛ لأن بعض طلبة العلم تذهب مجالسهم كمجالس العامة لا ينتفع الناس بها؛ وهذا لا شك إنَّه حرمان ـ وإن كانوا لا يأثمون إذا لم يأتوا بما يوجب الإثم؛ فالذي ينبغي لطالب العلم ـ حتى وإن لم يُسأل ـ أن يورد هو سؤالًا لأجل أن يفتح الباب للحاضرين، فيسألوا؛ وقد جاء جبريل إلى النبي ﷺ يسأله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، والساعة، وأماراتها؛ وقال النبي ﷺ: «هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُم دِينَكُمْ»[1]؛ مع أن الذي يجيب الرسول ﷺ؛ ولكن جعله معلمًا وهو يسأل؛ لأنه هو السبب في هذا التعليم.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ سبق أن الكلام إذا صُدِّرَ بالنداء فهو دليل على الاهتمام به؛ لأن النداء يوجب التفات المخاطب إلى مناديه؛ وسبق بيان فوائد تصدير الخطاب بوصف الإيمان.

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: اجعلوا الصبر عونًا لكم؛ وكذلك استعينوا بالصلاة؛ وسبق الكلام على نظير هذه الجملة(٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: هذه بشرى عظيمة لمن صبر؛ وقال تعالى: ﴿مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ لوجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أن الصلاة من الصبر؛ لأنها صبر على طاعة الله.

الوجه الثاني: أن الاستعانة بالصبر أشق من الصلاة؛ لأن الصبر مُرٌّ كما قال الشاعرّ:

الـصَّبْرُ مِثْـلُ اسْـمِهِ مُـرٌّ مَذَاقَتُـهُ ... لَكِـنَّ عَوَاقِبَـهُ أَحْلَـى مِـنَ العَسَـلِ

فهو مُرٌّ يكابده الإنسان، ويعاني، ويصابر، ويتغير دمه حتى من يراه يقول: هذا مريض.

الوجه الثالث: أنه إذا كان مع الصابرين فهو مع المصلين من باب أولى بدليل أنه ثبت عن

---

(١) رواه مسلم (٨)، وأبوداود (٤٦٩٥)، وأحمد في «مسنده» (١٨٤).

النبي ﷺ أن الإنسان المصلي يناجي ربه، وأن الله قِبل وجهه - وهو على عرشه سبحانه وتعالى.

الفوائد:

١ـ **من فوائد الآية:** فضيلة الإيمان، وأنه من أشرف أوصاف الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . . ﴾.

٢ـ **ومنها:** الإرشاد إلى الاستعانة بالصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾.

٣ـ **ومنها:** بيان الآثار الحميدة للصلاة، وأن من آثارها الحميدة؛ أنها تعين العبد في أموره.

٤ـ **ومنها:** جواز الاستعانة بغير الله فيما يمكن أن يعين فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة:٤٥] وجاء في الحديث: «**وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ**».

٥ـ **ومنها:** أن الاستعانة بالصلاة من مقتضيات الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ . . . ﴾ إلخ.

٦ـ **ومنها:** فضيلة الصبر؛ لأنه يعين على الأمور؛ والصبر ثقيل جدًّا على النفس؛ لأن الإنسان إذا أصابه ضيق أو بلاء ثقل عليه تحمله، فاحتاج إلى الصبر؛ ولهذا قال الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[هود:٤٩]؛ فقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ إشارة إلى أن هذا الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ يحتاج إلى صبر وتحمل؛ لأنه سيجد من ينازع ويضاد؛ ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾[الإنسان: ٢٣، ٢٤]؛ إذنْ الصبر شاق على النفوس؛ لكن يجب على الإنسان أن يصبر؛ ولهذا من لم يوفق للصبر فاته خير كثير؛ والذي يصبر أيضًا غالبًا ينتظر الفرج لاسيما إذا صبر بإخلاص وحسن نية؛ وانتظار الفرج عبادة، وباب للفرج؛ لقول النبي ﷺ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ؛ وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ؛ وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا**»[1]؛ لأنه إذا كان منتظرًا للفرج هان عليه الصبر؛ لأنه يؤمل أن الأمور ستزول، وأن دوام الحال من المحال؛ فإذا كان يؤمل الأجر في الآخرة ويؤمل الفرج في الدنيا هان عليه الصبر كثيرًا؛ وهذه لا شك من الخصال الحميدة التي جاء بها الإسلام، ودليل على أن الأمور تسهل بالصبر؛ مهما بلغتك الأمور اصبر فتهون؛ ولهذا جعل الله الصبر عونًا.

٧ـ **ومن فوائد الآية:** أن في الصبر تنشيطًا على الأعمال والثبات عليها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾؛ فإذا آمن الإنسان بأن الله معه ازداد نشاطًا وثباتًا؛ وكون الله سبحانه وتعالى مع الإنسان مسددًا له، ومؤيدًا له، ومصبرًا له، لا شك أن هذه درجة عالية كل يريدها؛ ولهذا لما جاء

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٨٠٤)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٧٤٥)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٧٤)، وقال الشيخ شعيب: صحيح .

النبي ﷺ إلى قوم يتناضلون قال: «ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُم كَانَ رَامِيًا وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلَانٍ»؛ قال الآخرون: يا رسول الله، إذا كنت معهم فلا نناضل؛ فقال: «ارْمُوا وَأَنَا مَعَكُم كُلِّكُم»(١).

٨ - ومن فوائد الآية: إثبات معية الله سبحانه وتعالى؛ ومعيته تعالى نوعان:

النوع الأول: عامة لجميع الخلق، ومقتضاها الإحاطة بهم علمًا، وقدرة، وسلطانًا، وسمعًا، وبصرًا، وغير ذلك من معاني ربوبيته؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧].

والنوع الثاني: خاصة؛ ومقتضاها مع الإحاطة: النصر، والتأييد؛ وهي نوعان: مقيدة بوصف، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[النحل:١٢٨]؛ ومقيدة بشخص، كقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، وقوله عن نبيه محمد ﷺ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

۞ ۞ ۞

۞ قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾؛ ﴿لَا﴾ ناهية؛ ولهذا جزمت الفعل؛ وعلامة جزمه حذف النون.

قوله تعالى: ﴿لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: فيمن يقتل في سبيل الله؛ وهو الذي قاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

قوله تعالى: ﴿أَمْوَاتٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هم أموات.

فإن قال قائل: كيف لا نقول «أموات» وقد ماتوا؟

فالجواب: أن المراد هنا: لا تقولوا: أموات موتًا مطلقًا - دون الموت الذي هو مفارقة الروح للجسد؛ فهذا موجود؛ ولولا أن أرواحهم فارقت أجسادهم لما دفناهم، ولكانوا باقين يأكلون ويشربون؛ ولكن الموت المطلق لم يقع منهم بدليل الإضراب الإبطالي في قوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ يعني: بل هم أحياء؛ فـ﴿أحياء﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ وهي جمع «حي»؛ والمراد: أحياء عند ربهم، كما في آية آل عمران؛ وهي حياة برزخية لا نعلم كيفيتها؛ ولا تحتاج إلى أكل، وشرب، وهواء، يقوم به الجسد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ أي: لا تشعرون

---

(١) رواه البخاري (٢٧٤٣)، وأحمد في «مسنده» (١٦٥٧٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٦٩٣).

بحياتهم؛ لأنها حياة برزخية غيبية؛ ولولا أن الله عزَّ وجلَّ أخبرنا بها ما كنا نعلم بها.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية:** النهي عن القول بأن الذين قتلوا في سبيل الله أموات؛ وهو يشمل القول بالقلب؛ وهو الاعتقاد، والقول باللسان؛ وهو النطق.

٢- **ومنها:** التنبيه على الإخلاص في القتال؛ لقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ وقد سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياءً أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[1]؛ وهذه مسألة مهمة؛ لأن كثيرًا من الناس قد يقصد أن هذا جهاد، فَيخرج؛ لأنه جهاد وقتال لأعداء الله؛ لكن كونه يشعر بأن هذا في سبيل الله؛ أي: في الطريق الموصل إلى الله أبلغ.

٣- **ومن فوائد الآية:** إثبات حياة الشهداء؛ لكنها حياة برزخية لا تماثل حياة الدنيا؛ بل هي أجلُّ، وأعظم، ولا تعلم كيفيتها.

٤- **ومنها:** أن ثواب الله سبحانه وتعالى للعامل أجلُّ وأعلى؛ وذلك؛ لأن الشهيد عرض نفسه للموت ابتغاء ثواب الله؛ فأثابه الله، حيث جعله حيًّا بعد موته حياة برزخية أكمل من حياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩].

٥- **ومنها:** إثبات الحياة البرزخية؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه إذا دفن الإنسان رد الله عليه روحه، وجاءه ملكان يسألانه عن: ربه، ودينه، ونبيه.

٦- **ومنها:** إثبات نعيم القبر؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾.

٧- **ومنها:** أن أحوال البرزخ وعالم الغيب غير معلومة لنا، ولا نشعر بها إلا ما علمنا الله ورسوله ﷺ.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٥، ١٥٦]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ...﴾ هذه مصائب خمس؛ والجملة هنا مؤكَّدة

---

(١) رواه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤).

بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، والنون؛ والتقدير: والله لنبلونكم؛ والفعل هنا مع نون التوكيد مبني على الفتح؛ و«نبلو» بمعنى: نختبر.

وقوله تعالى: ﴿بِشَيْءٍ﴾: التنكير هنا للتقليل؛ ويحتمل أن يكون للتكثير.

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ الْخَوْفِ﴾ أي: الذُّعْر؛ وهو شامل للخوف العام، والخوف الخاص؛ الخوف العام: كأن تكون البلاد مهددة بعدو؛ والخوف الخاص: كأن يكون الإنسان مُبتلى في نفسه بما يخيفه ويروعه.

وقوله تعالى: ﴿وَالْجُوعِ﴾: هو خلو البطن من الطعام مع شدة اشتهائه؛ وضده «الشِّبع»؛ وله أسباب؛ السبب الأول: قلة الطعام؛ والسبب الثاني: قلة المال الذي يحصل به الطعام؛ والسبب الثالث: أن يصاب الإنسان بمرض يمنعه من الطعام إما لقلة الشهية؛ وإما للعجز عن استساغه لسدَدٍ في الحلق، أو قروح في المعدة، أو غير ذلك؛ والجوع لا يدرك أثره إلا من جربه؛ بل كل المصائب لا يدرك أثرها إلا من جربها؛ أما من لم يجرب فإنه لا يشعر بآثار المصائب؛ ولهذا قيل: وبضدها تتبين الأشياء.

قوله تعالى: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾؛ ﴿الْأَمْوَالِ﴾ جمع «مال»؛ وهو كل ما يتموله الإنسان من نقود، ومتاع، وحيوان.

قوله تعالى: ﴿وَالْأَنفُسِ﴾ جمع «نفس»؛ والمراد: الأرواح، كالأمراض الفتاكة التي تهلك بها أمم، مثل الطاعون وغيره.

قوله تعالى: ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ جمع «ثمرة»؛ وهي ما ينتج من أشجار النخيل، والأعناب، وغيرهما، بأن تأتي كوارث تنقص بها هذه الثمار، أو تتلف.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ أي أخبرهم بما يسرهم؛ وسبق معنى الصبر وأقسامه.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾، أي: من هذه المصائب التي ذكرها في الآية الأولى.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾ أي: بقلوبهم وألسنتهم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾: اللام للملك؛ يعني: إِنَّا ملك لله يفعل بنا ما يشاء.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي: صائرون إليه في جميع أمورنا دنيا وآخرة؛ فنرجو الذي أصابنا بهذه المصيبة عند رجوعنا إليه أن يجزينا بأفضل منها؛ فهم جمعوا هنا بين الإقرار بالربوبية في قولهم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾، وبين الإيمان بالجزاء الذي يستلزم العمل الصالح؛ لأنهم يقولون: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾؛ فنحن نرجو ثوابه مع أنه فعل بنا ما هو ملكه وبيده؛ وتقديم المتعلق يفيد: الحصرَ؛ أي: راجعون إليه لا إلى غيره، ومناسبةَ رءوس الآي.

الفوائد:

١- من فوائد الآيتين: ابتلاء العباد بما ذكر الله من الخوف، والجوع، ونقص الأموال،

والأنفس، والثمرات، وهو لمن وقع به ظاهر؛ ولغيرهم يكون الابتلاء بالاعتبار، والخوف أن يقع بهم مثل ما وقع بالذين ابْتلُوا.

٢ـ ومنها: أن الناس ينقسمون عند المصائب إلى قسمين: صابر، وساخط؛ وقد جاء في الحديث: «**مَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخْطُ**»[١]؛ فالصبر على المصائب واجب؛ وقد ذكر العلماء أن للإنسان عند المصيبة أربعة مقامات:

المقام الأول: الصبر؛ وهو واجب.

المقام الثاني: الرضا؛ وهو سنة على القول الراجح؛ والفرق بينه والصبر: أن الصابر: يتجرع مرارة الصبر، ويشق عليه ما وقع؛ ولكنه يحبس نفسه عن السخط؛ وأما الراضي: فإن المصيبة باردة على قلبه لم يتجرع مرارة الصبر عليه؛ فهو أكمل حالًا من الصابر.

المقام الثالث: الشكر: بأن يشكر الله على المصيبة.

فإن قيل: كيف يشكره على المصيبة؟

فالجواب: أن ذلك من وجوه:

منها: أن ينسبها إلى ما هو أعظم منها؛ فينسب مصيبة الدنيا إلى مصيبة الدين؛ فتكون أهون، فيشكر الله أن لم يجعل المصيبة في الأشد.

ومنها: احتساب الأجر على المصيبة بأنه كلما عَظُمَ المصاب كَثُرَ الثواب؛ ولهذا ذكروا عن بعض العابدات أنها أُصِيبَت بمصيبة ولم يظهر عليها أثر الجزع؛ فقيل لها في ذلك، فقالت: إن حلاوة أجرها أنستني مرارة صبرها.

المقام الرابع: السخط، وهو محرم، بل من كبائر الذنوب؛ فقد قال النبي ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ**»[٢].

٣- ومن فوائد الآيتين: البشرى للصابرين لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

٤- ومنها: أن من سمة الصابرين تفويض أمرهم إلى الله بقلوبهم وألسنتهم إذا أصابتهم المصائب؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾.

٥- ومنها: مشروعية هذا القول؛ وقد جاءت السنة بزيادة: «**اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي**» - أي أثبني عليها - «**وَأَخْلِفْ لِي**» بقطع الهمزة - أي: اجعل لي خلفًا «**خَيْرًا مِنْهَا**»[٣] والدليل على هذا: قصة أم سلمة ﵂: كانت تحب زوجها ابن عمها أبا سلمة محبة شديدة؛ ولما مات - وكان النبي ﷺ قد

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١١٢١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٧٨٢)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٤٦).

(٢) رواه البخاري (١٢٣٢)، ومسلم (١٠٣).

(٣) رواه مسلم (٩١٨)، وأحمد في «مسنده» (١٦٣٨٨)، والطيالسي في «مسنده» (١٣٤٩).

حدثها بهذا الحديث - قالت: «اللَّهُمَّ أَجِرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا»؛ فكانت تفكر في نفسها وتقول: من يصير خيرًا من أبي سلمة!!!وهي مؤمنة في نفسها أن ما قاله النبي ﷺ حق؛ لكن لا تدري من هو؛ وما كان يجول في فكرها أن الرسول ﷺ سيكون هو الخلف؛ فأخلف الله لها خيرًا من زوجها؛ فإذا قالها الإنسان مؤمنًا محتسبًا، أَجَرَه الله في مصيبته، وَأَخْلَفَ له خيرًا منها.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٧]

❁ التَفْسِير ❁

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾؛ الإشارة إلى ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ...﴾ [البقرة: ١٥٦] إلخ؛ وجاءت بلفظ الإشارة للبعيد للدلالة على علو مرتبتهم، ومنزلتهم، ومقامهم؛ و﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ خبر مقدم؛ و﴿صَلَوَٰتٞ﴾ مبتدأ مؤخر؛ ولكنه مبتدأ ثانٍ؛ والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل رفع خبر المبتدأ الأول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿صَلَوَٰتٞ﴾ اختلف العلماء في معناها؛ ولكن أصح الأقوال فيها أن المراد بها: الثناء عليهم في الملأ الأعلى؛ والمعنى: أن الله يثني على هؤلاء في الملأ الأعلى رفعًا لذكرهم، وإعلاءً لشأنهم.

وقوله تعالى: ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ عطفها على ﴿الصلوات﴾ من باب عطف العام على الخاص؛ لأن الثناء عليهم في الملأ الأعلى من الرحمة.

قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾، «أولاء»: اسم إشارة تعود إلى ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]؛ وهي مفيدة للحصر؛ وطريقه: ضمير الفصل؛ و﴿ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ أي: الذين اهتدوا إلى طريق الحق؛ فإن هذا الكلام الذي يقولونه مع الصبر هو الهداية.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** بيان حكمة الله عزَّ وجلَّ فيما يبتلي به العباد.

٢ - **ومنها:** عظم ثواب الصبر؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾.

٣ - **ومنها:** إثبات رحمة الله عزَّ وجلَّ؛ وهي صفة حقيقية ثابتة لله؛ بها يرحم من يشاء من عباده؛ ومن آثارها حصول النعم واندفاع النقم.

٤ - **ومنها:** الثناء على الصابرين بأنهم هم المهتدون، الذين اهتدوا إلى ما فيه رضا الله وثوابه.

❁ ❁ ❁

❁ **قال الله تعالى:**

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٥٨]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾: جبلان معروفان؛ يقال للصفا: جبل أبي قبيس؛ وللمروة: قُعَيقعان؛ وهما شرقي الكعبة؛ وقد كانت أم إسماعيل عليه السلام تصعد عليهما لتتحسس هل حولها أحد؛ وذلك بعد أن نفد منها التمر والماء، وتقلص لبنها، وجاع ابنها؛ والقصة مطولة في «**صحيح البخاري**».

قوله تعالى: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾، ﴿مِن﴾ للتبعيض - يعني: بعض شعائر الله؛ و«**الشعائر**» جمع شعيرة؛ وهي التي تكون عَلَمًا في الدين؛ يعني: من معالم الدين الظاهرة؛ لأن العبادات عبادات خفية بَيْنَ الإنسان وربه؛ ومنها عبادات عَلَم ظاهر بيِّن - وهي الشعائر.

وقوله تعالى: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ ليس المراد أن نفس الجبل من الشعائر؛ بل المراد: الطواف بهما من الشعائر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾؛ وأضيفت الـ﴿شَعَآئِرِ﴾ إلى ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لأنه هو الذي شرعها وأثبتها، وجعلها طريقًا موصلًا إليه.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ﴾؛ «**حج**» في اللغة بمعنى: قصد؛ إذنْ ﴿حَجَّ ٱلْبَيْتَ﴾ أي: قصده لأداء مناسك الحج؛ و﴿ٱلْبَيْتَ﴾ هو بيت الله؛ أي: الكعبة.

قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾؛ ﴿أَوِ﴾ للتنويع؛ لأن قاصد البيت إما أن يكون حاجًّا؛ وإما أن يكون معتمرًا؛ و«**العمرة**» في اللغة: الزيارة؛ والمراد بها: زيارة البيت لأداء مناسك العمرة.

قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾: «**لا**» نافية للجنس؛ و﴿جُنَاحَ﴾ اسمها؛ وخبرها ﴿أَنْ﴾ وما دخلت عليه؛ أي: لا جناح عليه في التطوف بهما؛ والـ﴿جُنَاحَ﴾ هو الإثم؛ يعني: فلا إثم عليه في أن يتطوف بهما؛ وإنما نفى الإثم؛ لأنهم كانوا يتحرجون من الطواف بهما.

قوله تعالى: ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾: ﴿يَطَّوَّفَ﴾ أصلها يتطوف؛ ولكن قلبت التاء طاءً لعلة تصريفية؛ فصار ﴿يَطَّوَّفَ﴾؛ و﴿بِهِمَا﴾ المراد: بينهما، كما تفسره سنة النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي: ازداد خيرًا في الطاعة؛ ويشمل الواجب والمستحب؛ وتخصيص التطوع بالمستحب اصطلاح فقهي؛ أما في الشرع فإنه يشمل الواجب والمستحب؛ و﴿مَن﴾ شرطية؛ و﴿تَطَوَّعَ﴾ فعل الشرط؛ وجواب الشرط جملة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾؛ و﴿خَيْرًا﴾ يجوز في إعرابها وجهان؛ الوجه الأول: أن تكون منصوبة بنزع الخافض؛ والتقدير:

ومن تطوع بخير فإن الله شاكر عليم؛ والوجه الثاني: أن تكون مفعولًا لأجله؛ أي: ومن تطوع لأجل الخير وطلبه فإن الله شاكر عليم.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ﴾ أي: فالله يشكر؛ وهو سبحانه وتعالى شاكر وشكور؛ وشكره تعالى أنه يثيب العامل أكثر من عمله؛ فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو علم؛ وعلمه تعالى محيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[الطلاق:١٢]؛ وقرن العلم بالشكر لاطمئنان العبد إلى أن عمله لن يضيع فإنه معلوم عند الله، ولا يمكن أن يضيع منه شيء؛ يعني: إذا علم العامل أن الله تعالى شاكر، وأنه عليم، فإنه سيطمئن غاية الطمأنينة إلى أن الله سبحانه وتعالى سيجزيه على عمله بما وعده به، ويعطيه أكثر من عمله.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: مشروعية الطواف بين الصفا والمروة؛ ويؤخذ ذلك من كونه من شعائر الله؛ وهل هو ركن، أو واجب، أو سنة؟ اختلف في ذلك أهل العلم على أقوال ثلاثة:

فقال بعضهم: إنه ركن من أركان الحج لا يتم الحج إلا به.

وقال بعضهم: إنه واجب من واجبات الحج يجبر بدم، ويصح الحج بدونه.

وقال آخرون: إنه سُنَّة وليس بواجب.

والقول بأنه سنة ضعيف جدًّا؛ لأن قوله تعالى: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ يدل على أنه أمر مهم؛ لأن الشعيرة ليست هي السنة فقط؛ بل الشعيرة هي طاعة عظيمة لها شأن كبير في الدين.

بقي أن يكون مترددًا بين الركن والواجب؛ والأظهر أنه ركن؛ لأن النبي ﷺ قال: **«اسْعَوا فَإِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَيْكُم السَّعَي»**[1]؛ وقالت عائشة: **«والله! ما أتم الله حج امرئ ولا عمرته لم يطف بين الصفا والمروة»**[2].

فالأقرب أنه ركن؛ وليس بواجب؛ وإن كان الموفق ـ رحمه الله؛ وهو من مشائخ مذهب الإمام أحمد ـ اختار أنه واجب يجبر بدم.

٢ـ من فوائد الآية: دفع ما توهمه بعض الصحابة من الإثم بالطواف بالصفا، والمروة لقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾؛ وعلى هذا فلا ينافي أن يكون الطواف بينهما ركنًا من أركان الحج، أو واجبًا من واجباته، أو مشروعًا من مشروعاته؛ وذلك أن أناسًا من

---

(١) **صحيح:** رواه أحمد في «مسنده» (٢٧٤٠٧)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٧٦٤)، والبيهقي في «الكبرى» (٩١٤٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٦٨).

(٢) رواه البخاري (١٦٩٨)، ومسلم (١٢٧٧).

الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهللون لمناة الطاغية المذكورة في القرآن؛ وهي في المشلّل - مكان قرب مكة -، فكانوا يتحرجون من الطواف بالصفا والمروة وقد أهلوا لمناة؛ فلما جاء الإسلام سألوا النبي ﷺ عن ذلك فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾؛ فعلى هذا يكون النفي هنا؛ لدفع ما وقع في نفوسهم من التحرج؛ لأنها من شعائر الله؛ وليس لبيان أصل الحكم.

وفيه سبب آخر لتحرج الناس من الطواف بهما: وهو أنهم كانوا يفعلون ذلك في الجاهلية، فكانوا يطوفون بهما كما كانوا يطوفون بالبيت أيضًا، فذكر الله عزَّ وجلَّ الطواف بالبيت، ولم يذكر الطواف بالصفا والمروة؛ فقالوا: لو كان ذلك جائزًا لذكره الله عزَّ وجلَّ، فهذا دليل على أنه ليس بمشروع؛ لأنه من أعمال الجاهلية؛ فلا نطوف؛ فأنزل الله هذه الآية.

وفيه أيضًا سبب ثالث؛ وهو أنه يقال: إنه كان فيهما صنمان: إساف، ونائلة؛ وقيل: إنهما كانا رجلًا وامرأة زنيا في جوف الكعبة؛ فمسخهما الله سبحانه وتعالى حجارة؛ فكان من جهل العرب أن قالوا: «**هذان مسخا حجارة؛ إذنْ لابد أن هناك سرًّا، وسببًا، فاخرجوا بهما عن الكعبة، واجعلوهما على الجبلين: الصفا والمروة نطوف بهما، ونتمسح بهما**»؛ وقد كان؛ وعلى هذا يقول أبو طالب:

وَحَيْثُ يُنِيخُ الأَشْعَرُوْن رِكَابَهُم ... بِمَفْضَى السِّيُوْل مِن إِسَافٍ وَنَائِلِ

و«**مفضى السيول**»: مجرى الوادي المعروف الذي بين الصفا والمروة؛ فالحاصل أن هذه ثلاثة أسباب في نزول الآية؛ وأظهرها السبب الأول؛ على أنه لا مانع من تعدد الأسباب.

٣- ومن فوائد الآية: أن الطواف بالصفا والمروة من طاعة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

٤- ومنها: أن الطاعة خير؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾؛ ولا ريب أن طاعة الله سبحانه وتعالى خير للإنسان في حاله ومآله.

٥- ومنها: إثبات اسم «**الشاكر**» لله؛ لقوله تعالى: ﴿شَاكِرٌ﴾.

٦- ومنها: إثبات «**العليم**» اسمًا لله؛ لقوله تعالى: ﴿شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

٧- ومنها: إثبات صفة الشكر والعلم؛ لقوله تعالى: ﴿شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾؛ لأنهما اسمان دالان على الصفة؛ وعلى الحكم إن كان متعديًا، فقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ يدل على العلم - وهذه هي الصفة؛ ويدل على الحكم بأنه يعلم كل شيء.

❀ ❀ ❀

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ أي: يخفون؛ لكنه لا يكون كتمًا إلا حيث دعت الحاجة إلى البيان إما بلسان الحال؛ وإما بلسان المقال.

قوله تعالى: ﴿مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾؛ ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ جمع بينة؛ وهي صفة لموصوف محذوف؛ والتقدير: من الآيات البينات.

قوله تعالى: ﴿وَالْهُدَى﴾: أي: العلم النافع الذي يهتدي به الخلق إلى الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ﴾ أي: أظهرناه؛ ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي: للناس عمومًا؛ المؤمن، والكافر؛ فإن الله تعالى بين الحق لعموم الناس، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فُصِّلَت:١٧]؛ فكل الناس قد بين الله لهم الحق؛ لكن منهم من اهتدى؛ ومنهم من بقي على ضلاله.

قوله تعالى: ﴿فِي الْكِتَابِ﴾: المراد به: جميع الكتب؛ فهو للجنس؛ فما من نبي أرسله الله إلا ومعه كتاب، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾[الحديد:٢٥]، وكما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣].

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾؛ ﴿أُولَئِكَ﴾ مبتدأ؛ وجملة ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ خبره؛ والمبتدأ الثاني وخبره خبر «إن»؛ و﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: يطردهم، ويبعدهم عن رحمته؛ لأن «اللعن» في اللغة: الطرد والإبعاد.

قوله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ أي: يسألون لهم اللعنة؛ وهم أيضًا بأنفسهم يبغضونهم، ويعادونهم، ويبتعدون عنهم.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية:** أن كَتْمَ العلم من كبائر الذنوب؛ يؤخذ من ترتيب اللعنة على فاعله؛ والذي يرتب عليه اللعنة لا شك أنه من كبائر الذنوب.

٢- **ومنها:** الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿يَكْتُمُونَ﴾؛ والكاتم مريد للكتم.

٣- **ومنها:** أن ما أنزل الله من الوحي فهو بيِّن لا غموض فيه؛ وهدًى لا ضلالة فيه؛ لقوله

تعالى: ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ والبيان ينقسم إلى قسمين: بيان مُفَصَّلٌ؛ وبيانٌ مُجْمَلٌ؛ فالمجمل هي القواعد العامة في الشريعة؛ والمفصل هو أن يبين الله سبحانه وتعالى قضية معينة مفصلة مثل آيات الفرائض في الأحكام؛ فإنها مُفَصَّلة مُبيَّنة لا يشذ عنها إلا مسائل قليلة؛ وهناك آيات مجملة عامة مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾[المائدة:١]: فهو بيان عام؛ وكذلك بعض القصص يذكرها الله سبحانه وتعالى مفصلة، وأحيانًا مجملة؛ وكل هذا يعتبر بيانًا.

٤ـ ومن فوائد الآية: الرد على أهل التحريف الذين يسمون أنفسهم بأهل التأويل؛ لأن لازم طريقهم ألا يكون القرآن بيانًا للناس؛ لأن الله أثبت لنفسه في القرآن صفات ذاتية وفعلية؛ فإذا صرفت عن ظاهرها صار القرآن غير بيان؛ يكون الله سبحانه وتعالى ذكر شيئًا لا يريده؛ وهذا تعمية لا بيان؛ فيستفاد من هذه الآية: الرد على أهل التأويل؛ والحقيقة أنهم ـ كما قال شيخ الإسلام ـ أهل التحريف لا أهل التأويل؛ لأن التأويل منه حق ومنه باطل؛ لكن طريقهم باطل لا حق فيه.

٥ـ ومن فوائد الآية: الرد على أهل التفويض الذين يقولون: إن آيات الصفات وأحاديثها لا يعلم الخلق معناها؛ وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن قولهم من شر أقوال أهل البدع والإلحاد.

٦ـ ومنها: بيان فضل الله عزَّ وجلَّ على عباده بما أنزله من البينات والهدى؛ لأن الناس محتاجون إلى هذا؛ ولولا بيان الله سبحانه وتعالى وهدايته ما عرف الناس كيف يتوضأون، ولا كيف يصلون، ولا كيف يصومون، ولا كيف يحجون؛ ولكن من فضل الله أن الله سبحانه وتعالى بيّن ذلك.

٧ـ ومنها: إثبات عُلُوّ الله؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾؛ والنزول إنما يكون من أعلى؛ وعلو الله بذاته ثابت بالكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة.

٨ ـ ومنها: قبح هذ الكتمان الذي سلكه هؤلاء؛ لأنه كتمان بعد بيان؛ ليس لهم أن يقولوا: «ما تكلمنا؛ **لأنَّ الأمر مشتبه علينا**»؛ فالإنسان الذي لا يتكلم بالشيء لاشتباه الأمر عليه قد يعذر؛ لكن الذي لا يتكلم مع أن الله بيّنه للناس يكون هذا أعظم قبحًا ـ والعياذ بالله.

٩ـ ومنها: وجوب نشر العلم عند الحاجة إليه سواء ظهرت الحاجة بلسان الحال، أو بلسان المقال، ولسان الحال: أن ترى إنسانًا يعمل عملًا ليس على الوجه المرضي؛ فهذا لسان حاله يدعو إلى أن تبين له الحق؛ ولسان المقال: أن يسألك سائل عن علم وأنت تعلمه؛ فيجب عليك أن تبلغه ما دمت تعلم؛ أما إذا كنت لا تعلم فإنه يجب أن تقول: «**لا أدري**»، أو «**لا أعلم**»؛ كذلك لو رأيت الناس عمَّ فيهم الجهل في مسألة من أمور الدين؛ فهنا الحاجة داعية إلى البيان؛ فيجب أن تبين.

١٠ـ ومن فوائد الآية: أن الكتب السماوية كلها بيان للناس، لأن قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾

المراد به الجنس لا العهد؛ فالله تعالى بين الحق في كل كتاب أنزله؛ أي: لم يترك الحق غامضًا؛ بل بينه لأجل أن تقوم الحجة على الخلق؛ لأنه لو كان الأمر غامضًا لكان للناس حجة في أن يقولوا: ما تبين لنا الأمر.

١١ـ ومنها: أن الرجوع في بيان الحق إلى الكتب المنزلة.

١٢ـ ومنها: أن هؤلاء الكاتمين ملعونون؛ يلعنهم الله، ويلعنهم اللاعنون؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾.

١٣ـ ومنها: إثبات الأفعال الاختيارية لله عزَّ وجلَّ؛ وهي كل فعل يتعلق بمشيئته، مثل النزول إلى السماء الدنيا، والمجيء للفصل بين عباده؛ والاستواء على العرش؛ والضحك؛ والكلام؛ والتعجب؛ وما إلى ذلك؛ كل فعل يتعلق بمشيئة الله عزَّ وجلَّ فإنه من الأفعال الاختيارية؛ و«**اللعن**» منها؛ ويدل على أنه منها أن له سببًا؛ وما كان له سبب فإنه يوجَد بالسبب، ويعدم بعدمه؛ إذنْ فاللعن من الأفعال الاختيارية.

١٤ـ ومنها: جواز الدعاء باللعنة على كاتم العلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾؛ لأن من معنى ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ الدعاء عليهم باللعنة؛ تقول: اللهم العنهم؛ ولا يلعن الشخص المعين؛ بل على سبيل التعميم؛ لأن الصحيح أن لعن المعين لا يجوز - ولو كان من المستحقين للعنة؛ لأنه لا يُدرى ماذا يموت عليه؛ قد يهديه الله، كما قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾[آل عمران:١٢٨]؛ وأما لعنه بعد موته أيجوز، أم لا يجوز؟ فقد يقال: إنه لا يجوز لقول النبي ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا الأَمْوَاتِ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوا إِلَى مَا قَدَّمُوا**»[1]؛ وهذا عام؛ ثم إنه قد يثير ضغائن وأحقاد من أقاربه وأصحابه وأصدقائه؛ فيكون في ذلك مفسدة؛ ثم إن النبي ﷺ قال: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»[2]؛ وأيَّ خير في كونك تلعن واحدًا كافرًا قد ماتَ؛ وأما طريقته فالواجب التنفير عنها، والقدح فيها، وذمها؛ أما هو شخصيًّا فإنه لا يظهر لنا جواز لعنه - وإن كان المعروف عند جمهور أهل العلم أنه يجوز لعنه إذا مات على الكفر.

١٥ـ ومن فوائد الآية: عِظَمُ كتم العلم؛ حيث كان من الكبائر؛ وكتم العلم يتحقق عند الحاجة إلى بيانه إما بلسان الحال؛ وإما بلسان المقال؛ فإن من سُئل عن علم فكتمه أُلْجِم يوم القيامة بلجام من نار إلا أن يكون السائل مُتَعَنِّتًا، أو يريد الإيقاع بالمسئول، أو ضرب آراء العلماء بعضها

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

ببعض، أو يترتب على إجابته مفسدة، فلا يجاب حينئذٍ؛ وليس هذا من كتم العلم بل هو من مراعاة المصالح ودرء المفاسد.

مسألة: هل دفع الفتوى - وهو أن يحوِّل المستفتي إلى غيره، فيقول: اسأل فلانًا، أو اسأل العلماء - اختلف فيها أهل العلم: أي: هل يجوز، أو لا يجوز؟

والصحيح: أنه لا يجوز؛ إلا عند الاشتباه فيجب؛ أما إذا كان الأمر واضحًا فإنه لا يجوز؛ لأنه يضيع الناس؛ لاسيما إذا كان الإنسان يرى أنه إذا دفعها استُفتي أناس جهال يضلون الناس؛ فإنه هنا تتعين عليه الفتوى؛ ويستعين الله عزَّ وجلَّ، ويسأل الله الصواب والتوفيق.

١٦- ومن فوائد الآية: استحقاق الكاتمين للعنة الله، ولعنة اللاعنين.

قد يقول قائل: هذا تحصيل حاصل، لأنه كقول القائل: قام القائمون، أو يقوم القائمون، ويدخل الداخلون.

فالجواب: لا، لأنه ليس كل من نسب إليه الوصف يكون قائمًا به على الوجه الأكمل؛ قد تقول: «**قام القائمون**» بمعنى: أنهم أتوا بالقيام على وجهه؛ فمعنى ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ أي: الذين يعرفون من يستحق اللعنة، ويوجهونها إلى أهلها؛ فهم ذوو علم بالمستحِق، وذوو حكمة في توجيه اللعنة إليه؛ ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ [النساء:١٣٦] الآية؛ فناداهم باسم الإيمان، وأمرهم به؛ أي: بتحقيقه والثبات عليه.

إذنْ هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى مع ظهوره وبيانه يستحقون - والعياذ بالله - هذا الجزاء الوخيم من الله ومن عباد الله؛ وعكس ذلك الذين يبينون الحق - نسأل الله أن يجعلنا منهم؛ فهؤلاء يكون لهم المودة، والمحبة من الله، ومن أولياء الله؛ وقد ورد في حديث أبي الدرداء الطويل: «**إِنَّ العالِمَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ أَهْلُ السَّمواتِ والأرْضِ حَتَّى الحِيتَانِ فِي الماءِ**»؛ لأن الذي يبين شريعة الله يُلقي الله سبحانه وتعالى في قلوب عباده مودته، ومحبته، والقبول له حتى في السماء؛ ونحن نعلم ذلك - وإن لم يرد به نص خاص - عن طريق القياس الجلي: فإذا كان الله سبحانه وتعالى يعاقب الكاتمين بهذه العقوبة الواقعة منه، ومن عباده؛ وهو الذي سبقت رحمته غضبه، فالذين يبينون البينات والهدى يستحقون أن يثني الله سبحانه وتعالى عليهم بدلًا من اللعنة، ويقربهم بدلًا من البعد.

١٧- ومن فوائد الآية: أنه يجب على من قال قولًا باطلًا ثم تبين له بطلانه أن يبينه للناس إلا إذا كان اختلاف اجتهاد فلا يلزمه أن يبين بطلان ما سبق؛ لأنه لا يدري أيّ الاجتهادين هو الصواب.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٠]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾: الاستثناء هنا متصل؛ لأنه استثناء من الكاتمين؛ يعني إلا إذا تابوا؛ و«التوبة» في اللغة: الرجوع؛ وفي الشرع: الرجوع من معصية الله إلى طاعته؛ والمراد بالتوبة هنا: الرجوع عن كتمان ما أنزل الله إلى بيانه ونشره.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ أي أصلحوا عملهم ﴿وَبَيَّنُوا۟﴾ أي: وضحوا للناس ما كتموا من العلم ببيانه، وبيان معانيه؛ لأنه لا يتم البيان إلا ببيان المعنى؛ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعني: الذين تابوا، وأصلحوا، وبينوا ﴿أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي أقبل منهم التوبة؛ لأن توبة الله على العبد لها معنيان؛ أحدهما: توفيق العبد للتوبة؛ الثاني: قبول هذه التوبة، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة:١١٨].

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ﴾ صيغة مبالغة، ونسبة؛ لأن «فعال» تأتي للمبالغة، وتأتي للنسبة: فإن قيدت بمعمول فهي للمبالغة؛ وإن أطلقت فهي للنسبة؛ أو نقول: هي للمبالغة والنسبة بكل حال إلا أن يمنع من ذلك مانع، كقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فُصِّلَت:٤٦] فإن هذه للنسبة؛ ولا تصح للمبالغة لفساد المعنى بذلك؛ لأنها لو كانت للمبالغة لكان المنفي عن الله كثرة الظلم مع أنه جل وعلا ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠]؛ وقوله تعالى: ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ تصلح للأمرين جميعًا؛ فهو سبحانه وتعالى موصوف بالتواب؛ وهو ذو توبة على جميع العباد؛ وكذلك موصوف بكثرة توبته سبحانه وتعالى، وكثرة من يتوب عليهم: كم يفعل الإنسان من ذنب ويتوب فيتوب الله عليه! وكم من أناس أذنبوا فتابوا فتاب الله عليهم! فلهذا جاء بلفظ: ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ سبق الكلام عليه؛ وجمع بين التوبة والرحمة؛ لأن بالرحمة يكون الإحسان؛ وبالتوبة يكون زوال العقوبة؛ فجمع الله بينهما - فهو سبحانه يتوب - وإذا تاب سبحانه وتعالى على العبد رحم التائب، ويسَّره لليسرى، وسهل له أمور الخير؛ فحصل على الخير العظيم.

وفي هذه الآية التفات من التكلم إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ...﴾ [البقرة:١٥٩]، وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٥٩]؛ ولم يقل:

«نلعنهم»؛ وللالتفات فائدتان:

الأولى: تنبيه المخاطب؛ لأنه إذا تغير نسق الكلام أوجب أن ينتبه المخاطب لما حصل من التغيير.

والفائدة الثانية: تكون بحسب السياق: ففي هذه الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ الفائدة: التعظيم؛ لأن قوله: ﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أبلغ في التعظيم من «**أولئك نلعنهم**»؛ لأن المتكلم إذا تحدث عن نفسه بصيغة الغائب صار أشد هيبة، مثل قول الملك: إن الملك يأمركم بكذا وكذا؛ وأمر الملك بكذا وكذا ـ ويعني نفسه.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية**: أن توبة الكاتمين للعلم لا تكون إلا بالبيان والإصلاح؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾: ثلاثة شروط:

الأول: التوبة؛ وهي الرجوع عما حصل من الكتمان.

الثاني: الإصلاح لما فسد بكتمانهم؛ لأن كتمانهم الحق حصل به فساد.

الثالث: بيان الحق غاية البيان.

وبهذا تبدل سيئاتهم حسنات.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أن كل ذنب ـ وإن عظم ـ إذا تاب الإنسان منه فإن الله سبحانه وتعالى يتوب عليه.

٣ ـ **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله سبحانه وتعالى، وهما ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾، و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ على من أذنب؛ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ على من أخلص وعمل؛ فالرحمة تجلب الخير؛ والتوبة تدفع الشر.

٤ ـ **ومنها**: إثبات صفتين من صفات الله؛ وهما: التوبة، والرحمة.

٥ ـ **ومنها**: إثبات حكمين من هذين الاسمين: أن الله يتوب، ويرحم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ﴾.

٦ ـ **ومنها**: توكيد الحكم بما يوجبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

٧ ـ **ومنها**: كثرة توبة الله، وكثرة من يتوب عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾.

والتوبة هي الرجوع إلى الله من معصيته إلى طاعته؛ فيرجع من الشرك إلى التوحيد؛ ومن الزنى إلى العفاف؛ ومن الاستكبار إلى الذل والخضوع؛ ومن كل معصية إلى ما يقابلها من الطاعة؛ وشروطها خمسة: الإخلاص لله سبحانه وتعالى؛ والندم على الذنب؛ والإقلاع عنه في الحال؛ والعزم على أن لا يعود؛ وأن تكون التوبة في وقت تقبل فيه.

الشرط الأول: الإخلاص لله بأن يكون قصده بالتوبة رضا الله، وثواب الآخرة، وألا يحمله على التوبة خوف مخلوق، أو رجاء مخلوق، أو علو مرتبة، أو ما أشبه ذلك.

الشرط الثاني: الندم على ما جرى منه من الذنب؛ ومعنى «**الندم**»: أن يتحسر الإنسان أن وقع منه هذا الذنب.

الشرط الثالث: الإقلاع عن المعصية؛ وهذا يدخل فيه أداء حقوق العباد إليهم؛ لأن من لم يؤد الحق إلى العباد فإنه لم يقلع؛ فهو ليس شرطًا مستقلًا ـ كما قاله بعض العلماء؛ ولكنه شرط داخل في الإقلاع؛ إذ إن من لم يؤد الحق إلى أهله لم يقلع عن المعصية.

الشرط الرابع: أن يعزم ألا يعود؛ فإن لم يعزم فلا توبة، وليس من الشرط ألا يعود، فإذا صَحَّت التوبة ثم عاد إلى الذنب لم تبطل توبته الأولى؛ لكنه يحتاج إلى تجديد التوبة.

الشرط الخامس: أن تقع التوبة في الوقت الذي تقبل فيه؛ يعني: أن تكون في وقت قبول التوبة؛ وذلك بأن تكون قبل حضور الموت، وقبل طلوع الشمس من مغربها؛ فإذا كان بعد حضور الموت لم تقبل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔنَ﴾[النساء:١٨]؛ وإذا كانت بعد طلوع الشمس من مغربها لم تقبل؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]؛ وقول النبي ﷺ: «**لَا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوبَةُ؛ وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»[1].

وإن قال قائل: هل تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره؟

نقول: للعلماء في هذا ثلاثة أقوال؛ الأول: أنها تصح؛ والثاني: أنها تصح إن كان الذنب من غير الجنس؛ والثالث: لا تصح؛ والصحيح: أنها تصح من ذنب مع الإصرار على غيره؛ لكن لا يستحق اسم التائبين على سبيل الإطلاق؛ فلا يستحق وصف التائب، ولا يدخل في مدح التائبين؛ لأن توبته مقيدة من هذا الذنب المعين؛ ومثال ذلك: إذا تاب رجل من الزنى لكنه يتتبع النساء بالنظر المحرم فإن توبته من الزنى تصح على القول الراجح؛ لكن لا يستحق وصف التائب على سبيل الإطلاق؛ وعلى القول بأنها تصح إذا كانت من غير الجنس، أي: إذا تاب من الزنى مع الإصرار على الربا فإنها تصح؛ لأن الربا ليس من جنسه؛ إلا على القول الثالث؛ الذي يقول لا تصح إلا مع الإقلاع عن جميع الذنوب.

٨ ـ ومن فوائد الآية: عظم الكتمان؛ لأن الله ذكر لنجاتهم من هذه اللعنة ثلاثة شروط: التوبة، والإصلاح، والبيان؛ لأن كتمهم لِما أنزل الله يتضمن إفسادًا في الأرض وإضلالًا للخلق؛ فتوبتهم منه لا تكفي حتى يصلحوا ما فسد بسبب كتمانهم، مثال ذلك: قوم كتموا صفة النبي ﷺ، وقالوا: «**ليس هو بالرسول الذي سيبعث**»؛ فسيضل من الناس بناءً على قولهم عالَمٌ؛ فلا يكفي أن

---

(١) صحيح: رواه أبوداود (٢٤٧٩)، وأحمد في «مسنده» (١٦٩٥٢)، والنسائي في «الكبرى» (٨٧١١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٤٦٩).

يتوبوا، ويندموا، ويقلعوا، ويُسْلِموا، حتى يصلحوا ما أفسدوا من الآثار التي ترتبت على كتمانهم الحق؛ وإلا لم تصح التوبة.

٩ - **ومن فوائد الآية**: عظم العلم، وأنه حمل ثقيل وعبء عظيم على من حمَّله الله سبحانه وتعالى إياه، وأن الإنسان على خطر إذا لم يقم بواجبه من البيان؛ وسبق أن البيان حين يحتاج الناس إليه ويسألون، إما بلسان الحال؛ وإما بلسان المقال.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦١، ١٦٢]

❁ التفسير ❁

الآيتان قبلها في العلماء الذين كتموا الحق؛ وهذه في الكفار الذين استكبروا عن الحق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: «**الكفر**» في اللغة بمعنى الستر؛ ومنها كُفُرَّى النخل - أي: وعاء طلعه - لستره الطلع؛ والمراد بالكُفر في القرآن والسنة: جحد ما يجب لله سبحانه وتعالى من الطاعة والانقياد؛ وهو نوعان: إما تكذيب؛ وإما استكبار.

قوله تعالى: ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ معطوفة على ﴿كَفَرُواْ﴾ فلا محل لها من الإعراب؛ لأنها معطوفة على صلة الموصول التي لا محل لها من الإعراب؛ وجملة ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ حالية من الفاعل في ﴿وَمَاتُواْ﴾؛ يعني أنهم - والعياذ بالله - استمروا على كفرهم إلى الموت، فلم يزالوا على الكفر، ولم يتوبوا، ولم يرجعوا؛ وخبر ﴿إِنَّ﴾ جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ثانٍ؛ و﴿عَلَيْهِمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿لَعْنَةُ﴾؛ و﴿لَعْنَةُ﴾: مبتدأ ثالث؛ والجملة من المبتدأ الثالث وخبره خبر المبتدأ الثاني: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر ﴿إِنَّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ أي: طرده، وإبعاده عن رحمته؛ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: ولعنة الملائكة؛ والملائكة عالم غيبي خُلِقوا من نور؛ وهم محجوبون عن الإنس؛ وربما يرونهم إما على الصورة التي خُلقوا عليها، كما رأى النبي ﷺ جبريل على صورته التي خُلِق عليها له ستمائة جناح قد سد الأفق؛ وإما على صورة أخرى، كما رأى النبي ﷺ جبريل على صورة دحية الكلبي؛ وهم عباد الله عزَّ وجلَّ لا يستكبرون عن عبادته، ولا يستحسرون؛ يسبحون الليل والنهار لا يفترون؛ لا يأكلون، ولا يشربون؛ صُمْدٌ - أي لا أجواف لهم؛ والملائكة عليهم السلام لهم وظائف وأعمال

خصهم الله سبحانه وتعالى بها؛ فإسرافيل وميكائيل وجبريل موكلون بما فيه الحياة؛ ولهذا كان النبي ﷺ يستفتح صلاة الليل بقوله: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ...»[1] الحديث؛ لأن هؤلاء الثلاثة موكلون بما فيه الحياة؛ والبعث من النوم حياة؛ ولهذا ناسب أن يكون هذا الاستفتاح في أول عمل يعمله الإنسان بعد أن توفاه الله عزَّ وجلَّ بالنوم؛ وهؤلاء الثلاثة أحدهم مكلف بما فيه حياة القلوب - وهو جبريل - والثاني بما فيه حياة الأبدان - وهو إسرافيل - والثالث بما فيه حياة النبات - وهو ميكائيل -، وأفضلهم جبريل؛ ولهذا امتدحه الله عزَّ وجلَّ بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[التكوير: ١٩، ٢٠]، وبقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم:١٧]؛ فجبريل أفضل الملائكة على الإطلاق.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: عليهم لعنة الناس أجمعين؛ يلعنهم الناس - والعياذ بالله، ويمقتونهم؛ ولاسيما في يوم القيامة؛ فإن هؤلاء يكونون مبغضين عند جميع الخلق؛ فهم أعداء الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي في هذه اللعنة - والعياذ بالله؛ والمراد فيما يترتب عليها؛ فإنهم خالدون في النار التي تكون بسبب اللعنة.

قوله تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾؛ أي: لا يخففه الله سبحانه وتعالى؛ وحذف الفاعل للعلم به.

قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي لا يمهلون؛ بل يؤخذون بالعقاب؛ من حين ما يموتون وهم في العذاب؛ ويحتمل أن المراد لا ينظرون بالعين؛ فلا ينظرون نظر رحمة وعناية بهم؛ وهذا قد يؤيَّد بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[المؤمنون:١٠٨]؛ فإن هذا من احتقارهم وازدرائهم أنهم يوبخون بهذا القول.

الفوائد:

١ - من فوائد الآيتين: أن الكافر مستحق للعنة الله، والملائكة، والناس أجمعين.

٢ - ومنها: أنه تشترط لثبوت هذا أن يموت على الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾؛ فلو رجعوا عن الكفر إلى الإسلام ارتفعت عنهم هذه العقوبة.

٣ - ومنها: إثبات الملائكة.

٤ - ومنها: أن الكافر يلعنه الكافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾؛ وقد أخبر الله تعالى عن أهل النار أنه كلما دخلت أمة لعنت أختها، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ...﴾ [البقرة:١٦٦] إلخ؛ فالكافر - والعياذ بالله - ملعون حتى ممن شاركه في كفره.

٥ - ومنها: أن الذين يموتون وهم كفار مخلدون في لعنة الله، وطرده، وإبعاده عن رحمته.

---

(١) سبق تخريجه.

٦ - **ومنها:** أن العذاب لا يخفف عنهم، ولا يومًا واحدًا؛ ولهذا يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾[غافر:٤٩]؛ لم يسألوا أن يرفع العذاب؛ ولم يسألوا أن يخفف دائمًا؛ بل يخفف ولو يومًا واحدًا من أبد الآبدين؛ يتمنون هذا؛ يتوسلون بالملائكة إلى الله عزَّ وجلَّ أن يخفف عنهم يومًا واحدًا من العذاب؛ ولكن يوبخون إذا سألوا هذا: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى﴾[غافر:٥٠]؛ فما يستطيع أحد أن يتصور كيف تكون حسرتهم حينئذٍ؛ يقولون: ليتنا فعلنا؛ ليتنا صدقنا؛ ليتنا اتبعنا الرسول؛ ولهذا يقولون: ﴿بَلَى﴾؛ لا يستطيعون أن ينكروا أبدًا؛ ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾[غافر:٥٠] أي: أنتم؛ ولكن دعاء لا يقبل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[غافر:٥٠] أي في ضياع - والعياذ بالله؛ والمقصود: أنه لا يخفف عنهم العذاب.

٧ - **من فوائد الآيتين:** أنهم لا ينظرون؛ إما أنه من النظر؛ أو من الإنظار؛ فهم لا يمهلون ولا ساعة واحدة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾[الزُّمَر:٧١]؛ فمن يوم يجيئونها تفتح؛ أما أهل الجنة فإذا جاءوها لم تفتح فور مجيئهم، كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾[الزُّمَر:٧١]؛ لأنهم لا يدخلونها إلا بالشفاعة، وبعد أن يقتص من بعضهم لبعض؛ فإذا جاءوها هذبوا، ونُقُّوا، ثم شفع النبي ﷺ في دخول الجنة؛ وحينئذ تفتح أبوابها.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ﴾ الخطاب للبشر كلهم؛ أي: أيها الناس معبودكم الحق الذي تكون عبادته حقًّا؛ و﴿إِلَهٌ﴾ بمعنى مألوه؛ فهي بمعنى اسم المفعول؛ و«المألوه» معناه المعبود حبًّا وتعظيمًا - وهو إله واحد؛ و﴿إلهكم﴾ مبتدأ؛ و﴿إِلَهٌ﴾ خبر؛ و﴿وَاحِدٌ﴾ صفة لـ﴿إِلَهٌ﴾؛ وجملة ﴿إلهكم إله واحد﴾ طرفها الأول معرفة؛ والثاني نكرة موصوفة، ومؤكد بالوحدانية، يعني: أن إله الخلق إله واحد؛ ووحدانيته بالألوهية متضمنة لوحدانيته بالربوبية؛ إذ لا يُعبد إلا من يُعلم أنه رب.

ثم أكد هذه الجملة الاسمية بجملة تفيد الحصر، فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ وهذه الجملة توكيد لما قبلها في المعنى؛ فإنه لما أثبت أنه إله واحد نفى أن يكون معه إله.

وقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود حق إلا هو؛ وعلى هذا تكون ﴿لَا﴾ نافية للجنس؛

وخبرها محذوف؛ والتقدير: لا إله حق إلا هو؛ وإنما قدرنا «حق»؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾[الحج:٦٢]؛ ولهذا قال الله تعالى عن هذه الآلهة: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾[النجم:٢٣]؛ وقد زعم بعضهم أن تقدير الخبر «موجود»؛ وهذا غلط واضح؛ لأنه يختل به المعنى اختلالًا كبيرًا من وجهين:

الوجه الأول: أن هناك آلهة موجودة سوى الله؛ لكنها باطلة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾[الحج:٦٢]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود:١٠١]، وكما قال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الشعراء:٢١٣].

الوجه الثاني: أنه يقتضي أن الآلهة المعبودة من دون الله هي الله، ولا يخفى فساد هذا؛ وعليه فيتعين أن يكون التقدير: «**لا إله حق**»، كما فسرناه.

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ خبر ثالث، ورابع لقوله تعالى: ﴿إلهكم﴾؛ ويجوز أن يكونا خبرين لمبتدأ محذوف؛ والتقدير: هو الرحمن الرحيم؛ فألوهيته مبنية على الرحمة؛ وهذه الآية تشبه قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢، ٣]؛ فإن ذكر هذين الاسمين بعد الربوبية يدل على أن ربوبيته مبنية على الرحمة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ اسمان من أسماء الله؛ أحدهما يدل على سعة رحمته ـ وهو ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ والثاني يدل على إيصال الرحمة ـ وهو ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ وأسماء الله سبحانه وتعالى لها ثلاث دلالات: دلالة مطابقة؛ ودلالة تضمن؛ ودلالة التزام؛ فدلالة الاسم على الذات والصفة دلالة مطابقة؛ ودلالته على الذات وحدها أو الصفة وحدها دلالة تضمن؛ ودلالته على ما يستلزمه من الصفات الأخرى دلالة التزام؛ مثال ذلك: «**الخالق**»: فهو دال على ذات متصفة بالخلق؛ وعلى صفة الخلق؛ فدلالتها على الأمرين دلالة مطابقة؛ وعلى أحدهما دلالة تضمن؛ وهي تدل على صفة العلم والقدرة دلالة التزام؛ إذ لا خلق إلا بعلم وقدرة.

و«**الرحمة**»: تنقسم إلى عامة، وخاصة؛ فالعامة: هي التي تشمل جميع الخلق؛ والخاصة تختص بالمؤمنين.

الفوائد:

١ ـ من فوائد الآية: أن إله الخلق إله واحد ـ وهو الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

٢ ـ ومنها: إثبات اسم «**الإله**» و«**الواحد**» لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ وقد جاء في قوله تعالى: ﴿لله الواحد القهار﴾ [إبراهيم: ٤٨]: فأثبت اسم «**الواحد**» سبحانه وتعالى.

٣ ـ ومنها: اختصاص الألوهية بالله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

فإن قال قائل: إن هؤلاء المشركين قد يفتنون بهذه الآلهة، فيدعونها، ثم يأتيهم ما دعوا به؛

فما هو الجواب؟

فالجواب عن هذا: أن هذه الأصنام لم توجد ما دعوا به قطعًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، ولقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]؛ فيكون حصول ما دعوا به من باب الفتنة التي يضل بها كثير من الناس؛ والذي أوجدها هو الله عزَّ وجلَّ؛ لكن قد يُمتحَن الإنسان بتيسير أسباب المعصية ابتلاءً من الله عزَّ وجلَّ؛ فيكون هذا الشيء حصل عند دعاء هذه الأصنام لا به.

٤ - ومنها: كفر النصارى القائلين بتعدد الآلهة؛ لأن قولهم تكذيب للقرآن؛ بل وللتوراة والإنجيل؛ بل ولجميع الرسل؛ وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:

«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»(١).

٥ - ومنها: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما ﴿الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾.

٦ - ومنها: إثبات ما تضمنه هذان الاسمان من الصفة - وهو الرحمة - والحكم: أنه يرحم بهذه الرحمة.

٧ - ومنها: أنه قد يكون للاسم من أسماء الله معنًى إذا انفرد؛ ومعنًى إذا انضم إلى غيره؛ لأن ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ لو انفرد لدل على الصفة والحكم؛ وإذا جمع مع ﴿الرَّحِيمُ﴾ جُعل ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ للوصف؛ و﴿الرَّحِيمُ﴾ للفعل.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ جمع سماء، وتقدم أنها سبع؛

---

(١) سبق تخريجه.

و﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مفرد يراد به الجنس؛ فيشمل السبع؛ و﴿خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: إيجادهما من عدم؛ ويشمل ذلك بقاءهما، وكيفيتهما، وكل ما يتعلق بهما من الشيء الدال على علم الله سبحانه وتعالى، وقدرته، وحكمته، ورحمته.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يشمل ما أودع الله فيها من المنافع؛ حيث جعلها متضمنة ومشتملة على جميع ما يحتاج الخلق إليه في حياتهم وبعد مماتهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا﴾ [المرسلات: ٢٥، ٢٦] إلى آخر الآيات؛ ما ظنك لو جعل الله هذه الأرض شفافة كالزجاج، فدفن فيها الأموات ينظر الأحياء إلى الأموات ـ فلا تكون كفاتًا لهم! وما ظنك لو جعل الله هذه الأرض صلبة كالحديد أو أشد فلا يسهل علينا أن تكون كفاتًا لأمواتنا، ولا لنا أيضًا في حياتنا! ثم هذه الأرض أودع الله فيها من المصالح والمعادن شيئًا لم نستطع الوصول إليه حتى الآن.

قوله تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ يعني: في الإضاءة، والظلمة؛ في الحر، والبرد؛ في النصر، والخذلان؛ في كل شيء يتعلق بالليل، والنهار؛ هذه الليالي والأيام التي تدور على العالم كم فَنِي فيها من حي! كم فيها من حي! كم عز فيها من ذليل! كم ذل فيها من عزيز! كم حصل فيها من حوادث لا يعلمها إلا الله! هذا الاختلاف كله آيات تدل على تمام سلطان الله عزَّ وجلَّ، وعلى تفرده بالوحدانية سبحانه وتعالى.

واختلاف الليل والنهار أيضًا في الطول والقصر، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [الحج:٦١] على وجه خفي لا يشعر الناس به: يزداد شيئًا فشيئًا، وينقص شيئًا فشيئًا، ليست الشمس تطلع فجأة من مدار السرطان، وفي اليوم التالي مباشرة من مدار الجدي! ولكنها تنتقل بينهما شيئًا فشيئًا حتى يحصل الالتئام، والتوازن، وعدم الكوارث؛ فلو انتقلت فجأة من مدار السرطان إلى مدار الجدي لهلك الناس من حر شديد إلى برد شديد؛ والعكس بالعكس؛ ولكن الله ـ جل وعلا ـ بحكمته ورحمته جعلها تنتقل حتى يختلف الليل والنهار على حسب ما تقتضيه حكمته ورحمته.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾؛ ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾ هي السفينة؛ وتُطلق على المفرد، كما في هذه الآية؛ وعلى الجمع كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ [يونس:٢٢] و﴿تَجۡرِي﴾ أي: تسير؛ ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ أي في جوف البحر: فالغواصات تجري في البحر بما ينفع الناس وهي في جوفه؛ لأنه يقاتل بها الأعداء، وتحمى بها البلاد؛ وهذا مما ينفع الناس؛ ويجوز أن تكون ﴿فِي﴾ بمعنى «على» أي: على سطح البحر، كقوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾[الشورى:٣٢]؛ وهذه أيضًا من آيات الله؛ سفن محملة بالآدميين، والأمتعة، والأرزاق، تجري على سطح الماء بدون تقلب أو إزعاج غالبًا! هذا من آيات الله؛ وقد حدث في عصرنا هذا ما هو أعظم آية، وأكبر منه؛ وهو الفلك الذي يجري في الهواء؛ فإذا أشار الله سبحانه وتعالى إلى شيء من

آياته في أمر فما هو أعظم منه يكون أقوى دلالة على ذلك؛ وها هو الطير مسخرًا في جو السماء لا يمسكه إلا الله من آيات الله، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[النحل:٧٩]؛ هذه الطيور لا تحمل إلا نفسها، فجعلها الله سبحانه وتعالى آية؛ فكيف بهذه الطائرات! تكون أعظم وأعظم.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾: الباء هنا للمصاحبة ـ أي: مصحوبة بما ينفع الناس من الأرزاق، والبضائع، والأنفس، والذخائر، وغيرها؛ لأن ﴿ما﴾ اسم موصول يفيد العموم؛ فالفلك آية من آيات الله عزَّ وجلَّ الدالة على كمال قدرته، وكمال رحمته، وتسخيره، كما قال تعالى في أخرى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم:٣٢].

ومن حكمة الله عزَّ وجلَّ: أنه قدر في الأرض أقواتها ـ يعني: جعل قدْرًا هنا، وقدْرًا هنا، وقدْرًا هنا؛ لأجل أن ينتفع الناس؛ فهناك ناس لا تكثر عندهم البقول، والخضروات، وما أشبه ذلك؛ يأتيهم من أرض أخرى؛ وهناك ناس يكثر عندهم نوع من النخيل لا يوجد في مكان آخر، فينقل إلى المكان الآخر، فيتبادل الناس الأرزاق، وينتفع الناس، ويتحركون، كل فيما قدر له.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ﴾ يعني: وفيما أنزل الله سبحانه وتعالى من السماء من ماء آيات لقوم يعقلون؛ والمراد بـ﴿السَّمَاءِ﴾ هنا: العلو؛ لأن المطر ينزل من السحاب المسخر بين السماء والأرض؛ وليس من السماء نفسها.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ مَاءٍ﴾ بيان لـ﴿ما﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾؛ والمراد به: المطر الذي أنزله الله من السماء؛ وفيه آيات عظيمة؛ منها كونه ينزل من السماء؛ فإن الذي حمله إلى السماء هو الله عزَّ وجلَّ؛ كذلك كونه ينزل رذاذًا هذا من آيات الله الدالة على رحمته؛ لأنه لو كان ينزل صبًّا لأهلك العالم؛ وكونه ينزل من السماء لا يجري من الأرض هذا أيضًا من آيات الله؛ لأجل أن ينتفع به سهول الأرض وجبالها؛ ولو كان يجري من الأرض لغرق الأسفل قبل أن يصل إلى الأعلى؛ كذلك من آيات الله كونه ينزل لا حارًا، ولا باردًا؛ البَرَدُ ذكره الله تعالى في سياق يدل على أنه نوع من الانتقام، فقال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾[النور:٤٣]؛ وإن كان الله قد يجعله رحمة؛ لكن الغالب أنه انتقام.

قوله تعالى: ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾: الذي يحيى هو النبات الذي فيها ـ وليس الأرض؛ و﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد أن كانت يابسة هامدة لا نبات فيها؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾[الحج:٦٣]؛ وفي إحياء النبات آيات كثيرة: آيات دالة على الرحمة؛ وآيات دالة على الحكمة؛ وآيات دالة على القدرة.

آيات دالة على الرحمة: لما في هذا الإحياء من المنافع العظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[النازعات:٣١ - ٣٣]،

وقولـه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾[عبس: ٢٤، ٢٥] إلى قوله تعالى: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس:٣٢]؛ فكم من نعم كثيرة في هذه الزروع التي أحياها الله سبحانه وتعالى بالمطر لنا ولأنعامنا قوتًا ودواءً، وغير ذلك.

وآيات دالة على الحكمة: وهو أن حياة الأرض جاءت بسبب - وهو الماء الذي نزل؛ فمنه نأخذ أن الله - جَلَّ وَعَلا - يخلق بحكمة، ويُقدِّر بحكمةٍ؛ والله - جَلَّ وَعَلا - قادر على أن يقول للأرض: «أنبتي الزرع» فتنبت بدون ماء؛ لكن كل شيء مقرون بسبب؛ فكونه جلا وعلا ربط إحياء الأرض بنزول الماء يدل على الحكمة، وأن كل شيء له نظام خاص لا يتعداه منذ خُلق إلى أن يأذن الله تعالى بخراب العالم.

وآيات دالة على القدرة: وهي أنك ترى الأرض خاشعة هامدة سوداء شهباء ما فيها شيء؛ فإذا أنزل الله عليها المطر؛ تأتي إليها بعد نحو شهر تجدها تهتز أزهارًا، وأوراقًا، وأشجارًا، قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فُصِّلَت:٣٩]؛ وهذه قدرة عظيمة؛ والله! لو أن البشر من أولهم إلى آخرهم اجتمعوا على أن يخرجوا ورقة واحدة من حبة لما استطاعوا؛ وحبة تنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة أليس هذا دليلًا على القدرة العظيمة!!!

قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ أي: نشر وفرق؛ وهي معطوفة على قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ﴾ أي: وفيما بث في الأرض من كل دابة آيات لقوم يعقلون؛ و﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي: من كل ما يدب على الأرض من صغير، وكبير، وعاقل، وبهيم؛ وأتى بـ﴿كُلِّ﴾ لإفادة العموم الشامل لجميع الأجناس، والأنواع، والأفراد؛ ففي الأرض دواب لا يَعلَم بأنواعها، ولا أجناسها - فضلًا عن أفرادها - إلا الذي خلقها سبحانه وتعالى يعلم هذه الأجناس، وأنواعها، وأفرادها، وأحوالها، وكل ما يصلحها؛ ففيها من آيات الله الدالة على كمال قدرته، ورحمته، وعلمه، وحكمته ما يبهر العقول؛ تجد هذه الدواب المختلفة المتنوعة والحشرات الصغيرة كيف هداها الله لما خلقت له؛ قال تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠] حتى إنك لترى الماء يدخل في جحر النمل، فترى النملة تخرج من هذا الجحر حاملة أولادها! ماذا ترجو من هذه الأولاد؟! لكن رحمة أرحم الراحمين أن جعل في قلب هذه النملة رحمة، لتحمل أولادها عن الغرق؛ كذلك أيضًا السباع الضارية التي تأكل ما دون أولادها من الحيوان: تجدها تحنو على ولدها، وتربيه؛ حتى إذا استقل بنفسه صار عدوًّا لها، أو صارت عدوة له؛ فالهرة تربي أولادها؛ فإذا استغنوا عنها طردتهم، وصارت عدوة لأولادها؛ فهذا من آيات الله عزَّ وجلَّ؛ ترى بعض الدواب تدب على الأرض؛ ولكن لا تكاد تدرك جسمها صغرًا فضلًا عن أعضائها، وعما في جوفها؛ ومع ذلك فهي عايشة، وتعرف مصالحها، وتعرف جحرها تأوي إليه؛ فهذه من آيات الله عزَّ وجلَّ؛ ومن درس في علم

الأحياء وجد من هذا ما يبهر العقول؛ فما بث الله سبحانه وتعالى في الأرض من الدواب من أجناسها، وأنواعها، وأفرادها فيه من آيات الله ما لا يحصى؛ لأن في كل شيء منه آية؛ وهو لا يحصى أنواعًا أو أجناسًا فضلًا عن أفرادٍ؛ وهذه الدواب تنقسم باعتبار مصالح الخلق إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما فيه مصلحة خالصة، أو راجحة.

الثاني: ما فيه مضرة خالصة، أو راجحة؛ لكن مضرتها لها حِكَم كثيرة ليس هذا موضع ذكرها.

الثالث: ما لا مضرة فيه، ولا مصلحة؛ ولكن فيه دلالة على كمال الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ﴾ أي: تنويعها في اتجاهها، وشدتها، ومنافعها؛ و﴿ٱلرِّيَـٰحِ﴾ جمع ريح؛ وهي الهواء؛ وفي قراءة: «الريح» بالإفراد؛ والمراد به الجنس؛ والتصريف يشمل: تصريفها من حيث الاتجاه؛ تصريفها من حيث الشدة وعدمها؛ تصريفها من حيث المنافع وعدمها؛ فمن حيث الاتجاه جعلها الله سبحانه وتعالى متجهة جنوبًا، وشمالًا، وغربًا، وشرقًا؛ وهذه هي أصول الجهات؛ وهناك جهات أخرى تكون بينها؛ وتسمى النكبة؛ لأنها ليست في الاستقامة في الشرق، أو الغرب، أو الشمال، أو الجنوب؛ فهي نكباء، ناكبة عن الاتجاه الأصلي.

وفي تصريف هذه الرياح آيات: لو بقيت الريح في اتجاه واحد لأضرت بالعالم؛ لكنها تتقابل، فيكسر بعضها حدةَ بعض، ويذهب بعضها بما جاء به البعض الآخر من الأذى، والجراثيم، وغيرها؛ كذلك أيضًا في تصريفها آيات بالنسبة للسحاب فبعضها يجمع السحاب؛ وبعضها يفرقه؛ وبعضها يلقحه؛ وبعضه يدره فيمطر، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[الروم:٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ﴾ [الحجر:٢٢]؛ قال المفسرون: تلقح في السحاب؛ وفي تصريف الرياح أيضًا آيات للسفن الشراعية؛ وفيه أيضًا آيات في إهلاك الناس، وإنجاء آخرين: أهلك الله به عادًا، وطرد به الأحزاب عن رسول الله ﷺ؛ وأنجى الله رسول الله ﷺ بهذه الريح من شر الأحزاب؛ ومن تدبر هذا عرف ما فيها من قدرة الله ورحمته وعزته وحكمته؛ لو أن جميع مكائن الدنيا كلها اجتمعت وصارت على أقوى ما يكون من نَفْث هواء لا يمكن أن تحرك ساكنًا إلا فيما حولها فقط؛ لكن أن تصل من أقصى الشمال إلى الجنوب، أو بالعكس فلا؛ والله - جَلَّ وَعَلا - يقول للشيء إذا أراده: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧]؛ فتجد الرياح شديدة شمالية؛ وفي لحظة تنعكس، وتكون جنوبية شديدة؛ هذه تمام القدرة العظيمة؛ حيث يدبر الله هذه الرياح بأمر لا يستطيعه البشر؛ ولهذا صار تصريف الرياح آية من آيات الله العظيمة الدالة على قدرته؛ ثم إن في تصريفها أيضًا مصالح للسفن الجوية؛ لأن لها تأثيرًا على الطائرات، كما يقولون؛ وكذلك بالنسبة للسيارات لها تأثير.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: وفي السحاب المسخر بين السماء

والأرض آيات لقوم يعقلون؛ و﴿وَٱلسَّحَابِ﴾ هو هذا الغمام والمزن؛ وسمي سحابًا؛ لأنه ينسحب انسحابًا في الجو بإذن الله؛ و﴿ٱلْمُسَخَّرِ﴾ أي: المذلل بأمر الله لمصالح الخلق؛ ومن الآيات فيه: أنه دال على القدرة، والرحمة، والحكمة:

أما دلالته على القدرة: فلأنه لا يستطيع أحد أن يفرقه إلا الله؛ ولا يستطيع أحد أن يوجهه إلى أي: جهة إلا الله؛ ثم من يستطيع أن يجعل هذا السحاب أحيانًا متراكمًا حتى يكون مثل الجبال السود يوحش من يراه؛ وأحيانًا يكون خفيفًا؛ وأحيانًا يكون سريعًا؛ وأحيانًا يكون بطيئًا؛ وأحيانًا لا يتحرك؛ لأنه يسير بأمر الله.

وأما دلالته على الحكمة: فلأنه يأتي من فوق الرءوس حتى يكون شاملًا لما ارتفع من الأرض وما انهبط منها؛ ويأتي قطرات حتى لا ينهدم البنيان ولا تشقق الأرض.

وأما دلالته على الرحمة: فلما يحصل من آثاره من نبات الأرض المختلف الذي يعيش عليه الإنسان والبهائم.

وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ المراد بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾: السقف المرفوع؛ و﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: أرضنا هذه؛ وهذه البينية لا تقتضي الملاصقة ولا المماسة - كما هو ظاهر؛ وبهذا يعرف الرد على الذين أنكروا قول الرسول ﷺ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ بينَ أُصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ»[1]، وقالوا: «لو كان هذا حقيقة للزم أن تكون أصابع الرحمن داخل أجوافنا؛ وهذا مستحيل؛ فيكون ظاهر الخبر مستحيلًا، ويصرف إلى معنى أن الله يقلب القلوب دون أن تكون بين أصابعه؛ ولا شك أن هذا تحريف للكلم عن مواضعه؛ وقد تبين بهذه الآية الكريمة أن البينية لا تستلزم الملاصقة والمماسة؛ وعليه فلا يكون من لازم كون القلوب بين أصابع الرحمن أن تكون أصابعه داخل أجوافنا؛ ويقال أيضًا: بدر بين مكة والمدينة - هذا في المكان، وبينهما مسافة واضحة».

قوله تعالى: ﴿لَأيَـٰتٍ﴾ اللام: للتوكيد؛ و«آيات» اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر منصوب بها؛ و«آيات» جمع «آية»؛ وهي العلامة المعيِّنة لمعلومها؛ وصارت تلك آيات؛ لأنها دالة على كمال علم الله، وقدرته، ورحمته، وحكمته، وسلطانه، وغير ذلك من مقتضى ربوبيته.

قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لهم عقول؛ والمراد هنا: عقل الرشد الحامل لمن اتصف به على الانتفاع بالعقل؛ فالإنسان العاقل حقًّا إذا تأمل هذه الأشياء وجد أن فيها آيات تدل على خالقها - جَلَّ وَعَلا - وموجدها، وعلى ما تضمنته من صفات كماله؛ أما الإنسان المعرض - وإن كان ذكاؤه قويًّا - فإنه لا ينتفع بها؛ ولهذا وصف الله سبحانه وتعالى الكفار بأنهم لا يعقلون مع أنهم في العقل الإدراكي - يدركون به ما ينفعهم، وما يضرهم - عقلاء؛ لكن نفاه الله عنهم لعدم انتفاعهم به وعدم عقلهم الرشدي الذي يرشدهم إلى ما فيه مصلحتهم.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤)، وابن ماجه (١٩٩)، وأحمد في «مسنده» (٦٥٦٩).

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** عظم خلق السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿لَآيَٰتٍ﴾؛ فلولا أنه عظيم ما كان آيات.

٢ ـ **ومنها:** أن السموات متعددة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

٣ ـ **ومنها:** أن السموات مخلوقة؛ فهي إذنْ كانت معدومة من قبل؛ فليست أزلية.

ويتفرع على هذه الفائدة: الرد على الفلاسفة الذين يقولون بقدم الأفلاك ـ يعنون أنها غير مخلوقة، وأنها أزلية أبدية؛ ولهذا أنكروا انشقاق القمر في عهد النبي ﷺ، وقالوا: إن الأفلاك العلوية لا تقبل التغيير ولا العدم؛ وفسروا قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] بأن المراد: ظهور العلم والنور برسالة النبي ﷺ؛ ولا شك أن هذا تحريف باطل مخالف للأحاديث المتواترة الصحيحة في انشقاق القمر انشقاقًا حسيًّا.

٤ ـ **ومن فوائد الآية:** أنه ينبغي للإنسان أن يتأمل في هذه السموات والأرض؛ ليصل إلى الآيات التي فيها؛ فيكون من الموقنين.

٥ ـ **ومنها:** أن الآيات في خلق السموات والأرض متنوعة بحسب ما تدل عليه من القدرة، والحكمة، والرحمة، وما إلى ذلك.

٦ ـ **ومنها:** ما في اختلاف الليل والنهار من الآيات، والعِبَر التي سبق بيان شيء منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

٧ ـ **ومنها:** أن اختلاف الليل والنهار من رحمة الله وحكمته.

٨ ـ **ومنها:** ما في الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس من آيات الله ونعمه؛ وسبق تفصيل ذلك.

٩ ـ **ومنها:** ما تضمنه إنزال المطر من السماء؛ ففيه آيات عظيمة سبقت الإشارة إليها.

١٠ ـ **ومنها:** ما تضمنه قوله تعالى: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ من الآيات؛ وسبق الكلام عليها؛ وهي آيات عظيمة دالة على كمال القدرة، والرحمة، والعظمة، وعلى إحياء الله سبحانه وتعالى الموتى.

١١ ـ **ومنها:** ما تضمنه قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ من الآيات التي سبق بيان شيء منها.

١٢ ـ **ومنها:** ما في تصريف الرياح من الآيات التي سبق ذكر شيء منها.

١٣ ـ **ومنها:** ما في السحاب المسخَّر بين السماء والأرض من الآيات العظيمة؛ وسبق ذكر شيء منها.

١٤ ـ **ومنها:** مدح العقل، وأنه به يستظهر الإنسان الآيات التي تزيده إيمانًا ويقينًا؛ لقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

١٥ ـ ومنها: أن الناس ينقسمون في هذه الآيات إلى قسمين:

قسم يعقل ما فيها من الآيات، ويستدل به على ما لله سبحانه وتعالى فيها من كمال الصفات.

وقسم لا يعقلون ذلك، وقد وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤].

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]

❁ التفسير ❁

لما ذكر الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ...﴾[البقرة:١٦٣]، واستدل على ألوهيته بما في خلق السموات والأرض، وما ذكر من الآيات، بيَّن بعد ذلك أن من الناس ـ مع هذه الآيات الواضحة ـ من يتخذ من دون الله أندادًا.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾؛ ﴿مِنَ﴾ بمعنى بعض، ﴿مَن يَتَّخِذُ﴾؛ ﴿مَن﴾: اسم موصول مبتدأ مؤخر، وعند بعض النحويين أن ﴿مِنَ﴾ مبتدأ، وأن ﴿مَن﴾ خبره، لكن المشهور ما قلناه أولًا.

وقوله تعالى: ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ أي: من يجعل من دون الله آلهة أندادًا؛ و﴿أَندَادًا﴾ جمع ندٍّ؛ وهو الشبيه النظير؛ لأنه من: نادَّه ينادُّه إذا كان نظيرًا له مكافئًا له.

قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أي: يحبون تلك الأنداد؛ وجاء الضمير جمعًا للعاقل دون أن يأتي بضمير المؤنث - مع أن الأكثر من هذه الأنداد أنها لا تعقل؛ وغير العاقل يكون ضميره مؤنثًا - باعتبار عقيدة عابديها؛ لأنهم يعتقدون أنها تنفع وتضر.

وجملة: ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ صفة لأنداد، ويحتمل أن تكون استئنافية لبيان معنى اتخاذهم أندادًا.

وقوله تعالى: ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أي: كحبهم لله؛ أو كحب المؤمنين لله؛ والأول أظهر؛ ولهذا جعلوهم أندادًا؛ أي: هؤلاء جعلوا هذه الأصنام مساوية لله في المحبة فيحبونهم كحب الله؛ فهم يحبون هذه الأصنام، ويعتقدون أنها تنفع وتضر؛ ولا فرق في ذلك بين من يتخذ محبوبًا إلى الله عز وجل، أو غير محبوب إليه؛ فمن اتخذ النبي ﷺ ندًّا لله في المحبة والتعظيم كمن اتخذ صنمًا من شجر أو حجر؛ لأن النبي ﷺ وهذا الصنم كلاهما لا يستحق أن يكون ندًّا لله عز وجل؛ ولهذا لما نزلت:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[الأنبياء:٩٨]، وكان ظاهر الآية يشمل الأنبياء الذين عُبدوا من دون الله، استثناهم الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١] - ولو عُبِدوا من دون الله - ؛ وقال النبي ﷺ لرجل قال له: «ما شاء الله وشئت»: «أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا ما شاء الله وحده»[1]؛ فأنكر عليه أن يجعله ندًّا لله.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾؛ ﴿الذين﴾: مبتدأ؛ و﴿أَشَدُّ﴾: خبره؛ و﴿حُبًّا﴾: تمييز؛ لأنها بعد أفعل تفضيل؛ و﴿أَشَدُّ﴾ اسم تفضيل يقتضي مفضلًا ومفضلًا عليه؛ فالمفضل: حب الذين آمنوا لله؛ والمفضل عليه: إما حب هؤلاء لأصنامهم؛ فيكون المعنى: أن الذين آمنوا أشد حبًّا لله من هؤلاء لأصنامهم؛ وإما أن المفضل عليه حب هؤلاء لله؛ فيكون المعنى: أن الذين آمنوا أشد حبًّا لله من هؤلاء لله؛ وكلا الاحتمالين صحيح؛ أما الأول فلأن حب المؤمنين لله يكون في السراء والضراء، وحب هؤلاء لأصنامهم في السراء فقط؛ وعند الضراء يلجأون إلى الله عز وجل؛ فإذنْ ليس حبهم الأصنام كحب المؤمنين لله عز وجل؛ ثم إن بعضهم يصرح، فيقول: «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى»؛ وأما الاحتمال الثاني في الآية فوجه التفضيل ظاهر؛ لأن حب المؤمنين لله خالص لا يشوبه شيء؛ وحب هؤلاء لله مشترك: يحبون الله، ويجعلون معه الأصنام ندًّا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ فيها قراءات؛ أولًا: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ بياء الغيبة في ﴿يَرَى﴾، وبفتح الياء في ﴿يَرَوْنَ﴾؛ ثانيًا: ﴿ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب﴾ بتاء الخطاب في ﴿ترى﴾، وبفتح الياء في ﴿يَرون﴾؛ وبضمها: ﴿يُرون﴾؛ فالقراءات إذنْ ثلاث.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾؛ الظلم في الأصل هو النقص؛ ومنه قوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣] أي: لم تنقص؛ ولكنه يختلف بحسب السياق؛ فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ هنا: أي الذين نقصوا الله حقه، حيث جعلوا له أندادًا؛ وهم أيضًا ظلموا أنفسهم؛ أي: نقصوها حقها، لأن النفس أمانة عندك يجب أن ترعاها حق رعايتها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]؛ فالنفس أمانة عندك؛ فإذا عصيت ربك فإنك ظالم لنفسك.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾؛ ﴿إِذْ﴾ ظرف بمعنى «حين»؛ أي: حين يرون العذاب؛ وقال بعض المعربين: ﴿إِذْ﴾ هنا بمعنى «إذا»؛ وتأتي «إذ» بمعنى «إذا»؛ لأنها إذا تعلقت بمضارع لا

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٣٩)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٢٤)، والبيهقي في «الكبرى» (٥٦٠٣)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٩).

تكون للماضي؛ إذ إن الماضي للماضي؛ والمضارع للمستقبل؛ فهنا الآية للمستقبل؛ فتكون «إذ» بمعنى «إذا»؛ ونظيرها قوله تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ ﴾ [غافر:٧١] أي إذا الأغلال في أعناقهم؛ فكلمة ﴿إِذْ﴾ إذا كان العامل فيها فعلًا مضارعًا فهي للمستقبل بمعنى «إذا»؛ والحكمة في كونها جاءت للماضي - وهي في الحقيقة للمستقبل - بيان تحقق وقوعه؛ فصار المستقبل كأنه أمر ماضٍ؛ ونظيره في «الفعل» قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]؛ ﴿أَتَىٰٓ﴾ بمعنى المستقبل؛ لأنه قال: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾؛ ولو كان قد أتى لم يصح أن يُقال: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾؛ على قراءة ﴿يَرَوْنَ﴾ بفتح الياء الرؤية هنا بصرية؛ ولهذا لم تنصب إلا مفعولًا واحدًا؛ وكذلك على قراءة ﴿يُرون﴾ بضم الياء هي بصرية؛ لكنها تعدت إلى مفعولين بالهمزة؛ فهي رباعية؛ لأنها من: أراه يريه؛ فـ﴿يُرون﴾ أي: يُجعلون يَرون؛ وأصل «أراه»: «أرآه» لكن حذفت الهمزة تخفيفًا؛ والحاصل: أن ﴿يُرون﴾ هي رؤية بصرية؛ أي: يريهم الله عز وجل العذاب؛ و﴿ٱلْعَذَابَ﴾ معناه: العقوبة - والعياذ بالله - التي تحصل لهم على أفعالهم

قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾؛ اللام هنا للاختصاص؛ يعني: أن المختص بالقوة الكاملة من جميع الوجوه هو الله؛ و﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ حال من ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ﴾؛ أي: حال كونها جميعًا؛ فلا يشذ منها شيء؛ فكل القوة لله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ معطوفة على قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾؛ و﴿شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: قوي العقوبة.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد الآية:** أن بعض الناس يجعل لله ندًّا في المحبة يحبه كحب الله؛ لقوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ **ومنها:** أن محبة الله من العبادة؛ لأن الله جعل من سوَّى غيره فيها مشركًا متخذًا لله ندًّا؛ فالمحبة من العبادة؛ بل هي أساس العبادة؛ لأن أساس العبادة مبني على الحب والتعظيم؛ فبالحب يفعل المأمور؛ وبالتعظيم يجتنب المحظور؛ هذا إذا اجتمعا؛ وإن انفرد أحدهما استلزم الآخر.

٣ ـ **ومنها:** أن من جعل لله ندًّا في المحبة فهو ظالم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾.

٤ ـ **ومنها:** إثبات الجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾.

٥ ـ **ومنها:** إثبات القوة لله؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

فإن قيل: كيف يتفق قوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ مع أن للمخلوق قوة؟

فالجواب: أن قوة المخلوق ليست بشيء عند قوة الخالق؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٣٩]، مع أن الله أثبتَ للمخلوق عزة؛ وهكذا نقول في بقية الصفات التي يشترك فيها الخالق والمخلوق في أصل الصفة.

٦ - **ومنها:** أن المؤمن محب لله عز وجل أكثر من محبة هؤلاء لأصنامهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا﴾.

٧ - **ومنها:** أنه كلما ازداد إيمان العبد ازدادت محبته لله؛ وجه ذلك: أن الله سبحانه وتعالى رَتَّبَ شدة المحبة على الإيمان؛ وقد عُلم أن الحكم إذا عُلِّق على وصف فإنه يقوى بقوة ذلك الوصف، وينقص بنقصه؛ فكُلَّما ازداد الإنسان إيمانًا بالله عز وجل ازداد حبًّا له.

٨ - **ومنها:** شدة عذاب الله عز وجل لهؤلاء الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾.

فإن قيل: كيف يكون الله عز وجل شديد العذاب مع أنه أرحم من الوالدة بولدها؟

فالجواب: أن هذا من كمال عزه، وسلطانه، وعدله، وحكمته؛ لأنه أنذر مستحق العذاب، وأعذر منهم بإرسال الرسل؛ فلم يبق لهم حجة توجب تخفيف العذاب عنهم؛ فلو رحم هؤلاء الكافرين به لكان لا فرق بينهم والمؤمنين به.

وشدة عذاب الله لهؤلاء مذكور في القرآن والسنة: قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ﴾ [الكهف: ٢٩] أي: أهل النار ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَ﴾[الكهف:٢٩]؛ فما بالك لو وصلت إلى الأمعاء؟!!؛ ولهذا قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [محمد:١٥]؛ ومع ذلك تتقطع وتلتئم بسرعة كما قال تعالى في جلودهم: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾ [النساء:٥٦]؛ و﴿كُلَّمَا﴾ تفيد التكرار؛ وجوابها يفيد الفورية؛ والحكمة: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦]؛ وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٨]؛ ويقال له أيضًا تبكيتًا وتوبيخًا وتنديمًا وتلويمًا؛ ﴿ذُقۡ﴾ ويذكّر أيضًا بحاله في الدنيا فيقال له: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩]؛ فحينئذ يتقطع ألمًا وحسرة؛ ولا شك أن المؤمنين يسرون بعذاب أعداء الله؛ فعذابهم رحمة للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٤، ٣٥].

❁ ❁ ❁

تم - بحمد الله - المجلد الأول

ويليه - إن شاء الله - المجلد الثاني

وبدايته تفسير قوله تعالى:

﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾

الفهرس